خالد محمد خالد



دار المقطم للنشر والتوزيع
القاهرة

صدر هذا الكتاب فى مجلد واحد لأول مرة

فى القاهرة

سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

الطبعة الأولى ملونة

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين

القاهرة

ت: ٧٩٥٨٢١٥ - فاكس: ٧٩٤٦١٠٩

e-mail: elmokatam@hotmail. com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ
وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

صدق الله العظيم

ما عَرَضتُ الإسْلام عَلَى أحَد ، إلا كَانَت لَه كَبْوَة
عَدَا أبي بَكْر ؛ فإنَه لَمْ يَتلَعْثَم .. !!

* * *

إنَّ اللَّهَ جَعَل الحقَّ على لِسَان عُمَر وَقلبِه
لَمْ أرَ عَبْقَرِيًّا يَفْري فَرِيَّه .. !!

* * *

اللهُمَّ ارْضَ عَنْ عُثْمَان ، فإني عَنْه راض

* * *

مَنْ كُنْتُ مَولاه ؛ فَعَليٌّ مَولاه ...

« رسُول الله »

عَلَيهِ أفضَل الصَلاة وَأزكى السَلام

* * *

.. ثمُ بُويعَ عُمَر بن عَبْد العَزيز
فقعَدَ للنَاسِ عَلَى الأرض .. !!

« المؤرِّخون »

تقديم

هذا المجلد يُنظم خمسة كتب من مؤلفاتي هي :

١- "وجاء أبو بكر" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٢

٢- "بين يدَيْ عمر" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦١

٣- "وداعاً .. عثمان" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٧

٤- "في رحاب علي" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٦

٥- معجزة الإسلام،،
"عمر بن عبد العزيز" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٩

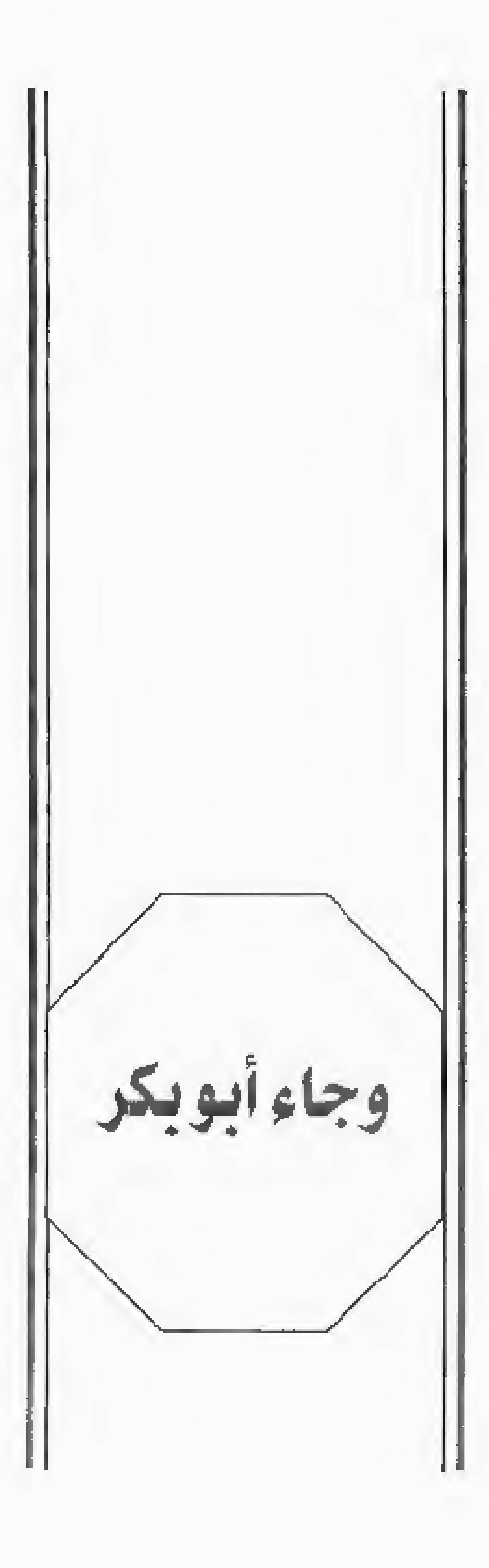
وفى هذه الطبعة الخاصة تقدم الأسفار الخمسة في مجلد متكامل واحد ، باعتبارها تمثل موضوعاً تاريخياً واحداً يتناول بالسيرة والتحليل خلفاء الرسول الأربعة ـ أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلياً .. ثم ذلك الرجل الباهر "عمر بن عبد العزيز" الذي حمل بحقٍ وبجدارة لقب "خامس الخلفاء و"خامس الراشدين .

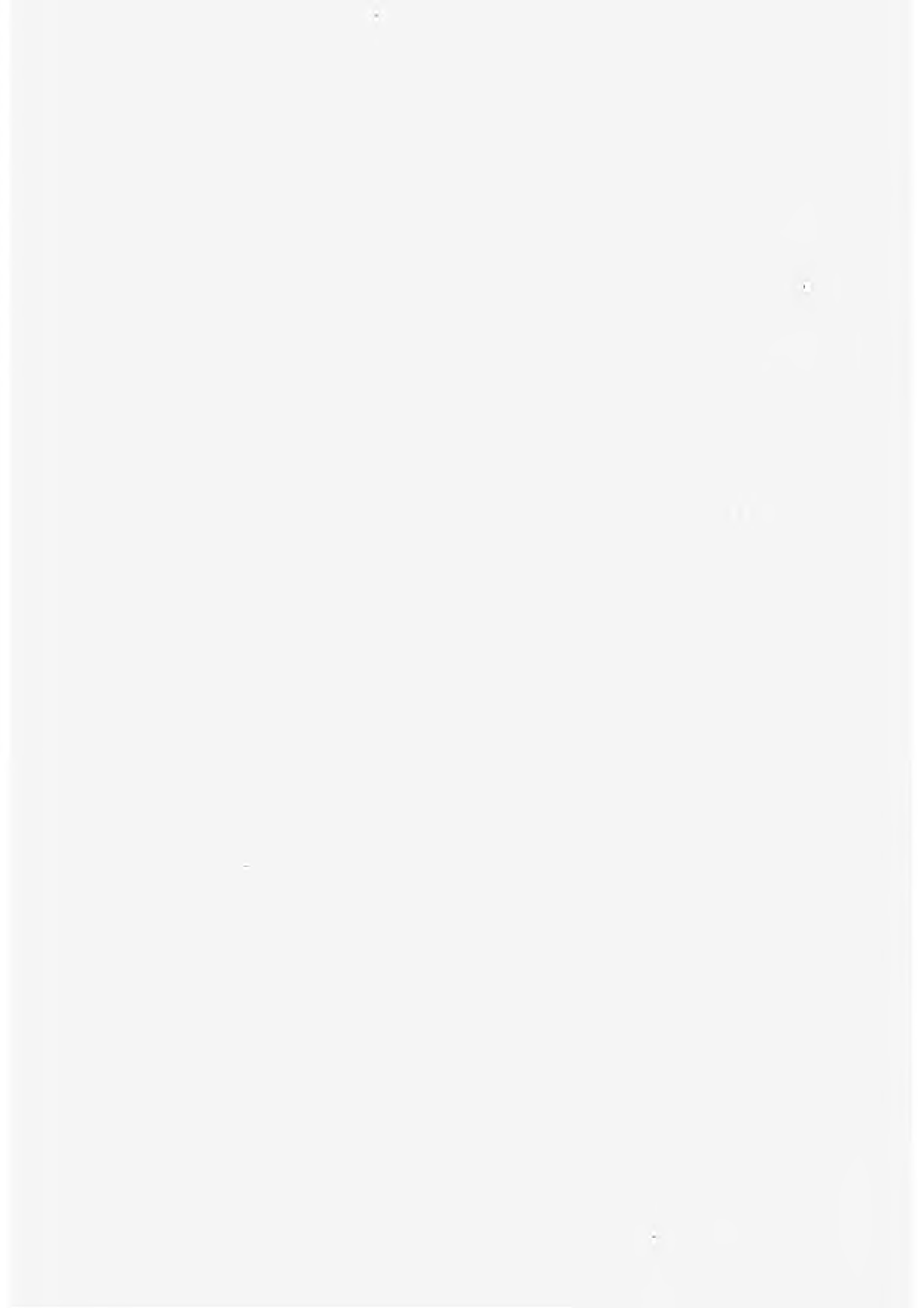
وحينما كنت أقوم بتصنيف هذه الكتب وتقديمها للقراء ، لم أكن أفعل ذلك وَفْقَ الترتيب التاريخي لظهور أبطالنا العظماء .. فمثلاً ـ كان كتاب "بين يَدَيْ عمر" أسبق في الظهور من كتاب : "وداعاً : عثمان" .

والآن ، وهذه المؤلفات تأخذ مكانها في هذا المجلد الواحد ، فقد صار من الأمثل وضعها وَفْقَ الترتيب التاريخي : أبو بكر ، فعمر ، فعثمان ، فعليّ ، فعمر بن عبد العزيز .. رضي الله عنهم وأرضاهم ..

وتقبل بفضل منه هذه الصفحات في بيوتهم وذكراهم ..

خالد محمد خالد


وجاء أبو بكر



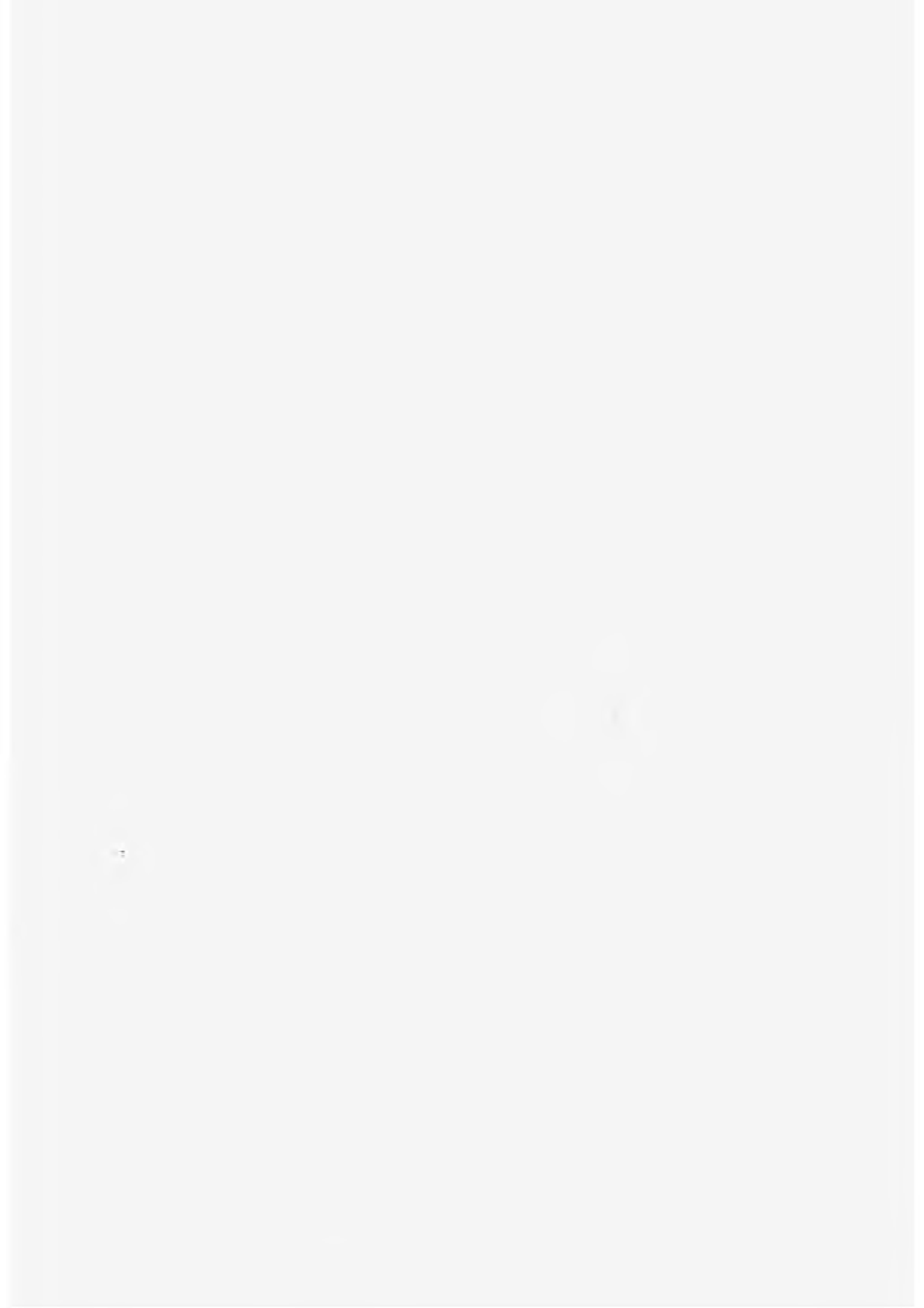
الإهداء

يا أبا بكر ..

يا خليفة رسول الله ..

إذا أَذِنْتَ لي في هذه الكلمات ، أكتبها عنك ،

فتقبَّل - يا ثانِيَ اثْنَيْنِ - إهْداءها ..



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

* ما الدور الذي اختار الله أبا بكر لأدائه ؟

* أبو بكر وعمر، أيّ طراز من الحكام كانا ؟

كان مفروضاً أن يكون عنوان هذا الكتاب، وموضوعه أيضاً، "بين يديْ أبي بكر" بعد أن فتح الله بكلمات سلفه، ظهرت في كتاب "بين يديْ عمر".

بيد أني لم أكد أتهيأ للكتابة، وأمضي فيها بضع صفحات حتى تغيرت المشاهد التي كنت أعيش في بهرها وسناها، وملأ الأفق أمامي مشهداً واحداً فريداً ومجيداً، فطويتُ الأوراق جانباً، ورُحت أتملى المشهد وأتأمله.

لقد بدأ المشهد هكذا:

الله الرحمنُ الرحيم، يريد أن يبعث للناس على فترة من الرسل رسولاً يرد الدين إلى جوهره، وحقيقته، ويُخرج الحياة والإنسانية من الظلمات إلى النور، ومن الغيّ إلى الرشد.

ولقد اختار الله رسوله، وهو محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، ونزل الوحي وبدأتْ رحلة القرآن مَسيرتَها المباركة.

هذا هو الموكب يحتشد لديّ وكِلتُ إليه مهمة تعبير أسفاره، وتحديد عناصره!! محمد.. والوحي.. والقرآن..

ولكن، بدا لي كأنما الموكب واقف يترقب.

إنه ينتظر رجلاً له في الموكب مكان شاغر، لن يتحرك الموكب حتى يجيء

وهذا الرجل ليس نبياً.. ومع هذا فهو الذي سيُتمّ دور النبي.

وفجأة..

غرّدت العصافير..

وأهلّت البُشرى..

وأقبل الرجل..

وجاء أبو بكر!!

جاء الإنسان الذي سيظل يسمى دائماً، وفي غير تلعثُم أو تردُّد

الصدّيق.. الصدّيق

جاء الرجل الذي سيّر مع النبي في هجرته، وهو يعلم علم اليقين أن قريشاً ستجنّد لمطاردةِ النبي المُهاجر كل بأسها، وحقدها، وكيدها..

جاء الرجل الذي سيردُّ المسلمين - جميع المسلمين - إلى صوابهم يوم ينعى الناعي إليهم رسولهم .

جاء الرجل الذي سيشكّل موقفه يوم السقيفة "عُمْراً" جديداً يكتب للإسلام ، ولوحدة المسلمين .

جاء الرجل الذي بولاء أُمّ ابنته لرؤاه للإسلام محنه فبأنه واجهه

وبعبارة واحدة

جاء الرجل الذي كان لابد أن يجيء ليكون مع الرسول ﷺ ، الأداة التي اصطفاها الله ليُغيِّرَ بها العالَم ، ويُطهِّرَ الدنيا ، ويُقوِّمَ الحياة

هذا هو الدورُ الحقيقي لأبي بكر كما تَراءى لي .

وهذه الصفحات ، محاولة متواضعة لتصوير هذا الدور الفريد ، والمجيد ، .. "أستاذ" البشرية في "فن" الإيمان سنراه من خلال حياته وثباته كل عجب وعظيم في فن الإيمان ..

* * *

وبعد ..

فأيُّ طراز من الحكام كان أبو بكر ، وكان عمر ..؟

إني أريد في هذه المقدمة أن أجيب عن سؤال واجهني في إلحاح إثر صدور كتابي "بين يدَيْ عمر"

فقد أرسل إليَّ بعض القراء الكرام يسألونني قائلين

- كيف نوفّق بين إيمانك الأكيد بالديمقراطية ، وإيمانك الأكيد بحكم مثل عمر بن الخطاب ، الذي لا تستطيع ، برغم عدالته المطلقة ، أن تسمي نوعه كان صاحب حكم ديمقراطي .. ؟

وإذا أثير هذا السؤال عن عمر ، فلابد من أنه سيثار عن أبي بكر .. فالحقيقتان في حكمهما كانا من طراز واحد .

والإجابة عن هذا السؤال ، وتبديد تلك الشبهة ، من السهولة بحيث لا يحتاجان إلى قصة أو إسهاب .

وعندي أن الذين يرون في أبي بكر وعمر "مُسْتَبِدَّيْن عادلين" إنما يخطئون الصواب .

أولاً : لأن أبا بكر وعمر لم يكونا مستبدين لحظة من نهار

ثانياً : لأنه ليس في طول الدنيا ولا عرْضها شيء اسمه "مستبد عادل"

فلو التمسْتَ كل ضوابط الحياة ومواصفاتها فستظل الاستبداد والعدل ضدَّيْن لا يجتمعان ، ونقيضَيْن لا يلتقيان .. وأن أحدهما ليقضي فورَ ظهور الآخر ، لأن أبسط مظاهر

العدل ومظاهره أن يأخذ كلُّ ذي حقٍ حقَّه، وأن يكون من حقِّ الناس ـ وهذا مفروض بداهة ـ أن يشتركوا في اختيار حكامهم وتقرير مصائرهم، دون أن تمتد يد قوة في سحقه نفسه، ولتسبب نفسه ـ احتقار الاستبداد.

ولقد كان أبو بكر وعمر على بصيرة من هذا، وعلى الرغم من أنهما والأمة معهما كانوا جميعاً خاضعين خضوعاً مطلقاً لما أنزل الله من شريعة، على الرغم من هذا، فقد هيأا للمسلمين كل فرص المناقشة والاختيار، حتى رأينا "مواطناً عادياً" يأخذ بتلابيب "عمر" وهو في أوج سلطانه، ويقول له: اتق الله يا عمر..!!

وحتى رأينا الخليفة نفسه يجمع المسلمين ويقوم بينهم خطيباً فيقول:

"أيها الناس، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسي هكذا..؟

فيجيبه واحد منهم: إذن نقول بالسيف هكذا

فيسأله أمير المؤمنين: إياي تعني بقولك..؟

فيجيبه الرجل في إصرار: إياك أعني بقولي

فيجيبه عمر: يرحمك الله، والحمد لله الذي جعل فيكم مَن يقوِّم عوجي"

أهذا حاكم يُوصَف بأنه "مستبد عادل"!؟

ومن الجانب هذه الشبهة وهذا الشُّذوذ لمرء الذين يتساءلون: كيف نوفق بين إيماننا بالديمقراطية وإيماننا بعمر..؟

لست أنكر أن لهذه الشبهة منطقها.. ولكنَّهُ مَنطق شكَّلَ نفسه في غياب كثير من أجزاء الحقيقة وأبعادها.

فلقد يبدو لنا أن "أبا بكر وعمر" لم يكونا حاكمين ديمقراطيين، لأنه لم يكن إلى جوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة ـ البرلمان والدستور، والمعارضة المنظمة، والصحافة الحرة.

ووَضْع المسألة على هذا النحو، يُشكل خطأً كبيراً.

وإننا نستطيع الفهم في أبدينا إذا نحن أجبْنا عن هذا السؤال

ـ هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية عن مجتمع المسلمين يومئذٍ راجعاً إلى كُفران الخليفتين العظيمين بهذه المؤسسات..؟

والجواب الذي تمليه طبيعة حكمهما وسلوكهما في الحكم هو: لا

وإن غياب هذه المؤسسات لا يعني أكثر من أنه تعبير عن العصر وعن سنّه، وعن الحضارة في جزيرة العرب منذ ألف وأربعمائة عام

ولست أرى فرقاً بين من يسأل مثلاً:

ـ لماذا لم يكن في عهد أبي بكر وعمر صحافة حرة..؟

وَمَن يَسأل :

ـ لقد لم يكن لأبي بكر وعمر سفارة في لندن . ؟!

إن المرحلة التاريخية التي كانت يومئذٍ، هي التي تجيب بداهة عن هذين السؤالين على أن أبا بكر وعمر، حين لم تسعفهما طبيعة الزمن والمكان في إمدادهما بهذه الأشكال المنظمة بكل تفاصيلها، إنما حققا على أوسع مدًى الجوهر الحي للديمقراطية من خلال الأشكال والمضامين التي تلائم تطورهم في ذلك العهد البعيد

فإذا كان تطوّر مجتمعهم يوم ذاك، لم يهيّئ قيام معارضة لها كيان منظم مهيب، فإن المعارضة نفسها كانت تمارس بأسلوب فعّال، وعظيم

وإذا كان التطور يوم ذاك، لم يهيئ لهم قيام "برلمان" يراقب الحكومة ويضع القوانين فإن الشورى يومئذٍ كانت شعيرة من شعائر الله، وكانت حقًّا مقدسًا للجماعة كلها ..

وإذا كان التطور يوم ذاك، لم يهيّئ لهم قيام صحافة حرّة، فإن الكلمة المخلصة الشجاعة كانت على كل لسانٍ، يصغي الخليفة إليها، ويُثيبُ عليها .

ولو أن "أبا بكر وعمر" يحكمان في عصرنا هذا، لأعطيا التجربة الإنسانية في التنظيم الديمقراطي أرشد كل أخبر مهما، ولانتفعا بها إلى أبعد مدًى، ولأخذا من أشكالها الحديثة كل ما يُحقق جوهرها ويُعبّر عن خصائصها

ولست أريد أن أتجنّى على الحق، فأقول إن ذلك كان سيتمّ بصورة مطلقة

لا .. وإنما كان سيتمّ داخل إيمانهما المطلق بالدين الذي آمنا به، ووفق الطريقة التي تَشكّلَ بها هذا الإيمان .

ولكن، حتى مع وجود هذا التحفظ، فإن ذلك لا ينقص شيئًا من حقيقة أنهما حاكمان ديمقراطيان .

ذلك أن أي حاكم ديمقراطي، إنما يعمل داخل حدود الدستور القائم في دولته. وأبو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم في مجتمعهما

لقد كان للقرآن في مجتمعهم، مِثْلُ ما للدستور في أيِّ أمة ودولة، بل إن ولاءهم للقرآن كان يفوق ولاء أيِّ أمة لدستورها . !!

ولقد تضمّنَ القرآن الكريم مرتكزين من أعظم مزايا الديمقراطية

أولاهما: أنه جعل الشورى واجبًا حتى على النبي الذي يُوحَى إليه، فقال ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وقرنها بالصلاة حين نعت المؤمنين بأنهم الذين ﴿أقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم﴾

ثانيهما: أنه لم يُلزم بطاعة حكامه وتنفيذ مبادئه إلا من يفده، ويحاربه، ويؤمن به ـ أي بلغة عصرنا الحديث من يفرغ عنه بمفهومه ـ أما الأحزاب الذين لم يؤمنوا به، فلهم أن يعيشوا وَفق عقائدهم، وتقاليدهم، والأسلوب الذي يختارونه لحياتهم !

صحيح به دستور لم يضعه الشعب، ولكنه دستور رضيه الشعب وآمن به، واستشهد في سبيله.

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول ﷺ وساروا معه، آمنوا بأن القرآن وحيٌ من عند الله، وعليهم طاعته..

ولقد حمل أبو بكر بعد الرسول ﷺ مسئولية القيادة في المجتمع وفق هذا الإيمان

ثم حمل عمر المسئولية بعد أبي بكر وَفْقَ هذا الإيمان أيضاً

وهكذا، فإن المعيار الصحيح الذي يُوزن به حكمهم، هو مدى احترامهم لهذا "الكتاب" الذي آمن به الناس وارتضوه قانوناً يحكمهم

* * *

وفي عصورنا الحديثة هذه، لا تستقيم الحياة إلا بأن يكون للأمم دساتير تحكم حياتها

دساتير تصوغها الأمة من عقائدها، وتقاليدها، واحتياجاتها، وتُساير بها موكب التقدم الإنساني المتجدد دوماً والذي لا يقف ولا يتقهقر.

وتستطيع الأمة - أيُّ أمة - أن تضمّن دستورها كل ما أراده الله للناس من خير وصلاح، وكل ما دعا إليه الدين من تقوى وحقّ.

وفي رأيي، لو أن "أبا بكر وعمر" يحكمان الناس اليوم وفق دستور رشيد وضعه الناس بأنفسهم لأنفسهم، ما نقص ولاؤهم لهذا الدستور مثقال ذرة، عن ولائهم للقرآن الكريم الذي كانا يحكمان وفق هداه.

ذلك، أنهما من الطراز البشري الرفيع الذي يشعّ في جوهره إلى جانب الإيمان بالله، الإيمان بالإنسان.

خالد محمد خالد

لِيَبْلُغَنَّ الكِتَابُ أَجَلَه ..

مكة ..

المسجد الحرام الذي تتوسطه الكعبة، موطن القداسة منذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل.. تمضي الحياة فيها لافحة من مناخها، راسخة مثل جبالها، شامخة مثل سمائها.

وأهلها عاكفون على عقائد وتقاليد تسمو أحياناً حتى تبلغ أوجاً بعيداً، وتسفّ أحياناً حتى تبعث على السخرية والرثاء..!!

وحول الكعبة أصنام مبثوثة، نصبت في غفلة الزمن على هذا الحرم الأقدس الذي ظل قروناً وبيئة أحقاباً يمثل راية الله المرفوعة في الأرض، منادياً أهل الحنيفية والتوحيد..

هي كذلك، ظلت دهراً طويلاً حتى خلبت ألبابها الأصنام ذات يوم، وازدحمت حولها مع الأيام، حيث صارت مهوى أفئدة قريش وما حولها، بعدما كان الناس يعبدونها، ويتملقونها، لتقربهم إلى الله زلفى..!!

فهنا اللات، والعُزّى، ومناة

وهناك، أساف، ونائلة، وهُبَل..

وعشرات سواهن من الأوثان والأصنام..

وإن مواكب العابدين لتمضي بين نهار إلى تلك الآلهة المنحوتة، والمنحوتة الآلهة التي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغني عن أحد شيئاً..!!

لكل قبيلة إلهها وصنمها..

وكل طفل يولد، لا يلبث حين يدرك الحلم، حتى يقاد إلى ربه ليعرفه، وليسمي ربه فيما بعد ويتبعه أهله وذووه..!!

وتاهت العقول في رحلة الخرافة..!

وكان أمراً عجباً..!!

* فذوو الأحلام الرشيدة الذين أنشأوا "حلف الفضول" حيث يقفون صفاً واحداً مع المظلوم ضد الظالم..!!

* والذين سنوا للسلام منهجاً فذاً، وابتكروا له سنة باهرة، فأنشأوا نظام "الأشهر الحرم"، تعود السيوف خلالها في أغمادها، ويسلم الأعداء وتسكن العداوات عنفها، ويلقى الرجل فيها قاتل أبيه وأخيه وقد أمكنته الظروف منه، فلا يمسه بحدة سيفه، ولا يمسه بسوء..!

* والذين وضعوا للسؤدد الاجتماعي نظاماً رفيعاً، فلا يسمح لأحد أن يسود في قومه إلا إذا تفوق في هذه الخصال الست:

السخاء.. النجدة.. الشجاعة.. الحلم.. التواضع.. البيان..

وكانوا يقولون "موت ألف من أبطالنا، خير من ارتقاء واحد من لصقه" !!

* والذين كان لهم سوق عكاظ، يقيمون وجوههم شطره من كل مكان ليستمتعوا فيه بأشهى ثمار النبوغ الإنساني ممثلاً في شعر شعرائهم، وبيان خطبائهم

- هؤلاء المتفوقون عقليا، كان يبلغ بهم على تقديسهم هذه الغفلة العجيبة، فيخرون ساجدين أمام أصنام نحتوها من حجارة أو عجنوها من صلصال. !!

مفارقة محيرة.. ولكنهم ليسوا في هذا وحدهم..

"أثينا" وفي أزهى عصورها: عصر الفلسفة والفلاسفة، وعصر سقراط وبركليس، كان أهل أثينا يعبدون آلهة "الأولمب" أصناما كأصنام مكة، بل إن أهل مكة كانوا ينظرون إلى أصنامهم نظرة إكبار وتنزيه.

أما أهل أثينا فكانوا يعبدون آلهة خلعوا على بعضها أسوأ الصفات !!

* * *

ومع عبادة الأصنام التي سادت مكة، كان هناك صنوف أخرى من العبادة تزخر بها أنحاء الجزيرة العربية.

فكان هناك من يعبدون الشمس، مما جعل الرسول عليه السلام حين بعث وفرضت عليه الصلاة، ينهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب، حتى لا تكون ثمة محاكاة - ولو غير مقصودة - للذين يعبدونها، ويخرون لها ساجدين لحظة الشروق ولحظة الغروب.

وكان ثمة من يعبدون الملائكة.. هؤلاء الذين يفضحهم القرآن فيما بعد فيقول:
﴿ويوم يحشرهم جميعًا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾

وكان هناك من يعبدون الجن.. هؤلاء الذين سيفضحهم القرآن بقوله: ﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾

وكان منهم عبدة الكواكب.. الذين سيؤنبهم القرآن بقوله: ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾

وكان هناك الدهريون الذين روى القرآن فيما بعد قولهم:

﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾

ملائكة.. وجن.. وكواكب.. وأصنام..؟؟

أين ملة إبراهيم وسط هذا الزحام ؟؟

إنه منذ القرون الأولى، هاجر إلى هذا البلد الذي أصبح الآن سكن هُبَل، غادر قومه بكلدان، وترك وطنه وأهله في بابل، وجاء مكة حاملا كلمة الله.

وهنا في مكة حط رحاله، ورفع رايته، وهتف بالتوحيد وقال قولته الحقة

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾

وتركها باقية في عقبه، مدوية في أفق الجزيرة الواسعة.. فماذا دهى الناس.. ؟

وهل ضاعت الحقيقة المؤمنة الموحِّدة، وسط وثنية الطاغية، والشِّرك الزاحف؟!

وهل خلا هذا البلد الأمين ممن يُجدد للناس دينهم الأوّل.. ممن يرفع صوته مذكِّراً بالحنيفية الدارسة..؟؟

كلّا..

ولقد كان هناك عبر السنين والأجيال هداة يبرزون بين الحين والحين، يلوِّحون براية إبراهيم عليه السلام، ويرفعون أصواتهم داعين إلى نبذ الشرك والزيغ.

كانوا كثيرين.. منهم مَنْ نعرف، ومنهم مَنْ لا نعرف.

منهم مَنْ سبق الرسول ﷺ بمئات السنين، ومنهم من كان إرهاصاً بين يديْ فجره الصادع القريب.

من الأوَّلين: سويد بن عامر المصطلقي.. جهر بعقيدة البعث ويوم الجزاء.

وعامر بن الظرب العدواني الذي كان يقول لقومه:

"إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً

ولو كان الذي يميت الناسَ الداء، لكان الذي يحييهم الدواء"؟!!

وكان هناك المتلمِّس بن أمية الكناني.. كان يتوسط قومه عند الكعبة ويصدع فيهم بقوله:

"أطيعوني ترشُدوا.. إنكم تتخذون آلهة شتّى، وإن الله ربكم وربُّ ما تعبدون"

وكان هناك زهير بن أبي سلمى.. يُمسك أوراق الشجيرات التي اخضرّت خضراء بعد أن كانت يابسة هامدة ويقول:

"ولولا أن تسبَّني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد جفاف، سيُحيي العظام وهي رميم"..

وهو القائل:

فلا تكتمنَّ الله ما في نفوسكم ... ليخفى، ومهما يُكْتم الله يعلم

* * *

كان ثمَّة هؤلاء، ومِثْلهم معهم..

ولكن لم يكن منهم سوى هداة الناس إلى الحق، وهداة الاستشراف الحدْسيّ لغايات لم يَبلغوها..

لم يُؤتَ أحدهم المنهج الكامل الذي يمكن أن يدعو الناس إليه.

وكانوا يبرزون، الواحد تلو الآخر عَبْر السنين الطوال.

أما الآخرون الذين ظهروا قُبيل بعثة الرسول ﷺ، فعلى الرغم من أنهم كانوا مثل سابقيهم بغير منهج واضح مفصَّل، فإن رُؤيتهم عن الحقيقة الروحية التي شَغلتهم كانت أكثر ثباتاً وإصراراً..

من هؤلاء: أبو قيس بن أنس.. هجر قريشاً وأصنامها، واتخذ له في بيته مسجداً لا يدخله طامثٌ ولا جُنب، وقال: أعبدُ ربَّ إبراهيم

وقد عاش حتى بُعث النبي فأسلم معه .

وكان هناك ثلاثة تركزت فيهم كل قوى الإرهاص بالدين المقبل ، هم

قسّ بن ساعدة الإيادي

وزيد بن عمرو بن نُفَيل

وورقة بن نوفل ..

انعقدت أواصر قلوبهم على دين إبراهيم !!

وتنبثق من أفئدتهم الضارعة كلمات التوحيد كأنسام الربيع وسط الهجير الوثني المستعر .. !

كانوا يمهدون للنبي القادم

كانوا يبشرون بالفجر الطالع ..

كانوا يؤذنون بالدين الذي سيعيد به الله إلى مكانها ، وتسوّي بالأصنام التراب .. !!

وإلى هؤلاء جلس أبو بكر طويلاً .

وبكلماتهم الرطبة المؤمنة أنمى سمعه ..

وبعبائرهم العذاب ثمن

وعلى حدائهم سار ..

وفي ضوء حكمتهم الوثقى ، وهداهم الممكن ، أبصرت روحه الطاهرة موكب النبوة القادم ، فجلس ينتظر ، ويعدّ نفسه لأن ينال الهدى والنعمى !

ولتبدأ سيرته في صحبة الرجل العظيم من ذلك الحين

* * *

هذا الرجل الذي يعيش بين قومه مكانة مرموقة أهلته لها كفاءته وحسبه ، يحمل في ذات نفسه شك مقيت ، شك يزيني في قلبه يوماً فيوماً المعروف عن وثنية قومه وضلالهم

إنه ينظر للناس منحنين حول أصنامهم ، وحين يرى ذلك فتتكسر وجهه سحابة أسف مرير ، ويسأل نفسه .

أيمكن أن يكون هذا صواباً وهدى .. ؟؟

أناس يفكرون ، ويسمعون ، ويعقلون ، ويخرّون سجداً أمام حجارة مرصوصة لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تبين .. ؟ !!

ثم يردد قول زيد بن عمرو بن نفيل

أربًّا واحدًا أم ألف ربٍّ [illegible]

ويقول لنفسه ، ويردد النص بالعمق ، ويبرّح شوق الانتظار بالرجل المتعبد الأوّاب ، الذي ينزع إلى معرفة الحق نزوع حشاشة الظمآن مضطرماً بالرغبة في التغيير ، والشوق إلى كلمة الله التي سيفصل مجيئها فيما اختلف الناس فيه

وتحمله حنينه، وتقوده أشواقه إلى الذين عندهم علمٌ من الكتاب.. الذين يعيشون في ذكريات العقيدة الراسخة التي صدح بها ذات يوم بعيد خليل الله إبراهيم.. الذين شغلهم المصير الإنساني، فرفعوا أصواتهم بعقيدة البعث والجزاء.. والذين طهروا قلوبهم بتطهير من كل ولاء للصنم وآمنوا برب إبراهيم.

هؤلاء الذين يقلّبون وجوههم في السماء، وتخرج الكلمات من أفواههم كالأحلام السعيدة.. أيُّ حديث يبهر "أبا بكر" ويستهويه أكثر من حديث هؤلاء ؟!

إنه كان يهم حين يلقمهم سمعه، يرنّ في روعه رنين الصدق..

وإنه ليتتبّعهم كما يتتبع الطير الظامئ مواقع قطر الندى..

وهكذا كان يستروح دوماً كلما أسعفه وقته بالخلوص إلى هذا النفر الصالح..

قس بن ساعدة.. زيد بن عمرو.. ورقة بن نوفل.. ثم لم تكن قريش قد شطّت في عداوة هؤلاء واضطهادهم.

لأنهم ـ أولاً ـ كانوا عاكفين على أنفسهم.. لا يحملون دعوة منظمة ولا ديناً جديداً يُهدد دين قريش وتقاليده..

ولأنهم ـ ثانياً ـ كانوا في مرتفعات أعمارهم، فقد أوشكت حياة كل منهم على الغروب..

لكنّ إعجاب رجل كأبي بكر ـ مجرّد الإعجاب ـ بهؤلاء وبأفكارهم، يعرّضه لاستنكار قريش لا محالة.

فهو في ربيع العمر المرتجَى..

وهو سيّدٌ في قومه الذين أولوه عملاً من أهم أعمالهم وأجلّها.. فهو يومئذ "حامل الديات"..

ويفكر أبو بكر في هذا..

يفكر فيما يمكن أن يلحق به من ضرٍّ، إذا هو خرج عن الصفوف المزدحمة، وعلم الناس منه حفاوته بأفكار قس، وورقة، وزيد.

إن قساً، وورقة، وزيداً، قد وضعوا عن كواهلهم كل علاقة لهم بالجماعة، فلا يخشون بأساً، ومع هذا نرى قريشاً، وإن لم تناصبهم العداء، تعمل جاهدة على كبح جماحهم، وكلما ارتفع صوت زيد بن عمرو ـ وكان أعلى الثلاثة صوتاً ـ أغروا به قريبه الخطاب بن نفيل، فأغلق عليه داره وحال بينه وبين الناس !!

فكيف بأبي بكر.. وعلاقته بالجماعة مشدودة نامية، وهو في قومه مِلْءُ كل عين وكل أذن ؟!

أتأذن له قريش وهو في مجرّد إصغائه على علاقاته الجديدة، ورؤياه الصامتة ؟؟

وقبل أن يتصل الرسول بأبي بكر.. يسمع خواطره.. فيرى القدوة والمثل محمد بن عبد الله ﷺ !

إنه في ربيع العمر ولحده، وإنه حسيب نسيب، وإنه في قومه كأسمع ذروة في سماح

ومع هذا، فهو – في هدوء – قد عزف عن الأصنام، وإنه ليمضي أيامه بعيداً عن معايث الناس وعباد بهم لا يكاد يمسي أحد ولا يدع أحداً يخلو منه وبه، وأحلامه، وسكينة نفسه.. يعقد اليوم بالتأمل، حتى تأتيه من الحق بينة..

ويمضي أبو بكر.

إنه يستطيع أن يسبق الطريق نفسه دون أن تكون لقريش عليه ثورة أو موجدة.. مثل "محمد" تماماً..

إنه لا يذكر الأصنام بسوء بعد.. ولكنه أيضاً لا يذكرها بخير.

لا يعبدها مع العابدين، ولا يسجد لها مع الساجدين، ولا يتقرب إليها، ولا يحس بوجودها.

لقد حرر من نفسه فقه وحده، ومضى يبحث عن الحق، وهذا أعظم عوض يسقط به حياة ...

ويسري في أوصال نفسه برد اليقين

فأبو بكر، وإن يكن يجمعه ومحمداً سن واحدة، فإنه يرى فيه مثلاً أعلى وقدوة تدعو إلى الثقة..

ولقد كان هذا حريصاً على صحبته، حفياً برفقته، حتى لقد كان كما وصفته أم سلمة: "خدناً لمحمد ﷺ وصفياً له".

تذكر أبو بكر حال صديقه وصفيه، فتبدّت محاذيره من قريش، وقرر أن يستجيب لحبه، ويمضي مع أشواقه إلى الحق والمعرفة

لكن نهجه سيختلف عن نهج صفيه "محمد" ﷺ.

تماماً، كما ستختلف النتيجة بالنسبة لكليهما؛ فبينما يبحث "أبو بكر" عن الحقيقة، إذا "محمد" يجيئها..!!

إن منهج "محمد" هو التأمل، والإصغاء إلى الهمس الآتي من داخل الحقيقة ذاتها

أما "أبو بكر" فمنهجه التفكر، والإصغاء إلى حكمة الحكماء، ومنطق العابدين المتحيرين

وهو طوال عمره مولع بحفظ روائع اللغة العربية من شعر ونثر

ومن محفوظاته الثرة الغنية يمدّ عقله بأسباب التفكر

وهكذا بينما يعكف "محمد" ﷺ على تأملاته، ويلتمس الحق من طريق خلوته وتجربته ورؤاه

إذا أبو بكر يسلم قلبه وعقله للحكمة التي يبثها ساسة في كلمات هذا النفر الصالح ذوي التجربة السديدة المديدة: قس، وورقة، وزيد

ولا يترك فرصة تمكنه من التلقي عنهم والإصغاء إليهم إلا اغتنمها وفاز بها

وإنه ليحفظ أقوالهم حفظاً راسخاً، ويعيش في رؤاهم عيشة تساعده عليها فطرته العظمى التي تريد أن تعرف الحق وتسلمه مهما يكن الثمن. وإني لأحسب في هؤلاء بحكم سنهم، وبحكم تجاربهم وحبهم للطهر، دليلاً قويماً إلى الحقيقة المرجوة.

* * *

ذات يوم، بعد أن تلقى "محمد" ﷺ رسالة ربه، وآمن معه "أبو بكر" كان الرسول جالساً بين أصحابه يستعيد ذكرى أيام شبابه فقال: "لست أنسى قس بن ساعدة، ممتطياً جملاً أورق، في سوق عكاظ، وهو يتحدث حديثاً ما أحسبني أحفظه".

فقال أبو بكر: إني أحفظه يا رسول الله، كنت حاضراً ذلك اليوم في سوق عكاظ. ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول:

يا أيها الناس: اسمعوا، وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا

إن منْ عاش مات، ومن مات فات. وكل ما هو آتٍ آت..

"إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً.

"مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور..

ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذات أبراج.

يقسم قس بالله قسماً، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه

"ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا"؟

ثم أنشد أبو بكر شعر قس بن ساعدة

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لمّا رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القومُ صائر

* * *

هكذا كان أبو بكر يحفظ لهذا النفر الصالح ويتلقى عنهم

وهكذا كانت روحه عاكفة على ما يتلونه من حكمة..

ولكم كانت عينه تفيض، وحنين روحه يتألق، كلما أبصر زيد بن عمرو ابن نفيل في جلال مشيته، مسنداً ظهره إلى الكعبة، مناديا الناس:

– يا معشر قريش، والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري".

"إني اتبعت ملة إبراهيم وإسماعيل من بعده. وإني لأنتظر نبياً من ولد إسماعيل، وما أراني أدركه".

ثم تمضي عينه على عامر بن ربيعة فناديه

– يا عامر بن ربيعة .

" إن حالت بك الحياة فأقرئه مني السلام "

كان "أبو بكر" يزداد طمأنينة وأمنا كلما رأى "زيد بن عمرو" يشق صفوف الناس المحتشدين حول الكعبة ويرفع عقيرته في عز تهيُّب قائلا

"لبيك حقاً حقاً .

تعبداً ورقاً ..

عذت بما عاذ به إبراهيم

وأسلمت وجهي لمن أسلمت | له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما رآها استوت | على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت | له المزن تحمل عذباً زلالا"

ويحدث أبو بكر نفسه

هذا ورب إبراهيم هو الحق ولكن كيف ومتى يصح منه على يقين ؟؟

ويوماً فيوماً ، كان وجدانه يمتلئ بروى التبتل والتثبت ويشغفه الحنين إلى دين إبراهيم . ولكن أين الطريق . ؟ ..

إن الذين ركزوا في روحه ووجدانه هذا الشوق هم أنفسهم لا يعرفون

صحيح أنهم على يقين بأن قريشاً ليست في دينها على شيء من حق ، وأنها خطأت دين إبراهيم

ولكن ، ما المنهج الجديد الذي يعود إبراهيم من خلاله بدينه وحنيفيته ؟

إنهم لا يعرفون ..

وذلك صاحبه لا يعرفون .

أما ورقة ، فإنه عاكف على الانجيل يتلوه ويدرسه ، عاهد نفسه على دين إبراهيم

وأما زيد ، فهائم مع أشواقه المؤمنة ، مضطرب في فجاج مكة تارة ولائذ بالكعبة تارة أخرى . ومناجيه دوما

– "اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك به ، ولكني لا أعلمه"

إذن هو لا يعلم ، وإن كان قد أعلن الملأ من قريش أنه فارق دينهم ، واعتزل الأوثان والأصنام ، ووأد الذبائح ، وأجاب حين سئل عن ربه الذي يعبده

"أعبد رب إبراهيم"

وازداد الشوق العارم إلى الحنيفية اخضراراً في روح "أبي بكر" ، فهو بفطرته لا يروي ظمأه أنصاف الحلول ، بل اتضحت له معالم الأزمة التي يعيشها الضمير الانساني في قومه

وهو الآن يريد جميع الحق ، وجميع الخلاص من هذه الأزمة الانحراف عن دين إبراهيم التي وثنية ضلاله حاطته

والمخرج إذن ، هو دين إبراهيم

فمن يدلنا عليه..؟؟

إن أكداساً من الأساطير والرواسب قد طمرت حقيقة هذا الدين في رحمها وبلاها

وليس أدلّ على هذا من أن الذين يعبدون الأصنام هنا في مكة يزعمون أنهم أبناء إبراهيم..

واليهود بالشام وبمصر، والذين كانت لهم رحلاتهم التجارية يزعم كل منهم - على ما بينهم من تناقض - أنهم أبناء إبراهيم وورثته..!

فمن يأتينا بالحق المُبين..؟

مَن يُعيد إلينا إبراهيم، ويُعيدنا إليه..؟؟

مَنْ يدلّ على الشِّرعة والمنهاج اللذيْن نعبد بهما رب الحق، ونقوم بهما حنفاء؟؟

وتتوالى الخطرات الذكية على الفتى الذكي، ويردد أبو بكر قول أمية بن أبي الصلْت

ألا نبيٌّ لنا منّا فيخبرنا ... ما بعدَ غايتنا من رأس محيانا

إني أعوذ بمن حجَّ الحجيج له ... والرافعون لدين الله أركانا

إن اختلاف الناس في دينهم يُقضُّ تفكير أبي بكر

وغياب الحقيقة - في حين أن الناس في أشد الحاجة إليها، وبلهفة عليها - أمر يأسى له أبو بكر مُنتهى الأسى..

وإنه ليُجيل بصره بين قومه ويتساءل

أليس فينا مَنْ يجمعنا على الحقّ بعد أن يدلّنا عليه..؟

وفجأة يومض في خاطره ذلك المشهد..!! المشهد الذي رآه من قرابة أعوام خمسة

حين أعادت قريش تجديد الكعبة، وهمّوا ليعيدوا الحجر الأسود إلى مكانه، فشتجر بينهم خلاف كاد يُغرق قريشاً كلها في الدم، وكاد يشب فيها حرباً أخرى كحرب الفجار

ويعود المشهد كله يزحم خواطر أبي بكر

فها هي ذي بطون قريش جميعاً، تتحول إلى شيع متربصة، تُقسم كل شيعة لتكونن لها دون سواها شرف رفع الحجر المقدس إلى مكانه

وإذ يحتدم الخلاف ويتسع مداه، فإن أمية بن المغيرة - أكبر قريش يومئذ سناً - يشير على الناس أن يُحكّموا بينهم أول قادم.. ويرتضوا حكمه.. ويترقبون مليّاً، ويحتويهم صمت رهيب، لا تسمع خلاله إلا صوت الدم في الأوردة والعروق!!

ويسترسل أبو بكر مع ذكرياته في حبور..

ها هم أولاء قابعون هناك..

أشراف قريش، والقبائل كلها

وقد شخصتْ أبصارهم شطر الباب الذي يرتقبون أول مُقبلٍ عليهم منه.. الذي سيحسم بمجيئه خلافهم، ويعصم دماءهم

وفجأة يسمعون وقع خطوات ، كأنها نداء النجدة

ومصطرم الأمس

ويقترب القادم .

يقترب بعيد..

وإذا هو .. "محمد الأمين" !!

ولا يكاد يبصرونه حتى يصيحوا في غبطة .

هذا الأمين "محمد" ﷺ ، نعم الحكَمُ هو

ويتمتم أبو بكر ، والذكريات تبهر خاطره فيقول لنفسه :

أجل ، كان نعمَ الحكَم ، ونعم الملاذُ

فما كاد يسمع أسباب نزاعهم حتى قال لهم

- هلمُّوا إليَّ ثوباً

فجاءوه بثوب ووضع الحجر في وسطه ثم نادى

لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، فاستجابوا له حتى قرب الحجرَ من موضعه ، فأخذه محمد بيده فأرساه مكانه

وانتهت أسعدَ نهاية ، فتنةٌ كانت تنذر بشر وبيل .!!

وعاد أبو بكر يسأل نفسه

رجلٌ يردُّ إلى قريش نُهاها ، فتحسم الخلاف مرة أخرى ، ويبين لناس ما اختلفوا فيه من الحق

رجل يردُّ إلى قريش نهاها ، وتمضي معه إلى عافيتها وهداها

رجل يعطيهم من السلام ، واليقين ، والعقل ، مثلما أعطاهم "محمد" ﷺ يوم كاد خلافهم حول الحجر الأسود يفنيهم في معركة مجنونة ..!

واستجاشت الذكرى استعادة كل الابتهالات ، والنبوءات التي طالما سمعها من قس ، وزيد ، وورقة بن نوفل والتي كان يحفظها للسابقين من أمثال أمية بن أبي الصلت ، وعامر بن الظرب ، والمتلمس بن أمية

واقترب مشهد فريد ، ظل يقترب ويكبر حتى ملأ الشاشة كلها

مشهد قُسِّ بن ساعدة ، وهو قائم بين الناس ملوِّحاً بذراعه المبسوطة في الأفق كأنها راية ، ويقول : يقسم قُسٌ بربه ليبلغَنَّ الكتاب أجله .

وودَّع أبو بكر موكب ذكرياته وهو يتمتم في يقين قائلاً

صدق ابن ساعدة ..

ليبلغنَّ الكتاب أجله .. !

■ ■ ■

إن كان قال، فقد صدق

وتمضي الأيام طاوية أشواق الذين يؤمنون أو يحسّون أنهم على موعد مع بعث عظيم.. وينتظر أبو بكر حتى يأتي الله بأمره..

ويقبل على شأنه وتجارته، وإذ تحين أوان رحلة جديدة إلى الشام، يشدّ رحاله مع صحْب له من التجار، وتيمّم القافلة وجهها شطر البلاد البعيدة ساعية وراء الرزق والربح الحلال..

وفي الشام يجد أبو بكر مناخاً روحياً شبيهاً بمناخ قومه..

أديان شتى، وناس ذاهلون.. وقلة مؤمنة تقلّب وجوهها في السماء راجية منها اليقين، ومرسلة نظراتها إلى فوق الأرض، وكأنها تريد أن ترى من أي أقطارها سيهلّ النذير المنتظر..

وأبو بكر في الشام مثله في مكة، لا يكاد يفرغ عمله مع أهل مهنته من التجار حتى يُبادر ويُسارع إلى نفر من الأحبار والرهبان، تعرّف إليهم خلال رحلاته، وتبيّن منهم عزوفهم عمّا عليه الناس من باطل ووهم.. ورضي منهم بحثهم عن الحق، وانتظارهم بشرى الله المقبلة..

ومن هؤلاء في الشام، كان يسمع نفس الحديث العذب المبشر بمقدم رسول الله ﷺ، والذي سمعه بمكة من ورقة بن نوفل وإخوانه..

لقد أخذته هذه المرة تردد على هذا النفر الصالح من رهبان الشام أكثر من أي مرة سابقة..

* * *

ولا بدّ من أن قلبه قد كان يجيش أكثر من ذي قبل بمشاعر الحنين النامي إلى الفجر القريب.. إن أبا بكر لينتظر الرسول المقبل في لهفة غلابة، لا لأنه سيهتدي به وحده إلى الحق، بل لأن الناس جميعاً سيهتدون به من ضلالاته، وينفقون به من غفلته..

أبو بكر الأوّاب، المحبّ الودود، يودّ الحياة الصالحة لكل حي..

وفؤاده الذكي ينطوي على رغبة غامرة في أن يُسدي إلى الناس الخير الذي يحتاجون إليه.. لا الخير الذي يملكه..

وإنه إذ يملك المال والجاه، فإنه ينفق منهما بغير حساب..

بيدَ أنّ الناس لا يحتاجون إلى المال وحده، ولا إلى الجاه معه..

إنهم مع ذلك، بل قبل ذلك، يحتاجون إلى الهُدى والنور..

وهو لا يملك من الهُدى والنور ما يقدّمه للناس.. صحيح أنّ معه مكارم الأخلاق، وأنه فيها وبها لمثَلٌ أعلى وقدوة سامقة.

لكنّ الهدى الأعظم لا يزال ينقصه، وينقصُ الناس..

التعرُّف إلى الحقيقة... إلى السر الأكبر الذي يحيط بالحياة، ويحرّك الكون... ويكتمه وحده الله..!!

فأين إلى هذا الطريق..؟؟
وتزدهر خواطره وتتألق

إن في الأرض كثيرين يتملكهم الحنين إلى معرفة الله الحق

في الشام، وفي مكة، وفي غيرهما من بلاد الله الواسعة

كثيرون يؤرقهم الشوق إلى أن يعرفوا.

كثيرون تهوي أفئدتهم مطالع الضوء، منتظرين أن تشرق عليهم فجأة كلمة الله

أوَ يتخلى الله عن عباده هؤلاء..؟؟

أيتركهم حيارى تائهين وقد يسطو ... رجاءهم !

أبدًا

وإن الله لأرحمُ من أن يغيب عن الذين يبتهلون إليه ... يعرفوه

سيجيء الهدى إذن، لا محالة..

وسيطلع على الناس في فجر قريب، من يقول لهم صادقاً ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾

ولكن من أين يا تُرى يجيء..؟!

إن الذين عندهم علم من الكتاب، في الشام وفي مكة، ليكادون يُجمعون على أنه سَيهلُ على الدنيا من هناك ... من حيث رفع إبراهيم القواعد من البيت

من مكة ... وطن الكلمة العظيمة !!

ولكنّ مكة تموج بعبدة الأصنام ... العاكفين على الميسر والأنصاب والأزلام، وكلّ رجس من عَمل الشيطان

أفلا يجد الله في أرضه الواسعة سوى هؤلاء الحيارى من بينهم رسوله ؟؟

ولكنْ أيُّ بأس في هذا ..؟؟

وهل يدخل الأطباء إلا بيوت المرضى ..؟!!

وحيث تقضي الوثنية الضارية على كل أمل في التوحيد، ألا تكون الحكمة عظيمة في أن يخرج من المكان نفسه مَنْ يرفع راية التوحيد..؟

ثم إن في مكة قوماً على الرغم من وثنيتهم، فإنهم يحملون أخلاقاً نادرة المثال

* فمَنْ مثلهم يحمي الذمار، ويكرم الضيف، وينصر المظلوم، ويعين على نوائب الدهر..؟؟

* مَن سواهم من الأمم، لهم أشهر حُرُم، تتحول السيوف فيها إلى أغصان..؟؟

* من مثلهم يُوقدون النار على شاهقة عالية، لتدلّ الضيف ونَادِيه..؟؟

* مَن مثلهم يقول السيد فيهم لعبده: «إن نجحتَ ضيفاً، فأنت حرٌّ» !

من أوتيَ من الحكمة ما أوتوا..؟؟

هؤلاء الذين أنجبوا امرأ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، وطرفة بن العبد، وأمية بن أبي الصلت، ولبيد بن ربيعة، وكعب بن زهير، وقس بن ساعدة، وسحبان وائل ..؟؟

* * *

وسنطرد أبو بكر مع خواطره

وتتراءى له أبهى فضائل قومه ومزايا أمّته..

أولئك قوم وُهبوا من صدق الفطرة ما وُهب العرب.. ؟؟

إنهم قومٌ صدق، ولا مكان للريب ولا للكذب في حياتهم وسلوكهم

صادقون في عصبيتهم.. وصادقون في ردّتهم..!!

إن حياتهم واضحة وضوح الصحراء التي يقطنونها.. والسماء التي فوقهم

ومن صدقهم هذا.. ووضوحهم، جاءتهم الحكمة، وقدروا على الفراسة، وتعلّموا لغة الأشياء الصامتة في الحياة..!

وتتوالى الخواطر الرشيدة في وعي صاحبه العربي الحافظ حكمته.. ويمضي كأنّه يحدث نفسه

هذا هو قسّ بن ساعدة.. هذا ورقة بن نوفل.. هذا زيد بن عمرو بن نفيل.. ومن قبلهم عشرات وعشرات عمرتْ بهم الأجيال والسنون.. كلهم استنكفوا عن عبادة الأوثان، وسموا عصاة للطاعة عن دين قومهم وما يعبدون، وهتفوا بدين إبراهيم، وتطلّعوا إلى السماء ينتظرون كلمة الله، وما منهم من أحد إلا تمنّى أن يكون النبي المنتظر.. ومع هذا لم يدّعِ النبوّة منهم أحد..!!

ولقد كان إيمانهم وطُهرهم وسلوكهم..

وكانت ثقة الناس بهم مدعاة لتصديقهم لو ادّعى أحدهم النبوة وقال إني رسول من عند الله

كان الناس سيأوون عن عبادة الأصنام ... إلى ... تابعيهم، فلماذا لم يدّعِ النبوّة من هؤلاء أحد..؟!

لأنهم صادقون.. أجل.. لأن أعظمهم ... الصدق والوضوح

وإن العربي يستنكف أن يكذب على نفسه فضلاً عن غيره، وقد قال حكيمهم الصمّة الشديد

أريد لأنسى ... الشباب يهدّني ولكنّ عقاب الكاذبين يطولُ

أفيجيء العربي الذي يأنف أن يكذب على نفسه.. ثم يكذب على الله أولئك الحنفاء المتطهرون.. ؟!

نحن إذن أهل صدق عظيم.

وهل يكون النبي إلا صادقاً

فلماذا لا تكون هذه النبوءات جميعاً.. النبوءات التي تكاد تجمع على أن نبياً قد دنا سيهلّ على الناس من جوار الكعبة، بيت الله العظيم.. ؟؟

* * *

كانت الخواطر تغدو وتروح على هذا النحو في وجدان أبي بكر وعقله.. والآن، وقد تجمّعت له في الشام هذه النبوءات بعودته إلى وطنه وبلاده.. وقبل رحيله بأيام قليلة يرى رؤياه..

يرى القمر قد غادر مكانه في الأفق الأعلى، ونزل على مكة، حيث تجزّأ إلى قطع وأجزاء تفرّقت على جميع منازل مكة.. وبيوتها.. ثم تضامّت هذه الأجزاء مرة أخرى، وعاد القمر إلى كبده الأول، واستقر في حجر أبي بكر..!!

صحا من نومه، وللرؤيا على وجهه سلطان مبين

وسارع إلى أحد الرهبان المتقين الذين أعرفهم ، وعقد معهم من صلات الراحة كانت تقربه منه .

وقص عليه الرؤيا ، فنهض وجه الراهب الصالح وقال لأبي بكر

لقد أظلّت أيامه !

وتساءل أبو بكر :

من نبي .. ؟ النبي الذي ينتظر .. ؟؟

ويجيبه الراهب :

نعم ، وستؤمن معه ، وستكون أسعد الناس به .. !!

لم تكن رؤيا أبي بكر مجرّد حديث للنفس في منامه ، ولا مجرّد تعبير عن شوق مُستكنٍّ في لا شعوره .

بل كانت إرهاصاً بحقائق وطيدة راسخة تملك على صاحبها نفساً لا تتزعزع بحاجة الناس إلى رسول ، وبقرب مجيء هذا الرسول .

وكانت رؤياه هذه ، بشرى بين يدي نفسه ، وتحية الغيب لروحه المتطلعة ونفسه الشفيفة .

وهو حين يختار الله محمداً ﷺ لرسالته ..

وحين يسارع أبو بكر إلى الإيمان به ومعه ، فليس فقط لأنه رأى رؤياه ، بل لأنه رأى رؤيته رؤية عقل ، ومنطق ، وبصيرة ، تتجه له طول تفكيره ، وطول إصغائه لحكمة ، وأقواها عنده فلا تسبق صنعة الله له . وهذه إرادته !!

ومع الصباح شدّ أبو بكر رحاله مع رفقته عائدين إلى مكة . كانت النوق والجمال تهرول ، فرحة منتشية كأنها في عيد ..

وهبّت نسائم حلوة تحمل إلى الركب عطر بساتين الشام ، وكأنها تحية الوداع ستأتي وراءهم من البلد الطيب الذي غادروه من ساعات .

وعزف الحنين المستيقظ على أوتار القلوب المشتاقة فغرّدت كل جانحة في جسم ، وانطلق الركب يسابق أشواقه .

وارتفع صوت حادٍ ينشد :

سأقدح من قدري نصيباً لجاري ... أذو رشدٍ تقسّم الأمور ؟؟

إذا أنت لم تُشرك رفيقك في الذي ... يكون قليلاً ، لم تشاركه في الفضل

ويجيبه حادٍ آخر ، وكأنها مباراة

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له ... أكيلاً فإني لست آكله وحدي

أخا طارقاً ، أو جار بيت فإنني ... أخاف مذمّات الأحاديث من بعدي

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً ... وما فيّ إلا تلك من شيمة العبد

* * *

ويخرج هذا المتعبد الحلو أبو بكر من صمت نفسه ، ويساوق أمامه من حديث القصص

قومه .. هؤلاء الذين يعدّون من مفاخر الجاهلية ونقائصها أن يأكل الرجل وحده دون أن تُهيئ له الحظوظ الحسنة ضيفاً يأكل معه .. !!

وتتعالى أناشيد الركب وتتبارى قصائده

ويرتفع في الفضاء ذراع أبي بكر كأنها راية، ويعلو صوته قائلاً:

ـ أيكم يُنشدنا قولَ أمية بن أبي الصلت؟

ويجيء صوت من طرف القافلة:

ـ أيَّ قوله تريد يا سيد العرب، فإنَّ لأمية قولاً كثيراً؟؟

ويجيبه أبو بكر: ألا نبيٌّ لنا

ويرتفع صوت الرجل منشداً قصيدة أمية:

ألا نبيٌّ لنا منا فيخبرنا ... ما بعدَ غايتنا من رأس مجرانا

فقد علمنا لو ان العلم ينفعنا ... أن سوف يلحق أخرانا بأولانا

وقد عجبتُ وما بالموت من عجب ... ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا

وتردد الإبل حنيناً، وتضطرم بحداء شوقاً، فتقطع الأرض وثباً، وتهز أفئدة المسافرين غبطةً وأملاً

ومن يلق عينيه ساعتئذٍ على وجه أبي بكر الماثل تحت ضوء الحكمة، يبصر دموع الشوق تتحدّر متألقة على وجنتيه كحبّ الجمان..!!

ويستمر المنشد في إنشاده قصيدة أمية:

[illegible] ... [illegible]

إلى [illegible] ... [illegible] بن الله [illegible]

يسير إليه [illegible] ... لم ينفعوا [illegible] الله ألفانا

وتمضي القافلة إلى غايتها، تستبق إذا أدركها الليل، وتنطلق إذا بدا لها الهجير.

بعد مضي زمن طويل منذ غادروا مكة إلى الشام.

تُرى ماذا جدَّ هناك من أمور..؟؟

ها هي ذي الأرض تُطوى..

الشام يذهب بعيداً.. بعيداً

ومكة تقبل حثيثاً.. حثيثاً

وأخيراً، تطلُّ مشارف الوطن، وعبير الأهل

وهناك، عند تلك المشارف كانت كوكبة من الناس تنتظر.

لقد بصُروا بالقافلة من فوق ذرا الجبل، فبدوا وتجمّعوا لاستقبالها، ولكما اقتربت القافلة من المنتظرين أحسّ منهم لغطاً كثيراً وضجراً.

تُرى، ماذا حدث..؟!

والتقى القادمون والمستقبلون في عناق ومودّة، تبعتها حركة الأصوات بالجديد

يقترب من الأبناء.

ـ ألا تسمعون..؟ إن قريشاً منذ فارقتموها لا تنام الليل !!

ـ ونحن قريش.. ولماذا..!!

ـ إن محمداً وضع الجمر على أنفها..!!

ـ الجمر..؟ كيف..؟ ماذا جرى..؟!

ـ إنه يقول إن الله أرسله لنعبده وحده ونذر آلهتنا !!

وهمس واحد ممن يستهويهم الفكاهة قائلا

دعه يحطمها، فطالما حطمنا في كل الثريد، وشرب اللبن !!

واختلطت الأصوات في ضوضاء مثيرة

واقترب من أبي بكر بعض ذوي الأناة، وأخذ بعض عنه النبأ في هدوء، وأبو بكر يغالب دموعه وحبوره..!

ولدى مدخل مكة قابلهم جماعة صغيرة يتقدمها أبو جهل عمرو بن هشام

وتبعهم [illegible]

وبدأ أبو جهل الحديث

ـ أوحدثوك عن صاحبك يا عتيق؟

"وكان أبو بكر قبل إسلامه يُسمى عتيقاً"

أجابه أبو بكر:

ـ تعني محمداً الأمين..؟

قال أبو جهل:

ـ نعم، أعني يتيم بني عبد المطلب..!

ودار حوار سريع بين الاثنين:

ـ أسمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام؟

ـ نعم، سمعته، وسمعه الناس جميعا..

ـ وماذا قال..؟

ـ يقول إن في السماء إلهاً، أرسله إلينا لنعبده ونذر ما كان يعبد آباؤنا !!

ـ أوَقال إن الله أوحى إليه..؟؟

ـ أجل..

ـ ألم يقل كيف كلمه ربه..؟؟

ـ قال: إن جبريل أتاه في غار حراء..

وتألق وجه أبي بكر كأن الشمس قد احتضنته يومئذ بكل ضيائها وسناها، وقال في هدوء مجلجل:

ـ إن كان قال، فقد صدق !!!

ودارت الأرض بأبي جهل، وتلعثمت خطواته، وكاد جسمه يهوي فوق ساقيه المهزولتين.

وتناقل الناس كلمة أبي بكر، من واحد إلى آخر حتى صار لهم بها دويٌّ كدويّ النحل

وقصد أبو بكر داره ليرى أهله، وينفض عنه وعثاء السفر، وبعدها يقضي الله أمراً كان مفعولاً

والآن، لنترك "أبا بكر" قليلاً في داره وبين أهله، حيث نعود للسير في موكبه بعد قليل لنمضي به بين يديْ رسول الله ﷺ ونقضي بعض الوقت مع كلمته الفذة الحكيمة

"إن كان قال فقد صدق..!!

أجل.. فهذه العبارة الأمينة المضيئة، هي التي ستشكّلُ وتَهَب كل حياته المقبلة، وستجعل من صاحبها أستاذاً للبشرية في فن الإيمان..

انظروا..

إن موضوع الرسالة لم يكن جديداً على أبي بكر، فهو بكل ما معه من ذكاء، وفطرة، ومنطق، قد قلّب كل وجوه النظر السديد في هذه القضية، وانتهى إلى أنَّ الله من سرّ عباده حيارى..

وهو بكل ما معه من ذكاء وفطرة ومنطق، كان خبيراً بالرجال

ولقد عاش مع "محمد" ﷺ سنوات طوالاً، ورأى فيه النموذج الحي للإنسان الكامل

وهكذا، لم يكد يتلقى سمعُه النبأ العظيم، حتى كان إيمانه الذكي مُهيأً ليأخذ دوره من فوره..

ولم تكن المشكلة بالنسبة إليه تتمثل في احتمال الصدق والكذب، بل كانت تتمثل في هذا السؤال:

- هل صحيح أن محمداً قال هذا الذي يرويه الناس عنه..؟؟

- إنْ كان قال.. فقد صدق..!!

من شاء فليبحث، وليفحص، وليتشكّك، ولينتظر..

أما أبو بكر فلا..

وحَسْبُ محمد أن تنفرج شفتاه عن كلمة

حسْبُه أن يُحرّك لسانه بقول.. فإذا الصدق الذي ليس كمثله صدق.. وإذا اليقين الذي لا يعلوه يقين..!!

وهذه الثقة بكل غُرامها[1] وتفوقها لم تُعطَ كما قلنا اعتباطاً.. إنما تستجيب غراسه الوُثقى من كل نبوءة صدّقه سمعها.. ومن كل منطق قويم اهتدى به.. ثم من خبرته التي لا تكذب، بصدق محمد.. وعظمة محمد.. وبحياته الطاهرة التي رأى محمداً ﷺ يحياها

محمدٌ.

(١) الغُرَامُ: الكثرة والشدة، ويقال: عيش غُرام، وعَرَمْرَم، أي: كثير شديد.

ما أطهر الاسم، وما أعظم صاحبه..!

أربعون عاماً عاشها بين الناس قبل أن يجيء هذا اليوم الذي اختير فيه مبلغ كلمة الله

أربعون عاماً كاملة

لم يخن خلالها أمانة

ولم يزيف كلمة

لم يكذب قط، ولو مازحاً..!

لم تأخذه عن الطهر نزوة، ولا عن العظمة دنية..!

لم يُرَ قط إلا عظيماً، وكفؤاً لكل عظيم..!!

منذ كان طفلاً تدعوه أترابه إلى مشاركتهم اللعب، ومطارحتهم اللهو البريء، فيلوي عطفه عنهم ويقول لهم:

"أنا لم أُخلق لهذا"..!!!

حتى صار شاباً، فكهلاً شب به فجاج مكة عمراً وطهراً، وصار اسمه تسبيحة تعدّه على كل لسان..!!

وما كانت قريش هازئة معه، ولا متحاملة له، ولا متعصبة ضده حين خلعت عليه إجماعها لقب "الأمين"..!

بل كانت بهذا ترفع من قدر نفسها، وتنبئ من حولها من قبائل العرب بهذا الذي رتع في ساحتها بمبكره بين أعلى مستويات الأمانة.. لا أمانة المال وحده، ولا أمانة الودائع وحدها.. بل الأمانة على كل ما في الحياة من قيم، ومثل، وأشياء.

الآن يكذب محمد..؟! الآن تتحول فجأة حياة دامت على الصدق المطلق إلى هذه الأكذوبة الضخمة.. ادعاء الرسالة والكذب على الله..؟؟

محمد الأوّاب، الأوّاب، المخبت، المتضرع، المتبتل، الأمين، الطاهر، يكذب على الله..؟!

أبداً.. أبداً.. أبداً

ومنذ متى، كان من العقلاء العاديين في قومه من يكذب على الله..؟

وهل كان في ادعاء الرسالة مغنم يُغري الناس بادعائه..؟! أوَلم ير "محمد" ﷺ بعينيه، كيف صرخت قريش في وجه "زيد بن عمرو بن نفيل" برغم شيخوخته ومكانته المعروفة، برغم أنه لم يأتهم بدين جديد، ولم يضع المعول فوق آلهتهم وأصنامهم..؟

فكيف إذا جاءهم رسول مثل "محمد" ﷺ، يقول للناس:

- اتركوا الأصنام فإنها ضلال، واعبدوا الله الحي القيوم..!

أهناك مخاطرة تُنذر بالهول كهذه المخاطرة..؟!

وهل يختارها عاقل ليتسلى بها ويتبذخ..؟!

أم أنها رب له فرصت بسبه فرصاً على صاحبه ، ويمنحه حق على عأاه لذي لا يقوم على مصطفاه .. ؟!

إن محمداً ﷺ نصر مثال لكل ما ينعم به الله من عوافيه في العقل ، وفي الخلق ، وفي الضمير

وما طوّقت به ظنّه ذات يوم ..

وإن الحنفاء الحكماء يبشرون من عهد بعيد بالنبي القادم

وإن الناس حشف تملم أبو بكر وجهه ، لتأخذهم فاقه شديده إلى هادٍ ومعلم إلى رسول من عند الله يُسمعهم كلمته ، ويرفع وسط صفوفهم رايته

أفإنْ جاء الرسول يُكفر به .. ؟

ومحمد بالذات .. ؟؟

لا ..

« إن كان قال ، فقد صدق » .. !!

هكذا كان منطق الإيمان في وعي الرجل الرشيد "أبي بكر"

إنه ليفرك كفّيه في غبطة ، ويردد آخر مرة قول أمية بن أبي الصلت

ألا نبيٌ لنا منّا فيخبرنا

أجل ، آخر مرة

فمنذ اللحظة التي سيلقى فيها محمداً ، لن يقول مستمتاً

"ألا نبيٌ لنا" فقد جاء النبي ﷺ ، وجاءت البشرى

وسكون شعوره ، وشدته وفقه ذوقه

"إن كان قال ، فقد صدق" !!

سيقولها كلما جاء محمد بآية

سيقولها عند كل فتنة مُرْجِفة

سيقولها عند كل هزيمة حالكة ..

سيقولها حتى يثيبه الله عليها ، فيمنحه لقب "الثاني اثنين" و"الصِّدِّيق"

أما الآن ، فلنعُد إليه ، ولنصحب خطوه المبارك ، إذ يأخذ طريقه إلى رسول الله لنشهد أول لقاء بين "الرسول ﷺ" و"الصِّدِّيق" !!

غادر "أبو بكر" داره إلى دار الرسول تسبقه أشواقه ..

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مقيماً في داره مع زوجه "خديجة" رضي الله عنها

خديجة التي كانت أول العالمين إسلاماً معه وإيماناً به

ولطالما سمعت هي الأخرى من قريبها "ورقة بن نوفل" تراتيل الحنين إلى النبي المقبل

ولقد عرفت "محمداً" زميلاً لها في تجارتها ، ثم عرفته بعلاً وزوجاً ، فما رأت سلوكاً أطهر ، ولا قلباً أكبر ، ولا عقلاً أرجح ، ولا صدقاً أعظم مما رأت من محمد

من خلال هذا، لم يكد الرسول ﷺ يحدثه عن النعمة التي أفاء الله عليه بالوحي حتى قالت من كل جوانبها: صدقت..!!

ولقد اختارها الله على علم لتكون شريكة رسوله في اللحظة حين ينزل عليه الوحي بجلاله وأثقاله، وهيبته ورهبته..

وكان هناك مع الرسول وزوجته فتى مشوق، هو "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه

كان الرسول ﷺ قد ضمه من عهد بعيد حين نزلت بعمه ضائقة. وبقي معه. فلما جاء الوحي سارع الفتى إلى الإيمان.

قرع أبو بكر الباب، ونادى.

وتألق بشرٌ لحفاوة حميمة على مُحيا الرسول ﷺ، وقال منادياً خديجة

إنه "عتيق" يا خديجة

وسارع الرسول إلى لقاء صاحبه

وجرى الحديث بينهما في مثل سرعة الضوء وصفائه.

قال أبو بكر

- أصحيح ما أنبأني به القوم يا أخا العرب..؟

أجاب الرسول سائلاً:

- وماذا أنبئوك..

- قالوا: إن الله أرسلك إلينا لنعبده، ولا نشرك به شيئاً

- وماذا كان جوابك لهم يا عتيق

- قلت لهم: إن كان قال، فقد صدق..!!

وفاضت عينا الرسول ﷺ من الدمع غبطة وشكراً

وعانق صاحبه وقبّل جبينه، ومضى يحدثه كيف جاءه الوحي في غار حراء قائلاً له

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

وخفض أبو بكر رأسه في خشوع وتقوى، تحيةً لراية الله التي راحت ترتفع أمامه إلى أعلى السارية، متمثلة في هذه الآيات المبررة..!!

ثم رفع رأسه، وشدّ بكلتا يديه على يمين رسول الله ﷺ وقال: أشهد أنك صادق أمين..

أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أنك رسول الله..!!

* * *

وآنئذٍ كان الغيب يُجري أعظم عملية تفجير تاريخي

كان كل ما للإسلام من مستقبل وحضارة واتساع، يغادر تلك اللحظة ويأخذ كل شيء مكانه على أرض الغد الطويل

أجل ، اثنان ، وفي تلك اللحظة التي شهدت هذا التصافح ، وقلّ من سمع ، كانت نفس هذه اللحظة ، تتفجر وتخرج خبأها المهول .. !!

كانت تلد زمنًا بأسره .. بأجياله .. بمعجزاته وانتصاراته

ولم يسمع أحد يومئذ دويّ هذا الانفجار حتى الرسول وصاحبه ؛ لأن صوت اليقين في قلبيهما كان أعلى من كل صوت عداه .. !!

* * *

هكذا أسلم أبو بكر في هدوء ، ويقين ، وقوة

وسيظل حاملاً رايته في هدوء ، ويقين ، وقوة

أسلم الرجل الذي اصطفاه الله ليكون لرسوله ، مصدّقًا ، وثاني اثنين ، وبعدُ يكون خليفته

أسلم الرجل الذي وإن لم يكن نبيًا ، فإنه سيكمل دور النبي

وفي الزيارة الثانية للرسول ﷺ لم يكن وحده .. بل كان معه وفي صحبته خمسة من أشراف قريش ، أقنعهم أبو بكر بالإسلام ، فجاءوا يبايعون الرسول ﷺ أولئك هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ..

أجل .. هؤلاء الخمسة الأعلام ، مرة واحدة

وكانت هذه أولى بركات أبي بكر

وعمّا قليل تنمو صفوف المقبلين على الإسلام ،

وسيقبل الناس بعضهم على بعض قائلين

- "محمد" و"أبو بكر" .. ؟!

والله لا يجتمع مثلهما على ضلالة أبدًا ..

آمن أبو بكر إذن .. فمن أي طراز كان إيمانه ؟؟

إن عظمة هذا الرجل ماثلة في إيمانه .. مثبتة في أنه عاش فوق أرض البشر وفي دنيا الناس نوعًا من الإيمان جدّ عجيب .. !!

إيمان مُحيّر !!

شفّ إلى أصعب مدى ..

كالذرّة لا تكاد تُرى ..

وكالذرّة ، تحتوي على أعظم طاقة مذهلة .. !!

إن إيمان أبي بكر ، كالصحة .. وديعة الرفقة ، نعيشها دون أن نحسّها ، ودون أن تثير فينا الانتباه ، ولكن حين تعرض لأحدنا أزمة صحية ندرك أن هذا الشيء الذي كان عاديًّا ، هو سرّ الحياة أو كل الحياة .. !!

كذلك سيعيش أبو بكر بإيمانه بين الناس هادئًا وديعًا

ولكن حين تُلمُّ بالإسلام رزمة، ينسى الناس فجأة، وعلى صورة نادرة باهرة، أيَّ طاقة جبَّارة شامخة، تستقر تحت جوانح هذا الوديع الرَّقْراق.. !!

ساعتئذ يدرك المسلمون أن الأنفاس الهادئة التي كانت تتردَّد بين صفوفهم، هي روح نبي، وأنَّ الإيمان الحيَّ الذي يحمله هذا الرجل في هدوء، إنما هو قدرٌ هائل لا تصمُد أمامه عقبة، ولا مستحيل..

لقد تحدث الرسول ﷺ فيما بعد كثيراً عن أبي بكر

وكان مما قال عنه:

«ما لأحدٍ عندنا يد، إلا وقد كافأناه بها، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة..»

«وما نفعني مالُ أحد قط، مثلما نفعني مالُ أبي بكر..»

«وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة عدا أبي بكر، فإنه لم يتلعثم».. !!

هذا أصدق وصف وأزكاه لإيمان أبي بكر

إنه الإيمان الذي لم يتلعثم قط

*لم يتلعثم عند الصيحة الأولى، بل كان كأنه على موعد مع الدِّين الجديد، فسارع إليه مُسارعةَ الظامئ المُشتاق..!!

*ولم يتلعثم عندما انتقض أهل الردَّة ضد الإسلام، ومضوا به إثر وفاة الرسول ﷺ، بل زاد هذا الإيمان في قلب صاحبه ثباتاً ورسوخاً، ونماءً وتفوقاً

وعرف واجبه من فوره، ثم باشر هذا الواجب على أكمل وجه وأتمّه

* ولم يتلعثم فيما بين ذيْنك من مواقف امتُحِن فيها إيمان المؤمنين امتحاناً رهيباً، فلم يكن ثمَّة أرسخ ولا أقوى من إيمان أبي بكر..

ولنشاهد الآن بعضاً من مواقف ذلك الإيمان العارف بالله، وبرسوله، وبدينه

* * *

في ضحى يوم من الأيام خرج أهل مكة جميعاً بحديث تدور كلماته في أنفسهم من دهشة وعجب

فقد كان أبو جهل ذاهباً لبعض شأنه حين مرَّ بالكعبة فأبصر رسول الله ﷺ جالساً وحده في المسجد الحرام، صامتاً مفكراً.

وأراد أبو جهل أن يؤذي الرسول ببعض سُخرياته فاقترب منه وسأله

ـ أوَلمْ يأتك الليلة شيء جديد..؟!

ورفع الرسول ﷺ رأسه نحوه وأجاب في جدّ

ـ نعم، أُسْرِيَ بي الليلة إلى بيت المقدس بالشام.

فقال أبو جهل مستنكراً

ـ وأصبحت بين أظهرنا؟؟

ق ل عليه الصلاة و سلام . نعم

وعند صاح أبو جهل في جنون

ـ يا بني كعب بن لؤيّ ، هلمّو !!

وأقبلت قريش ، ينادي بعضهم بعضا

ولم يكن الرسول ﷺ قد حدّث أحداً من أصحابه المؤمنين بنبأ الإسراء بعد

تجمّع الناس عند الكعبة ومضى أبو جهل يحدثهم في حبور بما سمع ، فقد ظنّها

الفرصة المواتية التي ستقضي على الرسول كل من آمن به

وتقدّم واحد من المستمعين ، وسأل الرسول ﷺ

ـ أحقاً أُسْرِيَ بك الليلة يا رسول الله ؟

فأجاب الرسول

ـ نعم ، وصلّيت بحواشي الأقصى هناك ..

وسرى في الجمع المحتشد خليط متنافر من المشاعر المهتاجة

ورحّب المشركون بما سمعوا ، ظانّين أن في هذا النبأ نهايته الرسول ﷺ

واحْتَوَشَتْ الشكوك فريقاً من المستمعين

ومضى بعض رجالات قريش إلى بيت أبي بكر فرحين شامتين ، لا يخامرهم ريب في

أنهم سيعودون ومعهم ردّته عن هذا الدين .. !!

فأبو بكر يعرف أكثر من غيره ، أن تجاوز قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مضنٍ

وزمان طويل ..

فكيف بالذي راح ، ورجع ، وصلّى هناك . كل ذلك في بضع ساعات !!

بلغوا دار أبي بكر ، وصاحوا به :

ـ يا عتيق كلّ أمر صاحبك قبل اليوم كان أمماً ـ يعني هيّناً ومحتملاً ـ أما الآن

فاخرج لتسمع .

وبرغ عليهم أبو بكر دهشاً تجمّعه سكينة ووقار ، وسألهم ما وراءكم ؟

قالوا : صاحبك

وانتفض أبو بكر وقال

ـ ويْحَكم .. هل أصابه سوء .. ؟!

وتراجع القوم قليلاً ، وتردد كلٌّ منهم ريقه في مشقة ، وقال قائلهم

ـ إنه هناك عند الكعبة ، يُحدّث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس

وتقدّم آخر يكمل الحديث ساخراً ، وقال :

ـ ذهب ليلاً ، وعاد ليلاً ، وأصبح بين ظهرانينا

فأجابهم أبو بكر ، وقد نهض منتصباً

ـ « أيّ بأس في هذا ؟ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك .

أُصدِّقه في خبر السماء يأتيه في غَدوه أو رَوْحَه .. »

ثم أطلق عبارته الصادقة .

« إن كان قال ، فقد صدق » .. !!

هل كانت تستطيع الغوص إلى مستوى الإشادة بهذا الموقف أو التعبير عنه دون أن يَعييها الحياء وتعجز على أمرها .. ؟؟

عبارة واحدة تستطيع المتدبّر أن نشغف بها ، هي :

يا واهبَ هذا السمو سبحانك .. !!!

هذا رجل لم يؤمن إيمان المصادفة ، بل آمن إيمان الفطنة

لم يؤمن بعواطفه ، بل آمن بذكائه ..

لم تدفعه إلى الإيمان مجرد العاطفة وحدها بل منطق العقل فيه

انظروا إلى قوله :

« إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوه أو روحه »

أجل .. أفلا يُصدِّقه إذن في قطع بقعة من المكان في ليلة واحدة .. ؟!

إن الله الذي آمن به أبو بكر لا مُنتهى لقدرته .

والرسول الذي آمن به أبو بكر لا شك في صدقه ..

وما أكثر الظواهر التي نراها ونُحسُّها ويعجز العقل عن تفسيرها .. !

فلتكن هذه واحدة منها

الذي يعنيه أن يكون الرسول ﷺ قد أخبر وقال، وعندئذٍ يكون كل شيء ممكناً وصدقاً !!

إذا كان وافدُ السماء والسماوات يغدو ويروح بين السماء والأرض في لحظة فلم الاعتراض على قصة النبي ليكون من المصدِّقين ..

وإذا كان أبو بكر قد آمن بهذا ، فهل يشكّ بعد هذا .. ؟

في سفر الرسول ﷺ إلى بيت المقدس وأوبته منه في ليلة واحدة ؟

وأيُّ بأس في هذا ؟

إن الزمان والمكان .

وإن البُعد والقرب .

كل أولئك أمور تتعلق بقدرة الناس .

أما الله الذي يقول للشيء : كن فيكون ، فما الزمان والمكان أمام قدرته .. ؟؟

ما الأبعاد والآماد أمام مشيئته .. ؟؟

ليست المشكلة إذن كيف ذهب الرسول ﷺ إلى بيت المقدس وعاد منه في ليلة

ولكن المسألة هي : هل قال محمد ذلك .. ؟

« إن كان قال ، فقد صدق » !!!

وهَرْوَلَ أبو بكر إلى الكعبة حيث رسول الله ﷺ .

وعند الكعبة رأى الجمع الشامت المرتاب، فخلّص لا يعصي
ورأى نور الله هناك في جبينه تغشاه الضراعة مستقبلاً الكعبة، لا يحسّ من اللغط الدائر حوله شيئاً، ولا يسمع للحمقى ركزاً
وانطرح أبو بكر عليه يعانقه ويقول:
- بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. والله إنك صادق، والله إنك لصادق!!

* * *

ومشهد آخر من مشاهد هذا الإيمان الفريد تتجلى خلاله نبل هذا الإيمان بالصحبة والبذل

ذات يوم، وأبو بكر في داره يستعد لزيارة رسول الله ﷺ، وفوجئ بالرسول يقول له:
- يا أبا بكر، إن الله أذن لي بالهجرة
كان أصحاب النبي عليه السلام، قد سبقوه إلى المدينة مهاجرين، وبقي الرسول ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له، وبقي أبو بكر بجانبه
والآن وهو يسمع النبأ يكاد قلبه يطير من الفرح ويقول: الصُّحْبة يا رسول الله
فيجيبه الرسول ﷺ: الصحبة يا أبا بكر.
إن الهجرة في حد ذاتها رحلة عادية، فهي فرار من أذى قريش ومؤامراتها التي لا تؤذن بانتهاء.
ولقد هاجر المسلمون إلى المدينة بإذن من الرسول ﷺ، وإنهم بالهجرة سعداء، فقد أراحتهم من سفه قومهم، وإن مسّ الفراق الأهل والوطن مرارة وغصّة
ولكن الهجرة بالنسبة للرسول بخاصة، مخاطرة، ما مثلها مخاطرة
فإن قريشاً إن كانت قد تركت المسلمين يغادرون مكة في سلام، فما هي أبداً بتاركة رسول الله
ولقد تحادث عقلاؤها في هذا كثيراً، وانتهوا إلى أنهم إذا تركوا الرسول ﷺ يخرج إلى المدينة، ويرتفع في سمائها رايته، فسوف يجمع العرب حوله ثم يغزو بهم قريشاً
ومن ثمّ قرروا أن يظفروا برأس الرسول..
ولعلهم إذ تركوا المسلمين ومعهم عمر بن الخطاب وعمر قصته خاصة تقول عنهم تركوهم يهاجرون ليبقى الرسول بينهم بلا أنصار حتى يتأتى لهم الخلاص من أمره بسهولة!!
إذن فالهجرة للرسول ﷺ ليست نزهة، ولا مجرّد هجرة، إنما هي مخاطرة مهولة ومطاردة فادحة
وأبو بكر يعرف هذا جيداً، ويعلم أن قريشاً ستملأ السهل والجبل بفرسانها ومقتفي الخطى والآثار فيها حتى تظفر بالنبي المهاجر
فما باله يتهلّل لهذه الصحبة، ويحرص عليها، ويطير قلبه فرحاً بها..؟

إنه الإيمان ..

إيمانه - أولاً - بأن الله لم يأتِ بكلمته إلى الناس وفي مشيئته أن يتركها للفرص تذروها مع الريح من أول صيحة..

وإيمانه ثانياً بأن الإيمان مسئوليته وتضحيته، ولقد أصبح مسئولاً عن هذا الدين منذ تبعه، وعن هذا الرسول منذ بايعه..

ومهما تكن العواقب إذن، فلن يكون ثمّة سوى طريق واحد لا يعرف أبو بكر سواه.. ذلكم هو الطريق الذي يحدده الإيمان، وطريق التضحية التي تقتضيها هذا الإيمان..

لقد آمن بالله، وبرسوله، وبدينه..

ومهمته بعد، تتلخّص في أن يجعل من حياته كلها سلاحاً يحمي به الدعوة والداعي، الدين والرسول ﷺ..

وحين يوفّق في مهمته هذه، تظل عنده هي الحظوظ الوفية التي يرجوها، ويمشي فخوراً بها، ويحسّ كلما تزايدت أهوالها وأخطارها، أنه أعظم أهل الأرض حظاً، وأوفرهم سعادة ونعيماً .. !!

ومن هنا كانت غبطته الغامرة حين رأى نفسه زميلاً للرسول ﷺ في هجرته.. ولقد أجزل الله له المثوبة والمكافأة.

وكانت المثوبة مزيداً من الإيمان، ملأ الله به قلبه في ضوء تجربته من أروع التجارب..

فحين أوى مع الرسول إلى الغار ليختفيا فيه من قوى المطاردة التي كانت تلهث وراءهما طمعاً في نيل الجائزة المغرية التي أعلنتها قريش لمن يأتيها بالرسول عليه السلام..

حين أويا إلى الغار معاً - الرسول ﷺ، والصدّيق، واقترب المطاردون من الغار، وراحوا يطوفون حوله.. وفزع أبو بكر تحت هول السؤال الذي أخذ يلحّ عليه:

- ماذا لو نظر أحدهم إلى جوف الغار .. ؟

- ماذا لو ظفر المجرمون برسول الله .. ؟

حينئذ كان الله يدّخر للصدّيق الدرس الأجلّ الذي سيكمّل إيمانه، ويبلغ به أعلى مستويات الإيمان المتاحة للبشر..

فلقد ألقى على الرسول سؤاله:

- يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلينا لرآنا..

قال هذا وعيناه تتجهان إلى رسول الله ﷺ في حنان وقلق..

ولم يكد بصره يلتقي بمُحيّا الرسول حتى رأى عجباً.. رأى وجهاً متهلّلاً كأنما أُتيحت عليه أنداء كل ما في الحياة من سكينة، وطمأنينة، وأمل..

ورأى راحة الرسول تلامس صدره، وكأنما تسكب فيه الطمأنينة سكباً .. !!

وقال له الرسول ﷺ:

- يا أبا بكر - لا تحزن، إن الله معنا.

ما ظنك باثنين، الله ثالثهما .. ؟!

وسكن أبو بكر، ورأى المطاردين يطوفون بالغار في ضلال، ثم يرتدون عنه حيارى وخائبين، لم يدركوا شيئاً .. !!

ثم له يومئذ إيمانه، واستوى على عرش الثقة يقينه.

وكأنما جاءت به الأقدار لصحبة الرسول ﷺ في الهجرة لتريه هذا المشهد.

بل لكأنما أراد القدر هذا المشهد وهيّأه، ليسمع أبو بكر من عظة البلاغة كل ما بقي له من حظوظ إيمانه بجزاء ووفاء، وكأساً دهاقاً، لن يظمأ أبو بكر بعدها أبداً إلى إيمان ويقين .. لقد بلغ إيمانه الذروة في لحظة الغار!

* * *

ولنتابع سيرنا وراء هذا الإيمان لنعد لنرى جلاله المهيب في مشهد تلو مشهد.

في السنة السادسة من الهجرة، وفي شهر ذي القعدة، غادر الرسول ﷺ المدينة، ومعه عدد كبير من المسلمين، قاصدين مكة ليعتمروا. وساقوا الهدي أمامهم لتعلم قريش أن الرسول جاء زائراً للبيت الحرام، ولم يأت مقاتلاً.

بيد أن نبأ هذه الزيارة، كان قد سبق إلى قريش بطريقة ما فحشدت جموعها، وصممت على منع الرسول ﷺ وصحبه من دخول مكة وزيارة الكعبة.

ونزل الرسول وأصحابه عند منطقة الحديبية.

وأوفد إلى قريش "عثمان بن عفان" ليشرح لها سلمية مهمته.

وأوفدت قريش "سهيل بن عمرو" ليفاوض الرسول في الأمر.

وانتهت المفاوضة إلى عقد ميثاق، يعود المسلمون بمقتضاه إلى المدينة مرجئين زيارة البيت إلى العام القادم، كما يقضي الميثاق بإلزام المسلمين بأن يردوا إلى قريش من يأتيهم مسلماً، ولا ترد قريش إلى المسلمين من يعود إليها مرتداً.

ولم يكد ينتهي سهيل من كتابة الميثاق، ولم ينهض الرسول ﷺ بختام الندوة بعد، حتى فوجئ المسلمون بفتى يأتيهم صارخاً مستغيثاً، يرسف في قيوده، ويجرجر أغلاله المثبتة في صخرة غليظة كي تعوقه عن المسير .. !

كان هذا الفتى "أبا جندل" وهو ابن "سهيل بن عمرو" مندوب قريش هذا الذي يتفاوض مع رسول الله ﷺ.

وفاض قلب الرسول من الأسى لمنظر أبي جندل الذي ارتمى في حجره مستغيثاً برسول الله.

وقال الرسول ﷺ لسهيل:

- اترك لنا "جندلاً" فإنا لم نحرر العهد بعد.

ولكن سهيل أبى أن يترك ولده يذهب إلى الإسلام، وهو واحد من زعماء قريش، فأصرّ على تسليمه، أو ينقض العهد كله، وتكون الحرب.

وصاح أبو جندل:

- يا معشر المسلمين، أتتركوني أُردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً .. ؟

- ألا تبصرون ما على جسدي من عذاب في الله .. ؟

وناداه الرسول ﷺ بكلمات آسية :

- صبراً .. وسيجعل الله لك مخرجاً .

كان هذا المشهد أدهى وأكبر من أن تحتمله أعصاب المسلمين ..

فكيف يرجعون دون أن يزوروا البيت الحرام .. ؟

وكيف يُسْلمون للعذاب مُسلماً جاء يستصرخ بهم ويستغيث .. ؟

ويصور لنا حديثهم القلق الرهيب في أنفسهم موقفُ واحدٍ من أعظمهم إيماناً، ونفساً، وطاعة .. هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه

لقد ذهب إلى الرسول ﷺ يسأله، ويناقشه

- يا نبي الله، ألست نبيَّ الله حقاً .. ؟

وأجابه الرسول ﷺ :

- بلى، يا عمر

- فلم نعطي الدنيّة في ديننا .. ؟

أجابه الرسول ﷺ :

- يا عمر، إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري

قال عمر

- أولم تعدنا يا رسول الله بأننا سنأتي البيت ونطوف به .. ؟؟

قال الرسول ﷺ أوقلتُ هذا العام يا عمر .. ؟؟

قال عمر لا

قال النبي ﷺ : فإنك آتيه ومطوِّف به

إن هذا الحوار يكشف عن حدّة الأزمة التي عاناها المسلمون يومئذ .. ولكنْ ما شأن أبي بكر بهذا كله .. ؟؟

إن "أبا بكر" ، هو أستاذ فن الإيمان في ذلك اليوم العصيب . كما سيظل أستاذه في كل حين ... ولنمض وراء "عمر" ، فبعد لحظات سنلتقي معه عند "منصّة الأستاذية" حيث يتربع فوقها هذا المعلم الكبير أبو بكر الصديق !!

انصرف عمر من بين يديْ رسول الله ، وهو لا يزال يعاني مشاعره القلقة

وبعد ردّه الأدب مع الرسول ﷺ عن الاسترسال في مناقشته والإلحاح في السؤال بَدا أنه يحسُّ في نفسه حاجة إلى مزيدٍ من الوضوح .

فمع من يتحدث .. ؟؟

لا أحد سوى أبي بكر .

ومضى يتخطى صفوف المسلمين وخيامهم حتى لمحه هناك ، في أقصى المجمع ، تغمره طمأنينة عجيبة !

ألقى عليه الأسئلة ذاتها التي ألقاها على رسول الله ﷺ منذ لحظات

وتلقى من أبي بكر الإجابات ذاتها التي سمعها من رسول الله

وانتهى الحوار بينهما

يقول عمر:

- فأخذ أبو بكر بيدي، وحدثني في قوة، وقال لي

« أيها الرجل، إنه رسول الله، ولن يعصيه، وإن الله ناصره، فاستمسك بغرزه(1)، فوالله إنه على حق ..

« فأنزل الله السكينة على قلبي وعلمتُ أنه الحقّ ».

هذا هو إيمان أبي بكر الذي لا يتلعثم، ولا يبحث عن نفسه أبداً

الإيمان الذي لا تأخذه سِنة، ولا تقتحمه خلجة شك في سرٍّ أو علن !

وفي ساعات العسرة، وخلال الأزمات العظمى، كان إيمان هذا المؤمن يخرج حناياه البحر، فيملأ الزمان والمكان والأنفس روعة ..!!

* * *

ولك أن تشهده يوم "بدر" وقد نزلت قريش تحتشد بالنخب عند العدوة القصوى من الوادي، متسلحة بكبريائها وبأسها.

وخرج المسلمون مع رسول الله ﷺ وعددهم يومئذ ثلاثمائة لا يملكون من سلاح الحرب وعدته إلا النزر اليسير

ويلتقي الجمعان، وتتلظى أرض المعركة فجأة

ورسول الله جالس في عريشه، حيث توسّل إليه أصحابه ألا يغادر خيمته مهما تدُرْ رحى الحرب، وأبو بكر معه

يبصر الرسول ﷺ المعركة المحتدمة الحافلة، ويرى أصحابه وهم قليلون، يكادون يذوبون وسط الخِضَمّ الوثني المجنون !

وكلما رأى شهيداً يسقط، طار معه قلبه حبّاً وأسًى

وبلغ القتال ذروته الفاصلة، ولم يعد يُسمع إلا صليل سيوف مواجهة تعزف لحن الموت والدم، وأحسّ الرسول ﷺ أن كل مقدّرات الدين قد صارت في الكفّة المرجوحة لا الكفّة الراجحة.

وخرج من خيمته باسطاً إلى السماء ذراعيه، مثل شراعيْ سفينة تدفعهما موج عنيد ..!!

وراح يُناجي ربه في ابتهالات عالية

« اللهم إنْ تَهلكْ هذه العصابة من أهل الإسلام، فلن تعبد في الأرض »

« اللهم أنجزْ لي ما وعدتني .. »

---

(1) أي بأمره ونهيه

وبوابت ابتهلاته ويحسب بر نه وبهدّجت دعواته ، وسقط رد ؤه من فوق منكبه .
وهنا اقترب أبو بكر في هدوء فرفع رداء الرسول ﷺ وأعاده إلى مكانه فوق المكبين ، لبين كانا آنئذٍ تحملان أعظم أعباء الحياة
وفي كلمات متوسلة ، قال أبو بكر :
ـ « يا رسول الله ، كف مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك »
ثم بكى الرسول في شئ من نصر الله فقبيل المعركة قال لأصحابه
ـ « إن الله وعدني النصر .. » .
وقال لهم : « لكأني أرى مصارع القوم .. » !!
لكن مستوساته المباشرة على صحابه وعلى الدين الذي نواجه أول معركة مع خصومه ، عكست على مشاعره حماس المعركة وقلقها

* * *

ومن شاء أن يرى إيمان أبي بكر في أجل ساعاته .
من شاء أن يرى الإيمان القوي الموصول بيوم السموات والأرض
فليرَ هذا الإيمان يوم دُعي الرسول إلى الرفيق الأعلى ، فأجاب ورحل عن الحياة والأحياء
يوم بغت المسلمون فجاءة ، فلم يروا بينهم الأب الذي كان يملأ حياتهم حناناً ، والنور الذي كان يملأ وجودهم ضياء ..
يومئذ تكشف جوهر هذا الإيمان
إيمان رجل إلهي ، أعطى الله موثقه مع محمد ، فإذا حتفى محمد ﷺ الموت ، فإن هذا الإيمان لا يضعف ، بل يتفوق ولا يتحرج ، بل يحتشد ولا ينوء تحت وقع الضربة ، بل ينهض أكثر رشداً وثباتاً ، ليحمل مسئولياته وتبعاته !
وهكذا وقف أبو بكر ـ أو بتعبير أصح ـ وقف إيمان أبي بكر يوم وفاة الرسول وقفة ما كان نقدر عنها سواه .. !!
يومئذ ، وبعد أن صلى بالمسلمين ، عاد الرسول في حجرته ، واستأذنه في أن يغيب عنه بعض الوقت ، وذهب إلى داره بالسنة في أقصى المدينة
ومضى وقت ليس بالطويل قضى فيه بعض حاجات أهله
وإذا هو يتهيأ للعودة إلى رسول الله ﷺ إذا الناعي يقطع الأرض له وثباً ، ويلقي عليه النبأ الذي يهد الجبال
حمد واسترجع ، وحبست دموعه الهاطلة بكلماته وهو يقول « إنا لله ، وإنا إليه راجعون » .
وأغذ السير رابط الجأش ، ووليّ الحمد إلى بيت رسول الله ﷺ

---

(١) أغذ السير أسرع فيه

لم يكد يخرج من المسجد حتى رأى الفجيعة الكبرى لقد فقد المسلمون صوابهم !!!

حتى ابن الخطاب القوي الراسخ، وقف بين الناس شاهراً سيفه، صائحاً:

« إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران. »

« والله ليرجعن رسولُ الله، فليقطعن أيدي رجال زعموا أنه مات »

« ألا، لا أسمع أحداً يقول إن رسول الله مات، إلا فلقت هامته بسيفي هذا » !!

تلك كانت حال عمر، فكيف كانت حال سواه..؟؟

لقد كان موت الرسول ﷺ مفاجأة تامة للمسلمين على الرغم من سابق مرضه كأنهم ما تصوروا قط أن يقال لهم ذات يوم - مات الرسول..!

فلما أنفذ الله أمره، واختار لجواره رسوله، وكتب على الناس أن يسمعوا في لجج من الهول والأسى كلمة الموت مقرونة بكلمات الرسول، طار منهم صوابهم

ولقد كان أبو بكر أحوج الناس بأكبر قدر من الأسى والذهول

فهو "صديق" العمر لمحمد ﷺ منذ طفولته حبيبه وصاحبه وهو "صديقه" منذ أول أيام الوحي والدين وهو قد أحبه حباً، واخاه مؤاخاة تجعل الصبر على فراقه فوق طاقة البشر

لكن أبا بكر كان يبدو وكأنه لا تحركه مقاليد بشريته، بل طاقة إلهية خفية فيه !!

ولندع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبي بكر عند الصدمة الأولى:

« أقبل أبو بكر، يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء، ودخل على رسول الله ﷺ، وهو مسجّى في ناحية البيت، عليه بُرْدٌ حِبَرَة، فكشف عن وجهه ثم قبّله وقال:

«بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً.. إن الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها

« ثم ردّ الثوب على وجه الرسول..

« ثم خرج، وعمر يكلم الناس، فدعاه للسكوت، فأبى عمر إلا أن يسترسل في قوله

« فلما رآه أبو بكر لا يُنصت، أقبل على الناس يكلمهم.

فلما سمعوه أقبلوا عليه منصتين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

« أيها الناس،

« من كان يعبد "محمداً"، فإن "محمداً" قد مات

« ومن كان يعبد الله، فإن الله حيّ لا يموت

« ثم تلا هذه الآية.

﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾

« فوالله لكأن الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة..

« أما عمر، فقد وقع على الأرض، حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقاً »

* * *

في هذه اللحظات الذاهلة ، و الفاجعة المزلزلة يكون مثل هذا الشيء ؟

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات»

« ومَن كان يعبد الله ، فإن الله حيٌّ لا يموت» . !!

إن أقصى ما كان يُنتظر أن يُمليه التجلّد والسكينة ، كلمات توصي بالصبر وتمسح الجراح .

ولكن البديهة المؤمنة التي نشأت على الصدق ، وقعت في أقلّ من لمح البصر على كلمة السرّ التي ستردّ إليهم المسحة تحت وطأة الفاجعة إلى وعي قدير ، يستقبلون به الحسم ، ويعبرون أزمة الموت بسلام .. !!

ولم تكن كلمة السر سوى هذه الصيحة الحاسمة الفاصلة :

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات » ..

« ومن كان يعبد الله ، فإن الله حيٌّ لا يموت »

الله حيٌّ لا يموت .. ؟؟

إذن يا خيل الله اركبي

ويا راية الله ارتفعي

ويا حملة هذه الراية ، قوموا ... انهضوا ... وواصلوا رحلة الشمس المشرقة ، والدين الجديد !!

ولقد فعلت صيحة أبي بكر في نفوسهم فعل القدر ، فقاموا إلى الجسد الكريم يتسجّى ، وأدّوا له تحيّة الوداع ممزوجة بعزم الأبد الذي سيستقبلون به تبعات ساعة البلية !!

* * *

عندما نستعرض هذه المشاهد التي تجلّى خلالها إيمان أبي بكر ، نجد أنفسنا أمام سؤال بالغ الأهمية :

هو : ماذا ، لو لم يكن هناك أبو بكر ؟؟

ويسألني هذا السؤال ، ويعرض نفسه بصورة أكيدة ، أوضح عندما نعيش عن قرب مع أبي بكر في اليومين العظيمين : يوم السقيفة ، ويوم الردّة

إن الأمر ليبدو كما لو كان الله سبحانه حين اصطفى "محمداً" عليه الصلاة والسلام ليكون رسوله إلى الناس ، اختار معه في اللحظة نفسها "أبا بكر" رضي الله عنه ليكمل دور الرسول ﷺ ..

وحين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى الأسوة تتلقى عنهم ومن سيرهم فنّ الإيمان ، فإنها واجدة على رأس تلك القلة النادرة الباهرة ، رجل الإسلام الكبير "أبا بكر الصديق" .

ولقد عشنا اللحظات مع إيمانه ، فلنر مع الصفحات المقبلة ، كيف حمل هذا المؤمن مسئوليات ذلك الإيمان ، وكيف وهب حياته لتبعاته في تواضع مطلق ، وسمو بعيد

■ ■ ■

ولو خطفتني الذئاب ..

كان موقف الصدّيق يوم وفاة الرسول بمثابة "البُوصلة" التي جذبت اتجاه الريح نحو الرجل الذي سيملأ الفراغ الكبير الذي تركه الرسول برحيله

فالرجل الذي لم يفقد شيئاً من "ثباته" أمام المفاجأة التي روعت المسلمين ، جميع المسلمين .. !!

الرجل الذي احتفظ برباطة جأشه ، وسكينة نفسه ، وسداد فكره على هذا النحو الفذ في هذا الموقف الذي يَدَعُ الحليم حيران .. !

هذا الرجل هو الجدير بأن يتقدم ويقود

ولم يكن ذلك فحسب مناط امتيازه واستعداده

فهناك الماضي الحافل بكل بُطولة وكل مكْرُمَة .

ففي مرض الرسول عليه السلام ، اختار أبا بكر ليصلي بالناس مكانه ، وقال : "مُروا أبا بكر ، فلْيُصَلِّ بالناس" .

وحين راجعته السيدة عائشة في هذا قائلة : إن أبا بكر رجل رقيق القلب ، وإنه إذا قام مقامك غلبه البكاء ، فمُر "عمر" أن يصلّي بالناس" .

حين راجع النبي في الأمر غضب ، وعاد مرة ثانية : "مروا أبا بكر فليصلّ بالناس" .

وامتثل الصدّيق أمر الرسول ﷺ ، وهو لا يدري - ولعله كان يدري - أنه في تلك اللحظات إنما يتسلّم الراية من رسول الله ليحملها من بعده

ولقد فوجئ أبو بكر إثر وفاة الرسول ﷺ مباشرة بموقف لم يكن يخطر بباله

ذلكم هو موقف السقيفة الذي بدا مبدأً بشرٍّ مستطير ، ثم انتهى نهاية موفورة العافية والسعادة ، إذْ بويع أبو بكر خليفة وإماماً .

وحسب مطالع تاريخ "أبي بكر" لا تجد لديه أدنى رغبة في أن يحكُم الناس ، أو أن يكون خليفة عليهم

إن شأنه في العزوف عن مناصب الدنيا ، شأن عمر

بل إن "عمر" في هذه اللحظة والمنصب ، كان يتمنى لأبي بكر ، أن يبسط خطاه

وجاء يومُ السقيفة ليجتاز إيمانه امتحاناً رهيباً

وكُتب على الرجل الذي كتب هو به أن يعيش في الظلّ ما لم يكن ثمة خطر يدعوه

الرجل الذي كانت قرّة عينه في ألاّ يسمع عنه أحد وهو في مكان الصدارة يبعث في النفس زهواً وعُجْباً .

الرجل الحيي، الوديع الأواب، كُتب عليه أن يعلو صدر الأحداث فجأة، لا طمعاً ولا رغبة، ولكن تلبية لتبعات إيمانه، ومسئوليات دينه.

ففي إثر وفاة الرسول عليه السلام، اجتمع نفر كبير من الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا "سعد بن عُبادة".

وعلم أبو بكر فذهب إلى السقيفة ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح.

ثم شرع أبو بكر يصحح الخلافة نفسه، وإنما شرع ليكف الفتنة أولاً، ثم ليكبح جماح الطائفية، حيث وقف من يقول: لا للأنصار، ومن يقول: لا للمهاجرين.

ثم يبحث مع المسلمين الطريق الأمثل لاختيار الخليفة الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الرهيب الذي كان يملؤه رسول الله ﷺ.

واجه أبو بكر الجمع المحتشد في أناة.

كان ثمة كلمات تتطاير كالرصاص المقذوف.

كان ناس من الأنصار يحرصون للأنصار على التشبث بالخلافة بأسلوب حاد ولاهب!

وكان هناك مهاجرون يرفعون أصواتهم الزاجرة ضد رغبة ذلك النفر من الأنصار.

لقد فقد الناس أكثر صوابهم بموت رسول الله ﷺ، فما أدار وا خواطرهم حول موضوع الخلافة وهم في جو الكارثة لا يزالون، فضربت الأمور في أيديهم، واتسع مكان البلبلة والاهتياج.

وليس أدل على أن هذا الموقف كان دخيلاً عليهم وعلى إيمانهم من عودتهم السريعة إلى رشدهم واجتماع كلمتهم العالية حول هذا الحكيم الأواب.

صحيح أن أبا بكر سيؤثر المهاجرين بالخلافة. ولكن، ليس لأنهم مهاجرون قرشيون، بل لأن الهجرة أعطتهم مكان السبق في الإسلام.

فالهجرة كانت بهذه المرحلة العسيرة التي سلط عليهم فيها كل بأس قريش تفتنهم عن دينهم، فما ازدادوا إلا إيماناً وثباتاً.

وهذا هو الميزان الذي يزن أبو بكر به الناس.

ولقد استنبطه من كتاب الله سبحانه إذ يقول:

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾.

ثم هو سيؤثر المهاجرين بالخلافة نصاً، لأن النفر الذين طلبوا الخلافة من الأنصار قد حرصوا على أمر حرّب عنه الرسول ألا تمكّن منه من يطلبه أو يحرص عليه، وهو الولاية.

وإن أبا بكر ليذكر ذلك اليوم الذي ذهب فيه العباس عم النبي ﷺ يسأله أن يوليه ولاية، فأجابه عليه السلام قائلاً:

- إنّا والله لا نولّي هذا الأمر أحداً يسأله، أو أحداً يحرص عليه!

ذلك لأن مسئوليته الحكم غُرْم لا غُنْم. وصحبته لا تركه ، وإذا حرص عليها أحد ، فمعنى ذلك أنه لا يقدِّر المسئولية التي ستنظره عليها..!!

وهناك عند السقيفة همَّ عمر ليتكلم في الحشد الثائر ، لكنَّ أبا بكر أومأ إليه بيمينه ، واستأذنه في أن يبدأ هو الحديث :

– " يا معشر الأنصار

"إنكم لا تذكرون فضلاً إلاَّ وأنتم له أهل"

هكذا بدأ الصدِّيق قوله.. ثم راح الحديث ينساب من فمه ،

ومضى يدلي برأيه فيمن يُرشح للخلافة

إنه واحد من اثنين

عمر بن الخطاب .. الرَّجل الذي أعز الله الإسلامَ به

وأبو عبيدة بن الجراح الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه "أمين هذه الأمة" ..

"لقد رضيتُ أحد هذين الرجلين ، عمر ، وأبي عبيدة" وارتعدت يد "عمر" كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة ،

وغض "أبو عبيدة" عينيه الباكيتين في حياء شديد

وصاح عمر

– والله لأن أُقدَّم فيضرب عنقي في غير إثم ، أحبَّ إليَّ من أن أُؤمَّر على قوم فيهم أبو بكر .. !!

وكان جلال هذا المشهد أبلغ من كل مقال..

فما كاد عمر ينهي بكلمته هذه ويتقدم باسطاً يمينه ، مبايعاً أبا بكر حتى ازدحم الأنصار على البيعة وكأنما دعاهم من السماء داعٍ .. !

لقد كره المسلمون أن يبيتوا يوماً واحداً بغير إمام يجتمع عليه أمرهم

فمضوا يبحثون الأمر ، ورسول الله ﷺ لم يُدفن بعد ، وأعصابهم جريحة تحت وطأة موته.

ولقد كان من المحتمل ألا ينتهي "يوم السقيفة" دون أن يترك في الناس شروخاً عاثرة

لكن الله أكرم الإسلام والمسلمين يومها بأبي بكر ، فاجتاز الناس في سلام عظيم أول تجربة من نوعها وأقساها

وغربت مع شمس ذلك اليوم كل الخلافات

إن العظائم كفْؤها العظماء

ولقد اختار القدرُ هذا العظيم ليواجه جلائل الأمور وعظائم المسلمين

ولسوف يُثبت هذا الخليفة العظيم جدارته بالمكانة التي بوأه الله إياها في قلوب الناس ، وفي قلب التاريخ ، وستجرنا تحت الأحداث التي تنتظره والتي سوف يكشف عن مدى ما يستطيع الإيمان أن يقهر من صعاب ، ويأتي من معجزات .

فما كادت موت الرسول عليه السلام يذيع في البلاد حتى تصوّر المرجفون والذين في قلوبهم مرض ممن كان إسلامهم قد هشّة ومهتزة، تصوّروا أن الرسول ﷺ لم يمت وحده، وإنما مات الإسلام معه.. وعليهم أن يتحركوا بسرعة ليرثوا ذلك الدين الذي انتهى في ظنهم، وليستردّوا جميع الامتيازات التي كانوا قد فقدوها تحت ضغط الدين الجديد.

وهكذا بدأت انتفاضات، لم تلبث حتى تحولت إلى رِدّة مستشرية، وجيوش يتداعى بعضها بعضاً للزحف على المدينة، والإجهاز على الإسلام.

في البلاد البعيدة عن المدينة كان أكثر المسلمين حديثي العهد بالإسلام، وكان الدين مرتبطاً في وجدانهم ارتباطاً كاملاً بصاحبه ورسوله.. فلما مات الرسول ﷺ، وقف فيهم من زينت لهم نفوسهم أن يستعيدوا حرية إسلامهم، فساروا وراءه مرتدين.

والحقّ أنها لم تكن أول الأمر ردّة كاملة عن الدين.

إنما كانت "إضراباً" عن دفع الزكاة.

لكنّ أبا بكر رآها ردّة، ورآها محاولة لعودة الإسلام بعد أن مات رسوله، فرد أيدي الإسلام عن أيّ ضعف أمام هذا التمرد، فسيتحول العرف في كل جانب.. ويوشك ظهره يبين.

* رأي يرى ألا يقاتل هؤلاء، ما داموا لم ينكروا سوى امتناعهم عن دفع الزكاة، وعلى رأس هذا الفريق، عمر بن الخطاب.

* ورأي آخر، يرى أن الزكاة - أولاً - ركن من الدين، ليس من حق الخليفة أن يدع الناس يهدمونه، ويرى - ثانياً - أن الامتناع عن أدائها، ليس سوى البداية وليس سوى حركة استطلاع، يتلوها بعدها التمرد الكامل على الإسلام.

وحمل لواء هذا الرأي أبو بكر.

وهنا يبين الفرق الحقيقي بين طرازين من العظمة، وهو فارق تتجلى في الخلفاء ولاته.

ولو سئل الناس - جميع الناس - قبل أن يعلن كل من أبي بكر وعمر عن رأيه في هذه الأزمة، لو سئل الناس من الذي سيكون أكثر صرامة وشدة، ومن الذي سيكون أكثر لِيناً ومُهادنة؟ لما ترددوا في أن يشيروا إلى "عمر بن الخطاب" منادياً بالقمع الصارم، وإلى "أبي بكر" داعياً إلى الأناة والملاينة.

ومع هذا، فالذي حدث كان العكس والنقيض.

فلقد وقف أبو بكر "أصديق" الأزمة بإرادته متحوّلة، مصمّمة على أن تضرب في غير تردد، موضحاً قناعته في هذه الكلمات:

"والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف"!!

أما "عمر"، فيقف من الأزمة موقفاً مغايراً.

ويوجّه إلى الخليفة هذا السؤال.

«كيف تقاتل قوماً يشهدون أن لا إله إلا الله، وقد أخبر الرسول ﷺ أن من قالها فقد عصم دمه وماله»..؟؟

ويجيبه أبو بكر سائلاً:

- ألم يقل الرسول ﷺ "إلا بحقها"؟ ألا إن الزكاة من حقها

ووراء موقف أبي بكر هذا علامتان مضيئتان:

أولاهما: تكشف عن يقين أبي بكر "المؤمن"

وثانيهما: تكشف عن بصيرة أبي بكر "الخليفة والزعيم"

* فيقينه بالله وبرسوله يرتفع إلى مستوى الإذعان المطلق لهذا الصفاء من أمر ومنهج

وهو بهذا يحمل كل مسئوليته عن الدين، فلا يسمح بأن يعتدي أحد على عهده شيء من شرع الله وسنة رسوله. وكل فريضة توفي الرسول ﷺ وهي قائمة، لابد من أن تظل قائمة مهما تكن التضحية.

* وهو ببصيرة القائد والحاكم والزعيم يرى أن أي بادرة من بوادر الضعف تعتري الإسلام في هذه الأزمة العاصفة، ستغري قوى الشك والظلام بالوثوب عليه من كل واد

يقينه ذاك، وبصيرته هذه، تشكلت في بوتقة قوة هائلة هي التي عقلته وإرادته لمواجهة الموقف على النحو الذي سبق، والذي أظهر سير الحوادث أنه لولاه لتعرض الإسلام لما يشبه الفناء..

لكن هذا الإيمان وهذه البصيرة لم تكونا لعملاق ينعزل عن رأي الجماعة ويجفوهم في الشورى والمناقشة..!!

فعلى الرغم من أن أبا بكر في أزمة الردة كان يستطيع أن يمضي في الحرب دون أن يقنع بها الآخرين، بل حتى لو لم يقتنع هو بها، لأنه في هذا إنما ينفذ حكماً شرعياً لا يملك هو، ولا المسلمون، أن يبدلوه ما داموا قد آمنوا بالقرآن واتخذوه دستوراً وشريعة، وما دام القرآن يقول لهم:
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾..

وعلى الرغم من هذا، فإن أبا بكر لم يمتشق حسامه حتى اقتنع المسلمون برأيه، واقتنعوا بأنهم حقاً ليسوا أمام مجرد محاولة للنكوص عن دفع الزكاة، بل هم أمام تمرد متجهم مسلح، وزحف أكيد على المدينة وعلى الإسلام.

وساعتئذ قال عمر قولته المأثورة:

"فما هو إلا أن شرح الله صدري لرأي أبي بكر"

وقال ابن مسعود كلمات تصور الموقف أصدق تصوير:

- "لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن منّ الله علينا بأبي بكر"!!

لقد كان ثمة قدر يسمح بالخلاف في الرأي في هذا الموضوع وبأن تتباين النظر ومن ثم عرض أبو بكر المسألة للمناقشة مبدياً تصميمه على أن تحمل المسئولية التي فرضها عليه القرآن.

ولكن هذا القدر الذي يسمح بتبادل الرأي متمثلاً في الصورة التي بدأت بها المحاولة المرتدة إذ كانت في بداياتها الأولى لها مقصورة كما ذكرنا على الامتناع عن دفع الزكاة

فهل يوجب الامتناع عن دفع الزكاة القتال ؟

وبأسلوب عصرنا الحديث نقول: إن الأزمة بدأت بحركة "عصيان مدني" تمثل في الامتناع عن دفع الضرائب، وتحول إلى "عصيان مسلح" ليؤكد حقه في هذا الامتناع

فهل تقف الحكومة ساكنة حيارى أمام هذا التحدي أو تحمل مسئولية زجره وقمعه ؟

هذا، مع ملاحظة أن الذين امتنعوا عن دفع الضريبة وحملوا السلاح، لم يقفوا مكانهم في ديارهم مكتفين بموقف الدفاع إذا هوجموا، بل بادر بعضهم بقصد أن يزحفوا على المدينة

هذا هو وضع الأزمة تماماً

ومع ذلك، فقد بلغ التسامح بحكمها أن يختلف فيها المسلمون، ويتبنى الرجل الثاني فيهم وهو عمر بن الخطاب، الرأي القائل بموادعتهم، وتركهم حتى يفيئوا تلقائياً إلى أمر الله وهداه.!

* * *

وبعد، فموقف الردة هذا وقف وحيد، فثمة موقف آخر سبق وقفة الردة، ويتجلى فيه إيمان أبي بكر بربه وبرسوله، على نحو يجعل من هذا الرجل شخصاً هو نسيج وحده في الإيمان. ذلكم هو موقفه من بعث أسامة.

فقبل وفاة الرسول، كان عليه السلام قد أعد جيشاً بإمرة "أسامة بن زيد"، ووجهته الشام

وكان الجيش يوم مات الرسول ﷺ معسكراً على بعد ثلاثة أميال من المدينة، بينما شاع

وارتجفت وفاة الرسول رجفة، واختلف الرأي بعد هذا في أمره

فرأى فريق من المسلمين، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، أن بعث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة في الوقت الذي أصبحت المدينة نفسها - عاصمة الإسلام - مهددة بغزو المرتدين

ورأوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة ليكون في مواجهة الأحداث الجديدة الراهنة

وكان "أسامة" نفسه - قائد الجيش - من أصحاب هذا الرأي.

والمسألة حين تقاس بالمقاييس المجردة لا تبدو الصواب إلا في هذا الرأي الذي تبناه عمر وأسامة.

لكن أبا بكر ينطلق منطلقه من نفسه، وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية يبرم الله فيها حكماً، فلتكن ما أمر الرسول ﷺ به، مهما تكن مستجدات الظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة.!

وهكذا كان جواب أبي بكر للناس :

ـ "أنفذوا بعث أسامة ، فوالله لو خطفتني الذئاب لأنفذته كما أمر رسول الله ﷺ ، وما كنت لأرد قضاءً قضاه" !!

لم يعد ثمة نزاع في الأمر ، ولم يكن أبو بكر بتصميمه هذا ممتنعاً على آراء الآخرين ، لأن القضية أساساً ليست مما تعرض للشورى بعد أن قال فيها رسول الله ﷺ كلمته وأعطى أمره

وأبو بكر يؤثر أن تتخطفه الذئاب على أن يرد للرسول قضاء ، أو يعطّل مشيئة !!

وعاد بعض المسلمين وعلى رأسهم "عمر بن الخطاب" نفسه ، يطلبون من "أبي بكر" أن يجعل على رأس الجيش قائداً غير "أسامة" الذي كان فتى صغير السن ، محدود الخبرة ، ولا سيما في هذا الجيش شيوخ الصحابة وأجلاؤهم

وهذه المسألة أيضاً إذا بحثت في ضوء المنطق المجرد يبدو ذلك الرأي سديداً

لكنّ أبا بكر في هذا ، شأنه في كل أمر يستمد منطقه من إيمانه.

فالذي ولّى أسامة قيادة هذا الجيش ، هو رسول الله ..

ولقد رفضه الصحابة ورسول الله حيٌّ، أفيخلع أبو بكر رجلاً ولاه الرسول ﷺ ؟؟

لم يكد عمر يعرض الرأي المقترح على أبي بكر حتى ثار الرجل الحليم ثورة ما ثار مثلها قبلُ ولا بعد ..!!

ولندع شاهد عيان يصف لنا المشهد فيقول

ـ "وثب أبو بكر من مكانه واحد بلحية عمر ، وقال ويحك يا بن الخطاب أيولّيه رسول الله ، وتأمرني أن أعزله" ؟؟!!

ثم قام يتبعه عمر إلى حيث كان الجيش معسكراً ، فدعاهم للتحرك على بركة الله وسار معهم مودّعاً ..

ومشى الخليفة على قدميه إلى جوار أسامة الذي كان ممتطياً ظهر فرسه

واستحيا أسامة ، فهمّ بالنزول ليدع خليفة رسول الله يلي الركوب

"فثبّته أبو بكر بيده في مكانه وهو يقول والله لا نزلت ولا أركب وماذا عليّ أن أغبّر قدميّ في سبيل الله ساعة" ؟!

كل أمر عنده سهل ، وكل خطر يهون ، إلا أمراً يدعوه إلى الخروج قيد أنملة عن طاعة الله ورسوله ..

إن بينه وبين الله عهداً وموثقاً يتمثلان في تمسكه الراسخ الصامد

وإنه لمصمم على أن يحمل حتى الموت الأمانة كلها ، التي يفرضها هذا الإيمان ولو تخطفته الذئاب !!

وهو على يقين أن الإيمان يحمل معه بصيرته التي تهدي إلى الحق وإلى الصواب

وفي قصة أسامة بالذات نجتلي صدق هذا القبس

فإصرار أبي بكر على إنفاذ بعث أسامة لم يُضْفِ عليه مثوبة الطاعة فحسب ، بل أفاء عليه الرُّشد والمنهج الصواب

فهناك صوب الشمال كانت الفتنة قد شرعت تذرُّ قَرْنها

ولكن لم تكد الطلائع التي مرَّ بها جيش أسامة وهو في طريقه إلى الشام ، ثم تكد تبصر هذا الجيش اللَّجب حتى عادت إلى صوابها ، وقال بعضهم لبعض

ـ والله لو كانت المدينة تئن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا ، ما كان بوُسعها أن تبعث هذا الجيش ، في هذه الأيام لتنازل الروم !!

وهكذا كاد مجرَّد تحرك الجيش إلى غايته مثبطاً أي مثبط لكثير من الفتن التي كانت فتنة الرِّدَّة تتسلل إليها !!

* * *

ونعود إلى الصِّديق وهو يواجه الرِّدَّة بإيمانه الصُّلب

وعندما نعيش مع المصادر التاريخية التي سجَّلت أحداث تلك الأيام العاصفة تلك حتى يملأ الأفق سؤال أكيد هو :

ـ أيُّ مصير كان ينتظر الإسلام لو لم يكن أبو بكر يومئذٍ هناك ؟؟

لقد كان ابن مسعود يبسُط الحقيقة الكبرى في قولته السالفة .

"لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر"..

أجل ، لقد كان "أبو بكر" يومئذٍ نعمة الله ومثوبته للدين ، وللناس

فقد تصدَّعت الأرض دراً في الجهات التي من المدينة ، والتي كان معظم أهلها حديثي عهد بالإسلام ، ولم يكونوا يتصوَّرون بفطرتهم الساذجة أن رسول الله يموت كما يموت الناس ، وهكذا بهذه السُّرعة .!!

لقد سقط هؤلاء تحت صياح الكاذبين المَهَرَة الذين كانوا يتربصون بالإسلام كل سوء.

لقد انشقت الأرض فجأة عن كل الموتورين به والمتربصين وعن أسماء كذبة ، فدوا بين عة الإفك ، جميع الذين كانت نعمة ترشحهم لأن يكونوا ضحايا أكاذيبهم ، ولا سيما أولئك العائدين من المدينة والذين حبس عن الإسلام من قريب

وقف طُليحة الأسدي يعلن نبوءة كاذبة ، وتبعه كثيرون من قبائل أسد ، وغطفان ، وطيِّئ ، وعبس ، وذبيان .

ثم اشتعلت نيران الرِّدَّة في بني عامر ، وهوازن ، وسليم

ثم سُبْت في بني تميم ، وجاءتهم امرأة "سجاح" تزعم فيهم نبوتها الصاخبة المتهرِّجة !!

ثم تمرَّد أهل اليمامة وافتعل لواء أخطر مدَّعي النبوة جميعاً مُسيلمة الكذاب .

وهكذا بعد أن كان أبو بكر يوجه فلولاً صغيرة، أصبح أمام جيوش جرارة، قوامها عشرات الألوف من المقاتلين.

وسرت العدوى إلى أهل البحرين، وعُمان، والمهرة، وصار هؤلاء وأولئك يعلنون بيتاً من الشعر أطلقه أحد شعرائهم:

أطعنا رسول الله ما دام بيننا فيا لعباد الله، ما لأبي بكر؟؟

ولكنْ، لله من خلقه رجال يتحولون المحن بين أيديهم إلى منح، والكوارث إلى ربيع، يملؤه روح الحياة..!!

وأبو بكر من هؤلاء الرجال..!!

فخلال هذه المحنة الضاهرة التي امتحنت الإسلام، تكشفت كل جوانب الضعف في البناء البشري للإسلام، ومضى الرجل يحكم القوي من فوره، فرأب الصَّدْع، وحوَّل الضعفَ إلى تماسكٍ واقتدار..!!

وكانت حظوظ الإسلام وافية، ومقاديره سعيدة، إذ جاءته هذه المحنة وأبو بكر حامل الراية، وقائد الأمة..

وبفضل من الله ورحمة، فوق الرجل الكبير والحبيبة المؤمن على أخطار كانت حرية بأن تداعي بناء إمبراطورية شامخة راسخة، فضلاً عن دين ناشئ غض جديد؟!

وكانت تلك الأيام المريرة أعظم أيام الإسلام بعد رسول الله ﷺ وأخصبها، وأكثرها بركة عليه، وخيراً لمصيره..

لقد سقطت الأقنعة عن الوجوه المستكرة، وانعدت الصدور الموتورة كل أحقادها الدفينة. وأفسحت الدار المباركة لظهور الأمة الجديدة وتبني حبيبتها بصورة شاملة، وأكد إيمان أبي بكر مقدرته، لا على اقتحام العقبات فحسب، بل على أن يعلّم الدنيا كلها أهمية الإيمان..

الإيمان بأن الله حقّ، وبأن الإسلام حقّ، وبأن محمداً رسول الله حقّ.. فلم يعُدْ مع هذا الإيمان أن ينكث أو يرتدّ..

ولقد تركهم رسول الله ﷺ على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها.. وأبو بكر اليوم خليفة الرسول على هذا التراث، وواجبه أن يعمل كل ما يعتقد أن الرسول ﷺ كان يعمله لو أنه اليوم حيٌّ.

أمكّن الرسول ﷺ لهذه الطائفة التي لم يلتئم الشمل بعد، ولتلك الكتائب التي يستحلون أن يُكبّلوا راية الحق، ويطفئوا نور الله..؟

إنهم يزعمون فساد منطقهم، ثم يؤيدونه بالمنطق، بل حملوا السلاح ونادوا بغزو المدينة فليصنع ما كان النبي ﷺ صانعه

وهكذا أرسل بأسه العادل على المتمردين في كل مكان، وانتصرت جيوشه على شتى المعارك.. ثم تعقبت المصادر الحقيقية المحرّكة للفتنة هناك في الشام والعراق، حيث كانت الروم والفرس يتخذان منهما مراكز وثوب، ووكار مؤامرة..

وهناك في الشام، وفي العراق، وفي دومة الجندل، وجدت جيوش الإسلام قومًا عطاشًا إلى الهدى والعدل والأمن..

أين المرتدون الذين حملوا السلاح ليقضوا على الدين الجديد؟؟

أين مسيلمة، وطليحة، وسجاح، بجيوشهم الجرارة؟

أين أولئك الذين كانوا يتغنّون وهم يرقصون بأسلحتهم في تلك الفترة: يا لعباد الله، ما لأبي بكر..؟!

لقد تمزقوا بَدَدًا كما تتمزق زوبعة ضالة، وولّوا أمام الحقّ، ونطقوا بشعْر آخر:

ألا فاسقياني قبل جيش أبي بكر لعلَّ منايانا قريب، ولا ندري!

"جيش أبي بكر"..؟!

لقد ضربت هذه العبارة كقعقعة الهول في أسماع الذين أرادوا أن يُخضعوا الحقّ للباطل...!!

* * *

ترى أي انقلاب هائل تفجر عُباب شخصية أبي بكر..؟!

الحقّ أنه لم يكن ثمة انقلاب ما، وليست مواقف الصديق ـ مهما تعاظمت كلَّ مألوف ـ بغريبة عنه..

فطبيعة هذا الرجل العظيم من الطبائع التي لم تُفصحها وتكشفها في بدء العمر دون أن يكون لها في مثل الأيام شأن، أو غرابة أطوار، وإنما يكون لها مدد طبيعي في الآفاق الواسعة تحتضنها، وعصابتها، وقوتها.

فأبو بكر الوديع، هو أبو بكر القوي، منذ لبس ثوب الحياة.

وقوته هذه، لم تكن هذه العزمة التي بدت عنه وهو خليفة، هي نفس قوته التي كان يمسك زمامها ورسول الله حيٌّ..

لكنه في أيام الرسول ﷺ كان يجتهد أن يمشي في الظلال، فلا يقع عليه ضوء، ولا يُعزى إليه فضل.

ثم بعد وفاة الرسول عليه السلام، فقد صار ـ وقد صار أمام أعين الناس ـ صاحب الدور الأول والرئيسي على مسرح الأحداث.. ومن ثم لن يستطيع أن يُخفي مزاياه وسط الزحام، لأن مسئوليته وضعته أمام جميع الصفوف..

وهكذا أُتيح للإسلام أن يرى بصورة أوضح خصائص هذا المبارك العظيم

إن قوته وصلابته ليستا موجهتين لأحد، بل هما مسئوليته وحمله الثقيل الذي يحمله مؤمن كمؤمن ..

* ففي الأيام الأولى للدعوة، لم يكن يسمع أن الرسول ﷺ في أذى، إلا ويهرول مسرعاً، فيخلص الرسول من الأذى ويسلم نفسه إليه ..!!

* ويوم الهجرة، تمتلئ نفسه غبطة بصحبة رسول الله ﷺ، وهو على يقين بأن قريشاً ستجند لمطاردتهم كل بأسها وقواها ..

* ويوم بدر، يلازم الرسول في خيمته، وهو يعلم أن الخطر كله إنما يحدق بهذه الخيمة

* ويوم أحد، حين خالف الرماة نبيهم، ظناً منهم أن المعركة قد انتهت بهزيمة قريش، فتركوا مواقعهم أعلى الجبل، فجاء خالد بجيش قريش مدمدماً على المسلمين وأصلاهم هزيمة أليمة .. وخلا الميدان إلا من جثث الشهداء يمثل بها المشركون في وحشية ذاكرة

يومئذ يبصر الرسول بأبي بكر، يجري وحده إلى المشركين شاهراً سيفه، فيناديه في صراعة عالية.

"أغمد سيفك يا أبا بكر، لا تفجعنا بنفسك"

ويواصل الرسول نداءه لأبي بكر آمراً إياه أن يعود، فيعود.

فما كان له أن يعصي لرسول الله أمراً، حتى لو حال الأمر بينه وبين حلاوة الاستشهاد الذي كان مندفعاً نحوه في شوق عظيم ..!!

* * *

هذه هي القوة الأمينة التي كان أبو بكر يستمدها من أعماق كيانه، ومن أعماق إيمانه

كيان عربي حر، تمخض من تربيته ومن بيئته أروع المزايا ..

وإيمان صدّيق عظيم، يؤثر أن تتخطفه الذئاب، ولا يعصي لإيمانه أمراً

وإن مواقفه الباهرة، في الخلافة وبعدها، لتشكل نموذجاً واحداً من القوة، والأمانة، وسلامة التقدير

ذلك أن الله أنعم عليه بطبيعة قويمة، وإيمان مكين

إيمان رجل أسلم وجهه لله، وهو مخلص

وأعطى حياته لإيمانه وهو مغتبط،

وحمل مسئوليات دوره في تقى، وأمانة، وبصيرة .. !!

وَلَسْتُ بخيْركم ..

هذا الرجل العظيم المتفوّق ..

كيف عاش حياته كحاكم، ومارسَ دوره كخليفة .. ؟.

هذا الذي وُلد سيداً، وعاش سيّداً

هذا الذي لم تُفْلِت منه مزيّة، ولم تغِبْ عنه فضيلة

هذا الذي أنقذ الإسلام من خطر محقق، وردَّ إليه حياته وثباته ..

هذا الذي تداعت أبراج كسرى وقيصر تتساقط تحت قدميه، وبعالم القديم كله يتداعى بين يديه

هل غيَّرت الخلافة من جوهر نفسه أو من أسلوب حياته .. ؟

هل سبيَ تواضعَه، وفضائله في زحمة انتصاراته .. ؟.

هل عاش خليفة ـ فوق ـ الناس ؟

أم ظلَّ واحداً ـ بين ـ الناس ؟

لنقف في رحابه لنرى

ولنبدأ بالسطرات الأولى من خلافته

ها هو ذا يتعثر خطوه في حياء ووجل، ميمِّماً وجهه شطر منبر رسول الله ﷺ

هذا المنبر الذي طالما نادى النبي المسلمين من فوقه، ودعاهم إلى الهدى ودين الحق !!

ها هو ذا أبو بكر، يصعده مرة، بعد أن غاب عنه فيْصَلُهُ وربّانه ..

وإنه ليصعد درجتين ثم يجلس، فهو لا يبيح لنفسه أن يصعد كل الدَّرج، وكل المُرتقى..!!

لا يُبيح لنفسه أن يجلس حيث كان الرسول ﷺ يجلس ..

وها هو ذا يستقبل الجمع الحاشد يتلو على الناس موثقه وعهده

« أيها الناس ..

إني وُلّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم

إن أحسنتُ فأعينوني

وإن أسأت فقوِّموني ..

ألا إن الضعيف فيكم قويٌّ عندي، حتى آخذ الحقَّ له ..

ألا وإن القويَّ فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحقَّ منه ..

أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله ..

فإذا عصيتُ فلا طاعة لي عليكم » .. !!.

ربما على كثرة ما وعى التاريخ من مواثيق وخطب استهل بها الحكام عهود حكمهم ، لم يحفظ ـ ولن يجد أبداً ـ مثل هذه الحكمة ، وهذا الإيثار !!

ولقد زاد الموقف روعة وعظمة أن سلوك صاحبه لم يندّ عنه لحظة، ولم يغرُب عنه قيد شعْرة .

لقد كان أبو بكر بهذه الكلمات المعجزات ، يضع في إطار من الدقة والصدق مسئوليات الحاكم الأمين ، ويكشف عن جوهر كل حكومة صالحة .

« إني وُلّيتُ عليكم ولَسْتُ بخيركم » .

بالله ما أروعها من بداية ..!

فهو يريد أن ينزع من صدور الناس أيَّ وهْمٍ يجعلهم يضعون الحاكم فوق قدْره ومكانه .

يريد أن تقرَّ في أفئدتهم أن الحكم ليس ميزة ولا امتيازاً .

إنما هو خدمة عامة في أكثر مستويات هذه الخدمة مشقةً ومسئولية وشظفاً

إنه بهذه الكلمات الوضّاء يُقرِّرُ

أن الحُكم وظيفة لا استعلاء

وأمانة لا كبرياء ..

ويقرر أن الحاكم "فرد" في الأمّة

وليس "الأمة" في فرد

« إني وُلّيتُ عليكم ، ولَسْتُ بخيركم »

أجل .

إنه ليس بخيرهم لأنه حاكم ..

ولكنه خيرُهم لأنه حكيم .. لأنه الصِّدِّيق الذي توافر له من الصدق ومن الإيمان ، ومن الأمانة ، ومن الرُّشد ما جعله ثانيَ اثنين ..

ومَن أجْدَرُ منه بهذه الكلمات .. ؟

مَنْ أحقُّ منْ أبي بكر وأولَى بهذا الموقف .. موقف الحاكم الذي يدرك تماماً أنه لن يكون عظيماً إلا بقدر ما تكون أمّته عظيمة

ولن يكون حُرّاً إلا بقدر ما تكون أمّته حُرّة .

ولن يكون عزيزاً إلا بقدر ما تكون أمّته عزيزة

ولن يكون آمناً إلا بقدر ما يكون شعبُه آمناً

وحسبه ذلك عنده أن يملأ الشعب مكانه ، [illegible] الضمان الأوحد لكل ما يرجى للوطن وللحاكم من خير وعدل وسداد .. !

« لستُ بخيركم .. » .

« فإن أحسنت فأعينوني »

« وإن أسأت فقوموني » .

ومنه هي وظيفة الشعب عند أبي بكر .

وهذا هو جوهر علاقته بحاكمه .

أن يكون عوناً له على نفسه وعلى مسئولياته

وذلك لا يتم إلا بأن تقف منه موقف الشريك البصير لا موقف التابع الضرير

يُعينه إذا أحسن

ويقوّمه إذا أساء .

ثم ينتقل أبو بكر في خطابه ومنهاجه إلى سيادة القانون فيعلنها ، ويؤكد نصره عليها

« الضعيف فيكم قوي ، حتى آخذ الحق له .. »

« والقوي فيكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه .. »

« أطيعوني ما أطعت الله ورسوله .. »

« فإذا عصيتُ ، فلا طاعة لي عليكم .. ! »

* * *

أيّ صدق .. وأيّ رَوعة .. ؟!

رجل له كل هذه الفضل ، وكل هذه الجماعة المؤمنة ، ثم يبدأ خلافته داعياً الناس في إصرار عظيم كي يأخذوا مكانهم إلى جواره .. لهم الحقوق نفسها ، وعليهم الواجبات نفسها !

أجل .. لقد كان عظيماً ـ أيّ عظيم . وهو يعلّم الناس بقوله وسلوكه أنه لا يفضُلهم في شيء ، وأنه في حاجة دائمة وملحة إلى ما معهم من فضل ، ومن رأي ، ومن عون بالنصح ، وصلابة في الحق ..

* * *

ولقد تقبّل الخليفة منصب الخلافة غير راغب فيه ، ولا حريص عليه ، ولولا أنه لم يجد الفرصة في الأيام الحاسمة الأولى إلى ركن بعيد ، يهرب من دنيا الناس ، لفعل .. ويتهالكون عليه ..

لقد كان صادقاً حين قال :

ـ « والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة .. ولا سألتها الله في سر ولا علانية » .

أجل .. لم يكن عليها حريصاً

ولولا أن يكون بحثه عنها قد هرب من مسئوليات دينه وإيمانه لأخذ سبيله إلى الفرار سريعاً !

ولقد حاول ذلك فعلاً بعد أن فرغ من قمْع فتنة المرتدين

فذات يوم دخل عليه عمر ـ رضي الله عنه ـ داره ، فألفاه يبكي

وما كاد يبصر عمر أمامه حتى تشبّث به كأنه زورق نجاة، وقال له
- « يا عمر، لا حاجة لي في إمارتكم »
ولم يتركه عمر يُتم حديثه، فقد بادره قائلاً
- « إلى أين المفر؟ والله لا نُقيلك، ولا نستقيلك » !

* * *

والآن، لنقترب من بعض تلك المشاهد حيث يضع الخليفة موضع السعيد، خطابَه الذي أعلنه يوم بيعته
لنقترب ولنرَ هذا الأب المبارك العظيم لا للإسلام وحده بل للحياة كلها
لنبصر هذا الحاكم، يهطل بملء حنانه الناس عافية ورحمة، وروعةً وفنًّا
لقد كُتب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة يُمتحن فيها ولاؤه للقانون وللحق امتحاناً عظيماً

ذلك أن السيدة فاطمة بنت رسول الله، والعباس عم رسول الله، ذهبا إليه يسألانه حقهما في قطعة أرض صغيرة كان الرسول ﷺ قد أصابها في بعض الفيء، وكان عليه السلام يعطي السيدة فاطمة وبعض أهله جزءاً من نتاجها، ثم يقسم الباقي بين فقراء أصحابه
والآن، بعد وفاته -عليه السلام- ذهبت فاطمة رضي الله عنها إلى خليفة الرسول ﷺ تسأله هذه القطعة من الأرض باعتبارها ميراث أبيها عليه السلام
قال أبو بكر لها وللعباس:
- « سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « نحن معاشرَ الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة » ، وإني والله لا أدعُ أمراً رأيتُ رسول الله يصنعه إلا صنعتُه؛ فإني أخشى إن تركتُ شيئاً من أمره أن أزيغ » .
إن أبا بكر يعلم أن أولى الناس بالرعاية -في الحق- هي بنت رسول الله ﷺ
ويعلم كم كان الرسول ﷺ يحبها ويؤثرها
ويعلم مدى حاجتها وزوجها وأولادهما إلى هذه القطعة الصغيرة من الأرض
وأبو بكر يؤثر أن تركبه تضغث في غبطة على أن يقول لابنة الرسول: لا
ومع هذا؟ فقد قالها..!!
إنه حين آمن بالرسول وبدينه وشرعته صارت هذه الشرعة قانونه
وإيمانه بالقانون لا ينفصل عن إيمانه بالله ورسوله
ولقد قال الرسول ﷺ نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث.
إذن، فقد صار حكماً من أحكام الشريعة التي يؤمن بها ألا يُورَث نبي
وهكذا وجد نفسه بين ولاءين.
ولاء لرسول الله ﷺ في أحب الناس إليه، وهي ابنته

وولاؤه للمبدأ الذي جاء به رسول الله نفسه

ولم يكن له أن يتردد

فهو رجل لا يحمل إيمان العوام .. بل إيمان العباقرة

الإيمان الذي لا تثني عزيمته قُربى أو مُجاملة ..

ولم تكد السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ تسمع جواب أبي بكر عن مسألتها حتى كُسي وجهها بالأسى والألم

والصدّيق يعلم أنها أسرع الناس إلى طاعة رسول الله، وأنها لا تتخلف أبداً عن أمره. ولكن قد يُخامرها الشك في أن الرسول ﷺ قد قال هذا الحديث، وشرع هذا الحكم.

ومن ثمّ أرسل إلى عمر، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسألهم أمامها

«أنشدكم بالذي تقوم السماء والأرض بأمره، ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال: نحن لا نورث، ما تركناه صدقة» ؟؟

وأدلت فاطمة بحجة جديدة، فقالت للخليفة: إنك تعلم أن الرسول ﷺ كان قد وهبها لي في حياته، فهي لي إذن بحق الهبة، لا بحق الإرث

قال أبو بكر: أجل، أعلم. ولكني رأيته يقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها ما يكفيكم. وإذن فقد أراد أن يكون منها حق دائم للفقراء.

قالت فاطمة: دعها تكن في أيدينا، ونجري فيها على ما كان يجري عليه وهي في يد رسول الله

قال أبو بكر: لستُ أرى ذلك، فأنا ولي المؤمنين من بعد رسولهم، وأنا أحق بذلك منكم ـ أضعها في الموضع الذي كان النبي ﷺ يضعها فيه. !!

في هذه الواقعة التي واجهت الصدّيق في بداية حُكمه اجتاز إيمانه بالحقّ [illegible] امتحاناً لا يُدرك رهبته ومشقته أحد سوى أبي بكر

ولقد أصاب في هذا الامتحان ظفراً عظيماً !!

* * *

واحترام أبي بكر لمعاونيه لا ينقص عن احترامه للذين يحملون معه مسئولية رعايته

فيوم خرج يودّع أسامة ـ وقد سبق الحديث عنه ـ كان بين جنود هذا الجيش، عمر بن الخطاب

وكان أبو بكر حريصاً على أن يبقى عمر بجواره في المدينة.. وقد كان يستطيع كخليفة للمسلمين أن يستبقيه بقرار منفرد يصدره.. لكنه يعلم أن في هذا التصرف افتئاتاً على موظف مسئول، يجب أن تتوفر له الضمانات التي تمكنه من أداء واجبه وممارسة وظيفته

وأولى هذه الصفات ألا ينتقص الخليفة شيئاً من حقوقه ، حتى لو تكون صفة الخليفة نفسه

وهكذا ، فرغت الخليفة من قائد الجيش "أسامة" ، وقف له في همس ورجاء

ـ « إذا رأيت أن تترك لي عمر بن الخطاب ، فإني آخذ في بقائه معي خيراً ونفعاً » ؟؟

وبادر أسامة بالرضا والموافقة

إن أبا بكر لم يفعل ذلك مجاملة ، أو تواضعاً

إنما فعله واجباً ...

ولو قال أسامة ساعتئذ : لا ، ما وسع الخليفة أن يخالف أو يغضب

ومن شاء أن يرى خلاف الحكم ، وعظمة الحاكم ، فلينظر أبا بكر غداة استخلافه.

إذ خرج من داره حاملاً على كتفه لفافة كبيرة من الثياب

وفي الطريق يلقاه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فيسألانه

ـ إلى أين يا خليفة رسول الله .. ؟؟

فيجيبهما : إلى السوق ..

قال عمر : وماذا تصنع بالسوق وقد وليت أمر المسلمين .. ؟؟

قال أبو بكر : فمن أين أطعم عيالي .. ؟

لم يدخل منصب الخلافة على النفس الكبيرة أي زهو ، ولم يحرك لها رغبة ـ أي رغبة ـ في تغيير أسلوب الحياة.

قال له عمر : انطلق معنا نفرض لك شيئاً من بيت المال

وصحبهما الخليفة إلى المسجد حيث نودي أصحاب الرسول ﷺ ، وعرض عليهم عمر رأيه في أن يفرض للخليفة "بدل تفرغ"

وفعلاً ـ فرضوا له كفافه ببعض شاة كل يوم ومائتي دينار وخمسين في العام. ثم زيدت بعد ذلك إلى شاة في اليوم وثلاثمائة دينار في العام.

وعاش أبو بكر بهذا هو وأسرته الكبيرة ، حتى بعد أن فتح للمسلمين أبواب الرزق والرغد ، وبدأت خيرات الشام والعراق تفد إلى المدينة

ولم يكن الصديق يلتزم القناعة بمجرد الزهد ، بل كانت القناعة جزءاً من فلسفته

فهو يقدس اللقمة الحلال ، ويحذر أن يدخل جوفه كسرة فيها شبهة

وهو يرى أن الحلال ليس من الكثرة بحيث يتسع للإسراف

فإذا وجد مترف ، أو ترف ، فاعلم أن ثمة سبلاً للعيش غير مشروعة

وإن خليفة محمد ﷺ ليؤثر أن يشد على بطنه حجرين من مسغبة كما فعل معلمه ورسوله ﷺ ، على أن يدخل أمعاءه لقمة فيها شبهة.

يحدث الإمام البخاري في صحيحه أنه كان لخليفة رسول الله غلام جاءه يوماً بشيء فأكل منه ، ولما فرغ من أكله قال له الغلام : أتدري ما هذا يا خليفة رسول الله ؟

قال أبو بكر: ما هو ؟

قال الغلام: إني كنتُ قد تكهّنتُ لرجل في الجاهلية، وما أُحسن الكهانة إلا أني خدعته، وقد لقيني اليوم فأعطاني، فهذا الذي أكلتَ منه.

« فأدخل أبو بكر يده في فمه حتى قاء كلّ شيء في جوفه ».

- ويُضيف صاحب الصفوة إلى ذلك أنه قيل لأبي بكر:

« يرحمك الله.. كلُّ هذا من أجل لقمة واحدة » ؟!!

فأجاب قائلاً:

- « والله لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها.. سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة ».!!

* * *

كان إصراره عظيماً على ألا يأخذ من بيت المال إلا ما يكفيه وأهله بالمعروف..

وما نال من المال وهو خليفة، ولا نال من متاع الخلافة إلا ما كان يأكل وأهله من جَريش الطعام.. وإلا ما كانوا يلبسون من خشن الثياب..!!

وبرغم هذا كله، فحين أدركه الموت دعا إليه ابنته عائشة رضي الله عنها، وقال لها:

- انظري ما زاد في مال أبي بكر منذ وليَ هذا الأمر فرُدّيه على المسلمين..

وكانت روحه الطاهرة تتحرك صاعدة إلى بارئها وهو يردّد هذه الكلمات..

ترى ماذا كان هناك حتى يشغل بال أبي بكر إلى هذا المدى..؟

ماذا ادّخر في أيام خلافته من ثراء يخاف أن يلقى به ربّه..؟؟

انظروا..

إن عائشة حملت تركة أبيها فور وفاته، وفور مبايعة عمر، حملتها إلى أمير المؤمنين منفذة لوصية أبيها، فما كاد عمر يرى ويسمع حتى انفجر باكياً، وقال:

- "يرحم الله أبا بكر.. لقد أتعب كل الذين يجيئون بعده" !!

يعني بهذا أن الصدّيق بسلوكه وورعه قد سنّ نهجاً تنتهي في العظمة، بحيث يُعنّي بلوغُه ومضاهاتُه كلَّ خليفة يأتي على أثره..

لماذا انفجر عمر باكياً حين نثرت أمامه ثروة أبي بكر..؟

لقد كان أمراً غير معقول.. هذه التركة التي خلفها الرجل الذي أهدى الإسلام بماله والخليفة الذي بدأت تنثال في أيامه خيرات الشام والعراق..

ها هو ذا.. الميراث الذي خلفه أبو بكر، والذي أصرّ على أن يردّ إلى بيت المال..

* بعير، كان يستقي عليه الماء !!

* ومِحْلَب، كان يحلب فيه اللبن !!

* وعَباءة، كان يستقبل فيها الوفود !!

* * *

هذا هو الإنسان الكبير البرُّ الذي جعل شعار حياته، وشعار حُكمه "لستُ بخيركم"!!
وإنه لا يردّد هذا الشعار تواضعاً، بل يعبّر به عن جوهره وينصّته أسمى مبادئ سلوكه
فهو ـ حقاً ـ لا يرى نفسه خيراً من أحد.

* لقد أنزل الله فيه قرآناً:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾

* ولقد كان قبل الإسلام واحداً من أعلام قريش وسادتها.

* ولقد أخذ مكانه في الإسلام من أول لحظة إلى جوار رسول الله ﷺ فلم يتقدم عليه أحد..

* ولقد أسلم وهو في أوج ثرائه، فلم يدّخر لنفسه ولا لأهله درهماً، وبذل في سبيل الله كل ثروته ـ يحرّر الأرقّاء، ويُطعم الطعام على حبّه مسكيناً، ويتيماً، وأسيراً

* ولقد بلغ من إعزاز الرسول ﷺ له أن أمر بأن تسدّ جميع الأبواب التي كانت تفتح على المسجد، إلا باباً واحداً أمر أن يبقى.. هو باب أبي بكر..

* ولم يكن الرسول ﷺ يغضب لنفسه قط، لكنه لم يكن يصبر على أيّ إساءة ضعيفة توجّه إلى أبي بكر

* ولقد استخلفه الرسول عليه الصلاة والسلام على الصلاة، وأصرّ على استخلافه

* ولقد بايعه المسلمون بعد النبي ﷺ خليفة لهم وإماماً.

* ولقد تحدّته فتنة الردّة تحدّياً رهيباً، فنصره الله عليها نصراً مؤزّراً.

* ولقد رأى أبراج الروم والفرس تتداعى تحت سنابك خيله، وأقدام جنده، ورأى العالم القديم كله يبدأ رحلة فنائه تحت خفق رايته الظافرة

كل هذا ولم تتسلل إلى نفسه همسة بأنه خير من أحد

بل كان دوماً، يُمسك قلبه بيمينه، ويجأر بدعاء رسول الله ﷺ

ـ «يا مُقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك»

إنه وهو صاحب هذا الإيمان الذي يكفي أهل الأرض جميعاً، يخاف على قلبه أن يزيغ...

ويقول وهو يبكي: "يا ليتني كنت شجرة تُعضَد".

فإذا ذُكّر بمقامه عند الله أجاب:

ـ «والله لا آمنُ لمكر الله، ولو كانت إحدى قدميَّ في الجنة»

من هنا كان قوله: "لست بخيركم" تعبيراً أميناً عن طبيعته، وفقهه

ومن هنا كان تأبّيه الشديد عن كل مظاهر الزهو والاستعلاء.

* * *

ولقد حقق "الصدّيق" هذا المبدأ تحقيقاً جعل حياته العظيمة سبيح وحدها

* فهو يوم كان يملك ثراءً عريضاً، سأل نفسه لماذا ينعم بهذا الثراء والمسلمون في

هل هو خير منهم..؟

وأجاب نفسه قائلا: لست خيرا منهم، وإذن فلنكن في هذه النعماء سواء.

وهكذا أنفق لله كل ماله، حتى لقد سأله الرسول ﷺ يوما: «ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر».؟؟

فأجاب: «أبقيتُ لهم الله ورسوله»!!

وهو حين صار خليفة للمسلمين، وحين فتح الله عليهم من الرزق والخير ما يسمح له بأن يعيش في رغد وسعة، رفض أن يتقاضى من بيت المال أكثر مما تتطلبه ضروريات العيش، وأكثر مما ينال أي بيت من بيوت المسلمين يضم من الأنفس ما تضمه أسرة أبي بكر.

* ولقد سأل نفسه: لماذا يأخذ أكثر مما يستحق..؟

من هو خير من الآخرين حتى يخص نفسه بمزيد..؟

وأجاب نفسه بأنه ليس خيرا من أحد.. وإذن فليعش في مستوى المواطن العادي في أمته وجماعته، مع أنه يوم كان يعيش من ماله ومن تجارته كان مستوى معيشته عند مستوى دخله.. رغدا كثيرا ونعمة واسعة.

فلمّا ولي أمر الناس رخص كل ما من شأنه أن يخصّه بامتياز.. أي امتياز.. وردّ جميل الذين اختاروه خليفة عليهم بأن فرض على نفسه مساواة كاملة بهم، وجهدا مضنيا في سبيلهم.

وإن عظمة أبي بكر ـ ومن بعده في هذا الفاروق عمر ـ تتمثل أكثر ما تتمثل في أنهما سلكا ذلك المسلك النادر المثال، وهما متربعان فوق كرسي الخلافة.

وأين..؟؟

في أمة جديدة.. جديدة بكل معاني الكلمة، تقرع أبواب العالم، ويخفق النصر رايتها في كل مكان..!!

ولقد كان لابد لحكام أمة هذا شأنها، أن تستحوذ عليهم فتنة من الزهو، ومن الاستمتاع بالحياة مهما يكن زهدهم وورعهم.

لكنّ شيئا من هذا لم يحدث قط.. بل حدث النقيض.

فعاش أبو بكر مع دموعه الخاشعة، يردد عبارته المأثورة:

"يا ليتني كنت شجرة تعضد"!!

وعاش عمر مع دموعه الخاشعة، يردد عبارته المأثورة:

"ياليت أمّ عمر لم تلد عمر"!!

وكانا ينثران على الناس أسلاب كسرى وقيصر، وهما يسيران في ثوبين رقعت فيهما الرقاع..!!

وإذا مات "أبو بكر" الخليفة عن بعير، ومحلب، وعباءة، أصرّ على أن تُردّ إلى بيت المال.

يا سكَّانَ هذا الكوكب الذي نعيش فوقه

هل عندكم لهذه النماذج الطاهرة نظير . ؟؟

ألا إنها مدرسة القرآن ...

ألا إنها مدرسة محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ..!!

* * *

إن هذه لعبرة الحافلة "لستُ بخيركم" تصوِّر لنا جوهر الشخصية الفريدة التي كانها أبو بكر الصِّدِّيق .

فهو مُنذ أسلم ، وقبل أن يكون خليفة ، يضع نفسه من الناس في موضع سَواء .

ولْنصغ الآن إلى "ربيعة الأسلمي" صاحب رسول الله ﷺ .

- "كان بيني وبين أبي بكر كلام ، فقال لي كلمة كرهتها ، ثم ندم عليها ، وقال لي يا ربيعة ، رُدّ عليّ مثلها حتى تكون قصاصاً ..

قلت : لا أفعل ..

فقال لي : لتأخذنّ بحقّك مني ، أو لأشكُوَنّك إلى رسول الله ..

قلت : ما أنا بفاعل .

فذهب عني منطلقاً إلى النبي عليه السلام ، وانطلقت وراءه .

فجاءه ناس من "أسلم" فقالوا : يرحم الله أبا بكر . في أي شيء يستعدي عليك رسول ﷺ ، وهو الذي قال لك ما قال !

فقلتُ لهم اسكتوا ، هذا أبو بكر . وهذا الذي قال الله عنه ثاني اثنين إذ هما في الغار . إنكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب ، فيغضب رسول الله لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما ، فيهلك ربيعة .

وانطلقتُ وراء أبي بكر حتى أتى الرسولَ ﷺ فحدّثه بما كان ..

فرفع إليَّ رسول الله ﷺ رأسه وقال يا ربيعة ، ما لك والصِّدِّيق ؟

قلت يا رسول الله ، إنه قال لي كلمة كرهتُها ثم طلب إليّ أن أردّها عليه لتكون قصاصاً فأبيْت

فقال الرسول أجل يا ربيعة ، لا تردّها عليه ولكن قل غفر الله لك يا أبا بكر

فقلت غفر الله لك يا أبا بكر .

فولّى أبو بكر وهو يبكي" . !!

والآن ، فلننظر

إنها كلمة واحدة ندّتْ عن لسانه فتُكَة .

وهي كلمة لا يمكن أن تكون من فُحْش القول أبداً ، لأن أخلاقه لم تكن تسمح له بهذا ، ولم يُؤثر عنه - حتى في الجاهلية - شيء من هذا .

هي كلمة فلتة، ولكنها أصابت من ربيعة موجعاً. فإذا أبو بكر يتزلزل من أجلها، ويأبى إلا القصاص عينه، مع أنه يومئذ كان الرجل الثاني في الإسلام بعد رسول الله.

ولكن لم لا يصنع ما صنع، وهو يرى الرجل الأول نفسه. رسول الله الكريم، يقف الموقف نفسه وينهج النهج نفسه.. وكز رجلاً في صدره وهو يسوي صفوف المقاتلين في إحدى الغزوات، حتى إذا رأى الوكزة قد آلمته، يكشف عن صدره، من فوره، ويصر على أن يكزه وكزة مثلها..؟!!

ويروي لنا "أبو الدرداء" نبأً شبيهاً بهذا، فيقول:

- "كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، وقال: يا رسول الله، إنه كان بيني وبين عمر بن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت وسألته أن يغفر لي فأبى عليّ.

فقال له الرسول ﷺ: « يغفر الله لك يا أبا بكر »..

ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر فلم يجده.. ثم أتى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أنا كنت أظلم.. يا رسول الله.. أنا كنت أظلم..

فقال الرسول ﷺ: "إن الله بعثني إليكم، فقلتم كذب.. وقال أبو بكر: صدقت.. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟"

إنه حين ندت منه كلمة عابرة لعمر، أو لربيعة الأسلمي لا يقول لنفسه: لا بأس، وسيغفرها الله لأبي بكر، صاحب كل حسن من المواقف.. وباذل كل عظيم من التضحيات.

لأن ما أنعم الله به عليه من التوفيق ورفيع الخصال لا يبعث في نفسه الزهو، بل يطالبه بالشكر ويحثه إلى التواضع والعرفان.

* * *

هكذا كان جوهر علاقته بالناس جميعاً قبل خلافته وبعدها

ليس خيراً منهم

ولكنه واحد لا يميزه عنهم سوى فضائله الباهرة، وعظمته الشامخة..!

■ ■ ■

حالبُ الشاة .. يا أُمّاه !!

كانت بساطتُه، أهم عناصر عظمته.. وكان قبل أن يصير خليفة يُقدّم لأهل الحيّ الذي يسكنه خدمة شتى في فطرة وأريحية

فقد كان في جيرته بعض الأرامل العجائز اللائي مات أزواجهن أو استشهدوا في سبيل الله

كما كان هناك بعض اليتامى الذين فقدوا آباءهم ..

وكان رضي الله عنه يؤمّ بيوت الأولات فيحلُب لهن الشياه

ويؤم بيوت الآخرين فيطهو لهم الطعام

ولما صار خليفة، تناهى إلى سمعه حسرة العجائز، لأنهن سيحرمن منذ اليوم من الخدمة الجليلة التي يؤديها لهن الرجل الصالح

- لكنّه أخلف ظنونهن ..

* * *

وذات يوم، يقرع باب إحدى تلك الدور، ويسارع إلى الباب فتاة صغيرة لا تكاد تفتحه حتى تصيح

- "إنه حالب الشاة يا أمّاه"

وتُقبل الأم [illegible] وجهها [illegible] العظيم، فتقول لابنتها في حياء

- "ويحك، ألا تقولين خليفة رسول الله".. ؟!

ويطرق أبو بكر ويبتسم مع نفسه كمن [illegible]

لعلّه كان يقول: دعيها، فقد وصفتني بأحب أعمالي إلى الله...

وتقدّم حالبُ الشاة ليؤدي الواجب الذي فرضه على نفسه

أجل

حالب الشياه [illegible] !

والعجين بيديه خبز الأيتام !!

بساطة، ورحمة، وتفانٍ في أداء حقّ الحياة .

ترى لو قُدّر لأبي بكر بشخصيته هذه أن يكون رئيس دولة في عصرنا الحديث، أكان منهجه هذا يتغيّر.. ؟؟

كلا .

صحيح أنه لن يحلب الشياه، ولن يطهو بيده الطعام ..

بيد أن سمته تلك، كانت ستعبّر عن نفسها في مشاهد كهذه نامت روح العصر دون أن تبخس نفسها في شيء..

إن بساطة هذا الإنسان البرّ، وإن رحمته لمن الأمور المعجزة

ولقد أعطاه الرسول ﷺ حقه حين قال عنه "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر".

لقد كان يحمل قلباً مشحوذ الإحساس بكل ألم إنساني

وكان يملك إرادة مباركة تسارع إلى إنجاز توصيات قلبه الرشيد الودود

* * *

كان في بدء إسلامه لا يطيق أن يرى مؤمناً يعذب، وكانت نفسه تنوء بالألم حين يكون أولئك المعذبون رقيقاً، ومن ثم وضع ثروته في سبيل تحريرهم، وحررهم جميعاً بماله.

بلال، وعامر بن فهيرة، وزنيرة، وأم عبيس، والنهدية، وابنتها، وجارية ابن عمرو بن مؤمّل، وغير هؤلاء.

وكان عظيماً، وهو يشعر هؤلاء الأرقاء أنه لا يحررهم، بل يحرّر نفسه فيهم، لأنه وقد هداه الله السبيل ونعمة الإسلام، بات واجباً عليه أن يحطم من الأغلال الظالمة كل ما يستطيع تحطيمه..؟؟

حين فدى بلالاً، قال له سيده ـ محقراً من شأن بلال ـ:

"خذه فلو أبيت إلا أوقية واحدة لبعتكه بها"

فأجابه أبو بكر قائلاً: "والله لو أبيتم إلا مائة لدفعتها..!!"

ومن الطريف أن يتفق الناس في مكة أن أبا بكر يبذل في سبيل تحرير العبيد من ماله بذل السماح، فيعمد بعضهم حين تنتابه أزمة مالية إلى إنزال العذاب بعبده، كي يسارع أبو بكر لنجدته وينقذه، ليستفيد السيد مما يدفع به ضائقته وأزمته!!

إنه رحيم ودود..

إنه إنسان انتهى إليه كل ما في الإنسانية من حنان ونجدة!!

ولقد خُلق هكذا.. وخُلق لهذا.

في أيام الجاهلية كان ذلك خلقه

لم يُعرف عنه مرة واحدة أنه قاتل، أو شاتم، أو أساء، أو تخلّى عن مروءة، أو بخل بنفسه أو جاهه

فلمّا أسلم أضيف إلى صدق فطرته، صدقُ دينه.

* * *

ذهب عمر بعد وفاته يسأل زوجته "أسماء بنت عميس" كيف كان أبو بكر يعبد ربه حين يخلو بنفسه، فأجابته قائلة:

"كان إذا جاء وقت السَّحَر قام فتوضأ وصلى، ثم يظلُّ يصلّي، يتلو القرآن ويبكي، ويسجد ويبكي، ويدعو ويبكي، وكنت أشمُّ في البيت رائحة كبد يُشوى"..!!

فبكى عمر رضي الله عنه وقال:

- "أنَّى لابن الخطاب مثل هذا"..؟؟

رائحة كبد تشوى من بيت أبي بكر ؟؟

الرجل الطهور الذي لا يكاد يعرف له خطأ، يحمل كل هذه النفس المَوْلُولة من خشية الله، وكل هذه الجوانح المُلتظية من رهبته..!!

أجل... إن إجلاله ربَّه وتوقيره كانا يملآن نفسه روعة، يملآنها حياءً، وحُبّاً.

ولقد كان يعلم علم اليقين أن من تمام توقيره ربه، توقير عباد هذا الرب العظيم.

وهكذا، لم يكن في علاقاته بالناس يسير وفق [illegible] طبيعي فحسب.. بل وَفْقَ "الربّانيّة" التي أسكنها الله في قلبه وضميره..

فهذا الرجل "الإلهي" لا يعطي الناس من ذات نفسه ما ينتظرون.. بل يُعطي ما يقدر هو على عطائه، وإنه ليقدر على كثير وكثير.

ومن ثمَّ رأيناه دوماً المُبادر المتقدم نحو كل واجب، نحو كل أزمة، ونحو كل تضحية.

والمستوى الذي تعمل عنده فضائله المتفوقة مستوى واحد ومتكافئ.

فالروح المستبسلة التي واجهت أزمات الدعوة في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته - هي نفس الروح التي دفعت صاحبها إلى أن يحلب الشياه للأيامى.. ويحمل الدقيق لليتامى..!!

* * *

وبساطة خُلقه تتوائم مع بساطة خَلْقه، وكما أن بساطة شمائله تتضمَّن عظمة خارقة فكذلك كانت بساطة تكوينه تتضمَّن شخصية خارقة...!!

وإذا أردنا أن نرى صورة التكوين الجسدي لهذا السيد الحسن، فها هي ذي الصورة كما تُقدمها ابنته السيدة عائشة.. هو:

- "أبيض... نحيف... خفيف العارضين... أجنأ الظهر.. معروق الوجه.. غائر العينين.. ناتئ الجبهة.. عاري الأشاجع"(1)

هذا هو الرجل الذي حبته الأقدار ليكون على رأس ساسة البشرية جميعاً في الإيمان والعظمة..!!

---

(1) الأشاجع: عروق ظاهر الكف.

هذا هو الرجل الذي اختير لتكون أيامه السطور الأولى في نعي أعظم إمبراطوريات عصره وعالمه.. الروم وفارس..!!

وليكون أول خليفة لرسول، ينتشر دينه كالضوء مشرقًا ومغربًا، صانعًا حضارة تملأ الدنيا، وتسعد الناس.

أجَل.. وفي هذا الجسد النحيل وجدت العظمة منزلًا لها ومقامًا..

إنه لا يملك جسمًا "منكبًا".. وليس في تكوينه شيء من سمات الأباطرة

لكأنّ الله علم من عبده الصالح هذا، أنه لن يضيق في حياته بشيء مثل ضيقه بأن يميزه عن الناس شيء يجعله مهوى أعينهم المبهورة، فاختار له هذا المظهر البسيط والتكوين العادي..!!

انظروا وصف ابنته له: "عائر العينين.. معروق الوجه.. ناتئ الجبهة"..!

أجل.. لا شيء غير عادي في سيد قريش، وخليفة الرسول ﷺ، وقاهر جيوش الردة، وحالب شياه الأيامى..!!

لا شيء غير عادي.. اللهم إلا ذلك اللألاء المشعّ من عينيه اللتين ترسلان سنًا عجيبًا، وألقًا باهرًا، كأنهما كوكبان دريّان..!!

وإنهما لَهُ جفنان تحت جبهته العالية، وجسمه الممتد. تعكس عيناه كل ما في قلبه من صفاء، وقوة، وحب.

فإذا وقعتا على أسًى، التمعت بفيض من الحب والرحمة والنجدة

وإذا وقعتا على ظلم، توهجت باللهب المقدّس

وإذا وقعتا على وجه إنسان، قرأتاه في لحظة..

وإذا استقبلتا آية من آيات الله، فاضتا بدمع خشيةً وإجلالًا..!

إنهما عينان غيرتان حقًا، تكفيهما خفقة لتريا الحقّ وتهديان إليه في غير عناء

وجَسَدُه نحيل ضامر، لكنه يتفجّر حيوية وطاقة.

وفي داخل هذا الجسد المتواضع، تقيم روح من أعظم أرواح بني الإنسان..!!!

* * *

وبعد..

فهذا هو الصدِّيق..!! لا يرفع الكاتبون من قدره بما يسطرون عنه وعن فضائله، إنما يرفعون من أقدار أنفسهم حين يؤهلون للحديث عن هذا الطوْد الشامخ العظيم

ولقد كان رضي الله عنه أكثر الناس حياءً إذا ألقيتْ عليه كلمة ثناء

حين ذاك، كان إذا سمع يثني عليه، ويرفع يديه للسماء

- "اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون.

واغفر لي ما لا يعلمون.

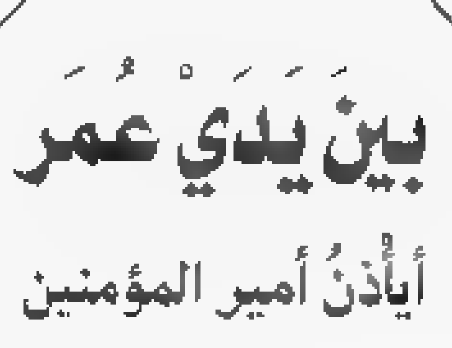
ولا تؤاخذني بما يقولون"!

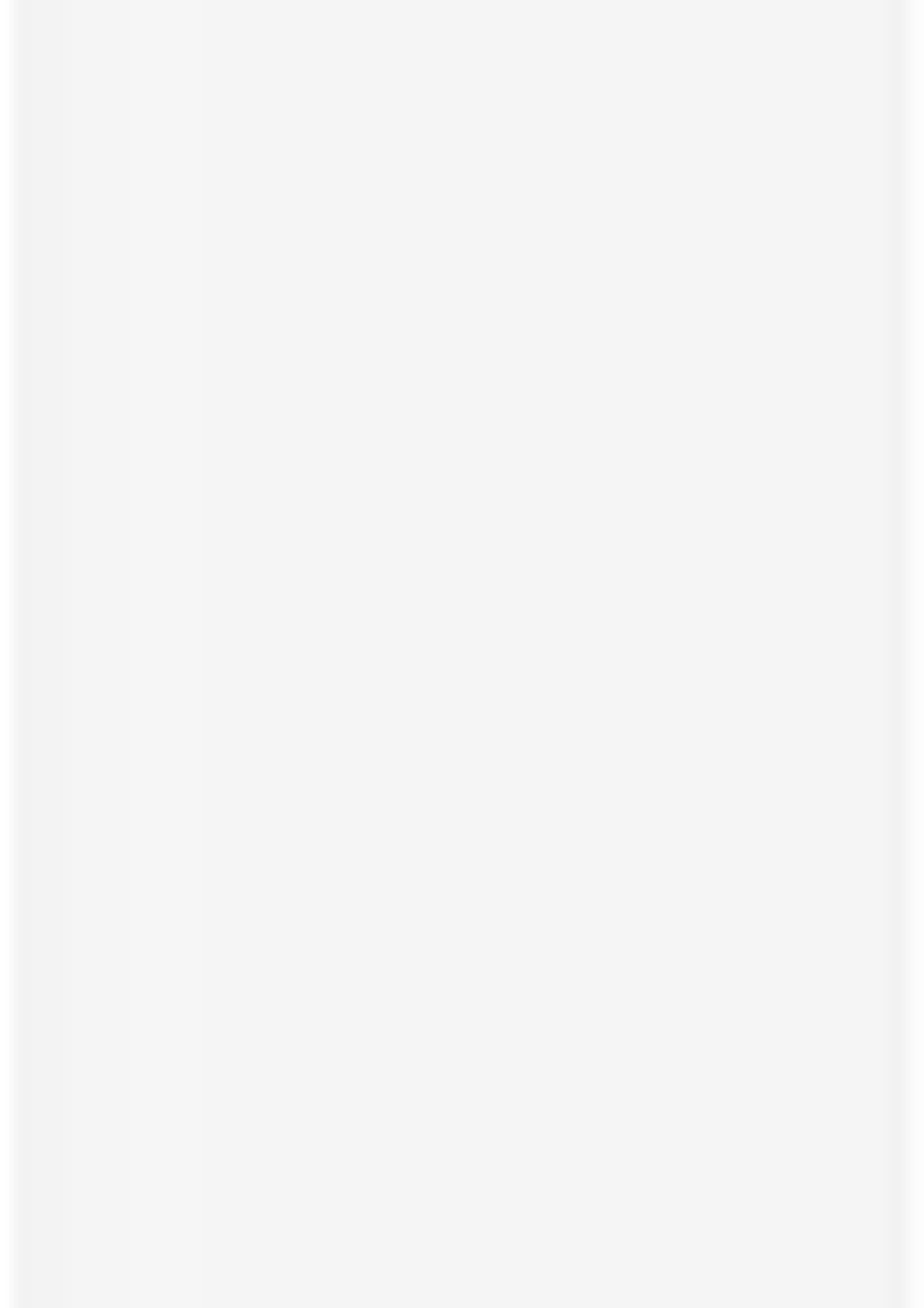
* * *

يرحمَكَ الله، أبا بكر.

إنهم دوماً ، وأبداً ، لخيرٌ مما يظنون ... وخيرٌ مما يشعرون !!

■ ■ ■


بينَ يدَيْ عُمَرَ
أيأْذنُ أمير المؤمنين





مقدّمة

لست أكتب تاريخاً لعمر، ولا أريد الناس معرفة بعظمته وشأوه.

ولا أُزكّي على الله نفسي، لكنه عن رجل أحبّه الله واصطفاه.

إن المحاولة التي أنا بصددها، أكثر تواضعاً من هذا كله..

إني أصغي إلى أمير المؤمنين، لا أكثر.. وأتطلع إليه، لا أقلّ!

وفي دروب التاريخ سنخرج – أنا والقراء – أن نلتقي بالرجل الذي لم تُسعدنا المقادير باللقاء معه في دروب المدينة، حيث كانت سجاياه وعظمته تملأ الزمان والمكان بما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعَت من عدالة الحاكمين، وزهد القادرين، وإخبات الناسكين، وقوة الوُدَعاء الراحمين، ووداعة الأقوياء المتقين!!

أجل، هذا ما نحاوله في هذه الصفحات بنوعه.. أنْ نعيش لحظات في رحاب عمر، ونأخذ من المشهد المكتوب عوضاً عما فاتنا من المشهد الحيّ، ونلقي السَّمْعَ والبصر والفؤاد بين يديْ هذا القويّ الأمين، والمعلم الذي ليس له بين المعلمين نظير، ونقضي في مَعيّته لحظات ترتفع من قدر حياتنا.

* * *

و"معيّة" أمير المؤمنين، ليست مثل "معيّات" غيره من الأمراء، والحاكمين.

إنها شيء مختلف جداً.. فلا مكان فيها لأطايب الطعام، ومطاعم الشراب، ومباهج الحياة.. لا مكان للفُرُش المرفوعة، ولا للأكواب الموضوعة، ولا للنمارق المصفوفة، ولا للزرابيّ المبثوثة.

لا مكان للراحة.. لا مكان للزهو.. لا مكان للزُلفى.

من أجل هذا يكون الاقتراب من هذه "المعيّة" رهيباً بقدر ما هو حبيب إلى النفس، وبقدر ما يُفضي إليه من شرف عظيم.

و"عمر" من الطراز الذي يبهرك.. وأنت تقرأ تاريخه المكتوب بكلّ الهيبة التي تغمرك، وأنت تجالس ذاته وشخصه.

والمشهد المسطور من تاريخه، لا يكاد يختلف عن المشهد الحيّ إلا في غياب البطل عن حاسة البصر..

أجلْ.. عن حاسة البصر وحدها.. أما الأفئدة.. أما البصيرة، فتحس وهي تطالع سيرة عمر أنها تعايشه، وتجالسه، وترى رأْي العين جلال الأعمال، وعظمة البطولات التي يتناولها بيد أستاذ عظيم، جدّ عظيم..

ولكن على الرغم مما تفرضه صحبة "عمر" من حرمان وشظف.. فليس على ظهر الأرض بهجة، ولا منحة، ولا نعمة تفوق مباهج ومناعم هذه الصُّحبة بحال!!

فالرجل الكبير في بساطته، البسيط في قوة، القوي في عدل ورحمة، لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون، ولكنه يمنحهم بدلاً من الراحة المفقودة، أعظم ما في الحياة من سؤدد، وعظمة، وتفوق.

هذا هو أمير المؤمنين، الرجل الذي نحبه لبشريته، وربانيته الإسلام

هذا هو الحاكم المؤمن، الذي إذا ذكر رؤساء الدول والحكومات منذ فجر التاريخ الإنساني إلى يوم الناس هذا، كان أعظمهم، وأبرّهم، وأزكاهم ـ من غير مبالغة ـ أيّ مبالغة!!

هذا هو الإنسان الذي تفجّر بركة حركة، وذكاء، وعملاً، ونماء

هذا هو المعلم الذي صحح مفاهيم الحياة، وأفرغ عليها نوراً من روحه، وكساها عظمة من سلوكه، وكان للمتقين إماماً..!!

* * *

ترى ماذا يذكر التاريخ اليوم من سيرة العظيم، وبم يبتهج الناس من سيرته الفاضلة؟؟

هل يذكرون فتوحاته على كثرتها؟؟ هل يذكرون انتصاراته على روعتها؟؟

إن سلوك أمير المؤمنين، يشغل التاريخ ويشغل الناس عن كل شيء سواه

* ودائماً وأبداً نظل نرى على الحياة صورة ذلك الإنسان الإلهي الذي يجري في وقدة الحر الفادح وراء بعير من أموال الأمة مخافة أن يندّ ويضيع، فيحاسبه الله حساباً عسيراً..!!

* أو الذي يصطحب زوجته في الهزيع الأخير من الليل، حاملاً على كتفيه وفي يديه جراب دقيق، وقربة الماء، ووعاء السمن، حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة أدركها المخاض، وحيث يجلس هو خارج الكوخ يصنع لها طعام الولادة..!!

* أو الذي يتأخر عن خطبة الجمعة، ثم يجيء مهرولاً في بردة بها إحدى وعشرون رقعة، تحتها قميص لم يجف بعد من الغسل، ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تأخره فيقول: «حبسني عنكم قميصي هذا، كنت أنتظره حتى يجفّ، إنه ليس لي قميص غيره!!»

* أو الذي يستقبل هدية من الحلوى، أرسلها إليه عامله على أذربيجان، فيسأل الرسول الذي جاء بها: أوَكلُّ المسلمين هناك يأكلون هذا؟ فيجيبه الرجل قائلاً: كلا يا أمير المؤمنين، إنها طعام الصفوة!! فيصيح عمر ويقول للرجل: «أين بعيرك؟ احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له: عمر يأمرك ألا تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين..»

* * *

هذا هو عمر في ذاكرة التاريخ، وفي ضمير البشرية

هذا هو منارة الله في الدنيا، وهديته إلى الحياة

وعلى مائدته الحافلة من أطايب الطعام، الحافلة بأطايب العظمة، سنقضي أسعد وأرغد لحظات حياتنا..!!

خالد محمد خالد

ليوسعنّهم خيراً

كانت مكة تودع ضيوفها الذين وفدوا عليها من مختلف بقاع الجزيرة ليشهدوا مهرجان "عكاظ"، حيث يلهو الناس بشعرائهم المتفوقين، وحيث تزدان حلبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون ألعابهم في فن عظيم.

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدوا الرحال راجعين إلى بلادهم، وبجموعهم. عدا نفر قليل منهم استهوتهم البلد الحرام، فتمهلوا الظعن، وآثروا المكث.

من هؤلاء النفر، ذلك الشيخ الذي يقطع الطريق وقد يمم وجهه شطر دار الندوة ليقضي بها ساعة الأصيل، مع رفاقه في الشيخوخة والذكريات!

وإنه لماضٍ في سبيله، إذ لقيهُ في الطريق أعرابي قريب العهد بمكة، يعمل راعياً لدى واحد من سادات قريش..

ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تنحدر الكلمات من بين شفتيه في خفّةٍ وعجلة

- هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب..؟
- أيَ نبأ يا بني ... ؟
- ذلك الرجل الأعْسَر اليَسَر

ويتساءل الشيخ قائلاً

- الذي كان يصارع في سوق عكاظ..؟
- أجل ... هو..
- ما باله يا فتى..؟
- لقد أسلم، واتبع محمداً

ويصعق الشيخ من الدهشة، ويقول وقد كست وجهه حكمةُ السنين

- «أما والحق، ليوسعنّهم خيراً .. أو ليوسعنّهم شراً» ..!!

* * *

أما الأعسَر الذي كان يُصارع في سوق عكاظ، فهو عمر

وأما نبوءة العربي، فقد جاءت كفلق الصبح، وضوء النهار

ومع ذلك اليوم، لم يعد الأعسر اليسَر «عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى»، من بني عديّ... لم يعد ذلك الذي يُصارع الأشداء في سوق عكاظ، بل صار "الفاروق عمر"، الذي سيصارع الباطل في حياة العرب، أوّل النهار... وفي كل الدنيا، آخره

سيكون الرجل الذي يملأ الأرض للناس عدلاً، وأمناً، ورحمة، وهدى

سيكون "المعلم" الذي تبلغ الرشد الإنساني على يديه رشده و"الأسد" الذي تحلس بذنبا عند قدميه . !

أجل سيكون الإنسان الذي يرفع الله به من قدر البشر ، وقدر الحياة

* * *

« ليوسعنّهم خيراً ، أو ليوسعنّهم شراً » .. !!

كيف أدرك الشيخ العربي مصائر الأمور على هذا النحو السريع الفذ . ؟؟

الحق أن الذي قدّر له أن يرى "عمر" في شبابه ولو رؤية عابرة ، قادر على أن يرتّد نفس النبوءة ، ويستشرف الغد الذي استشرفه الشيخ في غير عناء .

"فعمر" ، ذلك الرجل القوي ، المجدول اللحم ، المشرب بالحمرة ، الغليظ القدمين والكفين ، العريض المنكبين ، الفارع الشامخ كعملاق ، الذي لم يسر قط مع قوم إلا كان أعلاهم رأساً من فرط طوله .

الرجل الذي كان كما نعتوه : "إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع"

"عمر" الذي لم يحصف قط في حياته أحد ، ولم يحتلج جنبه الصامد أمام رهبة ، أو فزع

"عمر" الذي ورث من طبع أبيه ، صرامة لا تعرف الوهن ، وحسماً لا يزحزحه التردد ، وتصميماً لا يقبل أنصاف الحلول

"عمر" هذا .. من اليسير جداً استكشاف حقيقته ، وقراءة دخائله ، والتنبؤ بمصائر الأمور بين يديه ، فهو إما أقصى اليمين ، وإما أقصى اليسار

إنه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية ، وتعددها

ومركز الثقل فيه ، لا تتوزعه أشتات نفس موزعة ، ولا تميل به أهواء متنافرة ، بل تحتشد به شخصية متسقة حادة .

فحيث يوجد "عمر" توجد كل شخصيته ، وكل إرادته ، وكل منهجه

لا ينقسم على ذاته أبداً .. ولا يضع إحدى قدميه هنا ، والثانية القدمين هناك

إنه رجل "جميع" تتحرك كل قدراته في دقة وتناسق ، بمواقف دقة الجيش المدرب واتساقه .. وليس بذرة واحدة في كيانه فرصة للتخلف .. أو للتلكؤ أو للتشرذم . !

إنها طبيعة فذة قلما تتكرر ، وقلما يكون لها في الأعداد الهائلة من البشر نظير

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك عظمة الطلعة البشرية التي رزقها "عمر" .. وكان يعرف ما تنطوي عليه من أصالة واقتدار .. كما كان يعرف ما يتمتع به "عمرو ابن هشام" من جاه ونفوذ

من أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسلام بأحب الرجلين إليه .. "عمر بن الخطاب" ، أو "عمرو بن هشام" .

ولقد ربح الإسلام أحب الرجلين إلى الله ، وكان "عمر بن الخطاب" صاحب الفطرة القوية السوية الجياشة .. ألقى ثقله كله في كفة التوحيد ، على حين بقي الآخر ثقله في كفة الشرك .. ولكن مصير المعركة تقرر في نفس اللحظة التي أصبح فيها "عمر" .. قوة في إحدى

كفَنُه .. واستبانَ عبد الإسلام كضوء الفجر، صدقاً بن الخطاب : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .. !

يقول عبد الله بن مسعود : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر » . !! .

* * *

هذا التفوق الواثق في شخصية "عمر" كان يبدو كما لو كان تطرفاً ، وترمُّتاً ، وغِلظة في الجاهلية ، كانت مُحَادَّته للإسلام ، تكاد وحدها تعدل أذى قريش . وكان تشبُّثه بموقفه يدحض أيَّ أمل في عُدوله عنه ، حتى لقد صوَّر أحد المسلمين يومئذٍ يأسه من إسلام "عمر" بقوله : « إنه لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب » !!

وفي الإسلام ، صارت محادَّته بلوثنية تكاد تعدل وحدها مقاومة الإسلام بأسره . وصارت صرامته بعادية العقلة مضرب الأمثال ، حتى لقد كان الوحيد بين الصحابة الذي يُكثر من مناقشة رسول الله ﷺ ، والذي يقترح أحياناً على الرسول ، فيمضي رسول الله ﷺ ما اقترح ، ويسنُّ ما رآى . وكان شديد الوطأة على خصوم الإسلام بصورة تفرَّد بها عمرٌ سواه .

بيد أن ذلك لم يكن من "عمر" تطرُّفاً ، ولا ترمُّتاً ، ولا قسوة . إنما كان تفوُّقاً

ذلك أن الطبيعة التي كانت تحتشد مواهبها وقدراتها على هذا النسق الفذ الذي توفَّر "لعمر" ، لا تكون بصاحبها الحر إلا في مستوى هذا التفوق المهيمن العميم .

وهكذا كان "عمر" .

رجل مزوَّد بطبيعة مشحوذة قوية متفتحة . طبيعة مستقيمة القصد ، شديدة الأَسْر ، سواء في صلابتها وهُداها .

وهي إذا اتخذت موقفاً ، تبلغ فيه المدى ، لا تسحبها النزعة للغلو ، بل تحبباً لإمكاناتها الحافية ، وتعبيراً تلقائياً عن تفوقها وامتلائها .

إن ثمَّة فرقاً كبيراً بين التفوق والتطرف .

الأول : يشبه النمو الطبيعي .

والثاني : يشبه مرض تورّم العظام .

الأول ثمرة خلايا حية عاملة ، وطبيعة سوية نامية . والثاني عرض من أعراض العلة والسقم .

والتفوق ، قوة عادية تصطفي الحكمة . ولا تستعلي على الحق ، أو تتوارى من الحق .

وهكذا كان الذي مع "عمر" التفوق ، لا التطرف . والقوة ، لا القسوة .

وإن الظروف التي أحاطت إسلامه ، وأحاطت به لتكشف جوهر طبيعته ، وتوضح هذا أوضح بيان ..

* * *

ذات يوم لاهب، خرج من داره حاملاً إصراره المغرور، وسيفه المسنون، مولّيًا وجهه شطر "دار الأرقم"، حيث كان الرسول ﷺ ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك، ويعبدونه.

وفي الطريق يلقاه "نعيم بن عبد الله" فيرى ملامحه تتفجر بأساً ونقمة، فيقترب منه في وجل ويسأله:

- إلى أين يا "عمر" .. ؟

فيجيبه: « إلى هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها، وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ».

ويذهل "نعيم" عن جسامة الموقف، وبالخطر الذي يجثم على مقربة لعمر، فيقول له:

- « لبئس المسعى مسعاك، وبئس الممشى ممشاك » .. !

ويخشى "عمر" أن يكون "نعيم" قد أسلم، فيقول له:

- « لعلك صبأت .. إن يكن فعلت فو اللات والعزّى لأبدأنّ بك »

و "نعيم" يعرف تماماً أن "ابن الخطاب" يعني ما يقول، فينهي الحوار بعد أن يلوي زمام "عمر"، إذ لا يكاد يحتمل وقفه الشديد:

- « ألا فاعلم يا عمر أن أختك وزوجها - سعيد بن زيد - قد أسلما، وتركا دينك الذي أنت عليه ».

أخته .. ؟؟ فاطمة بنت الخطاب ؟؟

ما له ولدار الأرقم إذن، وقد اقتحم الخطر داره هو وعرينه ؟

وهكذا، أغذّ السير إلى دار ختنه "سعيد".

* * *

في جوف الدار كان "سعيد بن زيد" وزوجته "فاطمة بنت الخطاب" و "خباب بن الأرت"، وملء أيديهم صحيفة فيها من وحي الله آيات يتلونها ويتدارسونها.

وقرع الباب قرعاً رهيباً ..

وقيل: من ؟ قال: عمر

فاختبأ "خباب"، وسارع إلى مخبأ قصي في الدار، سائلاً الله حفظه وعونه !

وأما أخت "عمر" وزوجها، فقد استقبلا الليث يغشاهم دخوله المفاجئ، ولم تنس بنت الخطاب في هذه الغمرة المداهمة، الصحيفة الكريمة التي بها آي الله فخبأتها تحت ثيابها

قال "عمر" والشرر يتقاذف من عينيه: ما هذه الهينمة التي سمعت عندكم ؟

أجابا: لا شيء إنها نجوى وأحاديث

قال لهما: سمعت أنكما صبأتما

قال سعيد: « أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك » ؟؟

---

(١) الهينمة: الكلام الخفي.

ولم يمهله "عمر" حتى يتم حديثه، بل وثب عليه في عنفوان مجنون، وأخذ برأسه يهزه ويلويه، ثم ألقاه أرضاً، وجلس فوق صدره.. وحين تقدمت أخته لتدفع عن بعلها أصابتها منه لطمة أدمت وجهها فصاحت به، وكأنها بوق سماوي يدوي ويصلصل

«يا عدو الله، أتضربني على دين الله؟ ألا ما كنت فاعلاً فافعل، فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» ..

والآن، انتبهوا جيداً، فإن اللحظة الحاسمة تدق، مؤذنة بالتحول، وكاشفة عن الجوهر النقي القوي، الذي صيغت منه فطرة هذا الرجل الكبير.. فيما هو في بأسه الشديد ذاك، تجابهه اللحظة العالية بصيحتها، فيلين له "عمر" ويتخشع.

حيث أن الكلمات المندفعة من إصرار أخته كانت تحمل كل رنين الصدق

هذا الرنين الذي يعرفه ويميزه من له فطرة كفطرة "عمر" تماماً مثلما يدرك الفارس الأصيل المجرب، أصالة الخيل من صهيلها..!

ولو كانت قوة "عمر" قوة عناد وقسوة، لمضى في ضراوتها، ولبحث من الموقف عن مزيد

أما وهي قوة تفوق وبطولة، فقد استحيت من فورتها هذه وهي تتبدى أمامها، لقد رأى عزيز المرتفع، رأس "فاطمة بنت الخطاب" المؤمنة بالله وبرسوله ﷺ ولهذه الكلمات الموهجة بنور الحق، المتدفقة برنين الصدق

وفجأة ينهض من فوق صدر "سعيد" ويمد يده في ضراعة إلى أخته، سائلاً إياها أن تعطيه الصحيفة التي رآها تبرز من تحت ثيابها:

ـ هاتِ هذه الصحيفة، لأنظر ما فيها.

وتجيبه أخته: «كلا، إنه ﴿لا يَمَسُّهُ إلا المطهَّرون﴾. اذهب فاغتسل وتطهر»

ويمضي "عمر" كالأسد الوديع الهادئ، هذا الذي كان منذ لحظات إعصاراً يدمدم.. ويعود ولحيته تقطر ماء.. وتعطيه أخته الصحيفة، ويقرأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى. تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى. له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى. الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾

ثم يتابع التلاوة في خشوع ونبل

﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبلها.. وينهض واقفاً ويقول:

«لا ينبغي لمن هذه آياته، أن يكون له شريك يُعبد معه، دلوني على محمد»!

وهنا يبرز "خبّاب بن الأرت" من مخبئه، ويهرول صوب عمر صائحاً

«أبشر يا عمر، فوالله لقد استجيب دعاء الرسول ﷺ لك».

ويحث عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم، وهناك بين يدَيْ رسول الله عليه الصلاة والسلام يدخل في الدين الحقّ، ويكبّر المسلمون تكبيرة تهتز بها مكة جميعها.

* * *

في مثل لمح البصر، تمّ هذا التحول الهائل العظيم، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى، رجل كان يقف في أقصى مجاهل الوثنية.

والعصمة القوية التي كانت تحتشد لتحرس آلهة قريش من زحف الدين الجديد، وثبت الآن وثبة في الصفاء إلى الجانب الآخر من أرض المعركة بكل بأسها وبكل قوتها، لأن لحظة حاسمة أجاد توقيتها وأحسن إعدادها قدرٌ حكيم عليم!

لقد كان "عمر" يذود عن مقدسات جاهليته، يوم كان يؤمن أنها حقّ.

وهو الآن وقد أسلم وجهه لله، سيضع كل حماسته وقوّته في خدمة دين، آمن أنه الحقّ.

ذلك أنه رجل يسير وَفْق إيمانه واقتناعه، لا وَفق هواه..

بيد أن إيمانه الأول وإيمانه الأخير لا يستويان

فإيمانه القديم، إيمان لا برهان له.. إنه إيمان العبيد الذي يحجب عن العقل ضوء الحقيقة، ويحرم القلب بهجة الصدق

أما إيمانه الجديد فمعه برهان.. أيّ برهان..!!

* إن الله الذي يعبده اليوم ليس من حجر ولا من مَدَر، إنما هو نور السماوات والأرض، على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

* والداعي إلى الدين الجديد، ليس واحداً من طراز أولئك الكهنة الذين يرتزقون بالأصنام، ويستمدون سلطانهم من جهالة الناس وترويج الأساطير.. إنما هو "محمد" ﷺ الذي لم يكن صِدقُه ولم تكن أمانته موضع ريبة أو شبهة طوال الأربعين عاماً التي قضاها بين قومه عبداً، قانتاً، طاهراً، براً.

* ورفاقه الجدد، إخوانه في هذا الدين، ليسوا على شاكلة الآخرين الذين لا همّ لهم سوى اللهو واللعب، والميسر والضياع

إنما هَمّ رجلٍ عظيم وَضع وِزره، ونفضا عن نفسه غرور الحياة الدنيا، وتهيأ لرسالة كبرى وجهاد عظيم

أجل.. إن الناس هنا، مع محمد رسول الله ﷺ، قد وجدوا غرضاً عظيماً يحيون من أجله. أما الآخرون الذين خلّفهم "عمر" وراء ظهره فسيظلون على موائد الميسر يرددون بها سفاهة، أو يتحلقون حول الأزلام يستفتونها في حظوظهم العاثرة أو يطوفون حول أصنام من حجارة، ينحتونها بأيديهم، ثم يخرّون لها سُجّداً.

هنا إيمان حقّ، معه من الله برهان.

هنا إيمان يرفع الرءوس عالية، ويصل الإنسان بالله دونما حاجة إلى وسيط أو شفيع

وطيبة كطيبة "عمر"، ترفض السبية، وتستعلي على الإذعان والرضوخ، ليس لها محل حيوي ولا مُناخ طبيعي إلا في دين كهذا الدين، حيث يقف الناس سواسية كأسنان المشط، وحيث أكرمهم عند الله أتقاهم، وحيث يَعبقُ الطهر ويضوعُ الحقّ، وحيث يتلو "محمد" آيات ربه فتتبدّى من خلالها معالم الحياة الواعدة، والمصائر الواعدة، وتسمع الأذن فيها صلصلة الحقيقة، وتجد الأفئدة معها برْد اليقين!

* * *

إن القوة نفسها والأصالة نفسها، تعملان في الطبيعة الفريدة "لعمر" بعد أن صار الإسلام له دينًا. ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقًا بعيدًا عنها قبل الإسلام، ذلك أنها وجدت بهاها، وهُداها، ولم يعد مجالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة، أو تلك الشئون الصحية بطحاء مكة، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسماء وبالأرض جميعًا، وصار موضوع نضالها دنيا يدرك بفطنته المشرقة أنه لن يقتصر على أرض الرمال، والإبل، والشعر، بل سيزحف مُشرِّقًا ومُغرِّبًا حتى يعمر العالمين..!!

من أجل هذا يبدأ الفتى الذكي في الطبيعة العمرية من أولى لحظات إسلامه، فيقول لرسول الله عليه السلام:

- «ألسنا على الحقّ في مماتنا ومحيانا..؟؟»

ويجيبه الرسول: «بلى يا عمر والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحقّ إن متم وإن حييتم»

يقول "عمر": ففيم الاختفاء إذن..؟ والذي بعثك بالحقّ لنخرجنّ، ولنخرجنّ معك

ويخرج الرسول ﷺ والمسلمون معه في صفّين، "عمر" في صف، و"حمزة" في الصف الآخر.

وبهذه الخطوات التي استحثّها "ابن الخطاب"، بدأ الزحف الطويل المبارك الذي استمر ألفًا وأربعمائة عام.. ولا يزال..!!

إنّ الرجل الذي جاء مُتنكِّبًا سيفه لقتل رسول الله ﷺ، قد تحوّل في لحظات معدودة إلى مؤمن بالله وبرسوله، فماذا عساه يفعل الآن؟.

ما الامتداد الذي ستواصل طبيعته المسير فيه.

وما ردُّ الفعل الذي ستكثِّف وجهتها الجديدة؟

إن خواطره السريعة تنهض وكأنها تتحرك وفق "خريطة" مفصّلة قد وُضعت سلفًا

ولسوف يُتابع عمر "المسلم" أداء المهمة التي بدأها عمر "الوثني"، ولكن في مستوى أعلى، وغاية أرفع.

أجل، لقد خرج من داره متنكبًا سيفه، قاصدًا دار الأرقم، ليصرع الباطل حسبما فيمضي لغايته، وليُتم ما صل مهمته غير أنه الآن لن يصرع الحقّ الذي كان يتوهمه باطلًا.. بل سيصرع الباطل الذي طالما توهمه حقا!

سيصرع الباطل الذي هو باطل، والذي خدع "عمر" عن رشده وحجبته عنه من الرهاب

وها هو الآن، وقد كُشف عنه غطاؤه، لتدوّي بصوته الصخور

- «والله، لن أترك مكاناً جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان»!

وإن مع طبيعته من الذكاء والمقدرة ما يجعله مهيأ للعمل دوماً، واضعاً عينيه على الهدف أبداً.

وهو لهذا وبهذا رجل لا يعرف أنصاف الحلول، ولا ينام على الضيم لحظة من نهار أو من ليل، والتصميم عنده شمس وضحاها من أن يكون رهن نزواته، أو حبيساً لسآمته، وإن التصميم أنصف أن يعجز عن تحقيق ذاته، واستحار مشيئته، وبلوغ الأمر الذي يريد.

وهكذا رأى من التصميم أن يرث معالم جاهليته بعنف، وهو جنيبه كله، ومن ثم فإن آثار قدميه في طرقات مكة حيث كان يدعو ضد الإسلام، ويحارب دونه، لابد من أن تدوب وتتلاشى في خطواته الجديدة التي سيذرع بها الطرقات نفسها مسبحاً بحمد الله، ومقدساً له.

وكل مكان وقع فيه عقيرته أمجاداً بأصنامه فيه، لابد من أن يجلجل فيه بـ«لا إله إلا الله، محمد رسول الله»!

أجل، ستتعقب «عمر» كل حركاته، وكل كلماته، وكل خطواته التي خطت تحمل محاربة لدين الله مدى سنة أعوام، منذ بدء الرسالة حتى يوم إسلامه.

ستتعقبها في كل مظانها ومواطنها، وستضع مكان كل سيئة حسنة.

ستقتلع جميع الأشواك التي ملأ بها طريق «محمد» ﷺ وصحبه، وستغرس مكانها أزاهير، سيزرعها حباً، وتفانياً، وسيشتري بها الذين يحبونه، جميع حياته!

إن طبيعته تنادي الزمان والمكان، بل تلعنهما لعناً، لتظل لها سيادتها وتفوقها... فإذا أخطأ عمر في زمان ما، في مكان ما، ثم أراد أن يصحح خطأه، فليس يكفي عظرته لغداة بادرة أن يسحب الخطأ، بل هي تريد اقتلاعه تماماً، واقتلاع الزمان والمكان اللذين كانا مخطأ وعاء.

ومن ثم فهي تأبى إلا أن يعود للمكان نفسه، وهو يستطاع لاسترداد الزمان نفسه، لتقول إن ذلك الخطأ لم يكن، ولا كان للمكان الذي شهده، ولا الزمان الذي احتواه!!

من أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر، فجلس فيه بالإيمان... أكان ذلك كافياً؟ لا، فهناك عمل كبير وخطير، سيواصله عمر حتى يحس أنه قد طهر نفسه من كل آثام جاهليته.

فهو يذكر أن تمسكه السابق بدين قريش، كان من أهم أسباب الاضطهاد الذي لقيه الرسول ﷺ وصحبه... واليوم وقد آمن، فلابد من أن يكون إسلامه عملاً حاسماً في شد زناد المقاومة الإسلامية.

أجل بالأمس كان واحداً من الأسباب التي حملت المسلمين - وهم قلة - على الفرار بدينهم إلى «دار الأرقم» حيث يعبدون الله خفية.

واليوم، لابدّ من أن يكون إسلامه عاملاً حاسماً في الجهر بالدعوة، ونبذ التخفّي والمداراة
وإنه ليذهب إلى رسول الله ﷺ فيقول:
«بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ففيم الحبس ؟ والله ما تركت مجلساً كنت أجلس فيه بالكفر، إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف.. ألا إننا لن نعبد الله سراً بعد اليوم»
ويستجيب الرسول ﷺ لرأيه، ويخرج الدعوة من مكمنها إلى أرض الله الواسعة
أفهل يكتفي عمر بذلك ؟
كلا.. فلا تزال ثمة خطوة تبهر الألباب حقا
لقد تذكّر "عمر" أنه بالأمس كان كفار قريش يأخذهم الزهو، لأن "عمر" يضرب بيده أصحاب "محمد".. فليسمح للمسلمين اليوم أن يزهوا مثله.. وهو إذ كان لن يستطيع الآن أن يحطم بقبضته رؤوس صناديد قريش وظهورهم، فليرفع من شأن العذاب الذي يلقاه أصحابه المسلمون بأن يشاركهم فيه، وليأخذهم الزهو، بأن "عمر" الجسور العملاق المهيب يضرب مثلما يضربون، ويضطهد كما يضطهدون..!!
نعم.. لن يظل اضطهاد قريش وقفاً على "بلال" و "خبّاب" و "عمّار" و "صهيب" وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين.. بل لابد من أن يصلاه معهم فتى الفتيان هذا، الذي سبقته هيبته، والذي تخشع أمام سطوته الأفئدة والقلوب
لابد من أن يضرب "عمر" كما يضربون، وبهذا لا يقصر عن صبرهم ويعدّ نفسه دونه، تكسر نفوسهم، ويخدع كبرهم.. وبهذا يتمّ لعمر إسلامه، إذ يتمّ له نصيبه مع المسلمين في دفع الثمن الذي يشترون به رضا الله..!!
هكذا فكّر ابن الخطاب.. هكذا فكّر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السويّة
ولكنْ أنّى له هذا، وهو المرهوب الجانب إلى الحدّ الذي جعل مجرد التفكير في مشاكسته مغامرة خاسرة..؟
إذا أراد "عمر" أن يكون الظافر المنتصر، فما أيسر السبيل.. أما أن يكون المضروب المهزوم، فهذه هي المشكلة الكبرى التي يحتاج الظفر بحلها إلى جهد كبير
فمن الذي يجرؤ أن يضرب "عمر" في قريش كلها..؟؟
ولكنّ "عمر" قرّر أن يرفع من قيمة العذاب الذي يلقاه إخوانه، بأن يتعرض له، ويأخذ نصيباً منه
أجل، لقد قرّر وأراد، وما دام قد أراد، فلابدّ من أن يوجد الطريق
ويرسم خطته، ويبدأ جولته بأبي جهل.. فيذهب إليه في داره ويقرع الباب، ويخرج أبو جهل ليجد أمامه "عمر"، فيغلق الباب دونه
ويمرّ بأشراف قريش في دورهم ومجالسهم، راجياً أن يخوض أحدهم معه معركة يخرج منها بلطمة في صدره، أو جرح في وجهه.. ولكنهم جميعاً يتحاشونه ويتحامونه

وأخيراً يمر أن يلقاهم عند الكعبة وهم مجتمعون هناك ، ولا يكاد يبلغهم حتى يستثيرهم بالحديث .

ولنصغ إليه يروي بنفسه ما حدث ، يقول رضي الله عنه :

ـ « وثار إليّ الناس يضربونني وأضربهم ، فجاء خالي وقال : ما هذا ؟ قالوا : ابن الخطاب ، فقام على الحجر وقال : ألا إني قد أجرت ابن أختي ، فانكشف الناس عني . فكنت لا أزال أرى الذين يضربون من المسلمين ، وأنا لا يضربني أحد ، فقلت : ألا يصيبني ما يصيبهم ؟ فجئت خالي ، وقلت له : جوارك مردود عليك . قال : لا تفعل يا ابن أختي ، قلت : بل هو ردٌّ عليك . قال : ما شئت فافعل ، فما زلت أضرب وأُضرب حتى أعزّ الله بنا الإسلام » .

* * *

هذا السلوك النادر الذي يبدو من « عمر » ، إنما ينشق من طبيعة استوفت كل عناصر الكمال ، والسؤدد ، طبيعة لا يرخم إخلاصها لمسئولية شيء قط ، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل .

والرجل الذي وقف موقفه هذا أول إسلامه ، هو الذي سنلتقي به فيما بعد ، أميراً للمؤمنين ، وجيوشه تدك سلطان كسرى وقيصر ، فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع ، ثم يقول :

ـ « أيها الناس ، لقد رأيتني وأنا أرعى غنم خالات لي من بني مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب » ..

ثم ينزل من على المنبر بين دهش المجتمعين وتساؤلهم .

ويتقدم منه رجل لم يطق على ما رأى صبراً ـ وهو « عبد الرحمن بن عوف » ـ وقال له : ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟

فيجيبه « عمر » :

ـ « ويحك يا ابن عوف ، خلوت بنفسي فقالت لي : أنت أمير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله أحد ، فمن ذا أفضل منك ... ؟ فأردت أن أعرّفها قدرها !! » .

هذه طبيعة مستقيمة ، ليس بداخلها عوج ، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه .

ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظيماً ، لا يبغي على ما يعمل جزاء أو شكوراً .. وإنما يعبّر عن طبيعته الممتلئة التي وضعها في خدمة الله ، ونذرها لدينه ..

وكلما ملأت الرحب بنشاطها الفذ ، وقدرتها الهاطلة ..

وكلما أخرجت من جنباتها وتراثها المضيء الذي لا ينفد ..

وكلما سحقت لله راية ، وهدمت للشرك قلعة ، وأذلّت للإنسان جبهة ..

كلما فعلت هذا ، كان عمر سعيداً ، جد سعيد ..!!

■ ■ ■

ما تقول لربك غداً ؟

لا شيء يميّز الصانع بمنعوفه لسونه ، مثل تأبّيه عن الغرور

ولو كان ثمّة رجل ، لابدّ للغرور أن يتسوّر حصونه المنيعة ، لفرط مزاياه وروعة أمجاده وانتصاراته ، لكان "عمر"

فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول ﷺ وصحبه

وهو يرى كيف صار الإسلام ذات جهوريّ الصوت ، صادح الكلمة ، في اليوم نفسه الذي اعتنقه فيه

ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يستخفُون من طغاة مكة ، يواجهون اليوم الأذى في شموخ ، ويرجُون مكة بتكبيرهم بعد أن صار "لعمر" بينهم مكان

ويرى رسول الله ﷺ ينعته بالفاروق ، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحقّ والباطل ، وبين الملاينة والمُواجهة

ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض آرائه ، فلا يوافقه الرسول فحسب ، بل ينزل به الوحي ، ويصير قرآناً يُتلى .

وفيما بعد ، يصطفى خليفة لرسول الله ﷺ بعد أبي بكر ، وأميراً للمؤمنين ، فتفتح في أيامه "بوابات" العالم لدين الله ، وترتجم راياته جوّ السماء في كل أفق

كل هذا ، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها .. إن لم يجد أكثر من ثغرات ؟؟ !

ومع ذلك ، فلا نكاد نعرف نفساً استعصت على الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كلّ محاولاته ، مثل نفس هذا الرجل الفرد .. "عمر" .!

فمن أين له هذا .. ؟

لا ريب أن لطبيعته واستعداده الفطري الأثر الكبير الناجع

ولا ريب أيضاً في أن الطريقة التي نشأت بها هذه الطبيعة بالله قد أفاءت عليها مدداً لا يفنى ، ومقدرة لا تتلجلج ، وعزوفاً كاملاً عن كل ما في الحياة لغير من غرور وزهو

إن "عمر" نفسه يردّ إلى الله ، وإلى الدين الذي ابتهج بهجته كل ما معه من فضائل ، وهدًى ، واقتدار .

وطالما كان يقول لإخوانه : « لقد كنا ، وليس شيئاً مذكوراً حتى أعزنا الله بالإسلام ، فإذا ذهبنا نلتمس العز في غيره أذلنا » .

فلننظر كيف كانت علاقة "عمر" بربه ..

لننظر كيف انتقت طبيعته القوية بسببٍ قوي ، تصحب الرجل القوي الأمين

ولسوف نجد كل تصرفات "عمر" تسير وَفق إجلال لله فريد .

أجل ، إن "عمر" يخشى ربه خشية ، ويوقره توقيراً ، حتى إنه ليبكي ويذوب ويتحلّل كلما هوّمت حوله من بعيد ومضة من ومضات ربه ذي الجلال والإكرام

وكان لا يفتأ يردّد لنفسه هذا السؤال الملحّ المهيب: «ما تقول لربك غداً» ؟!

نعم.. «ما تقول لربك غداً» .. ؟

عبارة قد نتلوها نحن في دعة ويُسر، أما هو فكانت تزلزله زلزالاً شديداً..!!

يقول الأحنف بن قيس:

كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان[1] فقد ظلمني. فرفع عمر درّته وخفق بها رأس الرجل وقال له: تدعون أمير المؤمنين وهو معرّض لكم، حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدني أعدني.

فانصرف الرجل غضبان آسفاً، فقال عمر: عليّ بالرجل.

فلما عاد، ناوله مخفقته وقال له: خذ واقتصّ لنفسك مني.

قال الرجل: لا والله، ولكني أدعها لله.. وانصرف.

وعدت مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول:

يا ابن الخطاب، كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعديك فضربته، فماذا تقول لربك غداً إذا أتيته؟!!

* * *

ماذا تقول لربك غداً .. ؟

في هذه العبارة، يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتتمثل حياته معاً بعبيره ومواريثه

وفيها تتمثل جواز مروره إلى الله، وخطو مروره بالدنيا، بكل طيباتها إليه

فأمام كل لقمة شهية، وأمام كل شربة باردة، وأمام كل ثوب جديد تستبقه دموعه.. تلك الدموع التي تركت تحت مقلتيه خطين أسودين من فرط بكائه، ويتصدّى داخل نفسه هذا النذير: «ماذا تقول لربك غداً» .. ؟

هذا هو جبّار الجاهلية، وعملاق الإسلام.

هذا هو أمير المؤمنين الذي تخفق لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا، وتستقبل الناس جيوشه كأنها البشريات.

ها هو يؤمّ الناس في الصلاة فيسمع نشيجه صحبه في الصف الأخير!

وها هو ذا يعدو، ويهرول وراء بعير قد فلت من معطنه، ويلقاه علي بن أبي طالب فيسأله: إلى أين يا أمير المؤمنين؟

فيجيبه: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه.

ويقول له علي: لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك..!

فيجيبه عمر بكلمات متهدّجة:

(1) يقال: استعديت الأمير على فلان، أي: استعنت واستنصرت به عليه.

- "والذي بعث محمداً بالحق، لو أن عنزاً ذهبت بشاطئ الفرات، لأخذ بها عمر يوم القيامة"..!

أكان "عمر" يخاف الله خوف العبد الذي ترهبه قرع العصا ولذع السياط..؟

لا.. وإنما كان يخشاه خشية الحر الذي يرجو لربه وقاراً.. وينصرع له إجلالاً وإكباراً.. ويحمل أن يمنى بالتقصير.. أي تقصير..!!

وهذا هو نشيده دوماً:

"كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، فماذا تقول لربك غداً إذا أتيته".. ؟

* * *

ولكن، لِمَ كل هذه الخشية الضاغطة، والتحسب الدائم؟

إن "عمر" قد تأدّب على يديْ رسول الله أحسن تأدّب، وإنه لتابع لرسول الله ﷺ في غير جنف ولا ميل، وإنه لذو سمت عظيم، وإنه لنسيج وحده في ورعه، وإخباته، وزهده، وتقواه.

أفلا يُفيء هذا على نفسه فيطلقه كثيراً من انضمامه وانزعاجه؟

بلى يفيء، لو كان إنسان آخر غير "عمر".. أما هو فلا يرى في هذا النسك كله سوى جهد المُقلّ العاجز، ولا يرى في توفيق الله له سوى نعمة تستوجب شكراً يليق بها..

ذات يوم، يقول لجليسه "أبي موسى الأشعري":

"يا أبا موسى، هل يسرّك أن إسلامك مع رسول الله ﷺ وهجرتك معه، وشهادتك، وعملك كله يردّ عليك.. فتخرج منه كفافاً، لا لنا ولا علينا".. ؟

فيجيبه أبو موسى: "لا والله يا عمر، فلقد جاهدنا، وصلّينا، وصُمْنا، وعملنا خيراً كثيراً، وأسلم على أيدينا خلق كثير، وإنا لنرجو ثواب ذلك"..

فيجيبه "عمر" ودموعه تنحدر على وجنتيه كحبات لؤلؤ منثور:

- "أما أنا، فوالذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك يردّ لي، ثم أنجو كفافاً، رأساً برأس"..!!

انظروا إلى أيّ مدًى يهاب الله ويستحي من جلاله..!

إن رسول الله ﷺ بشّره بالجنة..

وإنه الأتقى من كل شهوة ونزوة، حتى لكأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة..!!

ومع هذا يقف دائماً من الله موقف الخشية والحذر والحياء..

ولِمَ لا يكون ذلك، وهو يرى رسول الله نفسه، يمضي ليله كله متهجّداً متعبّداً، ونهاره كله صائماً ومجاهداً.. فإذا قيل له: يا رسول الله، لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ يجيب عليه السلام قائلاً: "أفلا أكون عبداً شكوراً".. ؟

إنه توقير الله أكثر ما يكون التوقير، وشكرانه أكثر ما يكون الشكران..

وهذه هي المدرسة التي تربّى فيها "عمر" وتخرّج..

مدرسة لو لم يخف أهلها الله، ما فكروا في عصيانه، ولو لم يكن للإثم عقوبة، ما فكروا في أن يأثموا، ولو قال لهم الله: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، ما خطر ببالهم قط أن يعملوا إلا ما يرضي ربهم ويحب..

ذلك أن علاقتهم بالله لم تكن بواعثها الفزع، بل كانت حب الله وتوقيره، والحياء منه.

وإن إنساننا الكبير العظيم "عمر" ليمثل قمة هذا الفهم السديد

إنه على يقين بأن أحداً لا يستطيع أن يشكر الله حقّ شكره مهما تكن حياته فاضلة عادلة مستقيمة

وإنه ليعلم أن كل شكر لله إنما هو نعمة جديدة، تستأهل شكراً جديداً

وهو يعلم أن ما أنعم الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هي من محض فضله سبحانه وتعالى، وأن الله كان قادراً على أن يختص بها سواه، أي: وقد آثره هو وقال له: ليت مني هذه العطايا يا "عمر" فإن هذا ليجعله يذوب، ويذوب وينكمش ثم ينكمش. ويقول وقد هزّ جوانبه هذا الشعور: "يا ليت أم عمر لم تلد عمر"..!!

أو يردد: "ما تقول لربك غداً"؟

إنه مصمم على أن يتفوّق على ذاته، ويجاوز كل حدود قدراته حتى يحقق أكبر حظ ممكن من العرفان والشكر لبارئه وخالقه وربه.

"عمر" الذي يعف حتى رسول الله ﷺ، واحداً من أصحابه.

و"عمر" الذي يصير فيما بعد خليفة لرسول الله ﷺ وأميراً على أصحابه

"عمر" هنا وهناك، هو هو، ذلك الإنسان الخاشع لصارع الأواب الذي لا يرجو في دنياه وأخراه سوى أن ينجو كفافاً لا وزر ولا أجر!

إنه لا يطمع في أكثر من ألا يقف بين يدي ربه حزيناً بسبب خطأ ارتكبه، أو مظلمة قصر في درئها، أو نعمة لم يبذل الجهد في شكرها!

لا شيء يؤرقه في نومه، ويهمه في صحوه، مثل الخشية من أن يسأله ربه غداً في عتاب: "لماذا فعلت هذه يا عمر"..؟؟

و"هذه" التي هي رمز لأيِّ فعلة مجهولة، تحمله على أن يقضي عمره كله جوّاباً داخل نفسه وخارجها يبحث عن "هذه" ومحاذراً أن يقترف مثلها وهو لا يدري..!

من أجل هذا يترك العتاب والمباهج التي أحلها الله خشية أن تتكرر فيها "هذه" التي يخشى السؤال عنها من الله..!!

لنقرأ بعض فقرات كتابه إلى عامله على البصرة "عتبة بن غزوان"

"وقد صحبت رسول الله ﷺ، فعززت به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف، حتى صرت أميراً مسلطاً، وملكاً مطاعاً، تقول فيُسمع منك، وتأمر فيُطاع أمرك. فيا لها نعمة، إن لم ترفعك فوق قدرك، وتُبطرك على من دونك...!"

« تخوَّف من النعمة تخوُّفك من المعصية ، فلهيَ أخوفهما عندي عليك ، أنْ تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ، أعيذك بالله وأعيذ نفسي من ذلك» .. !!

ويحدثنا جابر بن عبد الله فيقول :

- رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي ، فسألني ما هذا يا جابر ؟ قلت هو لحم اشتهيتُه فاشتريتُه ، فقال : أوَ كلما اشتهيت اشتريت ، أما تخاف أن يُقال لك يوم القيامة "أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا" .. ؟!

* * *

ترى ماذا يكون موقفه من السيئات ، هذا الذي يخاف على دينه من الطيبات .. ؟!

ولكن ما شأن السيئات بعمر ، وهي التي تفرّ منه مذعورة إذا أبصرت نوره على بعد فراسخ ؟!!

لقد حرم "عمر" نفسه من طيبات كثيرة ، ومن مطاعم لم يحرمها الله عليه ؛ لأنه كان يرى نفسه عاجزاً عن شكر القليل ، فلم يرد أن يتورط في عجز أكثر أمام النعم الكثيرة . ولأنه كان يحمل في أمانة كاملة مسئولية القدوة .. !!

ولو شاء أن يظفر بالمطاعم الصالحة على كثرتها لظفر بها جميعاً ، لكنّ بطولة روحه وعظمة نفسه ، واستقامة نهجه حملته دائماً على أن يبتدر الكفاف ويختار التقشّف .

زاره يوماً "حفص بن أبي العاص" ، وكان "عمر" جالساً إلى طعامه ، فدعا إليه حفصاً ، لكنّ حفصاً رأى الغديد اليابس الذي يأكل منه "عمر" ، فلم يشأ أن يكلف نفسه عناء ازدراده ، ولا أن يتجشّم معدته مشقة هضمه ؛ فاعتذر شاكراً .

وأدرك أمير المؤمنين سرّ عزوفه عن طعامه ، فرفع بصره نحوه وسأله :

- ما يمنعك عن طعامنا .. ؟

ولم يغصّ الصراحة حفص فقال : إنه طعام جشب غليظ وإني راجع إلى بيتي فأصيب طعاماً ليّناً قد صُنع لي .

فقال "عمر" :

- « أتراني عاجزاً عن أن آمر بصغار المعزى ، فيلقى عنها شعرها ، وآمر برقاق البر ، فيخبز خبزاً رقاقاً ، وآمر بصاع من زبيب فيلقى في سمن حتى إذا صار مثل عين الحجل صُبّ عليه الماء ، فيصبح كأنه دم غزال فآكل هذا وأشرب هذا .. ؟؟ »

فقال له حفص وهو يضحك : إنك بطيِّب الطعام لخبير .. !!

واستأنف "عمر" حديثه فقال :

- « والذي نفسي بيده ، لولا أن تنقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم . ولو شئتُ لكنت أطيبكم طعاماً ، وأرفهكم عيشاً ، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه ، ولكنا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .. وإني لأستبقي طيباتي ؛ لأني سمعت الله تعالى يقول عن أقوام :

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ .. !!

هكذا عزفت حياته من الله عن كل ترف، بل عن كل راحة في الدنيا، وأبى أن يصيب وأهله من الطعام إلا قوتًا، ومن العيش إلا كفافًا..!!

* * *

فإذا حسب موقفه من السلطان، حسب سائر الناس على أكثر أعمارهم لقاء أيام يقضونها سادة حاكمين، فماذا نجد..؟!

لقد كان أعلى أمانيه أن يظل "عمر بن الخطاب" لا غير فلا هو خليفة، ولا هو أمير.

ولقد عُرضت عليه الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ إذ بسط إليه "أبو بكر" يمينه في اجتماع السقيفة قائلاً: هات يدك يا "عمر" نبايع لك. لكنّ عمر خلص منها بحذق، إذا قال:

ـ «بل إياك نبايع فأنت أفضل مني»

قال أبو بكر: «أنت أقوى مني يا عمر»

قال "عمر": «إن قوتي لك مع فضلك» وسارع فمدّ يمينه وبايع أبا بكر، وبايعه الناس على أثره.

وحين كان أبو بكر يودّع الدنيا، وعهد بالخلافة "لعمر" وكان "عمر" يلقاها مكرهًا وكارهًا إمارة المؤمنين، ولولا أن يكون اعتذاره عنها في هذه الظروف الحرج الدقيق هروبًا من واجب يسأله الله عنه غدًا، لرفض السلطان وهرب من الإمارة.

"أيها الناس إني قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاعًا بأموركم ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر انتظار الحساب"

نظرو... ولكفى "عمر" انتظار الحساب.

هذا رجل مشغول لا غير بالكلمة التي سيقولها له الله غدًا، وبالكلمة التي سيقولها هو له.

والحظوظ الوافية عنده ليست في منصب أو جاه، بل هي في الظفر برضاء الله سبحانه.

وقد لقيه يومًا جماعة من المسلمين الراحلين فسألهم عما صادفهم من الأخبار والناس في البلاد التي مرّوا بها

فقالوا: أما بلد "كذا" فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون بأسه. وأما بلد "كذا" فإنهم جمعوا أموالاً كثيرة يتوقعون بها الناس وهم في الطريق بها يبيتون. وأما بلد "كذا" فإن بها قومًا صالحين يدعون الله لك ويقولون: "اللهم اغفر لعمر وارفع درجته"

فقال "عمر" معقبًا على حديثهم هذا:

ـ «أما من خافني، فلو أريد بعمر الخير ما خيف منه. وأما الأموال التي يتوقعون بها لعمر فليست مال المسلمين، ليس لعمر ولا لآل عمر فيه شيء. وأما الدعاء الذي سمعتم بظهر الغيب، فذلك ما أرجوه.."

أجل، هذا خير ما يرجو "عمر". مغفرة ربه ورضوانه. أما السلطان، وما حول السلطان من زينة وزخرف وجنود! فتلك محنة "عمر".. إنه يسأل الله أن يحفظه في حبه وعافيه!

حين دُعي للقاء ربه، وقربت اللحظات التي سيودع فيها دنيا الناس، وكانت مشغلته الكبرى تتمثل في اختيار الرجل الذي يسلمه الأمانة والزمام، تقدم منه المغيرة بن شعبة قائلاً: ألا أدلك عليه يا أمير المؤمنين، إنه عبد الله بن عمر.

هنالك انتفض "عمر" وقال: "لا إِرَبَ لنا في أموركم! إني ما حمدتُها، يعني الخلافة، فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي. إن كانت خيراً فقد أصبنا منه، وإن كانت شراً فبحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. ألا إني قد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وِزر ولا أجر إني لسعيد"!

يالله ما أتقاه، وما أنقاه، وما أبرّه، وأطهره!!

إنه مهموم بما سيقوله لربه غداً.

إنه يرفض كل نعيم يخشى أن يلجلج لسانه غداً بين يدي الله

ويحتفل عن السلطان على فرط عدله وورعه وأمانته، مخافة أن تتعثر الكلمات على لسانه غداً حين يلقى الله..!!

إن الكلمة التي سيجيب بها غداً حين يسأله الكبير المتعال، هي "الوصية" التي تتحرك معها وعلى هداها كل ذرات كيانه وروحه

وهو في شدته حين يشتد، وفي لينه حين يلين، إنما تحركه حرصه الشديد على أن يلقى الله صادق الحجة

يقول "لعبد الرحمن بن عوف":

- «يا عبد الرحمن، لقد لنتُ للناس حتى خشيت الله في اللين، ثم اشتددت حتى خشيت الله في الشدة، وايْمُ الله لأنا أشد منهم فرقاً وخوفاً، فأين المخرج؟؟»

يقول هذا، وينتحب باكياً.

فيقول عبد الرحمن بن عوف، وهو يمسح هذا المشهد الفريد

- «أُفّ لهم من بعدك»...

***

ترى كيف قضى الرجل العظيم سنوات العشر، والأشهر الستة، والأيام الأربعة التي قضاها خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين؟؟

ترى كيف قضاها، وأمضاها، وعاناها تحت ضغط هذا الإحساس الرهيب، والقلق الواجف من خشية الله العلي الأعلى..؟

وهل سمع الناس في طول دنياهم وعرضها، بعاهل تسحب كل أبهة السلطان وبذخه أمام ناظريه إلى حيث منتهى سوقاه أكثر ما يكون التوقي، ويحاول الفرار منه ويبحث للفرار سبيلاً؟

عاهل ذلّل كل سلطانه لخشية الله، ووفر للناس من الطمأنينة والأمن قدر ما حرم منه هو الله؟

حاكم لم ينل من سكينة نفسه مهامُّ الأمور وخطيرها، ولا عقد أبوته الحقوق الفادحة، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالاً شديداً أنه مظلوم، أو نفسه مكروب، أو مهمومة

حقٌ ضائع يقول له صاحبه : "اتق الله يا عمر" !!

هل سمع الناس بمثله .. ؟! ومتى .. ؟

ذات يوم وهو جالس مع أصحابه اقتحم المجلس رجل مكروب تعشو وعثاء السفر ، وراح يفترس من الناس وبراهم يقولون لأحدهم : يا أمير المؤمنين ، فنحا صوب هذا الأمير ، ويقول له في مرارة :

ـ أأنت عمر ؟؟ ويل لك من الله يا عمر " ثم يمضي سبيله غير رائب ولا مكترث

وينحو بعض الحاضرين بالرجل في غبط مثله وحنق عليه ، لكن "عمر" يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلسهم ، ويهرول هو وراء الرجل ، وفؤاده يرتجف

ألم يقل له الرجل : ويل لك من الله يا "عمر" ؟؟ إنها إذن الصدمة إذن ، وإنه الهول الذي لا يطيق "عمر" عليه صبرا .

ويدرك الرجل ثم يعود به ويسأله : "ويلي من الله لماذا يا أخا العرب" ؟؟

فيجيبه الرجل : لأن عمالك وولاتك لا يعدلون ، بل يظلمون

ويسأل "عمر" أيّ عمالي تعني .. ؟

يقول الرجل : عاملك في مصر اسمه "عياض بن غنم"

ولا يكاد "عمر" يسمع تفاصيل الشكوى حتى يختار من أصحابه رجلين ويقول لهما : اركبا إلى مصر ، وائتياني بعياض بن غنم !!

* * *

هذا الرجل "عمر" .

هذا الشامخ العارم الذي يتفجر قوة وجرأة وبأس

إذا أردت أن تبصره يرتجف كعصفور احتواه الإعصار ، فليس عليك إلا أن تقول له : "ألا تتقي الله يا "عمر" ؟؟

هناك مشهد ينتصب قامته ، ويبدو كما لو كان واقفا أمام الله والميزان عن يمينه ، والصراط بين يديه ، وكتابه منشور أمام عينيه ، والأفق كله يدوي في سمعه

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .. !

وعلى الرغم من معاناته المضنية لهذا الموقف ، فإنه كان يمر بها غبطا وغبطة ، لأنها تذكره بجلال الله وبعظمته ، ولأنها تمنحه اليقين بأنه لم يجاوز قدره قط كعبد لله ، وخادم للناس .. !!

لطالما كان يدعو "أبا موسى الأشعري" ليتلو عليه بصوته العذب المؤثر آيات من القرآن العظيم ويقول له : "ذكرنا ربنا يا أبا موسى" ، فيقرأ أبو موسى ، ويبكي عمر

وكثيرا ما كان يلقى صبيا من الصبيان في طرقات المدينة ، فيأخذ بيده ويقول له وعيناه تفيضان من الدمع : "ادعُ لي يا بني ، فإنك لم تذنب بعد" .. !!

وساعة كان يستقبل الموت ، يقول لابنه عبد الله

ـ «يا عبد الله ، خذ رأسي عن الوسادة وضعه فوق التراب ، لعل الله ينظر إليّ فيرحمني» .. !!

إن المرء ليبدو استعظامه في بدء "عمر" منذ حين أسلم وجهه لله وهو محسن
وإن صفحة الهداية التي حملته ، وقفزت به إلى القمة العالية ، قد نصبت ثابتة لخطاه فوق صراط عدل ، ونصفة ، وواجب ، حين وثّب بالله عزائمه ، ورسمت ورع "محمد" خطاه.

ولسن يحاذر "عمر" على نفسه وعلى مصيره حذره من أن يحيد أي عدول عن الله ، وأي انحراف عن طريق رسوله ﷺ

كان قبل إسلامه يتحرى الصواب بمسير وفقه بسره جدير بالسعادة ، وعظمة شمائله ، وقوة روحه ... اليوم ، فقد عرف محض الحق ومحض الصواب حين جاءهم به من عند الله رسول كريم ، لا ينطق عن الهوى

وإن "عمر" ليؤرخ ميلاده بهذا اليوم الذي صافح فيه الرسول ﷺ وقال: "أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله".

فيومئذٍ ، بل ساعتئذٍ ، وجد نفسه ، والتقى بمصيره العظيم.

وهو حين آمن بالله وبرسوله ، وبدينه ، لم يؤمن إيمان العوام ، ولا إيمان المتعجلين ، ولا إيمان ذوي الأهواء بل آمن إيمان العارفين الأبرار.

وحين سمع لأول مرة آية الله يتلوها رسوله ... تلك الآية التي تقول: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾؟ سمعها ، وكأنما يسمعها وحده ، وكأنما أنزلت إليه وحده. وأدرك يومئذٍ ـ كما أدرك قبلئذٍ ـ أن حياته القصيرة مهما تطل ستولّي ولن تغني عنه شيئاً ، وأنه بحاجة إلى ألف حياة مثلها لكي يستطيع أن يصنع شيئاً يرضيه ، ولكي يستطيع أن يعبد ربه ويشكره.

من أجل هذا ، كان شديد الخوف على اللحظة العابرة أن تضيع ، وعلى الكلمة العابرة أن تنحرف ، وعلى الخلجة العابرة أن تزل.

كان شديد الخوف على حياته الشامخة أن تعتريها غفلة ، أو تصيبها شبهة ، لأنها لو كانت ملكاً له لوجب عليه أن يربأ بها عن كل سوء ، فكيف وهي في تقديره ليست حياته ، وليست ملكه ، إنما هي وديعة الله عنده ، والله صاحبها ومالكها ، ولسوف يسأله عنها

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ !!

من أجل هذا ، عاش قلقاً مؤرقاً ، ولكنه القلق الذكي المسعد ، والأرق المفكر الممتلئ..
لا ينام إلا غباً .. ولا يأكل إلا تقوتاً .. ولا يلبس إلا خشناً .. يقظان دائماً
يقول: «إذا نمت الليل أضعت نفسي ، وإذا نمت النهار أضعت الرعية» !!
ويسأل كل من يلقاه في لهفة وجد: هل بي نزعة؟ ولا تكذبني كيف تجد عمر؟
أتحسب الله علي راضياً؟ أترى لم يخن الله ورسوله فيكم ؟؟!!
وإذا غشيته من فطنته لتقصير غاشية ، صاح صيحة مكظومة
ـ "ياليت أم عمر لم تلد عمر" ..!
كل هذه الرعدة ، كل هذا التعب ، كل هذا الهم الجليل ، لأنه لا يدري
ماذا يقول لربه غداً !!

■ ■ ■

ألأنك ابن أمير المؤمنين ؟!

رأيناه كيف وهبته طبيعته سوية متفوقة باهرة .

ورأيناه كيف وصلت طبيعته هذه بالله ، ووضعها في خدمته وعند أمره

وإنسان يتوافر له هذا ، لابد من أن يكون إحساسه بالمسئولية مشحوذاً وعارماً

وإن عمر لذلك الإنسان

يحفل بالمسئولية ، ويبش لها ، ويقبل عليها ، في مثل عزم المرسلين

والمسئولية لديه لا تتجزأ ، ولا تتنوع ، ولا تتفاوت ..

ليس هناك مسئوليات صغيرة وأخرى كبيرة ، مسئوليات عادية وأخرى فوق مستوى العادة

هناك مسئوليات وحسب .

و"عمر" أمام هذه المسئوليات هو "عمر" الذي يحتشد لكل تبعة ولكل عمل ، احتشاداً لا تتفاوت درجاته لأنه يتصرف وفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة

وطبيعته هي الأخرى لا تتجزأ ، ولا تنقسم كل عمل من أعمال "عمر" تجد فيه "عمر" كله

فلو عثرت على أي واقعة من وقائع حياته ، لتجد فيها شمائله كلها .. عدله ، وورعه ، وزهده ، وإيمانه ، وشدته ، ولينه ، وعظمته ، وبساطته !!

وهو لا يتحمل من المسئولية القدر الذي يخصه ، ويسع همته ، بل يتحمل منها القدر الذي يتطلبه الموقف جميعه ، ويحقق به المسئولية كل ذاتها ، ولا يسأل نفسه ساعتئذ إن كان وحده ، أم كان معه نصراء .

إن بين جوانحه ، وملء نفسه نصيباً [illegible] ، لا يسأل عن العواقب ولا يجري بين يديها أي تقدير أو حساب !!

* * *

لقد كان يوم أسلم ، العضو الأربعين بين رجال هذه الجماعة المؤمنة ، ولا تكاد تمضي على إسلامه لحظات ، أجل لحظات ، حتى تنتفض في قلبه الشجاع إحساسه بمسئوليته عن الدين كله ، وعن هذه الجماعة المسلمة كلها ، بل بمسئوليته عن مستقبل الدين وأمته عبر القرون الآتية والدهور المقبلة .

ومن ثمَّ يخرج من فوره معلناً إسلامه على الصورة التي أشرنا إليها من قبل وهو إذ يدرك تماماً أنه لا يعلن إسلامه هو .. إسلام "عمر بن الخطاب" .. بل يعلن إسلام التسعة والثلاثين الذين سبقوه إلى الإسلام ، والذين يعلنون الآن خلفه .. بل يعلن أيضاً إسلام مئات الملايين القادمة عبر المستقبل !!

ولا تقف مسئوليته عن هذا الحد الذي انتهى بإعلان إسلامه ، بل تجاوز ذلك إلى حراسة الإسلام والمسلمين من الجفاء الذي اضطرهم به صناديد قريش

وهكذا يذهب إلى رسول الله ﷺ قائلاً:
"والله يا رسول الله، لن نعبدَ الله سراً بعد اليوم".

ويخرج الدعوة لوجه خصومها، ويتحدى الموعودين بها، ويتلقى قريش من تكبير الدعوة أولى الكلمات في منشور تحديها، ونفي أصنامها..!

* * *

كانت هذه أولى بركات "عمر".

وكان هذا نموذجاً للأسلوب الذي سيحمل به "عمر" مسئولياته عن دين الله. ولقد التمس إليه أسلوب رجل يرى نفسه بحق الأحداث والمواقف، وكأنه المسئول الأوحد عنها

كل أزمة تواجه الإسلام والمسلمين، ستحتويها "عمر" بوصفه المسئول الأوحد عن مقارعتها وحلّها.

وإيمانه بمسئوليته هذه سيدفعه إلى أن يرفض على طول الخط كل دنيّة في الدين، وكل ملاينة لأعداء هذا الدين.

وعلى الرغم من إيمانه المطلق برسول الله ﷺ، فإن مسئوليته ستتحرك في كل الاتجاهات، حتى لو جعلته يبدو ـ معترضاً ـ الرسول الذي تقدسه وتفديه..!

في صلح الحديبية يرى "عمر" بعض الشرائط التي أعطاها الرسول عليه السلام لكفار قريش مجحفة وكثيرة، وهو يؤمن بضرورة الانتصار عليهم ودخول مكة عليهم طوعاً منهم أو كرهاً لهم، ما داموا لا يريدون أن يجنحوا للسِّلْم، ويحتكموا إلى الحق.

وما دام الحق والباطل في معركة، فلا بدّ للحق من أن يستعلي بدل أن يهادن. ولابدّ له من أن يُهاجر بدل أن يُساير.

هكذا فهم "عمر" المسألة، وكوّن الرأي، ولم يكن ليجهر به من فور.

وهكذا أقبل على رسول الله ﷺ قبل أن يبدأ الكاتب في تحرير صحيفة المعاهدة وقال:

ـ يا رسول الله، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟

قال الرسول ﷺ: بلى

قال عمر: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟

قال الرسول ﷺ: بلى

قال عمر: فعلام نعطي الدنيّة في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟!

قال الرسول ﷺ: يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً

وإن عبارة "إني رسول الله" في روع "عمر" رنين الصدق، ويستنتج من نطق الرسول بها في هذا المقام، أن لحظة أكثر وأبعد من أن يكون مجرد رأي عابر لرسول الله، فيسكت.

ويمضي غير بعيد، ثم تدور خواطره على الموقف كله، ويعود إحساسه العارم بالمسئولية فما به، ويغريه بالمعاودة، فيمضي حثيثاً إلى أبي بكر رضي الله عنه، ويسترد معه الحديث.

ـ يا أبا بكر، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟.

ـ بلى يا عمر..!

- فعلام إذن نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم..؟!

ويطمئنه أبو بكر إلى أن الله لن يتخلى عن رسوله.. وأن فتح الله قريب..

ويهدأ "عمر".. وإن كان هدوؤه هذا لم يمنعه أن يشيع "سهيل بن عمرو" مندوب قريش، بنظرات مضطرمة فاتكة..!!

وعندما مات عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان كبير المنافقين في المدينة، عارض "عمر" في إصرار، صلاة رسول الله عليه..

ولنصغ إلى "عمر" نفسه يقص علينا النبأ:

- لما توفي عبد الله بن أبيّ، دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعلى عدو الله تصلي..؟ وأخذت أعدد أيامه الخبيثة ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه، قال: أخّر عني يا عمر، إني خُيّرت فاخترت، قد قيل لي: استغفر لهم، أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له، لزدت.. ثم صلى عليه ومشى مع جنازته وقام على قبره حتى فرغ منه.

فعجبت لي، ولجرأتي على رسول الله ﷺ، فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت الآية ﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره﴾، فما صلى بعدها رسول الله على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل..!!

هذا المشهد يكشف عن الضريبة التي كان عمر يحمل بها مسئوليته في سماحة وصدق..

فركوب مخاطر الخطأ كان أهون عليه من أن يفوت الرسول ﷺ.. لكنه يستطيع لا يمنعه أمام مسئوليته حذر.. ومن ثم يرى من واجبه أن يقول: لا.. فيتقبلها وأمره إلى الله..

فإذا استقبل الرسول موقفه، يكون "عمر" قد أدى كلمته، وأبرأ ذمته، وليس أمامه بعد هذا سوى سبيل الطاعة والإيمان..

وهو في هذه الوقفة، قد رأى صلاة الرسول ﷺ على منافق ضخم كعبد الله بن سلول عملا يغري المنافقين بمزيد من اللؤم والصلف.. ويضائل من حرمة الصدق والإخلاص عند كثير أو قليل من الناس..

وجلالة المسئولية تدعوه لإعلان هذا الرأي، حتى في مثل هذا الموطن، حيث وقف الرسول ﷺ بالفعل ليصلي على جثمان الرجل، فيعترضه "عمر" ويقول: أعلى عدو الله تصلي يا رسول الله..؟!

على أن الذي جعل "عمر" مسئولا به، ينبوع روعة وأبهى ما يكون عنده أمير المؤمنين!!

هنا نلتقي بأعظم آيات التفوق الإنساني..

هنا، ينهمر ينبوع النفس، ويطوله الروح، وإعجاز الشعور..!!

هنا، نرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا يكاد يخطر بقلب بشر..!

حين، هنا، تعظم تتفوق على نفسها، وتزحم بعضها بعضا.. هنا "عمر".. رضي الله عن "عمر" !!!

حاكم يحس مسئوليته على نمط فذ، ويعطي البشر جميعاً إلى آخر لحظة في الأبد، درساً في الأمانة.. أي درس.. وقدوة في الذمة.. أي قدوة..!

موقفه من نفسه.. موقفه من أهله.. موقفه من الضعيف ومن القوي في قومه وأمته.. موقفه من ولاته.. موقفه من أموال الأمة.

مواقفه هذه، المترعة بإجلال منقطع النظير لمسئوليته تجاه عمله، وتجاه أمانة الحكم في كل مجالي الحكم ومظاهره...

أما هو كحاكم، فقد حرم نفسه - لا من الطيبات المشروعة للحاكمين فحسب، بل من الطيبات المشروعة للمواطن العادي في كل زمان ومكان.

فمن ذات الروح المسئولة التي حتمت له أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه وآخر من يشبع إذا شبعوا، والتي فرضت عليه أن يعاني كل عناء ينال الناس من غم وشظف

راح - رضي الله عنه - يصوّر هذا الضمير القوي في كلمة حكيمة فيقول:

« كيف يعنيني شأن الناس، إذا لم يصبني ما يصيبهم» !!

وهكذا رأينا أمير المؤمنين، يلزم أكل الزيت، حين أصابت المسلمين أزمة شديدة في اللحم والسمن، ويدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى تئن أمعاؤه وتقرقر، فيضع كفه على بطنه، ويقول:

« أيها البطن المرتجّ على الزيت، ما دام السمن يباع بالأواقي» !!

وفي عام الرمادة، وكان عام مجاعة وشدة في المدينة، أمر يوماً بنحر جزور، وتوزيع لحمه على أهل المدينة..

وقام المختصون بإنجاز المهمة، بيد أنهم استبقوا لأمير المؤمنين أطيب أجزاء الذبيحة وعند الغداء، وجد "عمر" أمامه على المائدة سنام الجزور وكبده، وهما أطيب ما فيه.. فقال:

- من أين هذا..؟

قيل: من الجزور الذي ذبح اليوم

فقال وهو يزيح المائدة بيده الأمينة:

« بخ بخ، بئس الوالي أنا، إن طعمت طيبها، وتركت للناس كراديسها - يعني عظامها -»

ثم نادى خادمه أسلم، وقال له:

- يا أسلم، ارفع هذه الجفنة، وائتني بخبز وزيت

إن قوله "بئس الوالي أنا، إن طعمت طيبها" يرسم الصورة الكاملة، لنفسه، لروح المسئولية التي كانت تسيطر على تصرفات ذلك الرجل المنقطع النظير

إنه رجل يرى نفسه واحداً من الناس آثره الله عليهم بمزيد من التبعة ولو حتى حين ولاه أمرهم، ومسئوليته عنهم، ولم يؤثره بمزيد يجعل الحكم كلأً مباحاً، وفيئاً بواحاً..!

على أن "عمر" وهو أمير المؤمنين، يبذل من الجهد، ما يستطيع به أن يهون قدر نفسه صعقة طنة نفسه وتفوقه.

هذا منطقنا، وهو منطق عادل في رأينا.

أما "عمر" فصاحب منطق آخر.. وهو يعرف العدل في ذروته العالية التي تنقطع الأنفاس دون بلوغها.. !!

هو يدرك أن مسئوليته تقتضيه أن يوفر عيشهم، فإذا قعدت به دون هذا ظروف لا يملك لها دفعاً، فتكون مسئوليته أن يسوّي بينهم بالحقّ، وأن يكون هو أوّل من يحمل حظه من الخصاصة والضنك.

ذات يوم يلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى، ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذي جاء يحملها:

- ما هذا..؟

قال: حلوى يصنعها أهل أذربيجان، وقد أرسلني بها "عتبة بن فرقد"

وكان واليا على أذربيجان هدية لـ"عمر". فوجد لها مذاقاً شهياً

فعاد يسأل الرسول

- أكلّ المسلمين هناك يَطعمون هذا..؟

قال الرجل: لا.. وإنما هو طعام الخاصة.

فأعاد "عمر" إغلاق الوعاء جيداً، وقال للرجل:

- أين بعيرك..؟ خذ حملك هذا، وارجع به لعتبة، وقلْ له: "عمر" يقول لك: «اتق الله، وأشبع المسلمين مما تشبع منه»!

هذا الحاكم لا تلقاه في مكان الصدارة، ولا في مقدمة الموكب إلا حين تكون المخاطر داهمة. أما دون هذا، فقد جعل مكانه دون ذلك آخر مقعد في آخر صف.. يحرس القافلة، ولئن كان ثمة نعمة مقبلة، فإنها لم تبلغه إلا بعد أن تكون قد مرّت بالناس جميعاً.!!

* * *

ولقد جعل موقفه من أهله وأقربائه، وجداناً بقداسة المسئولية لا يضاهيه تقديس، وإكباراً لأمانة الحكم لا يضاهيه إكبار.

إنه لا يحرمهم مما ليس لهم بحق فحسب، بل مما هو لهم حقّ مشروع، وإنه ليحمّلهم من المسئوليات أضعاف ما يحمله نظراؤهم من الناس.. حتى صارت قرابة "عمر" عبئاً يودّ الأقرباء لو استطاعوا منه الفرار

إن أمير المؤمنين يعلم أن فتنة الحكم لا تتحدى ضحاياها ونبوغها إلا هنا.. في علاقات الحكام بأهليهم، هل لهم قانون، وللناس قانون؟ أم أنهم والناس سواسية أمام قانون واحد، وعدالة واحدة؟؟

من أجل هذا بالغ في إلزامهم جميعاً مسئولية القدوة.

وطالما حملهم على شظف العيش، ولأواء الحياة، ليظل العدل أسرع من أيديهم ـ بل من أفواههم ـ النعمة الطرية..!!

ولقد كانت الأرض تميد، والسماء تمور، حين يعلم أن أحداً من أسرته ذهب يمتاز ـ أي امتياز ـ !

وكان إذا سنّ قانوناً، أو حظر أمراً، جمع أهله أولاً، وقال لهم:

ـ « إني قد نهيت الناس عن كذا، وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر» !!

أرأيتم..؟؟

«ضاعفتُ له العذاب لمكانه مني»..

إن القرب من عمر، لا يعني أن العدلَ في إجازة، ولا يعني أن القانون يغفو، بل يعني أعباءً مضاعفة من التبعة والمسؤولية والحرمان. يعني التعفف من كل شبهة، والتخلي عن كل منفعة. يعني أن يتقدم هؤلاء الأقرباء عند الخطر، ويتأخروا عند المغنم. بل هي كانت تعني عند «عمر» حرمانهم من حق مكتسب، تفادياً لشبهة محتملة..!!

ولو رأيناه وهو يعاتب ولده «عبد الله بن عمر» لرأينا عجبا.

مع أن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ كان إماماً في الورع والزهد والتقى

كان يتبع خطى أبيه، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء!

ومع هذا، فما كان عمر يراه يستروح نعمة متواضعة من نعم الحياة الدنيا، إلا قال له:

ـ «ألأنك ابن أمير المؤمنين»..؟!

ولكأن هذه العبارة «لأنك ابن أمير المؤمنين» تمثل الشعار الحيّ الذي رفعه «عمر» لأهله بخاصة، وللناس كافة تحية للحقّ والعدالة.

يدخل يوماً داره، فيجد ابنه عبد الله يأكل شرائح لحم، فيغضب ويقول له:

ـ « ألأنك ابنُ أمير المؤمنين تأكل لحماً، والناس في خصاصة..؟ ألا خبزاً وملحاً..؟ ألا خبزاً وزيتاً».. ؟!

ويخرج إلى السوق يوماً في جولة تفتيشية، فيرى إبلاً سماناً، تمتاز عن بقية الإبل بنموّها وامتلائها، فيسأل:

ـ إبلُ مَنْ هذه..؟؟

قالوا: إبل عبد الله بن عمر..

وينتفض أمير المؤمنين، كأنما القيامة قامت، ويقول:

ـ عبد الله بن عمر..؟؟ بخٍ بخٍ يا ابن أمير المؤمنين..!

ويرسل في طلبه من فوره، وأقبل عبد الله يسعى، وحين وقف بين يديْ والده، أخذ «عمر» يفتل سبلة شاربه ـ وتلك كانت عادته إذا أهمه أمر خطير ـ وقال لابنه:

ـ ما هذه الإبل يا عبد الله ؟؟

فأجاب ابنه: إبل أنضاء ـ أي هزيلة ـ اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى الحمى ـ أي المرعى ـ أتاجر فيها، وأبتغي ما يبتغي المسلمون.

فعقب عمر في تهكم لاذع:

"ويقول الناس حين يرونها: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين.. اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين.. وهكذا تسمن إبلك، ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين"!

ثم صاح به:

يا عبد الله بن عمر، خذ رأس مالك الذي دفعته في هذه الإبل، واجعل الربح في بيت مال المسلمين..

يا خالق هذا الإنسان، سبحانك... !!

إن "عبد الله بن عمر" لم يأت أمراً نكراً.. إنما استثمر ماله الحلال في تجارة حلال، وهو بدينه القوي وأخلاقه الأمينة فوق كل شبهة..

ولكن لأنه ابن أمير المؤمنين، بحرمه أمير المؤمنين، مما هو له حق.. مظنة أن تكون بنوته لعمر، قد هيأت له من الفرص ما لا يتوافر لغيره من الناس..!!

هذا الحاكم يمسك أسرته في رهبة لا مماثل لها، وهو لا يدرأ عنها أن يكونوا أهل حظوة وحسب، بل إنه ليضطرهم إلى أن يعيشوا معه فوق صراط أحد من الشعرة وأرق من الشعرة، حتى لكأنهم ورثوا قرابة "عمر" لكي يمتحنوا بها ويسحقوا فيها

يصل إلى المدينة يوماً بعض أموال الأقاليم، فتذهب إليه ابنته "حفصة" رضي الله عنها، تأخذ نصيبها، وتقول له مداعبة:

ـ «يا أمير المؤمنين، حق أقربائك في هذا المال، فقد أوصى الله بالأقربين»

فيجيبها جاداً:

ـ «يا بنية، حق أقربائي في مالي، أما هذا ففيء المسلمين.. قومي إلى بيتك» !!

هذا رجل تأدب على يد "محمد" رسول الله ﷺ

وطالما رآه يقول لأحب الناس إليه، ابنته "فاطمة" البتول: «لا، يا فاطمة، إن في المسلمين من هم أحوج منك لهذا المال»..

ثم يحرمها ويعطي سواها !!

من هذا المنهل ارتوى "عمر"، وعلى هذا الهدى سار.

وهو يطلب أهله وذويه أن يرتفعوا دوماً إلى مستوى المسئولية لا الحظوة فليس لدى "عمر" حظوة لإنسان.

هو يريد منهم أن يكونوا عوناً له على واجبه، ومن ثم فنصيبهم أن يبذلوا جهداً أكبر، ويحرزوا تفوقاً أكبر..

نصيبهم أن يعطوا كثيراً، ويأخذوا قليلاً، وينتظروا من الله حسن الثواب الأجل.. نصيبهم أن يكونوا قدوة لأهل العفاف والكفاف.

حين أفاء الله على المسلمين في عهده خيراً كثيراً، وملأ بيت المال بالمال، أشار عليه نفر من صحابه، أن يقوم بإحصاء الناس، ورصد أسمائهم في دواوين، حتى يتلقوا جميعاً رواتبهم السنوية في نظام محكم.

واختير لهذه المهمة: عقيل بن أبي طالب، وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش، وأكثرهم معرفة بالمسلمين.

جلسوا يدونون الأسماء، بادئين ببني هاشم، ثم بآل أبي بكر، ثم بني عدي آل عمر.

فلما طالع أمير المؤمنين الكشف ردّه إليهم، وأمرهم أن يقدموا على آل عمر كثيرين غيرهم، فتزحزح أسماءهم، وذكر قائلاً لهم، فقال: «ضعوا عمر وقومه موضعهم»!!

وعلم بنو عدي بهذا، فجاءوا إليه، حين شق عليهم أن تظل أسماؤهم في مقدمة الديوان كي ينالوا أنصبتهم والمال وفر، وقالوا له: أليسنا أهل أمير المؤمنين؟؟

فأجابهم عمر:

- «بخ بخ بني عدي، أردتم الأكل على ظهري، وأن أهب حسناتي لكم، لا والله، ليأتُنّ مكانكم ولو جئتم آخر الناس»

إن القرابة من أمير المؤمنين، لا تعني - كما أسلفنا - الأثرة والحظوة، إنما تعني العرق والشظف.

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكي يولّي ابنه عبد الله منصباً من مناصب الدولة..

ولقد كانوا في إلحاحهم مدفوعين بحرصهم الشديد على الانتفاع بمواهبه واستعداده.

لكنّ عمر رفض، كما رفض عند موته أن يرشحه لخلافته، بل رفض أن يجعله ضمن الستة الذين رشحهم هو لتختار من بينهم خليفة قائلاً:

«حسبُ آل عمر أن يحاسب منهم واحد، هو عمر»!!

لكن يا أمير المؤمنين، إن ولدك عبد الله هو التقي العدل فهل ذنبه، وذنب الناس الذين ستسعدهم ولايته أنه ابن أمير المؤمنين..؟!

طالما قيل هذا القول لعمر، فيذكّر قائليه بأن عبد الله ليس هو التقي العدل وحده وهناك في المسلمين نظراء له في العدل والتقوى، فإذا آثره عمر عليهم يكون قد حابى وجامل..!

ثم إن "عمر" رجل "قدوة"، قبل أن يكون رجل "حكم"، فإذا استعمل اليوم صالحي أهله، فأنّى يذهب إذا جاء من بعده حكام يسرفون في تولية أهليهم، ويقولون: لقد فعل هذا "عمر"؟!!

من أجل ذلك وضع مبدأ جليلاً فقال:

- «من استعمل رجلاً لمودّة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»

إنه إذا ولّى عبد الله بن عمر عملاً من الأعمال، لمكان عبد الله منه، بل لمحض استحقاقه وكفايته، ومع هذا يصرّ على موقفه.

جلس يوماً بين أصحابه وقال:

ـ « أعياني أهل الكوفة، إن استعملت عليهم ليّناً استضعفوه، وإن وليتهم القوي شكوه، ولوددت أني وجدت قوياً أميناً مسلماً، استعمله عليهم »

فقال أحد جلسائه: أنا والله أدلّك على القوي الأمين المسلم..

قال عمر متحمراً: من هو..؟

قال الرجل: عبد الله بن عمر

فأجاب أمير المؤمنين: قاتلك الله.. والله ما أردت الله بهذا.. ثم حمل ولداً آخر!!

* * *

بعد أعتقد أن يصبح هذا المسلك، مسلك عمر، تحت عنوان الزهد أو التقشف

فعمر يجوع ويتقشف في مطعمه، وملبسه، ويحمل أهله معه على ذلك بدافع نسميه زهداً

ولكنّ الحقّ، أن وراء الزهد حافزاً أبعد غوراً وأعمق جذوراً.

ذلك هو الاحترام الفريد للمسئولية، والتفاني المدهش في الإخلاص لتبعاتها وواجباتها.

إن المسئولية في ضميره لتأخذ الحيّز الذي يملأ نفسه، وتجمع الاعتبارات والمواقف، تكمن وفق مقتضيات هذه المسئولية، ولا تخضع في أي موقف أو عسر.

ولعل من حظوظ التاريخ أن نطالع هذه الخطبة التي استهل بها عهد خلافته

ـ « بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا قد كان عمر يشتد ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟

ألا من قال هذا فقد صدق، فقد كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عونه وخادمه، وكان عليه السلام من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾، فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، أو يدعني فأمضي.. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً.. وأنا به أسعد.

ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دعته، وكرمه، ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني فأمضي.. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً.. وأنا به أسعد.

ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض.. ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يعتدي عليه، حتى أضع خده على الأرض، حتى يذعن للحق، وإني بعد شدتي تلك، أضع خدي على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف..

ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها

لكم عليّ ألا أجتبي شيئاً من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يدي ألاّ يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسدّ ثغوركم، ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم...

« فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بكفّها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاّني الله من أمركم » !!

* * *

هذه الخطبة، ليست أجمع خطب "عمر" ولا أكثرها ألقاً وبهاءً، ولكنها في هذا المقام تعطي صورة عمر على التحقيق.. للعملاق الذي كان يجرب الرجل الكبير ويهدي خطاه.

فلقد كان ورسول الله حيّ ـ يعتبر نفسه مسئولاً عن كل ما هو راجع ويعمل ما يصرف به الرسول ﷺ ما يشاء.

وكان وأبو بكر حيّ، يضع المسئولية نفسها في يد خليفة رسول الله ﷺ أي أنه كان جندياً، قد يناقش قائده، ولكنه آخر الأمر سميع مطيع، أما اليوم، فقد صار سيفاً وضارباً معاً.. الجندي والقائد جميعاً، ومسئوليته عن كل شيء مسئولية مباشرة.

وهو لا يعدّ نفسه مسئولاً أمام الناس، ولا أمام التاريخ، ولا أمام شيء من هذه المصطلحات.. بل هو مسئول أمام الحقّ نفسه.. الله الذي لا تخفى عليه خافية !!

* * *

أجل.. أمام الله العلي الكبير تحمل "عمر" المسئولية التي كان يحملها صاحباه رسول الله ﷺ، وخليفته أبو بكر..

* * *

ولقد رأيت كيف شعوره بالمسئولية على كل حوائج النفس، ورغبات الأهل..

فلننظر الآن كيف يشعر بمسئوليته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم

وهنا نلتقي مثلما التقينا من قبل.. وكما سنلتقي من بعد بالرجل الذي هو نسيج وحده

إنه يرى مسئوليته مباشرة عن كل رجل في سربه، وعن كل امرأة في بيتها، وعن كل رضيع في مهده !!

وهو يبدأ مسئوليته تجاه الناس، بأن يعيش في أدنى مستويات عيشهم. فإذا نشبت عنه لقمة مميزة قال كما قال من قبل: « بئس الوالي أنا إن طعمت طيبها، وتركت للناس عظامها » !

وأعجب من كل عجب، أنه لم يبسط سلوكه هذا تجاه الأحياء وحدهم، بل تجاه الأموات أيضاً.. !!

فكان يرفض أن يظفر بنعيم لم يظفر به إخوانه الذين سبقوه إلى الله، واستشهدوا

في سبيله قبل أن يمكن للإسلام والمسلمين

حين زار الشام، جيء له بطعام طيب، فحسبت أنه... وبدلاً من أن يقبل عليه، ويطعم بمذاقه، رمقه بعينين باكيتين وقال:

« كلّ هذا لنا، وقد مات إخواننا فقراء لا يشبعون من خبز الشعير » ؟؟!!

وهو يأخذ بمكاظم المتجبرين لعله حتى يخضعوا للحق، ويوطئوا الأكناف لإخوانهم الذين يتميزون عنهم

وفي الوقت نفسه يضع خده هو على الأرض ـ كما سمعناه يخطب من قبل ـ لأهل العفاف وأهل الكفاف

وهو يحمل مسئولياته فوق كاهله، ولا يوزعها على الآخرين الذين هم بمسئولياتهم مشغولون.

فإذا تقدّم منه أحد أصحابه ليريحه من عمل، أو يشاركه فيه، نهره قائلاً:

«أتحمل وزري يوم القيامة» ؟!

وحين نبصر الحق تلقى المشفقون به اهتمام وتحركه عندما يبدي "عمر" خلال مسئولياته، نرى عالماً يموج ويتحرك، وليس فرداً مجرداً فقد

والحدث الكبير الذي لا نكاد نحسبه أكثر الناس بعمله ويحمل ونساله كل "عمر" يرتجف منه، ويحتشد له، ويقيس عليه الأشباه والنظائر ثم يضع تشريعاً، ويسن قانوناً

قدم المدينة بعض التجار في إحدى الأمسيات، وخيّموا عند مشارفها، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة، وكان الليل قد تصرّم، وقرب الهزيع الأخير منه. وعند القافلة اتخذ "عمر" وصاحبه مجلساً على مقربة منها، وقال "عمر" لعبد الرحمن: «فلنمض بقية الليل هنا، نحرس ضيوفنا.»

وإذ هما جالسان، سمع صوت بكاء صبي، فانتبه "عمر" وصمت، وانتظر أن يكفّ الصبي عن بكائه، ولكنه تمادى فيه، فمضى يسرع صوبه. وحين اقترب منه وسمع أمه تهدهده، قال لها: اتقي الله، وأحسني إلى صبيك..!

ثم عاد إلى مكانه. وبعد حين عاود الصبي البكاء، فهرول نحوه "عمر"، ونادى أمه: قلت لك: اتقي الله وأحسني إلى صبيك

وعاد إلى مجلسه، بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلزله مرة أخرى بكاء الصبي، فذهب إلى أمه وقال لها: ويحك، إني لأراك أم سوء.. ما لصبيك لا يقر له قرار؟

قالت، وهي لا تعرف من تخاطب: يا عبد الله قد أضجرتني..

إني أحمله على الفطام فيأبى..

سألها عمر: ولمَ تحملينه على الفطام؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم.

قال وأنفاسه تتواثب: وكم له من العمر..؟

قالت: بضعة أشهر.

قال: ويحك .. لا تعجلنه.

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف: فصلى بنا الفجر يومئذ، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلّم قال: «يا بؤساً لعمر.. كم قتل من أولاد المسلمين»؟!

ثم أمر مناديه ينادي في المدينة: «لا تعجلوا صبيانكم على الفطام، فإنا نفرض من بيت المال لكل مولود في الإسلام»

ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته في الأمصار

* * *

أمير المؤمنين، تذيب خوفه معاقل كسرى وقيصر، وهو هنا في الشعاب لا حراس من الناس يحرس فاقة وفاقات على المدينة.. ثم يؤرقه بكاء طفل ورنينه، حتى يشرق بالدموع وهو يصلي بالناس، ثم لا يعالج واقعة الحال هذه وحدها، بل يضع في الفور واللحظة قانوناً يستوعب كل حالاتها المشابهة..

اهتمام عجيب بمشاكل الناس، ومبادرة فذة خارقة بمسئولية الحكم

وفي عام الرمادة يسمع عن جماعة في أقصى المدينة، قد نزل بهم من الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة كلها.. فيحمل فوق ظهره جراباً من دقيق، ويحمل خادمه "أسلم" قربة مملوءة زيتاً، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث

وعندما يتعب القوم، يطرح أمير المؤمنين بردته ويطهو بنفسه طعامهم حتى يشبعوا

ثم يرسل خادمه فيعود إليه بإبل يحملهم على ظهورها إلى داخل المدينة حتى يكونوا بقرب منه، وحتى ينزلوا مكاناً أطيب، وينالوا رعاية أكثر..

الناس.. الناس.. الناس..!!!

هذه الكلمة كانت الهتاف العلوي الذي يجلجل في روع عمر أثناء الليل وأطراف النهار

حتى لنراه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة، وجراحه النبيلة الشهيدة تنشج دماً، لا يشغله إلا أمر الناس..

فيدعو الستة الذين اختارهم ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد، وإذ يحضر منهم عليٌّ، وعثمان، وسعد، يوصيهم وهو لا يقوى على الكلام فيقول:

* «يا عليّ، إذا وليت من أمور الناس شيئاً، فأعيذك بالله أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس..!»

* «يا عثمان، إذا وليت من أمور الناس شيئاً، فأعيذك بالله أن تحمل بني أبي مُعَيط على رقاب الناس..!»

* «يا سعد، إذا وليت من أمور الناس شيئاً، فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس..!»

وفي العام الذي توفي فيه، كان على موعد مع نفسه أن يطوف بجميع الأمصار ليتفقد أحوال الناس، ويبلو أخبارهم، ولقد قال يومئذٍ لأصحابه

«لئن عشت إن شاء الله، لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع

دوني ، أمّا ولاتهم فلا يرفعونها إليّ ، وأمّا هم فلا يصلون إليّ ، فأسير إلى الشام فأقيم شهرين ، وبالجزيرة شهرين ، وبمصر شهرين ، وبالبحرين شهرين ، وبالكوفة شهرين ، وبالبصرة شهرين ، والله لنعم الحول هذا » .. !

* * *

وتبقى مسئولية "عمر" عن الناس التي مسئوليته عن الولاة والعمال الذين كان يكلّ إليهم مصائر الناس في البلاد البعيدة والقريبة .

فكيف كان "عمر" يباشر مسئوليته تجاه ولاته ومعاونيه في الحكم ؟؟

كان يباشرها على طريقته ، طريقته التي لا تتغير ، والتي لا نرى في نتائجها مهما تتكاثر أدنى تفاوت .

وكان اختيارهم في حرص مَنْ يختار مصيره .. !!

إنه يعدُّ نفسه مسئولاً عن كل غلطة يرتكبها أحد ولاته ، علم بها "عمر" أم لم يعلم

ومن ثم ، فهو يقلب وجهه ، ويعمل فكره ، ويستخير ربه ، ويستشير صحبه ، ويتأنّى قبل أن يختار عامله ومعاونه .. !!

كان يقول لأصحابه

«أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أيُبرئ ذلك ذمتي» .. ؟؟

يقول أصحابه : نعم

فيقول : « كلا .. حتى أنظر في عمله ، أعمل بما أمرته أم لا » ..

ويقول « أيما عامل لي ظلم أحداً ، وبلغتني مظلمته فلم أغيّرها ، فأنا ظلمته » !

ويقول لحذيفة بن عرفجة

« إن نصيحتي لك وأنت عندي جالس ، كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين ، وذلك لما طوّقني الله من أمرهم ، فإن رسول الله ﷺ قال

« من مات غاشّاً لرعيته لم يَرَحْ رائحة الجنة » !!

إنّ "عمر" يريد من ولاته أن يباشروا مسئولياتهم على المستوى نفسه الذي يباشر فيه مسئولياته .

وإذ كان ذلك عسيراً بل مستحيلاً ، لأن "عمر" لا يتكرر ، فقد كان يبحث عن أقرب الناس مسافة من هذا المستوى

وهو لهذا ، يحترم نهجاً فريداً في التحوّط والدقة واليقظة

فهو - أولاً - يرفض كل مَنْ يسعى إلى المنصب أو يطلبه لنفسه .

وإنه في هذا ليقتدي برسول الله عليه الصلاة والسلام ، إذ كان يقول « إنّا والله لا نُولّي هذا الأمر أحداً يسأله أو يحرص عليه » .

هذه أولى خطوات "عمر" في اختيار معاونيه ، استبعاد كل راغب في المنصب طامح

إنه إذن الذي يحمل شهوة الحكم يحمل شهوة الحكم والذين يطلبون أن يكونوا حكامًا وولاة، لا يقدّرون مسئولية الحكم تمامًا، وإلا لهربوا منه، وزهدوا فيه

ذات يوم أسرّ في نفسه اختيار أحد أصحابه ليجعله واليًا على أحد الأقاليم

ولو صبر هذا الصحابي بضع ساعات، لاستدعاه "عمر" ليقلده المنصب الذي [illegible] له

ولكنْ أخانا بادر الأمور التي لم يكن يعرف عنها شيئًا، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله أن يوليه إمارة

ويبتسم "عمر" لحكمة المقادير، ويفكر قليلًا ثم يقول لصاحبه:

- «قد كنا أردناك لذلك، ولكن منْ يطلب هذا الأمر لا يعان عليه ولا يُجاب إليه» ثم صرفه وولّى غيره..!!

سنقول لأنفسنا: وأيُّ بأس في أن يطلب رجل لنفسه الحقَّ في عمل يثق في قدرته على مسئوليته، وحفظ أمانته؟؟

ألم يقل يوسف الصديق للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ؟؟

أجل، قال يوسف الصديق هذا، بيد أنه حين تقدم طالبًا ذلك المنصب، إذ كان بمثابة الكمين الذي يحاصر نجدة ... كان كجندي الإطفاء يلقي نفسه في أفواه اللهب، وهو لا يدري: أيعود مُعافًى، أم يتحوّل هيكله إلى رماد..؟!

صحيح أنه طالب بمنصب رفيع، بيد أن هذا المنصب يومئذٍ كان غُرمًا لا غنمًا، وكانت مخاطره المحققة، تفوق كثيرًا مباهجه المحتملة

كان هناك إفلاس، ومجاعة، وخراب، وكل المسئولين يهربون مما جنتْ أيديهم، ثم يتقدم رجل لينقذ أزمة تستعصي على الإنقاذ.

هذا ليس طالب منصب، بل عاشق الخطر، وراكب الصعب..!!

على أن "عمر" لم يكن بحاجة إلى أن يفلسف المسألة على هذا النسق، فالأمر لديه غاية في الوضوح، إنه يريد ولاة يرتفعون إلى مستوى المسئولية كما يفهمها "عمر"، وأي واحد من هذا الطراز سيهرب من الولاية بدل أن يحرص عليها أو يطلبها

لقد هرب "عمر" مما هو أكثر من الولاية، هرب من الخلافة إثر وفاة رسول الله ﷺ ولولا أن طوّقه بها "أبو بكر" في لحظة لا تسمح بالتردد، بل ولا بالتفكير، لهرب منها أيضًا، ولآثر كما قال «أن يضرب عنقه ولا يرى نفسه أميرًا للمؤمنين»...

إن كل مَنْ يطلب الإمارة إذن يكون سيئ التقدير لتبعاتها، وعقباها، ومن ثم لا يراه "عمر" جديرًا بها

هذا أول ما يتطلبه من ولاته: الزهد في المنصب، والفرار منه، حتى إذا جاءهم كرهًا، أخذوه مستعفين!

بعد هذا، يختار لها "القويَّ الأمين"

ولا يكاد يختار الوالي حتى يأخذ بيده ويقول له

« إني لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، ولكني استعملتك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل »

ثم يعدّد له عدداً، لو هو نسي عمله أن يتجنبه

* لا تركب دابة مطهّمة
* لا تلبس ثوباً رقيقاً
* لا تأكل طعاماً رافهاً..
* لا تغلق بابك دون حوائج الناس.

ولكنْ، لماذا يحول عمر بين عمّاله، وبين طيبات الحياة – الدابة المطهّمة والثوب الرقيق، والطعمة الطرية..؟

إنه يريد أن يعيشوا دائماً في مستوى أبسط الكادحين الفقراء، وليصبحوا في مكانهم الحق، خدماً للناس، لا سادة لهم

إنه لا يريد لولاته أن يعلوا، أو يترفوا، أو يتناولوا مسؤولية الحكم في نَهْنَهةٍ(١)، أو ميسرة

من أجل هذا، يتعقبهم في كل مظاهر الرفاهية، والعلو، فيذودهم عنها، حتى لو تكون هذه المظاهر دابة للركوب

يجب أن تكون هذه الدابة للعمل، لا للخيلاء.. للخدمة لا للزَّهْو.. للضرورة، لا للصلف ولا للترف!!

إنه لا يريد لولاته أن يفقدوا وجاهتهم، ولكنه يريد لهم الوجاهة المشروعة التي لا بغي فيها ولا غرور.

يريد أن يتفوقوا على الناس بأنفة النفس، لا بأبهة الملبس، وبمحامد الأفعال، لا بالمظاهر الكاذبة، والمسار الباطل!!

انظروا كيف يرسم في حذق باهر، صورة الأمير الذي يحب، والحاكم الذي يؤثر

ذات يوم قال لإخوانه: « دلوني على رجل أكل إليه أمراً يهمني ». قالوا: فلان. قال: لا حاجة لنا فيه.. قالوا: فمن تريد؟

قال: « أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميراً لهم بدا وكأنه أميرهم، وإذا كان فيهم وهو أميرهم بدا وكأنه واحد منهم » ... !!!

يا لبهاء عظمتك، وذكاء روحك..!

انظروا

هذا ما يريده عمر تماماً: أمراء في أخلاقهم ونبل طبعهم، وليس في مناصبهم وعلوهم.. أمراء، لا يفسح الناس لهم الطريق، ولا يتخطون الرقاب، بل يمشون على الأرض هوناً، ويعيشون فقراء

أمراء، يشاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح، والجهد المبذول

(١) النَّهْنَهة: الرخاء وسعة العيش.

ولقد تعلم هذا من خير المعلمين، من رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام

فما كان رسول الله ﷺ يرى أصحابه في عمل إلا شاركهم، حتى أكثر جوانب العمل مشقة
يجمع يوماً الحطب لأصحابه وهم سَفْر(1) فقالوا: نحن نكفيك ذلك يا رسول الله، فقال لهم: "إني أكره أن أتميز عليكم"

ويسمع بعض أصحابه يقولون له: «أنت سيدنا، وابن سيدنا» فينهاهم قائلاً: «لا يستهوينكم الشيطان».

ويقدم على أصحابه، فيقومون له، فينهاهم قائلاً: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظّم بعضهم بعضاً»... !!

* * *

ولا تقف مسئولية عمر عن ولاته عند حسن اختيارهم، وحسن توجيههم بل تمضي إلى رقابة كل التصرفات التي تجعل ولايتهم على أساس رحمة، ورخاء، وأمن

ووسيلته لهذا، أن يجعل الحاكم تحت رقابة المحكوم، وأن يحقق بنفسه ـ وعلى الفور ـ كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم. وأن يسمع في يقظة عارمة سلوك ولاته في كل الأمصار..!

في موسم الحج، وعلى ملأ من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين القادمين من كل بلد، جَمَعَ عماله وولاته جميعاً، ووقف خطيباً

ـ «أيها الناس، إني والله لا أبعث عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكني أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ﷺ، فمن فعل به سوى ذلك، فليرفعه إليّ فوالذي نفسي بيده لأمكننّه من القصاص» !!

ويقف عمرو بن العاص، ليبدي رأيه في هذا النص الخطير على هيبة الولاة والحاكمين فيقول: «أرأيت إن كان رجل من المسلمين والياً على رعية فأدّب بعضهم، أتقصّ منه» ..؟؟

ويجيب عمر: «إي، والذي نفسي بيده لأقصنّ، فقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ويقول

«من كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليقتدّ منه» ..!

إن عمر يعني دائماً ما يقول، فما كانت كلمته تنبثق عن وعي وأناة حتى يتوفر عليها(2) في يقظة وحزم.

سأل وفداً زاره من أهل حمص عن واليهم "عبد الله بن قُرط" فيقولون: خير أمير يا أمير المؤمنين، لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة..

ويُهمهم عمر: داراً فارهة؟ يتشامَخُ بها على الناس؟ بخ بخ لابن قرط

---

(١) السَّفْر: المسافرون (للواحد والجمع)

(٢) يتوفر عليها: ينصرف إليها بهمته حتى يستوفيها

ثم يوفد إليه رسولاً، ويقول له: إذا بلغت داره فحرّق بابه، ثم ائت به إليّ.

ويسافر الرسول إلى حمص، ويعود بواليها، فيمتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام، ثم في اليوم الرابع يستقبله، ويختار لمقابلته مكان "الحرة" حيث تعيش إبل الصدقة وغنمها.

ولا يكاد الرجل يقبل، حتى يأمره "عمر" أن يخلع جبته، ويلبس مكانها لباس الرعاة ويقول له: «هذا خير مما كان يلبس أبوك». ثم يناوله عصا، ويقول له: «وهذه خير من العصا التي كان أبوك يهش بها على غنمه». ثم يشير بيده إلى الإبل ويقول له: «اتبعها وارعها يا عبد الله»..!! ثم بعد حين، يستدعيه، ويقول له معاتباً:

هل أرسلتك لتشيد وتبني..؟! ارجع إلى عملك ولا تعد لمثلها أبداً!!

هذه موعظة من رجل شهد له قومه بأنه خير منهم، ولولا أن الأمير نفسه بدأ بزهده!

لا ترون أنا أمام أسطورة.. بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها.. ولكن لحسن حظ البشرية كلها أن "عمر" لم يكن أسطورة، بل كان حقيقة ملء الزمان والمكان.. وكان هدى من الله للناس، يقول لهم: هكذا حاولوا أن تكونوا..

* * *

وفي الوقت الذي تجتمع فيه الفرس وحشودهم، في نهاوند.. وسعد بن أبي وقاص يتهيأ لمنازلة جيوشهم الكثيفة، تصل المدينة شكوى ضد سعد، فيستدعيه عمر فوراً.. غير منتظر قليلاً ريثما تنتهي المعركة الموشكة على البدء والاندلاع.. ذلك لأن "عمر" يرى أنه إذا كانت الشكوى صحيحة وصادقة، فلن يبقي على سعد، حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها.. لأن النصر — كما يقول "عمر" — إنما يتنزل على كل قائد أو جيش يتحرج للشبهات..!

وهكذا، وفي هذا الظرف الدقيق الحرج، يرسل "عمر" "محمد بن مسلمة" إلى هناك لفحص الشكوى، فإن وجدها حقاً، عاد بسعد إلى المدينة..

ويذهب "محمد بن مسلمة" ويأخذ بيد سعد فاتح الأعاجم، و[illegible]، ويطوف به على الناس يسألهم الرأي فيه.. فقوم يقولون عنه خيراً.. وآخرون يحملون عليه بعض ما عندهم.. وأخيراً، يصطحبه ابن مسلمة إلى المدينة.

وإنا لنعرف نبأه مع حاكم مصر وفاتحها، "عمرو بن العاص" حين وفد عليه من مصر فتى مكروب يقول: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك..

ويستوضحه النبأ، فيعلم منه أن "محمد بن عمرو بن العاص" قد أوجعه ضرباً، لأنه سبقه فسبقه، فعلا ظهره بالسوط وهو يقول: خذها، وأنا ابن الأكرمين..!

ويرسل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمداً.. ولندع "أنس بن مالك" يروي لنا النبأ كما شهده ورآه..

يقول: فوالله إنا لجلوس عند عمر، وإذا عمرو بن العاص يقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يتلفت باحثاً عن ابنه محمد، فإذا هو خلف أبيه.

فقال: أين المصري..؟

قال : ماذا يا أمير المؤمنين ..

قال عمر : خذ الدرة ، واضرب بها ابن الأكرمين ..

فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهي أن تضربه ، فلم ننزع حتى أحببنا أن يرفع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين !!

ثم قال عمر للمصري : «أجلها على صلعة عمرو ؛ فو الله ما ضربك إلا بفضل سلطانه !»

قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت ، واشتفيت ، وضربت من ضربني

قال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه

ثم التفت إلى عمرو ، وقال : "يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .. ؟!"

والتفت إلى المصري وقال له : "انصرف راشداً ، فإن رابك ريب فاكتب إليَّ .. !!"

هذا هو عمرو بن العاص ، صحابي من شيوخ الصحابة ، وحاكم ، فاتح من أكبر فاتحي الفتح الإسلامي ، ولا ينجو ولده من العقوبة ، بل تكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب الحق .. !

* * *

على أن هذه المواقف الصارمة الحازمة التي يقفها "عمر" من ولاته الذين قد يسيئون استعمال سلطتهم ، هذه المواقف تتحول إلى مشاهد أخرى يذوب فيها "عمر" حناناً وغبطة حين يحقق مع أحد الولاة ، فينتهي بريئاً

ذات يوم تلقى شكاة ضد وال له ، هو "سعيد بن عامر الجمحي" تتضمن ثلاثة مآخذ

أولها : أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار

ثانيها : أنه لا يجيب أحداً بليل

ثالثها : يغيب عن الناس كل شهر يوماً ، فلا يرى أحداً ولا يراه أحد

واستدعاه "عمر" ، وواجهه بالشاكين ، وقال لهم : تكلموا ..

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار

ونظر أمير المؤمنين صوب سعيد وسأله أن يجيب

قال : والله يا أمير المؤمنين ، إن كنتُ لأكرهُ ذكر السبب . ليس لأهلي خادم ، فأنا أعجن معهم عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم

وأشرق أسارير "عمر" ، فقد بدا أنه لن يُساء في رجل وثق في دينه ، واختاره بنفسه

ثم قال للشاكين : وماذا أيضاً .. ؟

قالوا : لا يجيب أحداً بليل .

قال سعيد : والله ، إن كنت لأكره ذكره ، إني جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل ..

قال عمر : وماذا أيضاً تشكون منه .. ؟

قالوا: إن له في الشهر يوماً لا يقابل فيه أحداً.

وقال سعيد: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ففي هذا اليوم أغسلها، وأنتظرها حتى تجف، ثم أخرج إليهم آخر النهار.

قال عمر وقد غمره الحبور والبشر: الحمد لله الذي لم يُخيِّب فراستي!

إن سعيداً ليكون غامراً، حين يجيب سؤالي، ويظهر براءته، لأنه يريد أن يرى ولاته كلهم، بل الناس جميعاً متفوقين على الضعف، مبرئين من العيب.

أرسل "عمير بن سعد" والياً على حمص فمكث هناك عاماً لا يرسل خراجها، ولا تصل منه أيّ أنباء، فقال "عمر" لكاتبه:

- "اكتب إلى عمير، فوالله إني أخاف أن يكون قد خاننا" وأرسل إليه يستدعيه.

وذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلاً أشعث أغبر، تغشاه وَعثاء السفر، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً من طول ما لاقى من عناء، وبذل من جهد. على كتفه اليمنى جراب وقصعة، وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء، وإنه ليتوكأ على عصا لا يؤودها حمله الضامر الوهنان.

ودلَف إلى مجلس "عمر" في خطواتٍ وئيدة.

- "السلام عليك يا أمير المؤمنين"

ويردُّ "عمر" السلام، ثم يسأله، وقد آلمه ما رآه عليه من جهد وإعياء:

- ما شأنك يا عمير؟؟

- شأني ما ترى.. ألست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرنيها..؟

قال عمر: وما معك..؟

قال عمير: معي جرابي أحمل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعصاي أتوكأ عليها، وأجاهد بها عدواً إن عرض، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي.."

قال عمر: أجئت ماشياً..؟؟

- نعم

- أوَلم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها..؟

- إنهم لم يفعلوا، وإني لم أسألهم!

- فماذا عملت فيما عهدنا إليك به؟؟

- أتيتُ البلد الذي بعثتني إليه، فجمعت صلحاء أهله، ووليتهم جباية فيئهم وأموالهم، حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها، ولو بقي لك منها شيء لأتيتك به.

- فما جئتنا بشيء..؟

- لا

قال "عمر" وهو منبهر سعيد: «جدِّدوا لعمير عهداً»

قال عمير: «تلك أيام قد خلت، لا عملت لك ولا لأحد بعدك»!!

والويل الشديد للوالي الذي يفكر في أن يهدي لعمر هديةً..
والحق أنهم جميعاً كانوا من الفطنة بحيث لم يتورطوا قطّ في مثل هذا..!!
ولم يفعله منهم مرة واحدة سوى الرجل الصالح الطيب "أبي موسى الأشعري"
فذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره، فوجد طنفسة من سجاد لا تزيد على متر وبعض متر، فسأل زوجته "عاتكة":
- «أنَّى لك هذه..؟؟»
قالت:
- أهداها إلينا أبو موسى الأشعري
- «أبو موسى..؟؟ إيتوني به»..!!
ويجيء أبو موسى، تسبقه مخاوفه، ولا يكاد يقترب من "عمر" ويسمع "السجادة" في يمينه، والحمرة في وجهه، حتى يبادر القول: "لا تعجلْ عليّ يا أمير المؤمنين"
ولكنَّ أمير المؤمنين يُعاجله، ويمسح بالسجادة رأسه ويقول له:
- ما يحملك على أن تهدي إلينا؟ خذها فلا حاجة لنا فيها..!!
والويل كذلك لمن يطمع في أن يستغلَّ منزلته من الرجل الكبير شفاعة ينفعه في غير حقّ.
حدث يوماً أن أمر بأحد ولاته جزاء، فانتهزت زوجته "عاتكة" ساعة من ساعات فرحه وهدوئه، وشفعت للرجل، ولم تزد على أن قالت: يا أمير المؤمنين، فيمَ وجدتَ عليه..؟
هنالك انتفض "عمر" كأنما هُدّ من دين الله ركن، وصاح فيها:
- «يا عدوّة الله، وفيمَ أنت وهذا»..؟!
ولو كان هذا الموقف من زوجته مشورة ورأياً، لتقبل المشورة، ويبحث الرأي، فسنراه بعد حين يحيي في إعجاب وخشوع سيدة عارضت رأيه في تحديد المهور.
أما هنا، فقد تصور "عمر" الموقف على أنه تدخل في المسؤولية من غير مسؤول، ولون من الشفاعة أو الوساطة لا يسكت "عمر" عليه، ولا يتسامح معه.
هذه مسئوليته تجاه ولاته..
فقط مسئوليته تجاه أموال الأمة.. وإنها لمسئولية تعنو لها الوجوه، وتسهر لها الأفئدة..
وسنبدأ بهذا النبأ:
يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة:
- «صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحج، ثم رجعنا، فما ضرب فسطاطاً، ولا خباء، ولا كان له بناء يستظل به، إنما يلقي كساءه على شجرة فيستظل تحته»..!!
ويقول يسار بن نمير:
« وسألني عمر: كم أنفقنا في حجتنا هذه؟ قلت: خمسة عشر ديناراً. فقال

لقد أسرف في هذا المال » .. [1]

أرأيتم إلى الرجل الذي وضعت تحت قدميه خزائنه أموال كسرى وقيصر ، ثم يخرج إلى لحج وسط صحراء ملتهبة ، فلا يهيئ لنفسه من ضرورات الرحلة شيئاً .. [2] يسوق وقده بحر ، وفيظ الجبال بمسعره ، مثلما تدوقه أساس كافه ، و يعوق حلاب رحلته كلها خمسة عشر دينار ، ثم يقول : لقد أسرف .. ؟!

قبل أن يلي أمور المؤمنين ويصير أميرهم ، كان تاجراً يكسب عيشه ورزق أهله وعياله من تجارته ، فلما تفرغ لمهمته الجديدة ، فرض لنفسه من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته في مستوى الكفاف ..

وكان مع الأيام يزداد تيعاته ، ويزداد إحساسه وتقشفه ، ويرتفع كما هب الرخاء روات جميع المسلمين في المدينة وخارجها .. لكنه لا يفكر في أن يزيد نفسه درهماً .

حتى سمع أصحابه يوماً أن أمير المؤمنين يقرض لعيش ، فاجتمع نفر من الصحابة معهم عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، واتفقوا على أن يتحدثوا معه ، ويطلبوا إليه أن يزيد في راتبه ، ومخصصاته ، لكنهم عادوا وتهيبوا محادثته ، لأنهم يعرفون أنه في هذه المسألة بالذات شديد الوطأة ، لاذع العتب .

قال عثمان : فلنستبرئ ما عنده من وراء وراء .. وتوجهوا إلى حفصة بنت عمر ، واستكتموها أمرهم ، وطلبوا إليها أن تستطلع أمر أبيها

وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة ، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق

فقال عمر : من بعثك إليّ بهذا .. ؟

قالت : لا أحد .

قال : بل بعثك بهذا قوم ، لو عرفتهم لحسبتهم

ثم قال لابنته : لقد كنت زوجة لرسول الله ﷺ فماذا كان يقتني في بيتك من الملبس ؟

قالت : ثوبين اثنين !

قال : فما أطيب طعام رأيته يأكلها .. ؟

قالت : خبز شعير طري مثرود بالسمن .

قال : فما أوطأ فراش كان له في بيتك .. ؟

قالت : كساء ثخين ، كنا نبسطه في الصيف ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه ، وتدثرنا بنصفه .. !!

قال : « يا حفصة ، فأبلغي الذين أرسلوك إليّ أن مثلي ومثل صاحبيّ ـ الرسول ﷺ وأبي بكر ـ كثلاثة سلكوا طريقاً ، فمضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل ، ثم تبعه الآخر ، فسلك طريقه فأفضى إليه ، ثم الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما » .. !

أهذا كلام يصلح أن يكون تعليقاً على هذا المشهد الفذ العجيب .. [3] !؟ كلا

فلندعْه بدون تعليق !!

* * *

وكانت تنتابه الهموم إذا سمع "عمر" أن درهماً واحداً من الأموال العامة قد حُبس أو انتهب، أو أُنفق في ترف أو إسراف.

كان يرتجف، ويرجف كأن خزائن الأمانة كلها قد ضاعت، وليس درهماً أو بعض درهم..!

وكان يُقسم لو أن بعيراً من إبل الصدقة ضاع على ضفاف دجلة أو الفرات، وعمر بالمدينة، لخاف أن يسأله الله عنه..!!

وفي يوم صائف قائظ يكاد حرُّه يذيب الجبال، أطلّ "عثمان بن عفان" من نافذة بالعالية، فرأى رجلاً يسوق أمامه بعيرين صغيرين، والهواء الساخن يغشاه كلفح السَّموم.

فقال محدثاً نفسه: ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يبرد؟ وأمر خادمه أن ينظر من هذا الرجل العابر من بعيد، والذي تخفي الزوبعة والرمال السافيات معالمه.

ونظر الخادم من فرجة الباب، فقال: أرى رجلاً معمماً بردائه يسوق بكرين أمامه.

وانتظر حتى قرب الرجل، فعرفه الخادم وصاح: إنه عمر.. إنه أمير المؤمنين!

فأخرج عثمان رأسه من كوّة صغيرة متوقياً لفحة الريح، ونادى:

- ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟

أجاب عمر: بكران من إبل الصدقة تخلّفا عن الحمى - المرعى - وخشيت أن يضيعا، فيسألني الله عنهما..!!

قال عثمان: هلمّ إلى الظل والماء، ونحن نكفيك هذا الأمر.

فقال له عمر: عُدْ إلى ظلك يا عثمان..

قال: عندنا مَنْ يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين.

قال مرة أخرى: عد إلى ظلك يا عثمان.. ومضى لسبيله وحر الظهيرة يصهره.

فقال عثمان مأخوذاً ومبهوراً: « من أراد أن ينظر إلى القويّ الأمين، فلينظر إلى عمر.. » !!!

والقوي الأمين يباشر مسؤولياته المالية مباشرة ذكية عظيمة، فهو لا يكتفي بالسهر على حفظ أموال الأمة فحسب، بل يعنى بالعمل على تنميتها، وزيادة الدخل القومي بكل سبيل ممكنة.

* فهو - مثلاً - يقاوم توزيع أرض السواد على الفاتحين، لأن ذلك يخلق طبقة محتكرة، وفي الوقت نفسه، عاجزة عن خدمة الأرض، غير خبيرة بزراعتها، ويترك الأرض تحت أيدي زارعيها، مكتفياً بالضرائب التي تدفع عنها سنوياً، ثم ينال كل مسلم حقه منها.

* وهو يشجع على إحياء الأرض الموات التي لا صاحب لها، وينفذ قول الرسول عليه السلام « من أحيا أرضاً ميتة فهي له ».

وحين يرى أمير المؤمنين أناساً يضعون أيديهم على هذه الأرض، ويسوّرونها، ثم يهملون

ستصلاحها وزرعها ، فمن فاتوا تمنح وضع اليد فرصة مدتها ثلاث سنوات ، فإذا عجز خلالها عن إحياء الأرض وتحويلها إلى حقل ، أو بستان ، أو مرعى ، نحي عنها ، وأعطيت لغيره من القادرين .

* وهو كذلك يحضر المسلمين على الكسب المشروع ، فيغريهم بالتجارة الشريفة النظيفة ، قائلاً لهم : غداً سيكون لكم أبناء وحفدة ، فماذا يبقى عليكم هذا الذي بأيديكم ؟!

* وهو يضفي عناية خاصة على الثروة الحيوانية ، فيخصص لها مرعى خصيباً رحباً ، يرعى المسلمون فيه مواشيهم بغير مقابل ، ويتعهد هذا المرعى دائماً ، وقلما كان يوم يمر دون أن يرى الناس عمر ، قد خرج منتصف النهار ، واضعاً ثوبه فوق رأسه يتقي به من الشمس ، قاصداً أرض الحمى والمرعى ، يتعهدها ويتفقدها ، ويحذر حارسها من أن يسمح لأحد أن يعضد شيئاً من شجرها ، أو أن يضرب فيه بفأس !!

* * *

ولا يخطر بالبال ـ ونحن نتحدث عن المال وعن الدخل القومي أيام عمر ـ أننا نتحدث عن موارد شحيحة وموارد ضئيلة ، فإن عمر لم يمت إلا بعد أن كانت تحولت يده القوية الأمينة في دخل من أضخم الدخول يومئذ ، بعد أن آلت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس .. !!

ويقول له خالد بن عرفطة :

ـ « يا أمير المؤمنين تركت الناس يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم ، ما وطئ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان ، أو خمس عشرة مائة ، وما من مولود يولد إلا ألحق في مائة وجريبين كل شهر ذكراً كان أو أنثى ، وما يبلغ لنا ولد إلا ألحق على خمسمائة أو ستمائة »

وحرص عمر على تنمية الثروة ، لم يحمله قط على سلوك يبعث فيه جشعاً أو رهقاً

فالثروة عند عمر ، في خدمة الإنسان ، وليس الإنسان في خدمة الثروة !!

لهذا ، كان ينزل عقوبة شديدة على كل والٍ يحرم أهل ولايته لكي يرفع إلى المدينة خراجاً كبيراً يظن أنه يكسبه رضاء أمير المؤمنين .

وكان يأمر أن تقسم خيرات البلاد ـ أي بلد ـ على أهلها أولاً ـ فإذا استوفوا كفايتهم رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها .

وكان يأمر عماله أن يتقاضوا الضرائب في رفق وعدل ورحمة .

حُمل إليه يوماً مال وفير من أحد الأقاليم ، فسأل عن مصدره ، وعن سر وفرته وكثرته ، فلمّا علم أنه من ضريبة الزكاة التي يدفعها المسلمون ، وضريبة الجزية التي يدفعها أهل الكتاب ، قال وهو ينظر إليها كثيرة عرمة :

ـ إني لأظنكم قد أهلكتم الناس ..

ـ قالوا : لا والله ، ما أخذنا إلا صفواً عفواً ..

قال: بلا شَوْطٍ، ولا تَوْطٍ.. ؟؟ (1) قالوا: نعم.

قال ووجهه يتهلل وبشر: «الحمد لله الذي لم يجعل ذنب عليَّ ولا في سلطاني» !!

وكان يعفي من ضريبة أهل الكتاب، كل من عنده دَيْن يستغرق ماله، لأنها لم تكن ضريبة إذلال، بل ضريبة دخل، فإذا عجز عنها دافعها، وضعت عنه فوراً !

* * *

وبعد: فهذا هو "عمر" الحاكم المسئول. وهذه هي طريقته في تحمل مسئولياته جميعها.

هذا هو الرجل الذي كانت جيوشه تدك معاقل الروم والفرس وتدكها دكاً، بينما هو يسير في طرقات المدينة لابساً ثوباً به إحدى وعشرون رقعة.. ويبطئ على المسلمين يوماً في صلاة الجمعة ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلاً:

- «حبسني قميصي هذا، لم يكن لي قميص غيره» !!

إن المسئولية التي تركها دفعته إلى نهايات الطريق، وقمم المثل، فجاءت تصرفاته كلها تمثل أقصى ما يستطيع الكمال الإنساني أن يبلغه.

* فتجاه مسئوليته عن نفسه وأهله، تحمّلهم كل مغارم الحكم، ويحرمهم من كل مغانمه.. !!

* وتجاه وُلاته ومعاونيه، يحاسبهم بنفسه، ويلزمهم صراطاً مستقيماً أحدَّ من الشفرة، وأرقّ من الشعرة !!

* وتجاه الأموال لأنها، يبلغ أقصى درجات الحفاظ عليها والزهد فيها !!

* وتجاه الجبارين العتاة، يبلغ أقصى أسباب الشدة والحزم !!

* وتجاه الضعفاء والبسطاء يبلغ غاية المدى في الحدب والحنين !

إن مسئوليته هي هوده، وهي التي تشرها بروح المخلص العابد الأواب

وإن عظمة سلوكه، كرجل مسئول، لا تتمثل في اللحظات التي مرّ بها إلا كما تتمثل ضوء الشمس في الشعاع المتسلل من خصاص النافذة.. !!

ألا وإن عمر الحاكم، ليتحدى كل حكام التاريخ، ويتحدى مسئوليتهم فادحة وكبيرة

ذلك أنه لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولا رسولاً يوحى إليه، إنما كان فرداً من الناس يجتهد رأيه، وينهض بعزمه. ولقد استطاع أن يبلغ ذلك المستوى الذي يساوي العجب في عدله، وفي رحمته، وفي أمانته، فما عذر الآخرين إذا قعدت بهم عزائمهم؟

إن "عمر" الحاكم، حجة الله على كل حاكم..

فإذا قال حاكم: ضاعت حسابي يا رب عجزت..

قال الله له: وكيف لم يعجز عمر.. ؟؟!!

---

(1) أي بلا سرف ولا تضييق.

ولا خيرَ فينا إذا لم نَسْمَعْهَا

لم يكن عمر المؤمنين يحمل مسئولياته حملان رجل مغلوب بسوطه ، صلف بمكانه ، مستعز بسلطانه

بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد ، الباحث عن الحق ، المستلهم وجود الآخرين وتفكيرهم ليأخذوا مكانهم معه ، وينصحوا بآرائهم رأيه ، ويعاونوا يرشدهم رشده

ولقد اقتضاه هذا ، أن يقدّس الشورى ، ويحني رأسه العالي في خشوع ونهل لكل معارضة شجاعة صادقة

فرد بهرنا جلال المسئولية عند "عمر" ، وسموقها الصاعد في السماء ، فلنصغ أعيننا على القاعدة التي استقرت فوقها هذه ... لا وهي الشورى والمعارضة

وإنه لأمر عجيب حقاً أن يرتفع هو الرأي والمعارضة إلى هذا المدى البعيد الذي سنراه ، رجل يؤمن بالنصوص إيماناً مطلقاً ، رجل يخاف أن يفسر الآية من القرآن ، خشية أن يحمّلها من رأيه ما لا تحتمل ، رجل لا يبيح لنفسه أن ينحرف قيد أنملة عن المنهج الموضوع ، واللحظة المرسومة ، ويعيد واحدة ، رجل طاعة وإيمان وما يليه !!

ولكن العجب ، أن نرى في هذه الظاهرة أيّ عجب

فالذين يعرفون "محمداً" ودين محمد ﷺ معرفة سوية عاقلة ، يعرفون أن احترام النص ، لا يعني إهدار الرأي ، وأن الطاعة المؤمنة لا تنقص من المعارضة الأمينة

ثم إن "عمر" لم يكن بطبيعته رجل مُسايرة ، صحيح أنه رجل إيمان وطاعة كما ذكرنا ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التي تفرضها الاقتناع الوثيق

وهو قد اقتنع بالرسول وآمن به ، ومن ثم فهو يقفو أثره في غير تردد أو التفات ، وإنه ليناقش الأمور التي تحتاج إلى مناقشة .. ويسلم تسليماً لقضايا لا يفهم أحياناً حكمتها ، ولكنه مقتنع سلفاً بالرسول الأمين الذي جاء بها ..

يقبّل الحجر الأسود في الكعبة ، ثم يقول كأنه يخاطبه

- "إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، والله لولا أني رأيت رسول الله يقبّلك ما قبّلتك" !!

ويهرول كاشفاً عن منكبيه ، ويقول

فيم هذا الرَّمَلان ، الهرولة ، والكشف عن المناكب ، وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر ؟ ومع هذا لا ندع شيئاً كنا نفعله في عهد رسول الله ﷺ"

إنه ليعمد إلى ميزاب في دار العباس فيقتلعه من مكانه إذ كان ماء المطر يسيل منه إلى فناء المسجد .. ولكن لا يكاد العباس يخبره أن الرسول ﷺ هو الذي وضع هذا الميزاب مكانه ، حتى يسارع "عمر" فيجيء بالمرقاة ، ويقسم على العباس ليعلو فوق منكبيه ، منكبي عمر ، ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل .. !!

وإنه ليُسأل عن تفسير الآية الكريمة ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا . فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ فيقول:
الذاريات ذروًا: هي الريح.. ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته.. والحاملات وقرًا: هي السحاب.. ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته!!

إلى هذا الحد كان "عمر" وقافًا عند النصوص والتعاليم، ملتزمًا التأسي والقدوة.

ومع هذا، فقد آمن بالشورى إيمانًا مماثلًا لإيمانه بالنص والقدوة.. والشورى رأي ومعارضة.

ولست أعرف شيئًا يرفع من قدر الشورى في كل عصور التاريخ كما يرفع من قدرها إيمان "عمر" بها، وأسلوبه في تطبيقها.

إن تطور الحياة السياسية في المدينة لم يكن يومئذٍ قد أذن للمؤسسات الديمقراطية أن تظهر، من "برلمان" وغيره..

ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذات الرجل، وفي ذات الثقة وذات العهد، بخير فرص التألق والازدهار.

لم يحاول عمر قط أن يفرض رأيه، أو أن يمضي مشيئته، ولم ينفرد ساعة من نهار بحكم للناس دون أن يشركهم معه في مسئولية هذا الحكم مشاركة فعّالة صادقة.

والرائع الباهر فيه، أنه لم يكن يفعل ذلك تواضعًا أو تفضلًا بل سجية، وفطرة، وواجبًا.

إذا كانت القضية التي يريد عمر أن يفصل فيها لها في كتاب الله نص، تحرّى "عمر" كلمة الله.

وإذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التي ليس لها في الكتاب تفصيل، لم يتعسف "عمر" ولم يتكلف.. ولم يضع الآية الكريمة ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ في غير موضعها.

بل يعمد من فوره إلى الرأي والشورى.. ويلتمس وجوه النظر.

والرأي عنده، ليس التماس الموافقة، بل التماس الحقيقة.. ولطالما كان يقول للناس:

- "لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي.. وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق".. ولنطالع هذا المشهد من مشاهد شوراه..

فحين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس.. ودخل أكثر أهلها في دين الله.. رأى "عمر" ألا يقسم أرضها الزراعية بين المجاهدين.. وأن تظل كما هي بأيدي أصحابها.. ثم ترد الضرائب المأخوذة عليها إلى بيت المال.. فتقسم بين الناس جميعًا، كل منهم ونصيبه المفروض.

وكان يرى أن تقسيم الأرض بين المجاهدين، سيقعدهم عن الجهاد أولًا.. وينقص غلة الأرض، ويشغل جمهرة المجاهدين بالزراعة ثانيًا.. ويخلق في الإسلام طبقة من الإقطاعيين والمحتكرين ثالثًا.. كما أنه سيضيع الآخرين الذين لم يملكوا ضياعًا.. ويحرم الأجيال الوافدة من حقها ورزقها..

وعارض رأيه هذا نفر من الصحابة..

وكانوا كلما علا صوتهم، واحتدت معارضتهم، قال "عمر" في هدوء: "بل أقول رأيي الذي رأيته".

وانفض الجمع من غير أن يتفقوا على كلمة.

وفي اجتماع آخر، وكان "عمر" قد دعا فريقا من الأنصار المشهود لهم بالحنكة وبصدق التجربة فتح باب المناقشة، وخشي "عمر" أن يجامله أحد في رأيه بوصفه أمير المؤمنين. فبدأ الحديث قائلاً:

"إني دعوتكم لتشاركوني أمانة ما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولستُ أريد أن تتبعوا هواي، فمعكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده، فما أريد به إلا الحق".

* * *

والشورى والمعارضة عند أمير المؤمنين، هما جناحا الحكم الصالح القويم، وهما رئتا كل حكم سديد.

ومن أجل هذا، لا يكاد يلي الأمر، ويسمع همس الناس حول شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكراً، ويدخل عليه "حذيفة" فيجده مهموم النفس، باكي العين. فيسأله: ماذا يا أمير المؤمنين؟؟

فيجيبه عمر: إني أخاف أن أخطئ فلا يردني أحد منكم تعظيماً لي، ويقول حذيفة، فقلت له: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه".

فيفرح "عمر" ويستبشر ويقول:

"الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقوّمونني إذا اعوججت".

وإن أعظم مظاهر التكريم للمعارضة، نراه في مواقف هذا العاهل العظيم منها في ولائه وتشوقه لها، وتوفير كل فرص الطمأنينة والأمن، بل الإكبار لذويها.

يصعد المنبر يوماً فيقول:

"يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملتُ برأسي إلى الدنيا هكذا"؟؟

فيشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كأنها حسام ممشوق: "إذن نقول بالسيف هكذا".

فيسأله عمر: إياي تعني بقولك..؟؟

فيجيبه الرجل: نعم إياك أعني بقولي..

فتضيءُ الفرحة وجه "عمر" ويقول:

"رحمك الله.. والحمد لله الذي جعل فيكم من يقوّمُ عوجي..!!"

لم يكن هذا الموقف من أمير المؤمنين موقفاً مستغرباً، فعمر أكثر من أن يستثار لمثل هذه المواقف، إنما كان سلوكاً صادقاً، ونهجاً مخصباً، ينشد "عمر" من ورائه الوصول إلى الحق، والطمأنينة إلى أن حكم أمته من الأسود، لا فصل من سماح!!

إن "عمر" حريص على أن يمكن الناس جميع الناس من حقهم في ممارسة الأمر معه، وأخذ مكانهم إلى جانبه.

ولو أنه بطش بالمعارضة، ولو مرة، إذن لماتت الشورى في عهده بعد لأي كبير، لكنه فعل النقيض تماماً.. أقصى عنه هؤلاء المحامين والمداحين، ورفع مكان عنده أولئك الذين يناقشون، ويعارضون، يقولون: لا..؟ ولماذا..؟

وكان فرحه بكلمة حرة مخلصة يجابه بها أو يجابهه بها أحد من الناس، يفوق كل فرح آخر على وجه الأرض..

ذات يوم يصعد المنبر، ليحدث المسلمين في أمر جليل، فبدأ خطبته بعد حمد الله بقوله: "اسمعوا يرحمكم الله"

لكنّ أحد المسلمين ينهض قائماً فيقول:

والله لا نسمع.. والله لا نسمع..!!

فيسأله "عمر" في لهفة: ولِمَ يا "سلمان"..؟!

فيجيب "سلمان": ميزت نفسك علينا في الدنيا.. أعطيت كلاً منا بردة واحدة، وأخذت أنت بردتين..!!

فيجيل الخليفة بصره في صفوف الناس ثم يقول:

- أين عبد الله بن عمر..؟

فينهض ابنه عبد الله: هأنذا يا أمير المؤمنين..

فيسأله عمر على الملأ: مَن صاحب البردة الثانية..؟

فيجيب عبد الله: أنا يا أمير المؤمنين..

ويخاطب "عمر" سلمان والناس معه فيقول:

- إني كما تعلمون رجل طوال، ولقد جاءت بردتي قصيرة، فأعطاني عبد الله بردته، فأطلت بها بردتي..

فيقول "سلمان" وفي عينيه دموع الغبطة والثقة:

- الحمد لله.. والآن قل نسمع ونطع يا أمير المؤمنين!!

أيبلغ الناس من حرية المعارضة أن يتحدثوا للحاكم عن أثوابه وملابسه، وبهذه اللهجة الصارمة..؟

ألا من كان يعرف لهذا نظيراً في التاريخ كله، فليأتنا به..!!

* * *

في يوم آخر، وهو جالس مع إخوانه، يخترق الصفوف رجل ثائر، ملء قبضته شعر محلوق، ولا يكاد يبلغ "عمر" حتى يقذف بالشعر في صدره في مرارة وحنق..

ويموج الناس بالغضب، ويهم به بعضهم، فيومئ إليهم "عمر"، ثم يجمع الشعر بيده، ويشير للرجل فيجلس، ويصغي إليه "عمر" حتى يهدأ روعه، ثم يقول له

- والآن، ما أمرك..؟؟

فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته:

- أما والله، لولا النار يا عمر..!!

فيقول عمر: صدقت والله.. لولا النار.. إذن ما أمرك يا أخا العرب؟

ويقص الرجل شكاته، وفحواها أن أبا موسى الأشعري أنزل به عقوبة لا يستحقها فجلده وحلق شعر رأسه أبو موسى، فجمع الرجل شعر رأسه وجاء به إلى "عمر".

فنظر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول:

- لأن يكون الناس كلهم في مثل هذا، أحب إليّ من جميع ما فتح الله علينا..!!

ثم يكتب لأبي موسى يأمره أن يمكّن الرجل من أن يقتص منه جلداً بجلد، وحلقاً بحلق..!!

هذا حاكم يبهره فرحاً كل احتجاج قوي، أو معارضة شجاعة.. وإن رجلاً واحداً يصدع بحقه في غير حذر، ويقول كلمته في غير جبن، لأحبّ إليه - كما قال - من كل ما فتح له من الأرض، ومن كل ما ورث عن كسرى وقيصر..!!

كان "عمر" واثقاً بنفسه، وبسلامة نهجه، ومن ثم لم يكن يحذر النقد، أو يخاف المعارضة، بل كان يبحث عنهما، ويثني عليهما، ويثيرهما في قلوب أمّته وعقول شعبه، ويجد فيهما مشعلاً يستضيء به، ونجماً يستكمل به صواب أمره.

يخطب الناس يوماً فيقول:

- "لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال"

فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول: ما ذاك لك.

فسألها: ولِمَ..؟

فتجيبه: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

فيتهلل وجه "عمر"، ويبتسم ويقول عبارته المأثورة: "أصابت امرأة، وأخطأ عمر".

وحتى حين كانت تلك المعارضة عصبية لا فقهاً، لم يكن يضجر منها، أو يضيق بها.

بعد أن عزل "خالد بن الوليد" جمع الناس في المدينة وقال لهم:

- «إني أعتذر إليكم من عزل خالد، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفة المهاجرين، فأعطى ذوي البأس، وذوي الشرف، وذوي اللسان»

فنهض أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال:

- "والله ما أعذرت يا عمر، ولقد نزعتَ فتى ولّاه رسول الله ﷺ، وأغمدت سيفاً سلّه رسول الله، ووضعت أمراً رفعه رسول الله، وقطعت رحماً، وحسدت ابن العم"..!!

قطيعة الرحم والحسد.. يتهم بهما أمير المؤمنين هكذا في غضب وعلى الملأ..!!

أجل، وما زاد "عمر" على أن يسمع ثم يبتسم في صفاء، وقال مخاطباً "ابن عمرو": "إنك قريبُ قرابةٍ، حديث السنّ، تغضب في ابن عمك"..!!

* * *

هذا ليس حاكماً عدلاً فحسب .. بل هو معلم كبير، وصاحب مهارة بالغة في صقل الجوهر الإنساني وبعث قواه.

فأي أثر باهر يتركه موقف كهذا في أفئدة الناس ؟؟

وأي طمأنينة غامرة يملأ بها القلوب حاكم هذا سلوكه ؟

ولكن، لم لا يفعل "عمر" هذا .. وأكثر منه، وهو تلميذ رسول الله ﷺ، وصاحب أبي بكر خليفته ..؟!

ولقد رأى بعينه وسمع بأذنه أعرابيًا من أهل البادية يتجهم على رسول الله ﷺ ويقول له وهو بين أصحابه:

ـ «أعطني، فليس المال مالَك ولا مالَ أبيك»

ويرى الرسول ﷺ يبتسم، ويقول للرجل:

ـ "صدقت .. إنه مال الله" !!

ويستفزّ المشهد رجلاً، هو "عمر" نفسه، فيهمّ بالأعرابي ليبطش به، فيردّه رسول الله ﷺ في رفق، وابتسامة تعلو شفتيه كشمس الربيع، ويقول له:

ـ "دعه يا عمر .. إن لصاحب الحقّ مقالا" !!

أجل، على هذا النهج المستقيم يمضي عمر مقدّراً كل نقد نافع، موقّراً كل معارضة أمينة

وإن لجميع الناس الحقّ في أن يشيروا على أمير المؤمنين، وفي أن يرفضوا ما لا يعجبهم من تصرفاته.

ولقد تركهم يفهمون تماماً أن الشورى ليست ترفاً، ولا ميزة أو تبرعاً .. إنما هي نهوض الشعب بمسئولياته مع الحاكم يداً بيد، ورأياً برأي .. ونفساً بنفس.

وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد في معرفة آرائهم، وتمحيص آرائه

وكانت المحاورات الكثيرة التي ثبتت حقوقه بالمعارضة، واحترامه الشورى

كان هذا وذاك على رأس الحوافز التي ألهمت الناس ـ جميع الناس ـ الشجاعة في إبداء الرأي، والمشاركة في حمل تبعة المصير.

لقد كان عمر خبيراً بأولئك الذين يرصدون الريح، ويستشفون هوى الحاكم، فيسبقونه بالرأي الذي يشير هو .. !!

كان خبيراً بهؤلاء .. فلا يقيم لهم وزناً

وكان يقول لأحدهم إذ تقدّم بمثلين دونه: "يا عدوّ الله، والله ما أردت الله بهذا" !!

وكان هؤلاء قلة تافهة.

أما الأكثرون، فقد كانوا من الطراز الرفيع النادر الذي يقول كلمته واضحة، صادحة، صادقة، نافعة، يمليها عليهم واجبهم ويحملهم عليها .. ويشجعهم عليها سلوك أمير المؤمنين تلقاء نصحائه ومعارضيه

* * *

وأعظم من عمر أنه كان يسعد بالمشورة والرأي، كفرد عادي لا كحاكم وأمير للمؤمنين
فهو إذا طلب الرأي في أمر، لم يبتدئ عن أي مظهر من مظاهر السلطة. بل يشعر
الآخرين بأنهم يسدون إليه خيرا جزيلا، ويعدونه من وطأة مسؤوليته، إذ يساعدونه بآرائهم
على تبيّن الصواب والحق!

وبهذه الروح نفسها يلتقي — كما رأينا — كل معارضيه له، من كل منتقديه

كان يعبر الطريق يوما، ومعه الجارود العبدي، إذا امرأة تناديه، وتقول

— رويدك يا "عمر"، حتى أكلمك كلمات قليلة..

ووقف "عمر" وراءه، ثم وقف حتى تبلغه المرأة فتقول له وهو مصغ مبتسم

— يا عمر عهدي بك، وأنت تسمى "عميرا" تصارع الصبيان في سوق عكاظ، فلم
تذهب الأيام حتى سميت "عمر" ثم لم تذهب الأيام حتى سميت "أمير المؤمنين"
فاتق الله في الرعية، واعلم أن من خاف الموت، خشي الفوت"

فقال لها "الجارود العبدي": اجترأت على أمير المؤمنين

فجذبه "عمر" من يده وهو يقول: دعها فإنك لا تعرفها، هذه "خولة بنت حكيم" التي
سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهي تجادل الرسول ﷺ في زوجها وتشتكي إلى الله
فعمر — والله — أحرى أن يسمع كلامها...!!

* * *

إن فطرة العربي، وروح الإسلام، مدّا المسلمين الأوائل لا شك بقدر لا يحط من العزم
من الشجاعة في مواجهة الحاكم

ولكن لا ريب في أن هذه الشجاعة الحرة ما كانت تستطيع مع ذلك أن تشق مجراها، لو لم
يكن سلوك الحاكم نحوها سلوكا نبيلا جليلا يساعد على إذكائها لا إطفائها الأمر الذي
كان يصنعه "عمر"

لقد بلغت الشورى في عهده هذه المرحلة تكشف عن كل صدقه وعزمه

ذلك أن أزمة الشورى لا توجد عندما يوجد الحاكم الذي يحب السلطة، أكثر مما
يحب الحرية

و"عمر" لم يعف نفسه ذلك فحسب، بل إنه نظر إلى السلطان كما ينظر المضطر إلى
لحم الميتة..!!

وعلى الرغم من أنه جرّد السلطة حين مارسها من كل زهوها، ومن كل إغرائها، ومن
كل ضراوتها، فإنه ظل ينظر إليها نظرته تلك، وظلت علاقته بها علاقة من حُمّل عبئها، لا
من سعى إليها.

ولقد كان أهمّ ما يشغله ويهمه أن يكون هو الحاكم الحقيقي، ولكون الخليفة
الحق له يوم يذهب عن هذه الدنيا.

كان كل همه أن يتركه شعبا قويا صلبا، وقد فعل

وضع في خدمته كل دخل الدولة، وأقام من حصيلته الثغور والحصون، وشيّد به المدن والأمصار

ثم مع هذا، بل قبل هذا، وضع كل عبئه على الموهبة الشعبية، تلك التي تتمثل في شعوره الحقيقي بأنه سيّد، وبأنه من كل الأمر، وبأنه يصنع مصيره ولا يفاجأ به!!

وهكذا أصبح "عمر" للشورى كل حظه وكل فرد.. وأعطى الحقّ كل توقير، وكل كبر.. ولم يجعل الشورى وقفاً على بطانته أو فريق من الناس، بل جعلها كحقّ مقرور للأمّة كلها!!

ذلك أن أمير المؤمنين لم يكن رجل بطانة، بل كان رجل أمّة، ورجل عالم، ورجل تاريخ..!!

* * *

نحن أمام إنسان فيه كل أصالة شأنه، وبيئته، ودينه..

رجل يعرف مكانه من الناس، ويعرف مكان الناس منه، ويعرف مكانه والناس معاً من ثأر الحياة الإنسانية الهادر..

ثم هو بصير بحقائق عالمية من قبل أن تدرس هذه الحقائق في جامعة أو في كتاب

وأولى هذه الحقائق كما نعلم، وكما عبّر هو في أعذب وأسمع وأجمع قول: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"..؟

هذه أولى حقائق عالمنا الإنساني، كما يدركها "عمر".. "الحرية حقّ تعطيه لحظة الميلاد"

وهو كحاكم، لا يمنحها، ولا يجني منها، بل يحميها حب عاشق، ويقدسها تقديس مؤمن

ومفهوم الحرية عنده في منتهى اليسر، وأيضاً في منتهى الشموخ.. فالحرية هي حرية الحقّ

الحقّ فوق جميع القيود..

وما دام الناس هم الذين يكتشفون الحقّ، فيجب أن يكونوا أحراراً في ممارسة كشفه

وما دام لا يوجد إنسان واحد يملك الحقّ وحده، أو يعرفه وحده، فلكل فرد إذن الحقّ في أن يسلك طريقه إلى معرفة الحقّ.

أي أن الناس أحرار في أن يعلنوا آراءهم، ويحدثوا بما في أنفسهم.. فإن كان صواباً ربح المجموع هذا الصواب، وإن كان خطأ تبين صاحب الخطأ خطأه

ولكن من حق "عمر" علينا أن نقول: إن هذا الحق الذي يحترم الاختلاف وجهات النظر هو الحقّ الذي لم يأت فيه من الله ولا من رسوله ﷺ نص صحيح وفاصل

وما أكثر مساحة الحقّ الذي ترك الله للناس أمر كشفه، وما أكثر الحقائق التي تتطلب آراء الناس لتظهر وتبين!!

وعند "عمر" أن إبداء الرأي من حق كل فرد، ذكر وأنثى، كبير وصغير، وليس من حقّ الصفوة، أيّ صفوة

ذلك لأنه ينظر حوله، فيرى إمبراطوريات تتهدم، وعروشاً تنهار، وشعوباً ذليلة، تصحو وتتحرر..

ثم ينظر.. بيد من سيتم هذا العمل الجليل..؟

إنه يتم بأيدي الرجال العاديين.. الأميين والفقراء والبسطاء الذين آمنوا "بمحمد" ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه.. هؤلاء إذن، هم قوام الحياة الجديدة..!!

فإذا كنا نحترم سواعدهم التي تضرب وتبني؛ فلا بدّ من أن نحترم كلمتهم التي تُقال. وإذا كنا نتطلب تأييدهم وتعضيدهم، فلا بدّ من أن نتقبل مشورتهم ونقدهم..!!

وما داموا هم الذين يحملون العبء أولاً وآخراً، فليس من حقِ حاكمهم أن ينفرد دونهم باتخاذ قراراته ورسم خططه، وبالتالي ليس من حقه أن يصادر حقهم في أن يقولوا "لا".. ما دام يحتاج إليهم في يوم يقولون فيه: لبيك..!!

يدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس..

ويتمسك الآخر برأيه، ويقول لأمير المؤمنين: اتقِ الله يا عمر.. ويكررها مرات كثيرة..

ويزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلاً: صه، فقد أكثرت على أمير المؤمنين..

لكنّ أمير المؤمنين يقول له: "دعه؛ فلا خير فيكم إذا لم تقولوها.. ولا خير فينا إذا لم نسمعها..!!"

أجل، لا خير في الناس إذا لم يقولوا ما يرونه حقاً.. ولا خير في الحاكم إذا لم يسمع منهم ويُصغِ إليهم..

* * *

لكنّ المشكلة ليست مشكلة قول وسمع..

وإنما هي أولاً مشكلة الثقة والطمأنينة التي ترفعان من مستوى الشجاعة في إبداء الرأي.. ومستوى العدالة في تقبّله..

وهذه عظمة "عمر" في هذا المقام، وهي كعظمته في كل مقام..

عظمته في إدراكه أن الشجاعة هي سر الحرية وجوهرها.. وأن الناس إذا فقدوا شجاعتهم، فقدوا بالتالي كل ما يؤهلهم للسيادة والتقدم، والتطور الصاعد السديد..

وعندئذٍ فالويل لهم، والويل للحاكم معهم..

إن الاثنين معاً ـ الحاكم والشعب ـ بتخليهما عن الشجاعة في إبداء الرأي ونقده، يكونان قد أزمعا الانسحاب من الحياة..!!

* * *

ألا هنيئاً لأمة يقودها هذا القوي الأمين "عمر"..

هذا الرجل الذي يرى من وظيفة الحكم ووظيفة الحاكم في كل زمان.. ألا وهي الحرص على أن تكون كلمتهم هي العليا..

يرى "عمر" من هذا، ويفوق عليه..

وكانت الكلمة العليا عنده للحق أنى يكون

وقد يقضي قضاء، ويبرم أمراً، فيعارضه صاحبه، ويقول للإمام العادل، والخليفة الأمين: ليحكم بيني وبينك آخرون

فلا وربك لا يأثم "عمر" ولا يتأبى، بل يرحب في غبطة، لأنه سيجد عوناً على الحق إن كان محقاً وهدى إلى الصواب إن كان مخطئاً..!

لقي العباس يوماً وقال له:

- لقد سمعت رسول الله ﷺ قبل موته يريد أن يزيد في المسجد، وإن دارك قريبة من المسجد، فأعطنا إياها نزدها فيه، وأقطع لك أوسع منها.

قال العباس: لا أفعل..

قال عمر: إذن أغلبك عليها.

فأجابه العباس: ليس ذلك لك، فاجعل بيني وبينك من يقضي بالحق.

قال أمير المؤمنين من تختار..؟؟

قال العباس: حذيفة بن اليمان.

وبدلاً من أن يستدعي أمير المؤمنين إلى مجلسه "حذيفة" انتقل هو والعباس إليه.

أجل، فحذيفة الآن يمثل سلطة أعلى من سلطة الخليفة نفسه.. إنه سيمضي ويفصل بين الخليفة وواحد من المسلمين.. بين الدولة وفرد من المواطنين.. شيء أشبه - لو استقامت على الطريقة - بمجلس الدولة في عصرنا هذا..

وأمام حذيفة بن اليمان جلس "عمر" والعباس، وقصّا عليه الخلاف الذي بينهما.

قال حذيفة: سمعت أن نبي الله "داود" عليه السلام أراد أن يزيد في بيت المقدس فوجد بيتاً قريباً من المسجد، وكان هذا البيت ليتيم، فطلبه منه، فأبى. فأراد "داود" أن يأخذه قهراً، فأوحى الله إليه: "إن أنزه البيوت عن الظلم لبيتي"، فعدل داود وتركه لصاحبه..

فنظر العباس إلى "عمر" وقال: ألا تزال تريد أن تغلبني على داري؟ قال عمر: لا.

قال العباس: ومع هذا، فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله!!

* * *

أغلب الظن، أن "عمر" لو رأى سهرات اليوم بديمقراطيته وإنسانيته وعظمته، لرمقنا بنظرة ملؤها الدهش والعجب..

فهو لم يكن - في كل روائعه هذه - يحسب أنه يأتي أموراً غير عادية.

وهذا هو جوهر عظمته.. عظمة رجل يدعو بالرحمة لمن يهدي إليه أخطاءه..

لمن يقول له: لا.. يا عمر..!!

ألا حيّا الله أمير المؤمنين.

وتحية طيبة للبشرية التي أنجبته، وللدين الذي ربّاه..!!!

■ ■ ■

لستُ بالخبِّ، ولا الخبُّ يخدعني

في مستوى فطرته، ورجاحته ومسئوليته، كان ذكاؤه وكانت فطنته.

ولقد لخصت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حذقه الفائق فقالت:

"كان والله أحوذيًّا(1)، نسيج وحده، قد أعدّ للأمور أقرانها"

ولقد أفاء الله عليه، بكثير الحذق من الفهم والحكمة.. ﴿يُؤتي الحكمةَ مَن يشاء، ومَن يُؤتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا﴾

وإن عمر أحق بفضل الله وعطائه وخيره، فليس في حياته كلها شيء له.. إنها كلها مكرسة لله، مدفوعة بطاعته وخدمة حقه.

وذكاؤه مسدد للحق لا للباطل.

وهو نابع من مسئوليته، ويعمل وفقها.

وهو ذكاء الفطرة السوية، والتجربة اليقظى، ومن ثم فهو لا يعرف المراوغة، ولا المماراة، إنما يتحرى الحق، وينفذ إلى اللباب المستسر في مثل لمح البصر أو هو أقرب!!

وحظه من فقه الإسلام خاصة، حظ عظيم، جدّ عظيم.

يقول عبد الله بن مسعود:

«كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله»

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم.

والحق أن توقد ذكائه، وخصوبة تجربته، لا يختفيان في أيّ تصرف من تصرفاته، أو كلمة من كلماته.

ولكن لا ترهق "عمر" بسعتها، فهو لا ترهق بعبقريته تلك العبقرية التي لو شاء أن يخوض بها مجالات الذكاء لربحها جميعا، غير أنه لم يُعْطِ نعمة الذكاء كما نرى، إلا لنصر الحق في صفاء هذا الذكاء، ويستحب به أحابيل المكر السيء التي ينشرها أعداء الوضوح وخصوم الحق.

كثيرا ما كان يقول رضي الله عنه:

«لستُ بالخبِّ(2)، ولا الخبُّ يخدعني»

وهي عبارة تصور طبيعة نبوغه وذكائه.

فهو ليس ذكاء "عدوانيا"، ولا ذكاء مراوغة وختل.

ليس ذكاء هجوم، بل ولا ذكاء مقاومة.

إنما هو ذكاء تفوق، ينفجر من شخصية متفوقة، ويعمل في خدمة مبادئ متفوقة.

---

(1) أحوذيًّا: عالما بالأمور، لا يند عليه منها شيء.

(2) الخب: المخادع.

هو إذن ليس ذكاء مُعْترك، بل ذكاء بطولات

وليس ذكاءً مدرسياً، بل ذكاءٌ خلاّقٌ مبدع

وهو أيضاً من آيات هذا العقل الذي يومض ويشع ويبدع بلا أثر.. ثم هو مع هذا صوّال جوّال. يستشرف الغيوب، ويكاد خياله يسبق الوحي، مما جعل رسول الله ﷺ يقول مُشيداً بهذه الفطنة الخارقة:

"إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه".

* * *

يقول للرسول يوماً:

يا رسول الله، أليس هذا مقام إبراهيم أبينا؟

يقول الرسول ﷺ: بلى

فيقول عمر: فلو اتخذتَ منه مصلّى

فما هي إلا أيام حتى ينزل الوحي بالآية الكريمة ﴿واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾

ومثل هذه الواقعة كثير، حيث كانت تنشق من عقله المضيء، وبصيرته الذكية فكرة، أو منية، فيتنزل بها الوحي بعد قليل.

من أجل هذا قال الرسول ﷺ فيه:

«لو كان بعدي مُحَدَّثون، لكان عمر».

ومن أجل هذا جعله الرسول ﷺ مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه:

«إني لا أدري ما مقامي فيكم؛ فاقتدوا باللذين من بعدي، أبي بكر وعمر»

وذكاء "عمر" عظيم وسيع، وفطرته الحصيفة تجلّي كل غامض، وتهدي إلى كل غورٍ بعيد

ورأيه في شيء يسير، كرأيه في أمر خطير.. كلاهما وجيز، وأحكام مستوعبه

وله فقهٌ عظيم بطبائع النفس كفقهه العظيم بأحداث الدنيا وأسرار الحياة!

* * *

كان يقول: «الناس بزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم»

ويقول: «ما من أحد عنده نعمة، إلا وجدت لها حاسداً.. ولو كان المرء أقوم من القدح، لوجدتَ له غامزاً»..!!

حكمة وخبرة، لكنها عظيمة، تركز فيها حكمة "عمر" وعبقريته، وخبرته بعمق الإنسان.

وإنه ليضع الناس في ميزان ذكي قويم فيقول:

«أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم سمتاً، فإذا تكلمتم فأبينكم منطقاً، فإذا اختبرناكم فأحسنكم فعلاً»..

والمظاهر العابرة، لا تكفي عنده لتكوين أحكام عن الآخرين

يسمع واحداً يُطري آخر ويمدحه قائلاً: إنه رجلُ صدق

فيسأله عمر: هل سافرت معه يوماً؟
يقول الرجل: لا
- هل كانت بينكما خصومة يوماً..؟
- لا..
- هل ائتمنته يوماً على شيء..؟
- لا..
فيقول عمر: "إذن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه في المسجد ويخفضه"..!!

هذا إمام من أئمة التقى والورع والهدى، ثم لا يرى رفع الرأس وخفضه في المسجد كافياً للثقة بمن يفعل هذا.. لا تهويناً لشأن العبادة، ولكن إحاطة بأسرار النفس الإنسانية وحسن فهم لتياراتها الخفية.

إن ذكاء "عمر" لا يأتي الأمور من بعض زواياها، إنما يكتشفها جميعاً، ويستوعبها حتى آخر نماذجها واحتمالاتها..

فهو في معرفته بالناس لا يكتفي بتمحيص جانب العبادة فيهم، على الرغم من علو مكانة العبادة، للعابدين عند "عمر"، إنما يطل على الشخصية كلها، لأن العبادة أيضاً في مفهومها السديد عند "عمر" تعني سمو الشخصية الإنسانية وكمالها.

من أجل هذا، كان يشكو كثيراً من سذاجة التقي، ومقدرة غير التقي

ولم يكن يرى السذاجة والغفلة من خصائص العبادة والتقوى، بل التقوى عنده قوة وطهر، وسعة حيلة، وتفوّق..

والخير لديه ليست غفلة صالحة، بل هي تجربة ناجحة، وفراسة.. تحدث الناس عنده يوماً عن رجل وذكروه بخير فقالوا: إنه لا يعرف الشر أبداً..

فقال "عمر": ذلك أجدر أن يقع فيه..

ليس معنى هذا طبعاً أن ارتكاب الشر ضروري لمعرفته، إنما معناه أن يكون الإنسان بصيراً بالشرور، حتى لا تغرره متنكرة في ثياب الخير

ويدرك "عمر" كذلك بفطنته المتألقة أن الفضيلة ليست انسحاباً من الحياة حذرَ الفتنة، بل هي مجابهة الحياة ومُغالبة الفتنة.

وفي هذا يُسأل: أيهم أزكى وأفضل - رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهي الإثم، أم رجل تشتهي نفسه الإثم ولا يأثم

فيجيب "عمر" الحصيف الألمعي: "الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم"..!!

* * *

ونراه حيث أبعد هذا الذكاء وهذا الفقه، حين يواجه مشاكل الحياة والناس

تُعرض عليه قضية يُفتي فيها، وبعد حين تعرض عليه قضية مماثلة لتلك، فيفتي فيها فتوى مغايرة.. فإذا سئل عن سر هذا التفاوت قال: ذلك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي

إن ظروف القضيتين مختلفة ، وإن تماثلت الوقائع .

وعمر الفقيه العبقري ، لا يحمل داخل عقله فتاوى كالقوالب الجامدة ، إنما يحمل فهماً يتحرك في كل الجهات ، ويدرك ما لتباين الظروف وتغاير الأسباب من تأثير في الحادثة ، وتأثير في الحكم ..

ولا شيء يفوق ذكاء عمر ، سوى جرأة هذا الذكاء !

فهذا هو الذي كان يتحرى التزام النص ، ومتابعة الرسول عليه السلام ، يعطل بهذا حكم شرعي ، مات الرسول ﷺ وهو نافذ دائم ، ومات أبو بكر وهو نافذ دائم ، ولا يزال منطوق هذا الحكم آية تُتلى في كتاب الله !!

هذا الحكم ، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلفة قلوبهم

والمؤلفة قلوبهم جماعة دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف ، أو بغير اقتناع ، ففرض القرآن لهم في بيت المال حظاً يأخذونه من الزكاة تألفاً لهم ، حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان ، فيقبلوا عليه راغبين مؤمنين

قلّب عمر وجوه الرأي في هذا الشأن ثم قال

« لقد كان رسول الله يعطيهم والإسلام يومئذٍ ضعيف ، أما اليوم فقد أعزّ الله دينه وأعلى كلمته ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولن يسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً »

إن هذا الموقف وحده يرتفع إلى أعلى مستويات الذكاء الإنساني ليس لما يتضمن من حس ابتعلي ، بل لما يتضمن من شجاعة التفكير فكثيرون يستطيعون أن يدركوا ما أدرك عمر من حكمة التشريع في مثل هذه الواقعة ، لكنّ عمر وحده هو الذي يستطيع ذكاؤه الحاسم أن يطوّر هذا التشريع ، ولا سيما إذا كان مقرراً بآية قرآنية لم تنسخ ، وعمل للرسول لم ينقض

الحق أن أعمق رؤى البصيرة ، وأعمق أسرار التشريعة ، قد التقت لقاءً سعيداً في وعي هذا الرجل الراشد الأمين .. !

ولقد أشاد الرسول بهذه النعمة التي أفاءها الله على عمر ، فيروي البخاري ومسلم رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال

- « بينما أنا نائم ، إذ رأيت قدحاً أُوتيتُ به فيه لبن ، فشربت منه حتى إني لأرى الري يجري في أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب قال أصحاب الرسول ، فما أوّلته يا رسول الله ؟ قال - العلم » .

* * *

تُجاء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحد ، ويشهد ثلاثة شهادة تدينه ، ولم يبق إلا شهادة الرابع ، ثم يصير الحد عقاباً محتوماً .

ويرنو عمر يستدعي الشاهد ولا يكاد يراه مقبلاً حتى يأخذه رهبة وحين يقترب منه ، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول ، أرى رجلاً أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين

ويتقدم الشاهد ، ويقول ، لم أرَ شيئاً يوجب الحد ..

ويتنفس "عمر" الصُّعَداء . !!

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم عن أنه يحمل إليه شرّاً ، فيقول : يا أمير المؤمنين ، إن فلاناً وفلانة يعتنقان وراء النخل ، فيمسك "عمر" بتلابيبه ، ويعلوه بمخفقته ، ويقول له بعد أن يُوسعه ضرباً : « هلا سترت عليه ، ورجوتَ له التوبة ، فإن رسول الله ﷺ قال : من ستر على أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة » !! .

هذا رجل معه من الورع ما يستهجن به الخطأ الأخلاقي ، ولكن معه من الفطنة ما تُقدّر به ظروف هذا الخطأ ، ومعه من الفقه ما يؤدي به حق الورع وحق الفطنة معاً !!

وإنه ليوصي الناس بهذا الفقه العظيم فيقول :

- « هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زلّ زلّةً فسددوه ووفّقوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا عوناً عليه للشيطان »

إن أمير المؤمنين شديد الوطأة ، شديد البأس ، لكن فهمه السديد يضيء كل مواقفه ، وهو يقضي بذكائه لا بعواطفه .. صحيح أنه ينفر من الإثم ، لكنه يمحّص ظروف اجتراحه تمحيص خبير ، ويضع القاعدة الفقهية التي تقول :

" لأنْ أُعطّل الحدود في الشُّبهات ، خيرٌ من أن أقيمها في الشبهات " !

يأتيه يوماً رجل يستفتيه قائلاً :

- إن ابنتي كانت قد أصابت حداً من حدود الله ، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها ، فداويناها حتى برئت ، ثم تابت بعدُ توبة حسنة ، وهي اليوم تُخطب إلى قوم ، أفأخبرهم بالذي كان . ؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكي ، والذكاء الورع :

- « أتَعمد إلى ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار .. اذهب وأنكحها نكاح العفيفة المسلمة » !!

* * *

وأمير المؤمنين لا تكون أحكامه جزئية مبتسرة ، بل تجيء أحكامه دائماً شاملة موسّعة ولا يصرف بصيرته عن الواقع ، بل يركّز عليه ، ويحتفي به ، ويجعله من مصادر فكره الرشيد

* في حديث ليلي ، وقد خرج يعسّ في المدينة ، يتقصّى الليل عن الكروب المخبوءة ، سمع سيدة تشكو بثّها وحزنها وتقول :

تطاول هذا الليل ، واسودّ جانبه ... وليس إلى جنبي خليل ألاعبه
فوالله لولا الله لا رب غيره ... لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي ، والحياء يصدني ... وأكرم بعلي أن تُنال ركائبه

ثم قالت : أهكذا يهون على "عمر" وحشتي ، وغيبة زوجي عني .. ؟

ويتبين "عمر" أن زوجها مجنّد في أحد جيوشه

وعند الصباح يذهب إلى ابنته حفصة ويسألها :

- يا حفصة، كم تصبر المرأة عن زوجها ؟

فتجيبه: تصبر شهراً، وشهرين، وثلاثة، وينفد مع الشهر الرابع صبرها

فيسن من فوره قانوناً ألا تغيب في الجهاد جندي متزوج أكثر من أربعة أشهر

ويرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره !!

* ويسمع شيخاً كبيراً يبكي في شعر جزل وحدة الوحشة، الذي طالت غيابه عنه. ويسأل عمر فيعلم أنه هو الآخر في أحد جيوش المسلمين، فيستدعيه فوراً، ثم يسن قانوناً ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما. !!

ذكاء يعمر على الطبيعة، ويستمد من واقع الناس ولحمه مادة تفكيره.

* ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة.

وهذا حق، لكن أمير المؤمنين عمر يقضي بأنه ليس كذلك دائماً، ولابد لكي يؤخذ الاعتراف كذلك من ألا تعزل عن الظروف التي تكتنفه وتحيط به، فربما يجيء نتيجة خوف أو إكراه، وعندئذ يفقد قيمته

يقول عمر

- «ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته، أو أخفته أو حبسته أن يقر على نفسه» !!

* وهو يأمر قواد جيوشه ألا ينزلوا بجندي عقاباً حتى يطلعوا من الدرب قافلين !!

إذا ارتكب جندي خطأ ما، فليحقق الواقعة، وليحدد المسئولية، ولكن توقيع الجزاء والعقوبة يظل مرجأ حتى يغادر الجندي بلاد الأعداء، ويعود إلى وطنه

وعمر أمير المؤمنين قرر هذا لأنه يخوف من أن يلحق الجندي بالأعداء، ويأوي إلى صفوفهم إذا أنزل به العقاب هناك. !

إن ذكاءه التشريعي يتجلى في هذه الوقائع السيرة التي ذكرناها تجلياً يكشف عن روح الفهم النافذ، والاستعداد العظيم عند ذلك الرجل الملهم الرشيد

* وإنه ليجاء إليه يوماً بغلمان صغار السن، سرقوا ناقة رجل من مزينة.. ؟ فلا يكاد يراهم صفر الوجوه، ضامري الأجسام حتى يسأل من سيد هؤلاء ؟

قالوا: حاطب بن أبي بلتعة

قال: إليّ به.

فلما جاء حاطب سأله: أنت سيد هؤلاء ؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين

قال عمر: لقد كدت أنزل بهم العقاب، لولا ما أعلمه من أنكم تدلجونهم، وتجيعونهم

- لقد جاعوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلا بك.. !!

ثم سأل صاحب الناقة

- يا مزني، كم تساوي ناقتك.. ؟؟

قال: أربعمائة

قال عمر لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة.

ثم قال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها.. !!

* * *

وحين نتبع أفكار "عمر" في كلماته التي يصوغها في أحسن تقويم، نرى الحزم، والوضوح، والمعاني الكبيرة، والأهداف النبيلة، ونلقى لذةً سعيدًا في كل كلمة تخرج عنه شفتاه..

حين ولي الخلافة وقف يقول لقومه:

- « إن عمر الذي وليت من خلافتكم شيئًا من خلقي. إن العظمة لله وحده، وليس للعباد منها شيء » .. !!

ويحدثهم عن المال فيقول:

- « ألا إني ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث: أن يؤخذ من حق، ويُعطى في حقّ، ويُمنع من باطل.. ألا وإنما أنا في مالكم هذا كولي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف ».

ويقول في كلمات وضاء عذاب:

« من أراد أن يسأل عن القرآن، فليأت أُبيَّ بن كعب.. ومن أراد أن يسأل عن الفرائض، فليأت زيد بن ثابت.. ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت معاذ بن جبل.. ومن أراد أن يسأل عن المال، فليأتني.. فإن الله جعلني له خازنًا وقاسمًا..

إني بادئ بأزواج رسول الله ﷺ فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم.. ثم الأنصار الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة، أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلومنَّ رجل إلا مُناخ راحلته » .. !!

ويقول في توزيع الثروة:

- « إني حريص على ألا أدَع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجزنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف » .. !!

* * *

وحين نستعرض كتبه لقواده وولاته نرى كيف كان ذكاؤه يبلغ غايته الرُّشد في كل شأن من الشئون..

يكتب لأبي موسى الأشعري موضحًا له منهج القضاء الذي ينبغي أن ينتهجه فيقول:

« من عبد الله أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس.. سلام عليك.

أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، وأنفذ إذا تبيَّن لك؛ فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له.

آس بين الناس في مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيْفك، ولا ييأس ضعيف من عَدلك.

البيّنة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر ..

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً ، أو حرّم حلالاً .

ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، راجعتَ فيه نفسك وهُديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحقّ . فإن الحقّ قديم ، لا يبطله شيء ، ومراجعة الحقّ خير لك من التمادي في الباطل

الفهمَ الفهمَ ، فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثم قِس الأمور عند ذلك ، واعمَد إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحقّ فيما ترى .. واجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أو بيّنة ، أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر .

والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حدّ ، أو مجرّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولّى منكم السرائر ، ودرأ عنكم الشبهات ..

وإياك والقلق ، والضجر ، والتأذّي بالناس ، والتنكر للخصوم في مواطن الحقّ التي يوجب الله بها الأجر ، ويُحسن بها الذُخر ، فإنه من تُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيّن للناس فيما يعلم الله خلافه منه ، شانه الله ، وهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ؟ والسلام» . !!!

ويدخل عليه وفد من المجاهدين كانوا يفتحون تكريت وجلولاء ، فيرى جسومهم ضامرة ، ووجوههم شاحبة ، فيسألهم عن سبب ضعفهم ، فيجيبونه بأنها وخُومة البلاد ورطوبتها ..

فيكتب لسعد يأمره أن يحسن اختيار مكان يلائم الناس ، ويرسم له الطريق فيقول :

«ابعث سلمان رائداً ، وحذيفة ، فليرتادا منزلاً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر ، وادعُ أبا الهياج بن مالك ، وأمره أن يجعلها مَناهجَ ـ يعني شوارع ـ عرض كل منها أربعون ذراعاً .. وأخرى عرض كل منها ثلاثون ذراعاً .. وأخرى عرض كل منها عشرون ذراعاً ، لا تضيق عن ذلك شيئاً . وأمره أن يجعل فيها أزقّة ، الزقاق سبعة أذرع ، لا يضيق عنه شيئاً» !

ويكتب لسعد أيضاً بعض توجيهاته العسكرية فيقول :

"ترفّق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل رفق ، حتى يبلغوا عدوّهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ... وأقم بمَنْ معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يُجمّون فيها أنفسهم ، ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم .

ثم يقول :

وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم ، حتى لا يخفى عليك أمرهم ، واختَرْ لهذا مَنْ تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صَدَق في بعضه ، والغاشّ عين عليك وليس عيناً لك ..

وإذا دنوت من أرض العدو ، فأكثر الطلائع ، وبثّ السرايا ... أما السرايا فتقطع إمدادهم ومرافقهم ... وأما الطلائع ، فتبلو أخبارهم ، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخيّر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر

لست بآيس أهل الجهد والصبر على الجلاد ، ولا تخص أحداً بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما تحابي به من خاصتك ، ولا تعف جيشك ولا تسر به في وجه تتخوف فيه ضيعته ونكبته ، فإذا عاينت العدو ، فاصمم ... فإذا أصبت وظفرت فسر بك » !!

ويكتب إليه أيضاً

« بلغني أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب فلم يكن لها همٌّ إلا السِّمن ، وإنما حتفها في السِّمن !! واعلم أن للعامل مرداً إلى الله ، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته » !!

في هذه الرسائل ذلك عمر برأيه في مشاكل شتى .. في القضاء ، وفي الإمارة ، وفي الجهاد ، وفي أمانة الحكم .

وفيها - وبين سطورها - نتأمل بديهته ، ونبوغه .

* * *

وحتى حين كان يعبر عن أفكاره في تبسطٍ ودعابة ، كانت الحكمة الذكية تملأ الكلمات والحروف .

ويمر يوماً بدار جديدة في أطراف المدينة ، فيسأل : دار من هذه ؟

فيقولون : دار فلان .. وفلان هذا واحد من ولاة عمر ..

فيقول : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها !!

ويحضر يوماً نائحة تستجيش أحزان الناس ، وتمسح دموعهم الكواذب ، فيعلوهن بمخفقته ويطردهن ويقول : « إنهن لا يبكين بشجوكم ، إنما يبكين بدراهمكم !! »

ويسأل أحد أولاد « هرم بن سنان » الذي خلده بشعره ، زهير بن أبي سلمى فيقول له : أنشدني بعض مدح زهير أباك . فينشده ..

فيقول عمر : إن كان ليحسن فيكم القول

فيجيبه الرجل : ونحن والله ، إن كنا لنحسن له العطاء ..

فيقول عمر : قد ذهب ما أعطيتموه .. وبقي ما أعطاكم .. !!

ذكاء ثاقب ، يعبّر عن نفسه بكلمات ثاقبة !!

* * *

وبعد ، فالذكاء البشري يقترن غالباً بالطموح الشديد ، والسعي اللاهث وراء المزيد من أمجاد الدنيا والعُلُو فيها .. وهنا تلتقي بأبهى خصائص ذكاء ابن الخطاب ..

لقد كان ذكاءً زاهداً ، لا يعمل في خدمة صاحبه ، وإنما يعمل لله ، ومع الله ، في سبيل الحقّ ، والخير ، والرحمة .. !!

أجل ، كان ذكاء رجل أوتي من الله عطاءه ، وإلى الله مردّه ، وفي سبيل الله نشاطه ، وتوقّده ، ورؤاه .. !

■ ■ ■

بَشِّر صاحبك بغلام

إذا اجتمعت هذه الفطرة السوية القوية، وهذا الإيمان الوثيق بالله، وهذه الأمانة الكاملة في تحمل مسؤوليات الوجود والحياة، مع ذكاء متقد رحب.. فماذا بقي من المكرمات والعظائم، حتى يكون الكمال الإنساني قد تجسد بشراً، ونهض على ساقين؟

هذا العدل، وهذا الورع، وهذا التفاني في [illegible]، وهذه الاستقامة على صراط الحق، والفطنة التي لا يخدعها خب.

تلك الخصائص المثلى لم يأخذ "عمر" منها حظاً محدود الحظ، بل بلغ نهاياتها، وتفوق على مستوياتها القياسية جميعاً.

حتى إن الكمال الإنساني حين أراد أن يحقق وجوده المادي المحسوس، ويتجسد في نماذج نادرة وباهرة من البشر، كان أحد هذه النماذج العليا، هو "عمر بن الخطاب".

رجل كما رأينا، عظيم تتمنى العظمة نفسها أن تكون إحدى صفاته وسماته!!

على أن الصورة التي تملأنا بها عن هذه الصفحات لم تستكمل بعد ملامحها.. فلا يزال هناك ملمح باهر مشرق أخاذ.

صحيح أنه ماثل في كل الملامح السالفة، ولكنه بنسبته الرائعة - نحن الذين نقسم الموضوع لحسن فهمه ولطول الاستشراف هذه العظمة السامقة رويداً - لا نزال نرى أمامنا هذا الملمح المطل، يجذبنا ويدعونا.

فالرجل الذي ورثه الله ملك كسرى وقيصر، والرجل الذي كان أصحابه يرقبون ابتسامته برهف الأهبة من طول كظمه شفته خوفاً من الله، ووقاراً له، وفرقاً من مسئولية أن يزل فيها، أو يتوه بها..

الرجل الذي خلق ليقود عالماً، والذي رزق طبيعة تقبل الراحة، وتعرف العمل بالعمل

هذا الرجل الشاهق، الهادر، الجياش، كيف كان يبهج حنانه تحت وطأة مسؤولياته، وأعبائه، وجيشان فطرته وطاقاته؟

هل عقدت خصائصه هذه، أم زادته وضوحاً..؟

هل اضطرته إلى الانطواء والترفع، أم مكنته من المحاورة وسماحة التفتح؟

هنالك قدر من التحفظ والصلف، تحمي به الزعامة المتحضرة نفسها، وتصون به هيبتها.

فهل أخذ "عمر" حظه المألوف من هذا.. أم كان عنده بديل عن دعم زعامته، وعظمته، وهيبته؟؟

أجل، كان هناك بديل يليق "بعمر"، ولا يقدر عليه إلا واحد من طراز "عمر"

كان هناك ابتسامته!

ولكنك تظلم البساطة عند "عمر" إذ فتنا بها كسب بدلاً لشيء آخر
فليس في أخلاق "عمر" ولا في خصائصه ما هو بديل .. إنما هي جميعاً ذوات أصالة مطلقة، و "عمر" نفسه، هو وطنها وجوهرها..
أجل، إن الشجاعة، وإن العدل، وإن الورع، والاستقامة، كلها أخلاق إنسانية يحمل أمانتها بنو الإنسان، ويوجد بنسب متفاوتة مع الناس جميعاً.. لكن شجاعة "عمر"، وعدله، وورعه، واستقامته، شيء نابع من "عمر"، ومختص به.. وما كان سيوجد قط، لو لم يوجد "عمر"..
لقد أدت خصائص "عمر" بمعونة دورها العريد الفذ، الذي جعلها متميزة كأنها من جوهر آخر فريد.. هو "عمر" نفسه.
وهذه عظمة الرجل.. إنه لم يأخذ من الفضيلة سماتها وطابعها، بل هو الذي منح الفضيلة طابعه وسيماه..!!
من أجل هذا ازدهرت الفضائل في نفسه وسلوكه، وازدهرت شخصيته.
واكتملت لديه الفضائل جميعها، واتحدت في كل واحد، هو "عمر"..
وإذا كنا نجزئها ونقول: عدل "عمر"، ورع "عمر"، أمانة "عمر"، فطنة "عمر"، قوة "عمر".. فإنما نفعل هذا لنعلم أنفسنا..
أجل: إننا نقسم طريقنا لنقدر على سلوكه، ونقسم المادة التي بين أيدينا لنتمكن من تحصيلها..
أما فضائل أمير المؤمنين، فلا تتجزأ في مجال العمل، كما لا تتجزأ في ميزان التقييم. ذلك لأنها ليست أوسمة منوطة بصاحبها.. بل هي صاحبها نفسه، وهي الرجل الذي تنبع منه وتنتمي إليه.. هي: "عمر"..!!

* * *

ورجل هذا شأنه، رجل مترع بالعظمة وبالتفوق إلى هذا الحد، لا يمكن أن يشتهي به التمييز، ولا يمكن أن يجد راحة نفسه وغبطتها إلا في البساطة المطلقة، وفي الحياة "بين" الناس لا "فوق" الناس.
فهو يجلس حيث انتهى به المجلس.. ليس له مكان صدارة يختص به نفسه. وهو ينام حيث يدركه النوم، فوق الحصير في داره، أو فوق الرمل تحت ظل النخيل..!! وهو يأكل ما يجد، وما يقيم الأود لا غير.. شريحة من اللحم المقدد، أو شريحة من الخبز مبللة بالزيت، متبلة بالملح..!!
وهو سعيد، حين يسمع امرأة، أو غلاماً يناديه.. يا عمر..
وهو في سعادة لو علمها ملوك الأرض لحسدوه عليها، حين يرى عجوزاً تحمل مكتلاً يؤودها حمله، فيتقدم منها ويحمله عنها بعض الطريق، ويضحك ملء نفسه، وهو يسمعها تقول له شاكرة

أثابك الله الخير يا بني .. إنك لأحَقُّ بالخلافة من عمر .. !!

* * *

ذات ليلة خرج في جولة من جولاته التي كان يخرج فيها وحده ، والناس نيام ليطمئن على قومه ، ويَبْلُوَ أحوالهم ، ويمضي يلبي عن حاجاتهم .. !

وعند مشارف المدينة رأى كوخاً ، ينبعث منه أنين امرأة ، فاقترب يسعى ، ورأى رجلاً يجلس بباب الكوخ ، وعلم منه أنه زوج السيدة التي تئن ، وعلم أنها تعاني كَرْب المخاض ، وليس معها أحد يعينها ، لأن الرجل وزوجه من البادية وقد حطّ رحالهما هنا وحيدين ، غريبين .

ورجع "عمر" إلى بيته مسرعاً ، وقال لزوجه "أم كلثوم" بنت الإمام عليٍّ ..

- هل لك في مَثُوبة ساقها الله إليكِ .. ؟؟

- قالت : خيراً .. ؟

قال : امرأة غريبة تَمْخَض ، وليس معها أحد .

قالت : نعم ، إن شئت

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاج إليه الوالدة من دقيق وسمن ، وخرق ثياب يُلَفُّ فيها الوليد

وحمل أمير المؤمنين القدر على كتف ، والدقيق على كتف ، وقال لزوجه : اتبعيني

ويأتيان الكوخ ، وتدخله "أم كلثوم" زوج أمير المؤمنين ، لتساعد المرأة في مخاضها .

أما أمير المؤمنين ، فجلس خارج الكوخ وينصب الأثافِيَّ ويضع فوقها القدر ، ويوقد تحتها النار ، وينضج للوالدة طعاماً ، والزوج يرمقه شاكراً .. ولعله كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربي الطيب أولى بالخلافة من "عمر" !!

وفجأة صدح في الكوخ صراخ الوليد .. لقد وضعته أمه بسلام ، وإذا صوت "أم كلثوم" ينطلق من داخل الكوخ عالياً :

- يا أمير المؤمنين ، بَشِّر صاحبك بغلام .. !!

ويَشْهَق الأعرابي من الدهش ، ويتأخر بعيداً عن مجلسه ، ويحاول أن ينطق الكلمتين - أمير المؤمنين - لكنَّ شفتيه لا تقويان على الحركة من فرط ما أدركته المفاجأة من سعادة ، وطرافة ، وذهول .. !!

ويلحظ "عمر" كل هذا ، فيشير للرجل - أن ابق مكانك ، لا تَرُعْ .. ويحمل أمير المؤمنين القدر ، ويقترب من باب الكوخ منادياً زوجته :

- خذي القدر يا أم كلثوم ، وأطعمي الأم وأشبعيها

وتطعمها "أم كلثوم" حتى شبعت ، وتردُّ القدر إلى "عمر" بما بقي من طعام ، فيضعه "عمر" بين يدَي الأعرابي ، ويقول له

ـ كل واشبع ، فأنت قد سهرت طويلاً ، وعانيت كثيراً ... ثم ينصرف هو وزوجته ، بعد أن يقول للرجل :

ـ « إذا كان صباح الغد فائتني بالمدينة ، لآمر لك من بيت المال بما يصلحك ، ولنفرض لوليدك حقه » !!

رضي الله عن عمر ، وإنه لحق ، ما قاله الرسول ﷺ عنه : « لم أر عبقرياً يفري فريّه » ، فهو بألمعيته وبصيرته ، قد عرف حقيقة السلطة ، وحقيقة العظمة في دنيا هذه ، فأخذ منهما بالمكيال الأوفى

لا وربِّ "عمر" ، إن مشهداً واحداً كهذا الذي أراه لخير مما طلعت عليه الشمس وغربت ـ من عُروش وتيجان ، وزُخرف وصَخَب . !!

أيّ تواضع ، وأيّ بساطة ، وأيّ حنان ومودة تنساب من نفس هذا الإنسان الذي رفع الله به من قَدْر الحياة .. ؟!

أين مظاهر السلطان ، حتى المشروع والضروري منه .. ؟

لكنَّ "عمر" لم يكن رجل سلطان ، لأنه فوق السلطان .. وهو لا يستعير عظمته من شيء خارج نفسه .. إنما يَهِبُ العظمة لكل ما يقترب منه ويتصل به .

وهو لا يتكلف البساطة ، بل يعيشها .. ويوطِّئ أكنافه في عطفه للكبير والصغير .. !!

يمر يوماً في المدينة بغلمان يلتقطون البلح من أقنية النخل ، فلا يكاد الغلمان يبصرونه حتى يتفرقوا ، ويذهبوا بعيداً ، غير غلام واحد ظل في مكانه لا يريم

ويقترب منه "عمر" فيبادره الغلام القول :

ـ « يا أمير المؤمنين ، إن هذا البلح مما ألقته الريح » .. !!

فيقول له عمر : « أرني أنظرْ إليه ، فإن ما تلقيه الريح لا يخفى عليّ » وينظر البلح ويفحصه ثم يقول للغلام : صدقت

وتتهلل أسارير الطفل ، ويقول لأمير المؤمنين في براءة :

ـ « أترى هؤلاء الغلمان الذين هناك ؟؟ إنهم ينتظرون أن أذهب وحدي فيغيروا عليّ ويأخذوا ما معي » ..

ويصحبه عمر .. ويربّت كتفه ، ويقول للغلام : سِرْ معي ، وسنُعقب ما أمسك .. ويأخذ بيده ، ويسير إلى جانبه حتى يشارف داره .. !!!

* * *

أكانت بساطته تنبع من مسئولياته ، أم تنبعث كل خصائصه المتفوقة من عظمة نفسه .. ؟؟

ألا من شاء أن يرى ما يَسُرُّ الأعين ، ويجعل الأفئدة في عيد ..

ألا من شاء أن يرى العظمة الإنسانية في أوج صدقها وبهائها

فليبصر ذلك الإنسان الفارع الطول، الأصلع الرأس، المنفرج القدمين، اللابس بردة بها إحدى وعشرون رقعة، الحامل في يسراه دواة، وفي يمناه قرطاساً وقلماً، يقرع أبواب الدور، ويطلب إلى نساء المؤمنين اللواتي غاب أزواجهن في الثغور وفي ميادين الجهاد أن يجلسن وراء الأبواب، ويملين عليه رسائلهن إلى الأزواج، فإن البريد على وشك أن يرحل ويسافر..!!

أو فليبصر ذلك الإنسان نفسه، أمير المؤمنين "عمر"، والظافر بالدنيا عريضة ـ دنيا الروم وفارس ـ يقرع الأبواب نفسها، وينادي الزوجات اللائي غاب أزواجهن:

- اذكرن لي حاجاتكن، ومن كانت لها في السوق حاجة، فلتذكرها لي، ولترسل معي خادمها إن كان لها خادم، فإني أخاف أن تخدعن في البيع والشراء!

ثم يمضي إلى السوق ووراءه سرب طويل من الخدم، فيشتري بنفسه، ويضع الحاجات في السلال بيده..!!

أصحيح أن هذا الرجل عاش على ظهر الأرض يوماً، وكان أميراً للمؤمنين، وكان يحيا بهذه البساطة، ويعدل هذا العدل، ويخشع ذلك الإخبات؟؟!!

أصحيح أن رجلاً، اسمه "عمر"، كان للمسلمين خليفة وإماماً، وفتح الله به فتحاً مبيناً، هذه مواريث الأرض، وتدحرج عند قدميه طغاتها، وجرت بين يديه كالأنهار الأموال والكنوز، يزوره وفد العراق يوماً ومعه الأحنف بن قيس، فيلقونه والحر شديد، والصيف قائظ، منهمكاً في تطبيب بعير من إبل الصدقة، يطليه بالقطران ـ ثم لا يكاد يرى ضيوفه، وفيهم الأحنف حتى يناديه.

" ضع ثيابك يا أحنف وهلمّ فأعنْ أمير المؤمنين على هذا البعير، فإنه من إبل الصدقة، وفيه حقٌّ للأرملة، والمسكين، واليتيم » ..

فيقول له رجل من الوفد، وقد أذهلته المفاجأة:

« يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، مُرْ عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا »

فيجيبه عمر: « وأيُّ عبدٍ أعبد مني ومن الأحنف؟ » ثم يستأنف تطبيبه للبعير !!!!

أصحيح هذا؟؟

من حسن حظ البشرية أنه صحيح، وأن بها من "عمر" مثلاً لا ينضب من العظمة والأمل.

من حسن حظ البشرية، أن "عمر" واحد منها، نتعلم به أننا نطوي على إمكانات الكمال الذي نصبو إليه ونريده، وأنه ليس علينا إلا أن نجلو مواهبنا، ونصقل مرآتنا ومزايانا، فإذا هي تخرج الخبء، وتعطي الثمر، وتصنع العظمة والكمال!

* * *

إن بساطة عمر تكشف الحماقة الكبرى التي يخوض فيها كل مَنْ يأخذه الزهو والصَّلف بمنصب يناله، أو نصر يسعه، أو ثروة يجمعها. فما الصلف والتكلف إلا عبء ثقيل يحمله المخدوعون به، ويصطلون بعذابه وهم لا يشعرون.

أمّا البساطة الصادقة التي عاشها "عمر"، فتلك هي السعادة حقاً. السعادة التي تتمثل فيها رجوع النفس إلى جوهرها، وتفوّقها على كل خلابة وغرور

سبحانه، ربُّ عمر.. !!!

لقد ألهمه رشده، ووقاه شرَّ نفسه، ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحده، لا في بلده وحدَه، ولا في عصره وحده، بل عبر كل مكان، وعَبر الزمان، جميع الزمان.. !!

حينما نلقاه، نلقى بطولة روحه، تمشي بساطته وإخلاصه وصدقه، حتى ليتركك في حيرة، كيف توفر لهذا الرجل، كل هذا القدر من الدَّعة، والأمانة، والبساطة، وهو الذي زادت أعداد جند في جيوشه على مئات الألوف، وأصبحت الأموال تتكدَّس بين يديه في أفناء المدينة أكواماً وتلالاً، وأحدث الوفود من أرجاء الأرض القريبة والبعيدة، تسعى إليه ملبيةً للأمن، وأحاطت به قلوب الشعوب التي حررها من ظلم الروم، وغطرسة الفرس وأحاطت به في هُيام وحب وحنو يسلُب الحليمَ لبَّه !!

كل قوى الإغراء بالزهو، والحضّ على الاستعلاء. ثم لا نجد أثارة ـ أدنى أثارة ـ من زهو أو استعلاء. بل على العكس نجد قِمماً تزْحَم الأفق.. قمة الزهد، وقمة العدل، وقمة الورع، وقمة البساطة والتواضع.. فأي مجد يعلي الرجل بعدها بعصائب نفسه، وبطولة روحه، واستقامة نهجه.. ؟؟

انظروا...

ها هو ذا يقترب من مشارف الشام، وقد خرج أهلها لاستقباله، فيلقاهم رجل قد امتطى جملاً، يجلس فوق وطاء من صوف خشن، وقد دلّى رجليه من شعبتي رَحله، فلا وجف، ولا ركاب، يلبس قميصاً من قطن، كثير الثقوب، كثير الرقاع !!!

ويقبل الناس على الرجل يسألونه: أين أمير المؤمنين.. ؟؟

ـ ألم تلقَ موكبه في الطريق ؟؟

فيجيبهم الرجل بأنّ "أمير المؤمنين أمامكم" فيُغِذّون السير إلى الأمام. حتى ينبئهم الخبر من ورائهم بعد حين.. أن أمير المؤمنين قد وصل "أيلة" ونزل بها. فيعودون مهرولين.. ..

ويدخلون على أمير المؤمنين حيث كان يجلس مع الناس، وتكاد تصعقهم المفاجأة، فما أمير المؤمنين إلا الرجل الذي لقيهم يمتطي جملاً، والذي سألوه عن أمير المؤمنين، فقال إنه أمامكم.. !!

ويؤتى له ببرذون فطهم عليه سرج جميل ، ورحل أنيق ، فيرفض ركوبه ويقول : نحّوا عني هذا الشيطان .. !!

فإذا قيل له : إن هذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، يركب البرذون ، ولكن بعد أن يجرّده من كل حلْيه وزخرف ، وبعد أن ينحّي عن ظهره السرج الأنيق ، والرحل المزركش ، ويضع مكانهما ، الكساء من الصوف الذي كان يتخذه وطاء له إذا ركب ، ووسادة ينام عليها إذا نزل .. !!

وفي رحلته الأولى إلى بلاد الشام يلقاه على أبواب مدينة حمص قوّاد جيشه وأمراؤه ، ممتطين صهوات الخيل ، وقد تمنطقوا بحلل من الديباج

فلا يكاد "عمر" يرى المشهد ، حتى ينزل من فوق دابته سريعاً ، يده على الأرض تأخذ من طوبها وحصاها ، ويرى الأمراء والقواد ثم يقبل عليهم قائلاً :

« سرعان ما فتنتم ؟ في هذا الزي تستقبلون عمر ؟ سرعان ما بدأت بكم البطنة والترف ، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من غامين » .. !!

هذا الرجل لم تكن البساطة ، والتواضع ، هواية له . بل كانت ديناً ، وفطرة ، وأمانة .

إنه يلتقي ليلة بسيدة تسير وحدها في المدينة ، حاملة قربة كبيرة ، فيقترب منها ويسألها عن أمرها ، فيعلم أنها ذات عيال ، وليس لها خادم ، وأنها تنتظر حين يرخي الليل أستاره ، فتخرج لتملأ قربتها ماء . فيأخذ منها القربة ويحملها عنها ، وهي لا تعرف من هو .. ؟ حتى إذا بلغ دارها ، قال وهو يناولها قربة الماء

... إذا أصبح صباح غد فاقصدي عمر ، يرتب لك خادماً ، قالت . إن عمر كثير شغله ، وأين أجده .. ؟

قال : اغدي عليه ، وستجدينه إن شاء الله تعالى ..

وتعمل المرأة بمشورة الرجل الطيب ، لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر ، وتقف بين يديه حتى تصبح مبهورة : أنت هو إذن ... ؟!

ويصمت أمير المؤمنين ، ثم يأمر لها بخادم ونفقة

* * *

لا ريب أن أمير المؤمنين لو خُيّر بين هذه البساطة الصادقة ، وكل ما في الدنيا من زينة وزخرف ، لما آثر على نعمة التواضع والبساطة شيئاً .

وإن الرجل الذي عاش حياته متفوقاً ، وكانت أيامه فوق الأرض موكباً مستمراً من الانتصارات والسعادة .. منذ كان فتى يصارع الفتيان في سوق عكاظ ، فيظفر بهم ويستظهر عليهم ..

إلى أن أسلم . فكان إسلامه فتحاً .. ثم هاجر ، فكانت هجرته نصراً

إلى أن صار أميراً للمؤمنين تتهاوى تحت ضرباته أركان العالم القديم كله .. !!

هذا الرجل، صاحب هذه الحياة الحافلة دوماً، الطاهرة أبداً، كان روعة انتصاراته وإيمانها ونصرها.. هذا النورج الذكي الحبيب، الذي أعطى دنيا الناس كافة، ودنيا الحكم خاصة، قدوة لا تبلى، ولا يبلى يوماً بصيصه..!!

قدوة تتمثل في عاهل تركت الدنيا على عتبة داره، مثقلة بالمغانم والطيبات، فسرّحها سراحاً جميلاً، وساقها إلى الناس، ونثر فيهم طيباتها، وسرّى عنهم مُضلّاتها.. حتى إذا نفض يديه من علائق هذا المتاع، استأنف سيره ومسراه.. مهرولاً في فترة الظهيرة وراء بعير من إبل الأمة يخشى عليه الضياع.. أو منحنياً فوق قدر ينضج فيه طعاماً طيباً لامرأة غريبة تركها كرب المخاض.. أو مستلقياً فوق الرمال وتحت ظل نخلة، وقد أمن ووفود الدنيا التي تقصد المدينة تباعاً، باحثة لأممها ودولها عن مكان في عالم الجديد الذي يسميه "عمر" ويبنيه.. أو صاعداً المنبر يخطب المسلمين ويذكرهم بأيام الله في بردة بها إحدى وعشرون رقعة و رقعة..!!

* * *

وبعد..

أبقي شيء يقال..؟

أستغفر الله.. بل هل قلنا شيئاً من الكثير، الكثير، الذي يمكن أن يقال..؟؟

ألا حسبنا تلك اللحظات الناعمة الممتعة التي عشناها معه..

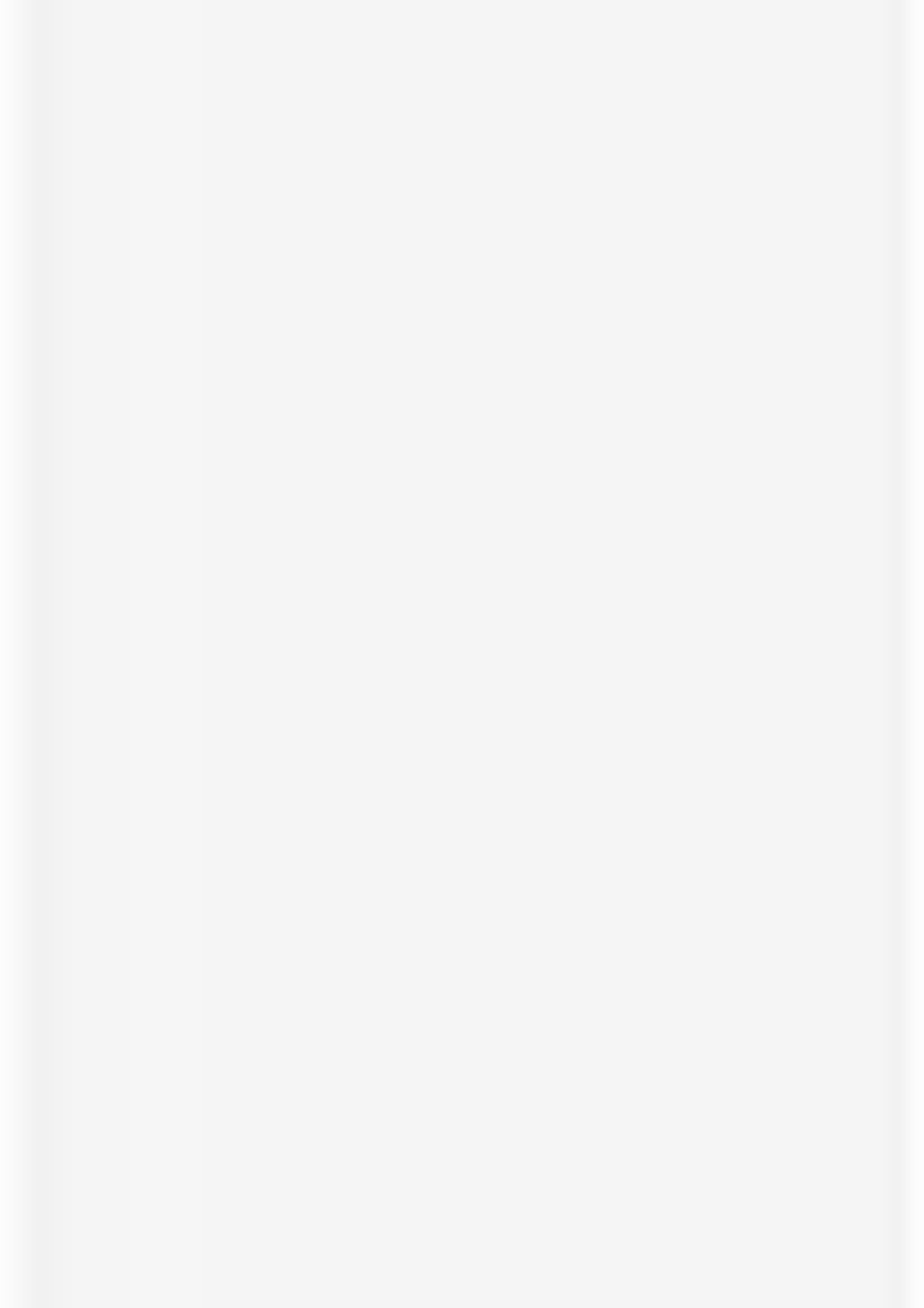
ولنقنع من أن نتمتع مع الناس، بتلك اللحظات المحمودة التي نعمنا بها - قليلاً من الوقت - رجلاً يسبق الزمان..!!

وإذا أردنا أن نعبّر عن انبهارنا البالغ شدّه، فلنؤثر على أنفسنا عناء ما لا نطمع فيه، ولا نقدر عليه، وليشفعنا في هذا الموطن كلمة عبد الله بن مسعود:

- لله درُّ ابن الخطاب.. أيُّ امرئ كان..؟!

■ ■ ■

وداعاً.. عثمان!





مقدمة

هذا كتاب عن "عثمان بن عفان" ثالث الخلفاء الراشدين

كتاب عن "النبأ العظيم"، الذي طال اختلاف الناس فيه، ولا يزالون مختلفين

والنهج الذي نقدم به اليوم حديثنا عن "عثمان" رضي الله عنه، هو ذات النهج الذي بدأنا به من قبل حديثنا عن (أبي بكر، وعمر، وعليّ، ورجال حول الرسول)

وهو نهج لا يدعنا نتلبّث مع وقائع التاريخ، إلا بالقدر الذي نبصر به روح التاريخ

ولا تشغلنا الأحداث بزحامها عن تتبّع "نبض" العظمة والتفوق في أولئك الرجال..!!

فروح التاريخ، وجوهر الشخصية، تشكّلان في محاولتنا المادّة والموضوع..

وفي صدق تاريخي، لا تخدعه الأسطورة.

وفي يقين فكري، لا تضلّله الشبهة..

وفي طمأنينة نفسية، لا يستخفّها الانفعال نمضي اليوم كما مضينا من قبل في رسم صورة الشخصية من داخل عظمتها الباطنة، ومواقفها الحاسمة، غير متكلّفين موقفا، ولا متخفّفين من تبعة.

* * *

والحقَّ أقول لكم إنني حين صحبتُ التاريخ في مراجعه وأمهاته، لكي أدرس من جديد حياة "عثمان" دراسة تمكنني من رسم صورته وحقيقته، لم أكن أحسب أن الله سبحانه سييسّر قصدي وسبيلي على هذا النحو الذي صدقتُه وصدقني

فالصورة التي في أذهان الكثيرين منا عن عصر "عثمان" وخلافته توحي بأن الطريق إلى ذلك العصر وعْر وشاقّ.. كما توحي بأن ذلك العصر بتناقضاته، ومشكلاته، وفتنه، إنما يُسعف المؤرخ الذي يُسجّل الأحداث ولا يزيد.

لكنه لا يسعف "الرسّام" الذي يريد أن يرسم لوحة تعكس دلالتها الحيّة على عالم القيم والقدوة..

ألا ما أكذبها من صورة.. وما أظلمها للرجل، وللعصر، طالما أينعت بهما العظمة، وتفجّر منهما العطاء..!!

* * *

إن الذين تخبطهم الشكوك والتساؤلات حول "عثمان وعصره"

فيتسرعون أو يتسرع بعضهم إلى "الخليفة العظيم" بأوزار لم يحملها.

إنما ضنّت عليهم الخلافة نفسها، لأنهم ذهبوا يعيشون ذلك العصر بغير مقاييسه، بل بضدّ مقاييسه!

لقد عمدوا إلى مجتمع قام منذ ألف وأربعمائة عام، به ظروفه وقيمه، ثم رحّلوا به في مختبرات حديثة من المنطق، والعلم، والتفسير. والتاريخ مختبرات قد تقدر على تفسير بعض أحداث ذلك العصر، لكنها مهما تكن حذقها ومهارتها لا تملك حقّ الحكم النهائي عليه، بل لا تستطيع استخلاص حقائقه البعيدة.

لقد كتب على "الخليفة عثمان" أن يحمل مسئولية الحكم في ظروف ليس لها في جميع التاريخ نظير.

وقبل أن أُتهم بالمبالغة في هذا التعبير، أُسارع فأقول: إنه حمل تبعات المسئولية بجسامتها في فترة من الزمان، كانت ختامًا لعصر نبوي بكل ما فيه من ورع، وصمود، وإخبات، وبداية لـ"عصر إمبراطوري" بكل ما يحمل من مباهج، ومخاطر، ومغريات!

صحيح أن الفتوحات الهائلة، كانت قد أرستْ قواعدها في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب"، وأحدثت دولة الإسلام، ذلك الشكل السياسي الذي يسمّى بالإمبراطورية، وإن لم يرها المسلمون كذلك.

بيد أنّ "أمير المؤمنين عمر" ألقى بكل عزمه وثقله في كفّة الشّقّ من الميزان، حتى ظل "عصر النبوة" قائمًا وسائدًا، بكل ذويه، وتقاليده، ومُثُله، وورعه، متوسّلاً بذلك القمع الرهيب الذي فطم به الأنفس، وقمعها عن هواها..!!

ولم يكن من طبائع الأشياء أن يدوم هذا النُّسُك.

فالفتوحات الجزيلة تقضي بأن يؤدّي بعضها بعضًا، ورواج العيش المحتوم سوف يدفع بالإسلام ومجتمعه إلى مطامع جديدة، لا مفرّ من تقبّلها بكل ما فيها من صفاء، وكل ما فيها من غيوم..

وكان اغتيال "الخليفة عمر" إشارة البَدْء بمقدم عصر جديد..

وهو عصر لن يتخلّى المسلمون فيه عن رأيهم، ولا عن مبادئهم، لكن ستزحمهم فيه علاقاتٌ جديدة، ومطالب حادثة، ومشكلات وافدة، ستفرض الكثير من إرادتها على رؤية الحياة، ومنهج الدولة، وتطلّعات المجتمع.

* * *

وفي هذه الفترة الحرجة، والسنوات الصعبة، دعت المقادير "عثمان" ليحمل المسئولية الرهيبة: مسئولية الإبقاء على روح "عصر النبوة" والتعامل مع "عصر الإمبراطورية"

فهل وجد سبيله إلى ذلك؟؟

نعم .. ويمر اليقين ، نعم .. وسنتحدث عن ذلك إن شاء الله حديثاً مفصلاً ، صفحات هذا الكتاب .

سنرى من أيِّ أطوار جنين ، كانت شخصية "عثمان"

ومن أيِّ أطوار كانت خلائقه ، وكانت حكمه .. وما الذي أغرى الأرقاب بحربه وبأمه وعهده . وهل ذهب شهيد فضائله ؟ أو ضحية أخطائه ..؟

سنرى رجلاً آخر من أصحاب "محمد" العظام ، حمل مسؤولياته في عزم مجيد ورشيد .. وحين لم يجد ما يحمي به مسؤولياته سوى جثمانه ، جاد بها في سماح منقطع النظير .. !!

* * *

وذات يوم ، وقد صعقت الذئاب لصموده ، انطلقت روحه وورق لأبدية ، مبتهجة إلى ربها الوَدود المجيد ، فوق ثَبَجٍ من دمائه الطاهرة الزكية

* * *

ألا بُورك الجسد الممتحَن .

وبُورِكَتْ روحه الناجحة .

* * *

ويا شهيدَ فضائلك ، وأوجاعك .. سلاماً ، ووداعاً !!

أوّل المُهاجِرين

في الساعات الأولى التالية لشروق فجر الرسالة كان هناك نفرٌ كرام من صفوة البشر، وضع القدر عينه عليهم ليصطفي منهم الرعيل الأول في الموكب الناهض الهادر الطويل الذي سيحمل عبر القرون كلمة الدين إلى الدنيا، والذي سيحمل نور الله وهداه إلى الخلائق المزدحمة في تيه لا له أول، ولا آخر، وما له من قرار!

وحين تتقدم المقادير بنفسها تختار وتصطفي، فهيهات أن تدع نفوس في حيرة من طرقها ونهجها في الاختيار..!

ففي هذا المقدم الذي نحن بصدده وسبيله، نجدها تختار السيد المأمول في حيث قومه، المهيب حول ذرى المجد من عشائره، إلى جوار العبد الرقيق الذي يُباع ويُشترى، ولا يملك من دنياه وفي دنياه سوى السلاسل والأغلال!!

ونجدها تختار الثريّ العريض الثراء، إلى جوار الفقير المعدم الشَّعثان!!

وتختار الأيِّد الشديد القوي، الذي يصرع أشداء العرب في مهرجانات "عكاظ" بصفعة أو حوار، والضعيف المعروق الضامر الذي تقصف ساقيه نسمةٌ لو دعت..!

وتختار النابهة الذي يتفجر ذكاء، وحيلة، واقتدارًا، إلى جوار الغِرّ الكريم الذي لا تجربة له ولا حيلة معه..!

* * *

من الشتات المتباين، وذويه عسير الخصائص معه، أو روابط خاصة، تقدم القدر نحو الجموع العريضة واختار منها أبطال المسيرة الأولى للدين الجديد الذي أذن الله لرسوله المصطفى "محمد" عليه الصلاة والسلام أن يعلن نداءه، ويرفع لواءه.

ومن هذا الرعيل المتباينة صفاته، المختلفة طباعه ودرجاته، سيصوغ الإسلام معجزته الكبرى.

سيجعل من بعض أشراف قريش وذوي نباهتها أمثال أبي بكر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، أندادًا وإخوة لبعض عبيدها ومستضعفيها، أمثال صُهيب، وبلال، وعمّار..!!

سيخلق من التفاوت وحدة. ومن التباين آصرة ورَحِمًا.

تُرى، ألم يكن للقدر وهو يختار أبطاله هؤلاء معيار مشترك، يلتقي حوله ويتوحّد فيه هذا الشتات المتباين من الخصائص، والمنازل والقدرات؟

بلى، كان ثمّة نبراس مشترك لا ريب، وما إدراكه بعسير!!

فإذا القرآن العظيم يخبرنا أن الله ﴿أعلم حيث يجعل رسالته﴾، فإنه سبحانه يعلم كذلك كيف يختار لرسوله ﷺ حوارييه وبطانته

وإذا كان الرسول ـ أيُّ رسول ـ إنما يختاره الله ليؤكِّد بوجوده وبسيرته بين الناس تفوُّق الحقّ، والخير، والفضيلة، وليَهب حياته كلها في سبيل مطلق لنصرة الحقّ، والخير، والفضيلة ـ فلا بدَّ لهذا الرسول من أن يكون بنعمة ربه، وبخصائص نفسه، وبعزم روحه في مستوى دَوْره ورسالته وقدوته.

وإذا كان الرسول ـ أيُّ رسول ـ لن يعمل وحده، بل لا بدّ له من أنصار يؤمنون به ويؤمنون معه، فلا بدّ من أن يكون هؤلاء الأنصار في مستوى المهمة الجليلة التي سينهضون بأعبائها.

وسواءٌ عليهم أن يجيئوا من صفوف الأشراف والسادة الأثرياء، أو يجيئوا من صفوف البُسطاء والعبيد وذوي الخصاصة والإملاق.

إن القدر وهو يختار أبطاله من الجموع المزدحمة، إنما يضع كلتا عينيه على "الشخصية الباطنة" لكل فرد، حيث تكمن حقيقته، ويبدو في غير زخرف، ولا زيف ولا تنكُّر.

وعلى الشخصيات السويَّة التي يؤهلها طهرها وسموها وتفوقها للاصطفاء، كان القدر يضع وسامه، فعلت بذلك حسان البطن بدوره.

على هذا المستوى، وبهذا النهج، تقدمت مقادير الإسلام تختار له الجديرين بحمل دعوته في فجره الغضّ، وأيامه البِكْرة.

ومن هؤلاء المصْطَفَيْن، كان "عثمان"

و"عثمان" رضي الله عنه وأرضاه، رجل ندبته الأقدار ودعتْه من بين صفوف الفتْية والصفوة، علْية قريش، وصفوة العرب

ليأخذ مكانه مبكِّراً، بين الأوائل المُبكِّرين في موكب الهدى ودين الحقّ

وحين تلقَّى بشارة القدَر تستلم دوْرَهُ، لم يتردد لحظة.

ومن تحت سقفه المرفوعة، ومن فوق فرشه الموضوعة، ومن بين مطعمه ومطعمه ودنياه الحافلة العريضة، خرج حاملاً أعباء دَوره الجديد، مستقبلاً حياة المتاعب والتضحية والفداء

الآن إن أولى الألقاب به، وأصدقها في تصوير حقيقته لهو لقب "المهاجر"

فمِن عيشه وثرائه، ومن جاهه العريض، ونعمائه الوارفة، خرج إلى دعوة الله ودعوة رسوله. ومتى؟ ليس في أيام عافيتها وانتصارها، ابن في ساعاتها الأولى، وفي مطلع بأساءها وأنصارها على العسرة والضيق، وعلى كل ألوان العسف والاضطهاد

وإذا كان الاضطهاد والتعذيب، يؤذيان "الرجل العادي" في جسده، فإنهما يلحقان برجل "صفوة" فوق أذى الجسد، أذى آخر أشد وأوجع. ذلكم هو الأذى الذي يصيب كرامته ومكانته

و"عثمان" كان واحداً من رجال الصفوة لا تسمح مكانته في قومه بأن تنال كرامته بقول أو عمل يؤذيانها أو يخدشانها.

فما باله تأخذ مكانه مع السحب الأولى للذين لحقوا برسول الله ﷺ وأخذوا مكانهم إلى جواره، وهو يعلم ما سيلحق به ويحوط به من كيد، وضرّ، وبلاء ؟؟

إن طبيعة "المهاجر" بل إن "ضمير المهاجر" كان يدفع خطاه ويقود حركته بعيداً عن مجد قريش، ومتاع العيش، إلى شظف مصاحبه وشرف البذل، وحب لواء الهدى والرحمة والنور الذي رفعه بيمينه الباسلة القادرة "محمد رسول الله" صلى الله عليه وعلى آله وصحابته.

ونحن نقول "ضمير المهاجر" لأن الهجرة لم تكن بالنسبة لعثمان مجرد سفر، وانتقال من بلد إلى بلد.. بل كانت أبعد من ذلك غوراً، وعمقاً

لقد كانت سفر روح ونفس وحياة، قبل أن تكون مجرد خطىً فوق الرمال

لقد كانت "عبوراً" لتخوم الذات وحدود المصير، قبل أن تكون "عبوراً" للتخوم الجغرافية، وحدود الأقاليم

لقد كانت "نزولاً" كاملاً عن حياة حافلة عريضة وادعة، مريحة و"استقبالاً" لحياة أخرى، لا تبدو من عاجل مرها على الأقل إلا أنها حياة كد، وبذل، وتضحية وعناء

وإن خروجاً في مثل مبادرة "عثمان" على هذا النوع من "المعايشة" لا يمكن أن يكون إلا ثمرة حلوة مجيدة، لضمير حر شريف، يدفع صاحبه بهذا الطراز من الهجرة العظيمة الصعبة.

ولعلنا نستشرف هذا المعنى كله من الوصف الذي خلعه الرسول الكريم ﷺ على صاحبه "عثمان" رضي الله عنه حين نعته بـ [أول المهاجرين إلى الله بعد نبي الله لوط عليه السلام]

أجل.. لقد خلع الرسول عليه هذا الوصف حين أمره بالهجرة إلى الحبشة ومعه زوجه رقية

على أننا لن نقف طويلاً مع هجرته إلى الحبشة في المرة الأولى، وهجرته منها في المرة الثانية، لأن الذي يشغلنا في "هجرة عثمان" هو "جوهر" الهجرة "وضميرها" وليس شكلها ولا حجمها فحسب

إنني كما قلت من قبل في كتاب "رجال حول الرسول" لا تستهويني الوقائع والأحداث إلا بقدر ما تستشف روحها الحي، وجوهرها الكامن.. وإلا بقدر ما تفسر معنى العظمة "الإنسانية" من خلال الوقائع والأحداث

و"عثمان" المهاجر.. المهاجر بقلبه، ووجدانه، وضميره، هو موضوع حديثنا في هذا الفصل الأول من الكتاب. مهندس إلى نفسه عظمة الهجرة.. بمسلكه من اللحظة التي سيقبل فيها الإسلام جذلان صادقاً، إلى اللحظة التي لقي فيها ربه صابراً محتسباً

أجل.. إلى آخر لحظات عمره، سنظل نرى عظمة المهاجر في حياة "عثمان"

وقد يبدو في هذه العبارة شيء من المبالغة عند الذين يعرفون حياة "عثمان" من خرفها ويظنون ـ مخطئين ـ أن ذلك القسم الأخير من حياته، قد أصاب سابقته بالأذى وشوهه !!

وليت قوماً يتحمسون لعصمته فقهوا حتى يظنون أن أحداً أقوى منهم !

لا ريب العصمة أقوى من الخطأ، والإنسان أقوى من زلته، وإن الخطأ مهما يكن شأنه لا يستطيع أن يقهر عظمة الفضيلة، ولا أن يطفئ نورها، ويرد وجهها تراباً في تراب.

ولسوف نلتقي في الصفحات الآتية لخلافة عثمان رضي الله عنه ببعض التصرفات التي كشفت سماحتها عن حاجتها إلى مزيد من الصواب، ولكن هل كانت هذه الأخطاء وليدة تنكر "عثمان" لمبادئه التي قام عليها إيمانه وشبابه وفضائله ؟ أعني هل كانت تحدياً لله، ولرسوله، ولدينه..؟

إن ألدَّ خصوم "عثمان" لم يستطع أن يصم نفسه بهذا الاتهام

إذن، ماذا كانت..؟

كانت ثمرة اجتهاد من اجتهاده ثم نواياه الخصوم وخوفه من رؤية الصواب

وكانت ثمرة ظروف عارمة عطلت تسويته لدولته الجديدة المتسعة، وفرضت عليها طرازاً جديداً من العلاقات والمشاكل، ومن العلل والنتائج !

وإلى أن يجيء أوان مواجهة هذه التبعات الحرجة في تاريخ الخلافة والإسلام، دعونا نعد إلى موضوع المثل حول "عثمان" المهاجر بين "عثمان" أول المهاجرين.

* * *

إن هجرته إلى الله طوال سني حياته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإسلامه

والهجرة والإسلام، يرتبطان بخلائق شخصيته الفذة وتركيبته النفسية

وفي شخصيته الفذة هذه نلتقي بخُلُقين يفوقان بقية فضائله وأخلاقه في السيطرة على نفسه والاتحاد بروحه.. هذان الخلقان هما: السماحة، والحياء

ووراء كل المآثر التي تُحسبُ له.. وجميع الأخطاء التي تحسب عليه.. نجد هذين الخُلقين يحملان مسئولية المآثر والأخطاء.

ولنبدأ بإسلامه

لقد جاء إسلامه سماحة وحياءً.. لا حياء من أصدقاء مقربين، بل حياء من الله الذي كان يرى آيات وجوده في وجدانه ويبهره مشاعره.. وحياء من رسوله ﷺ الذي كانت آيات صدقه تملأ الأنفس الصافية تقبُّلاً ويقيناً

ورجل مثل "عثمان" يقود "الحياء" كل تفكيره وكل تصرفاته، لا يستطيع أبداً أن يهرب من اقتناعه

إنه ليحتل أمام نفسه محلاً مُزلزلاً، إذ هو خالف قناعته وتنازل عنه

هكذا نراه ساعة إسلامه. وهكذا سنراه عندما يحصره الثوار يطلبون رأسه وحياته وهو قادر على صرعهم وفلّ بأسهم بوسيلة من وسائل شتى كان يملكها جميعاً. ولكنه وهو ابن الثمانين يرفض النجاة بوسيلة لم يكن لها في دائرة أخلاقه مكان!!

* * *

ساعة إسلامه، كانت السماحة، وكان الحياء يقودان خُطاه الوديعة الواثقة إلى رسول الله في صحبة "أبي بكر" رضي الله عنه، حيث وضع يمينه في يمين الرسول ﷺ، ومنحه بيعة صادقة ومؤمنة..

وكان إسلامه وديعاً غضاً، كانغماس الزهر في فجر الربيع!!

فلم يكد "الصدّيق أبو بكر" يهمس في أذنه بنبأ الدعوة الجديدة التي يبلغها "الرسول" عن ربه حتى تفتح قلب الرجل السمح الحَيِيّ عن آخره.

لم يطلب مهلة للتفكير والرويّة. لقد كان وجدانه المستقيم يدرك عبث الحياة الدنيئة التي يحياها قومه. كما كان يعرف المستوى الرفيع الخاص الذي بلغه "محمد" في صدق نفسه، وصدق حديثه، وصدق رؤاه.

كان "محمد" ﷺ حتى قبل أن يكون رسولاً يملأ الأفئدة الذكية الصافية روعة وتأثيراً.. وكان لعثمان فؤاد من هذا الطراز، يحمل لـ "محمد" أروع الصور وأبهاها حتى لقد انعكس هذا الإعجاب، بل هذا الإيمان بـ "محمد" في رؤيا رآها "عثمان" ذات يوم وهو قادم من الشام.. حين جلس يقيل في مكان ما بين "معان" و"الزرقاء". وغلبه النوم هو ورفاقه، فإذا به يسمع في حلمه منادياً ينادي النائمين أن هُبّوا أيقاظ، فإن "أحمد" قد خرج بمكة..!!

كان وجدانه إذن مهيّأً لانتظار المنقذ، ولم يكن بمكة كلها من تمنحه فطرته هذه المكانة بحقّ مثل "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب"..

أفينكص عثمان على عقبيه، وقد جاءه البشير بظهور المنقذ والنبيّ.

وأين يذهب إذن من حيائه..؟؟

أفيستسلم عثمان للتردد ويطلب من نفسه لنفسه مهلة للتفكير والتشاوُر؟ وأين يذهب إذن من سماحته..؟!

إن الحياء ليذوده عن التردد.

وإن السماحة لتذوده عن الإرجاء..

والحياء والسماحة عنده وفيه، لم يكونا مجرد خُلُقين، وفضيلتين، بل كانا "طاقة هائلة" تسيطر على شخصيته كلها، وتأخذ بمجامع فطرته إلى حريمهما.

لقد بلغ بسماحته مستوى قياسياً، ثم نهض إليه سموه حتى هتف الرسول ﷺ يوماً أمام مشهد من مشاهد هذه السماحة الباهرة قائلاً:

«ما ضرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم. اللهم ارضَ عن عثمان، فإني عنه راضٍ»!!

وإلى مثل هذا المستوى بلغ حياؤه، حتى ذكره الرسول قائلاً

« صدق من حياء عثمان » !.

بل إن ثمة واقعة تريك أكثر من سواها ، كيف كان حياء "عثمان" عظيماً ، وأنبل معه ترويها لنا أم المؤمنين "عائشة" رضي الله عنها ، فتخبرنا أن "أبا بكر" استأذن يوماً على رسول الله ﷺ ، وكان الرسول مضطجعاً وقد انحسر جلبابه عن إحدى ساقيه ، فأذن لأبي بكر فدخل ، وأجرى مع الرسول حديثاً ثم انصرف .

وبعد قليل جاء عمر فاستأذن له ، ومكث مع الرسول ﷺ بعض الوقت ثم مضى .

وصادف أن جاء بعدهما عثمان ، فاستأذن .. وإذا الرسول يتهيأ لمقدمه ، فيجلس بعد أن كان مضطجعاً ، ويُسْبل جلبابه فوق ساقه المكشوفة ، ويقضي عثمان معه بعض الوقت ثم ينصرف .

وبُعَيْد انصرافه ، سألت عائشة الرسول عليه الصلاة والسلام قائلة : « يا رسول الله ، لم أرك تهيأت لأبي بكر ولا لعمر كما تهيأت لعثمان » .. ؟

فيجيبها الرسول ﷺ :

« إن عثمان رجل حيِيٌّ ، ولو أذِنْتُ له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل ، ويرجع دون أن أقضي له الحاجة التي جاء من أجلها .

يا عائشة : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » .. ؟!

إن هذه العبارة وحدها "رجل تستحي منه الملائكة" تصوّر لنا كل أبعاد هذا الحياء الذي كان أصيلاً عميقاً في الأعماق ، والذي كان دائماً ممتداً في الديمومة .

لم يغب عن حياة صاحبه لحظة من ليل أو من نهار .. فلا نرى "عثمان" إلا والحياء معه .

ولقد كان الرسول عليه السلام يشيد بهذا الحياء ، كأنما يرفعه قدوة ونبراساً .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« أرحمُ أمتي أبو بكر .. »

« وأشدُّها في دين الله عمر .. »

« وأشدُّها حياءً عثمان .. » .

سماحة إذن وحياء .. حملاه كما قلنا في سهولة ويسر ، وفي غبطة وحنين ، إلى مجلس رسول الله ﷺ حيث بايعه على الدين الحق ، وعلى كل ما يفرضه الدين من تبعات وواجبات .

ولقد كانت "الهجرة" أول واجب يفرضه هذا الدين .. ولا نعني الهجرة بمعناها الجغرافي إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة .. بل نعني الهجرة بمعناها الروحي .. معناها العميق والعميق .. الهجرة من حياة .. إلى حياة .. ومن وجود .. إلى وجود .. الهجرة التي تعني الانسلاخ عن القديم بكل معتقداته وأمجاده .. والسفر إلى الله بزاد جديد .. !!

فليحمل المهاجر إذن إيمانه ، وليمض على بركة الله .

* * *

فإن إسلام عثمان كان مبكراً ، فهو أحد الخمسة ، أو السبعة الأوائل الذين سبقوا إلى الإسلام ، وكان الرسول ﷺ يومئذ يدعو إلى الله في أسر وخفية ، وحتى "دار الأرقم" التي كان يلقى فيها أصحابه مستخفين من قريش لم تكن قد وجدت بعد ، وهكذا نرى عثمان يلبي نداء الدعوة بكل مخاطرها في وقت بدا فيه النصر ، ويعزّ النصير

وهذا أول منازل هجرته

لقد ترك حياته المستقرة المطمئنة الآمنة ، إلى فزع مجهول تتهدده المخاطر والأخطار !!

ولقد وضع خطاه على دروب غير مطروقة ، وترك النديّ الذي كان يموج بالصحبة المؤنسة والحياة المرحة الحافلة .. !!

ولا يطول به الوقت ، حتى تكون قريش قد شحذت أنيابها ، وراحت جحافلها تتلمظ بهذه العشيرة المؤمنة التي يقودها رسولها ﷺ في طريق الهدى والنور .

ويتلقى "عثمان بن عفان" رضي الله عنه من تلك الأحقاد الضارية ما يضاهي مكانته السابقة في قومه ، ويتولى أمر تعذيبه عمه "الحكم بن أبي العاص" فيوثقه بالحبال والسلاسل ، ويصرخ في وجهه :

« أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟؟ والله لا أحلّ وثاقك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين »

ويجيبه "عثمان" في إصرار "المهاجر" الذي عرف طريقه ، وثبت فوقه خطاه

« والله ، لا أدع دين الله أبداً ، ولا أفارقه» .. !

ويوالي عمه تعذيبه

ويوالي "عثمان" إصراره

وتحاصره قريش كلها بازدراء مصطنع ، فلعلها أن تنال كبرياءه ، وتهز كرامته .. لكن المهاجر إلى الله كان قد تبوأ ذروة عالية تعلمهم كم هم فيه من غرور وضلال ، والكرامة التي تستمد رفعتها من الضلال لم تعد هي الكرامة التي يحميها ؛ لأنه بعد أن آمن واهتدى

إن الكرامة التي منحه الإيمان إياها كرامة أخرى لا تستطيع قريش ، بل لا تستطيع العالم كله أن ينال منها مثقالاً .

إنها كرامة لا ينال منها سوى النكوص عن الدين الحق ، أو التفريط فيه ، والهروب من مسئولياته الثقال

وهكذا صمد "عثمان" للأذى

وبلغت عداوة المشركين للداخلين في دين الله ، وضرمت شراسة قريش ، وأوغلت في تعذيبها واضطهادها

ورأى الرسول الرحيم ألا قبل لأكثر أصحابه بهذا الأذى ، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، إذ كان على رأسها يومئذ ملك عادل ، يسند الأمن في رحابه ، والعافية في جواره

وكان "عثمان" أول المهاجرين إليها ، ومعه زوجته "رقية" بنت رسول الله ﷺ ، وكان

الرسول قد زوّجه له بعد إسلامه.

ووقف الرسول ﷺ يودعهما ينظر نحوهما وقلبه الودود، ويقول:

« إنهما لأوّلُ من هاجر إلى الله، بعد نبي الله لوط »

* * *

كانت الهجرة تصهر شمائل عثمان وتزيدها فعشةً وألقاً

ولكن إدراكه لمعرفة الحق، بعد تجربة الهجرة والخروج، فمن أن تكون هجرة مكانية. كان هذا الإدراك يجعل إيمانه في حياته صحوة ثم وثبة سريعة

ولهذا ليعود إلى مكة، ثم يهاجر إلى المدينة. وفي كل زمان ومكان يحتويه، تردد روحه المؤمنة تعلقها بالهجرة في عمق مضامينها وأسمى مفاهيمها

كانت كلمات الرسول ﷺ التي وصفته بأنه "أول مهاجر إلى الله" تهز أشواقه إلى الله، وتشحذ تصميمه على أن يحيا دائماً في مستوى هذا الوصف وهذا التكريم

ولقد نجح، وظفر تصميمه بانتصار عظيم.

عندما حاصره الثوار وهو خليفة، يريدون عزله أو قتله، تقدم إليه المغيرة بن شعبة بهذا الرأي وهذه المشورة:

يا أمير المؤمنين، لقد نزل بك ما ترى، وإني مشيرٌ عليك بثلاث اختر أحدهن

"إما أن تخرج فتقاتلهم، فإن معك قوة وعددا، وأنت على الحق وهم على الباطل

"وإما أن نفتح لك من خلف الدار بابا تخرج منه في غفلة منهم حتى تحملك رواحلك إلى مكة، فإنهم لن يستحلوا دمك وأنت بها

« وإما أن تلحق بالشام فإن بها معاوية .. »

ويجيب الخليفة العظيم بكلمات لا نلمح فيها دهاءً ولا مناورة، ولا حرصاً على الحياة..

إنما نلمح فيها "ضمير المهاجر" وحلمه وتصميمه.

قال رضي الله عنه مجيباً صاحبه

« أمّا أن أخرج فأقاتلهم، فوالله لن أكون أول من يخلفُ رسول الله في أمته بسفك الدماء »

« وأما خروجي إلى مكة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول يوماً: يُلحِدُ رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم ولن أكون هذا الرجل »

« وأما خروجي إلى الشام لأن فيها معاوية، فلا والله ولن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله ما حييت »

أي روعة ؟؟ وأيُّ جلال ؟؟

رجل يحيط به ثوار مسعورون يريدون رأسه، وأمامه فُرص النجاة والخلاص، ثم يرفضها جميعاً لأنها تنال من كرامة هجرته وثوابها ؟؟!

وفي أي سنٍّ كان، وهو يحمل هذا الولاء العظيم لجانب الهجرة وحقها عليه ؟؟ في سنّ الثمانين .. !!

إنه يرفض أيَّ نقص شكلي أو موضوعي للهجرة.

ومغادرته المدينة التي عاش ودفن بها رسوله الحبيب ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر، تقضي للهجرة برفضه وإبائه، حتى ولو كانت ثمن الرفض حياته. كما أن خوض معركة مسلحة ضد الثوار الذين هم برغم تمردهم الرجيم مسلمون ومنتمون إلى دينه وعقيدته، نقض آخر للهجرة يرفضه كذلك وبإباء، ولو كان ثمن الرفض حياته.

ولمن شاء أن يختلف معه في الرأي. ولكن علينا أولاً أن يكون لدينا تصور كاف لما كانت تعنيه كلمة "مهاجر" بالنسبة لعثمان..!!

إنها تعني ما صنعه بماله شيء أثمن من الأمن، وأعلى من الحياة!!

لقد نفذ بصدق ضميره وبإخلاص قلبه إلى جوهر الإسلام فعرفه معرفة اليقين.

عرف أن الإسلام في جوهره هجرة كاملة إلى الله.

ولا ينبغي أن يكون للجاه، ولا للمال، ولا للحياة نفسها سلطان.. أي سلطان على ضمير المهاجر وروحه إطلاقاً.

ولقد نازل "عثمان" لإسلامه ولهجرته عن جاهه، وعن ماله، وأخيراً عن حياته، في سماح منقطع النظير.

ولو رأيناه وهو يعطي أمواله بغير حساب للدعوة التي آمن بها، وحمل مع المؤمنين لواءها، لرأينا رجلاً من طراز فريد.

لقد كان يبدو بعطائه وسخائه، وكأنه الممول الوحيد للأمة الناشئة الجديدة.

ولو أردنا أن نتعرف إلى مسلم هاجر من دنياه ومن أمواله وثرائه، بالبذل العريض، والعطاء الفيض، لأعيانا أن نجد لعثمان في هذا المجال نظيرا.

* * *

* عندما هاجر الرسول عليه السلام وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بها حتى فاجأتهم مشكلة المياه، وكان بها عين تفيض بماء عذب طيب المذاق وتدعى "بئر رومة" ويملكها يهودي يبيع ملء القربة بمد..

وتمنى رسول الله ﷺ لو يجد من بين أصحابه من يشتريها حتى تفيض مياهها على المسلمين بغير ثمن..

وسارع "عثمان" رضي الله عنه إلى تحقيق رغبة الرسول ﷺ، فعرض على اليهودي صاحب البئر أن يبيعها له، فأبى. فساومه "عثمان" على نصفها. واشترى النصف باثني عشر ألف درهم على أن تكون لليهودي يوماً ولعثمان يوماً. فكان المسلمون يستقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين!! وهكذا وجد اليهودي نفسه، وقد خسر سوقه التي كانت رائجة، فعاد يعرض على "عثمان" أن يشتري منه النصف الثاني، فاشتراه. ووهبت البئر بمائها العذب تروي أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب..!!

* وعندما كثر الداخلون في دين الله بالمدينة، وصار المسجد يضيق بهم، تمنى رسول الله ﷺ لو يجد من بين صحابه من يشتري الرقعة المجاورة له كي تضم إلى المسجد، ولم يكد يرحب بها ساعة واحدة أخرى، لو يكن هناك غير "عثمان"، تتقف عنه الرسول في حبور

وغبطة ، وذهب إلى أصحاب ذلك المكان ، واشتراه منهم بثمن باهظ ، قدّره الرواة بخمسة وعشرين ألفاً ..

* وعندما فتح الله مكة لنبيّه وعاد إليها ظافراً كريماً ، رأى أن يُوسِّع المسجد الحرام ، فعرض على أصحاب بيت ملاصق للمسجد أن يتبرعوا لغرض توسيعه ، فاعتذروا بأنهم لا يملكون غيره ، وليس لهم مال يشترون به سواه .

ومرة ثالثة كان هناك "عثمان" . لم يكد يبلغ النبأ مسمعه حتى سارع إلى أصحاب الدار الواسعة العريضة واشتراها منهم بعشرة آلاف دينار .

* وفي العام التاسع الهجري ولّى "هرقل" الإمبراطور الرومي وجهه المتآمر صوب الجزيرة العربية ، مُتَلمِّظاً برغبة شديدة في العدوان عليها والتهامها .

لقد كان الدين الجديد برسوله العظيم ، ورجاله الشجعان البواسل قد مَلئُوا حياته وحياة "بيزنطة" كلها قلقاً وخَوْفاً .

وكان الإمبراطور يومئذٍ مُنْتَشِياً بنصره على فارس ، ومن ثمَّ قرّر أن يسير بجيشه إلى هذه الأمة الجديدة في بلادها وديارها .

وعملاً أمر قواته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف .

وترامت الأنباء إلى رسول الله ﷺ ، فنادى في أصحابه بالتهيؤ للجهاد .

كان الصيف حاراً يصهر الجبال ، وكانت البلاد تعاني الجدب والعُسرة . فإذا قوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحرّ العاتي وحرجوا إلى الجهاد فوق الصحراء الملتهبة المتأججة ، فمن أين لهم العتاد والنفقات المُنْهِظة التي يتطلبها القتال . ؟!

لقد حَضّ الرسول أصحابه على التبرُّع ، فأعطى كُلٌّ قدْرَ وُسْعِه ، وسارعت النساء بالحلي يقدِّمنه إلى رسول الله ﷺ ليستعين به في إعداد الحملة . بيد أن التبرعات جميعها لم تكن لتُغني كثيراً أمام المتطلبات الهائلة للجيش الكبير .. هذا الجيش الذي نُعِتَ يومئذٍ بـ "جيش العسرة" .

ونظر الرسول ﷺ إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تَهَيَّئُوا للقتال وقال :
«من يُجَهِّز هؤلاء ، ويَغْفِرُ اللهُ له » ؟؟

وما كاد "عثمان" يسمع نداء الرسول هذا ، حتى سارَعَ إلى مغفرة من الله ورضوان ..
وهكذا وجدت العُسْرة الضاغطة "عثمانَها" المعطاء !

وقام رضي الله عنه بتجهيز الجيش كله ، حتى لم يتركه بحاجة إلى خطام أو عقال .. !!
يقول ابن شهاب الزهري :

« قدّم عثمان لجيش العُسْرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرساً، أتمّ بها الألف» !!

ويقول حذيفة:

« جاء عثمان إلى رسول الله في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبّها بين يديه، فجعل الرسول ﷺ يُقلّبها بيده ويقول: غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعْلَنْتَ، وما هو كائن إلى يوم القيامة».

ويقول عبد الرحمن بن عوف:

« شهدتُ رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان بن عفان في جيش العُسرة بسبعمائة أوقية من الذهب».

ألم أقلْ لكم: إنه كان يبدو وكأنه المموّل الوحيد للأمة الجديدة، والدين الجديد؟

تُرى هل كان "عثمان" قادراً على كل هذا البذل الطوْعيّ لو لم يكن قد هاجر إلى الله سبحانه هجرة صادقة، تُنسيه كل شيء إلا الله ورسوله والدار الآخرة؟!

* * *

ومضى الرسول ﷺ على رأس جيشه العظيم حتى وصلوا موطناً يُدْعى "تبوك" في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق.

وهناك جاءته الأخبار مبشرة بأن الإمبراطور الذي كان يعد العُدّة للزحف من دمشق، قد ثلم الله عزْمه، وغادر دمشق ناقضاً يديه من محاولته البائسة بعد أن علم بخروج النبي ﷺ وأصحابه إليه.

وحمد الرسول ربه أن كفى المؤمنين القتال، ورجع بالجيش بكل عتاده الذي أمدّه به "عثمان".

فهل استرجع من ذلك شيئاً؟؟ هل استرد منه قرشاً، أو بعيراً، أو حطاماً؟؟

كلا.. وحاشاه أن يفعل.. وهو ظلّ كما كان دوماً سريع الأريحية يكل يوم يقدم هو للرسول نبعاً جديداً من البذل، ومزيداً من العطاء.

* * *

هذه لمحة من صباه تكشف لنا حقيقة الهجرة التي هاجرها "عثمان".

الهجرة التي جعلته يخرج من ماله، ومن جاهه، ومن دنياه العريضة كلها، ويسافر إلى الله في حياء رجل يهرب من الأضواء.. ويقطع نياطه بين أصحابه.. وفي مجتمعه منقطعاً بهدوء عجيب، معطياً ظهره لصخب الشهرة، وإغراء الظهور.

كانت العبادة أنس روحه.. وكان القرآن سمير قلبه، وهوى فؤاده، وصديق عمره.

أفما آن لنا أن نرى من عبادته ونسكه مشهداً يزيدنا معرفة بهذا الروح، وعظمة بالنسبة إلى الأواه؟

■ ■ ■

الأوّابُ الرّحيمُ

زوّجه الرسول ﷺ ابنته "رقيّة" ولما توفاها الله إليه، زوّجه ابنته "أم كلثوم" ولما لحقت إلى الرفيق الأعلى، أسف الرسول إذ لم يكن له كريمة أخرى يزوّجها صهره الحبيب، وقال قولته المأثورة.

« لو أنّ لنا ثالثة لزوّجناك إياها ».

بل إن الحديث لَيُروى بصيغة أخرى تقول:

« لو أن لي أربعين بنتاً لزوّجتهنّ عثمان واحدة بعد واحدة » !!

فما الفضائل ومكارم الشمائل التي أهّلت "عثمان" لكل هذا الحب وهذا الإيثار من رسول الله العظيم ﷺ ؟؟

إنها شمائل كُثُر، تعبق بالخير، وبالمروءة، ويفوح منها عبير الرحمة حيث تلقاها أو حيث تلقاه..

والرسول الذي منّ الله به على عباده قائلاً

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

هذا الرسول الرءوف الرحيم، لم يكن يستهويه من بين شمائل البشر شيء مثلما تستهويه الرحمة، ومثلما يستهويه الحب الصادق لله والإخبات الوثيق به

ولقد كان حظ "عثمان" من الإخبات والرحمة عظيماً وجزيلاً

إنه أوّاب رحيم

صوّام النهار، قوّام الليل.. يتفجّر قلبه رحمة وحناناً

أومن أجل هذا قال الرسول ﷺ يوماً

« لكل نبي في الجنة رفيق »

« ورفيقي في الجنة عثمان » .. ؟؟

لقد كان في العبادة واحداً من أفذاذ المعدودين، وبطلاً من أبطالها المبرّزين

وصف معاصروه هيامه بالعبادة فقالوا:

« كان عثمان يصوم الدهر، ويقوم الليل، إلا هجعة من أوّله »

وإنّا لنعلم ما كان وراء "عثمان" وما كان بين يديه من نعمة جمّة تغدق، وثروة تتلألأ

فعندما يقضي الدهر صوّاماً، رجلٌ مثل "عثمان" تعجّ داره بأطايب الطعام

وعندما يقضي الليل قوّاماً رجل تغريه الفرش الناعمة الوثيرة بالدعة والراحة فلابد لهذا الرجل من أن يكون من طراز آخر، يبلغ كثيراً من روحه وعمقها ووثبتها إلى الله زلفى أنساه كل شيء عداه.

ثم حين نراه يُثابر على عبادته طوال عمر مديد بلغ الثمانين من الأعوام ، فإن صورة العابد الأوّاب تستكمل أمامنا قسماتها الباهرة الجليلة ، وتفتح أعيننا وبصائرنا على حقائق هذا العابد الأوّاب بكل ما لها وكل ما عليها.

لقد كان في عبادته وفي طُهره موصول القلب بالله ، كما كان عظيم الوفاء . ذلك أن حياته ـ حتى قبل الإسلام ـ كانت حياة نقيّة ، وكان دائم التحدث بنعمة الله هذه عليه فيقول :

« ما زنيت ولا سرقت في جاهلية ولا في إسلام » .

وكانت صلة قلبه بالله بعد إسلامه ، تنهض على وَعْي رشيد بجوهر هذه الصلة وهذه العلاقة .

وإذا كان القرآن كلمةَ الله التي رسم بها لعباده كيف يحيَوْنَ وكيف يعبدون ، فقد تعلّق قلبه بالقرآن تعلُّق الواله الهيمان ، فكان ربما استغرق الليل كله على طوله في ركعتين اثنتين ، يظلّ يقرأ فيهما من القرآن حتى تروى روحه الظامئة المشتاقة ، وحتى يوشك أن يبلغ آخره وختامه !!

ولسوف نراه بعد حين ، وقد اقتحم الثوار داره تدفعهم الفتنة الجامحة الجاحدة العمياء لقتله واغتياله ، فلا يعنيه من الأمر كله إلا أن تُستَلَّ الحياة من جسده الموهون ، وبين يديه مصحف .. وعلى لسانه وشفتيه كلمات الله .. !!

ولم يقف هُيامه بالقرآن عند حد التلاوة ، وترطيب لسانه وفؤاده بآياته المباركات ، بل كان التعبُّد به والتعبُّد له جوهر هذا الهُيام .

في بدء الفتنة التي نشبت ضده ، جلس قوم يحاورونه ويطيلون الحوار ، فكان جوابه لهم

« إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجليّ في قيود فضعوهما » !

فكتاب الله عنده هو الحجة البالغة ، وهو فصل الخطاب

أجَلْ ..

كان القرآن قِبلتَه وقُدوتَه ، ومن ثمّ أدركتْ عبادته صفاءها وجلالَها .. ولطالما كانت تهزُّه هذه الآية فيكثر ترديدها :

﴿ واضربْ لهمْ مَثَلَ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناهُ من السماءِ فاختلطَ بهِ نباتُ الأرضِ فأصبحَ هشيماً تذروهُ الرياحُ وكان اللهُ على كُلِّ شيءٍ مقتدراً ﴾

إن الرجل الثريَّ العريض الثراء ، قد وَجد ترياقه من إغراء المال ، ووجد تعويذته الوُثقى من فتنته الضّارية في هذه الآية الكريمة ، التي تفضح زيف الدنيا ، وتكشفها للمفتونين بها ، حتى يبصروها على حقيقتها « هشيماً تذروه الرياح » !

وهكذا وجدنا جوده العظيم ، جود رجل لم يعد المال في نظره سوى هشيم ، إلا أن ينفقه في سبيل الله فيتحول بهذه النفقة إلى خُلود حقّ ، وثواب باقٍ عظيم

* من أجل هذا رأيناه، كما سنرى، يشتري "بئر رومة" وحده.. ويجهز جيش العسرة بصفقات بالغة، تنوءُ بها الخزائن الممتلئة

* ثم نراه يمضي مع نفسه موثقاً لا يخلفه طول حياته.. هو أن يعتق كل جمعة عبداً ويحرر رقبة.. يشتري العبد من سيده بأي ثمن، ثم يهبه حريته مبتغياً وجه ربه الأعلى

* ولا يكاد يبصر التجارَ يهمون باحتكار الأرزاق، أو بيعها بثمن باهظ، حتى يرسل
قوافله لتعود محمَّلة بما يفسد عليهم احتكارهم الأرزاق، أو بيعها بثمن باهظ، حتى يرسل
قوافله لتعود محمَّلة بما يفسد عليهم احتكارهم ويصيب مستغلا لهم بخيبة أمل قاتلة.

* وإذا جاءت رواحله من اليمن أو من الشام محمَّلة بالخيرات، وتواكبَ حولهُ تجار المدينة ومن حولها، دخل معهم في مساومات شيقة.. ما أجمل أن نطالع الآن إحداها، يرويها لنا ويحدثنا بها "ابن عباس" رضي الله عنه فيقول:

« قحط الناس في زمن أبي بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تمسون غداً، حتى يأتيكم فرج الله.

فلمَّا كان صباح الغد قدمت قافلة لعثمان،

فغدا عليه التجار، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقيه

وسألوه أن يبيعهم قافلته

فسألهم: كم تُربحونني..؟

قالوا: العشرة اثني عشر

قال: قد زادني..

قالوا: فالعشرة خمسة عشرة..

قال: قد زادني

قالوا: من الذي زادك، ونحن تجار المدينة..؟؟

قال: إن الله زادني بكل درهم عشرة، فهل لديكم أنتم مزيد..؟ فانصرف التُّجار عنه، وهو ينادي: اللهم إني وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن، وبلا حساب»

* * *

هكذا كان ولاؤه للقرآن، ومنهجه في العبادة

إنها عبادة تعني مع قيام الليل وصيام النهار، البذل السخيّ والعطاء المدرار

وتألق روح العبد الأوَّاب في قدرته على الزهد والبساطة، فكثيراً ما كان يطعمهم على حسابه، وهو الذي يتدفق عليه الأموال، ويعمهم المسلمين ويشملهم!!

فحدثنا "شُرَحْبيل بن مسلم" قائلا

« كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ويأكل هو الخل والزيت »!

كما يحدثنا "عبد الله بن شداد" فيقول

« رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم، أو خمسة دراهم

وإنه يومئذٍ لأمير المؤمنين » !!

هذا سلوك عابد أوّاب، طوى شهوة الطعام لديه حتى "يشمتْ" بالطعام !!

وذلّ نحوه بجاهليته في عروقه، حتى غرّب نفسه بروعة الإسلام !!

ومن أيّ النواحي جئته، ألفيتَ جلال العابد يبهر مُحدِّثه

* يغضب على خادم له يومًا فيعرك أذنه حتى يوجعه .. ثم سرعان ما ينقض صمت العابد مضجعه، فيدعو خادمه ويأمره أن يقتص منه فيعرك أذنه .. ويأبى الخادم ويولي مُدْبِرًا. لكن "عثمان" يأمره في حزم، فيطيع

« اشْدُدْ يا غلام، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة » !!

إنه العابد الأوّاب، تلقاه هنا كما تلقاه في كل مقام

* ويدخل مسجد المدينة، فيرى رجلًا مهيبًا جليلًا قد نام فوق حصباء، ووسادة تحت رأسه، ثم ينهض من نومه فيرى آثار الحصا في جنبه .. إنه هو أمير المؤمنين .. العبد الزاهد الأوّاب عثمان بن عفان .. أكثر قومه ثراءً ونعمة، في الجاهلية وفي الإسلام !!

إن هذا ليذكرنا برأي "عبد الله بن عمر" فيه .. فقد كان رضي الله عنه يقرأ الآية الكريمة

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾

ثم يقول: هو "عثمان بن عفان"

* * *

أما "عثمان" الرحيم، فقد كان أمره عجبًا .. إن الرحمة تشيع في جنانه كما يشيع الرِّيُّ في العود الأخضر الريّان

ومن التصرفات العادية اليسيرة، إلى التصرفات التي ترتبط بالمصير، ويتوقف عليها أمر الحياة والموت، نجد الرحمة تبرز من هذه التصرفات جميعها

فـ"عثمان" الذي ينهض من الليل وهو خليفة المسلمين، فيرفض أن يوقظ أحدًا من خدمه كي يعد له وضوءه، ويتحامل على شيخوخته المجهدة في إحضار الماء وإسباغ الوضوء .. هو "عثمان" الخليفة الذي يرفض النجاة من سيوف قاتليه، إذا كان ثمن هذه النجاة قطرات دم تسفح من مسلم بريء !!

* يدخل عليه "زيد بن ثابت" وقد رأى الثوار يشدّون الحصار داره فيقول له

« يا أمير المؤمنين، هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين »

فيجيبه الخليفة الرحيم

« أمّا القتال، فلا .. » !!

* ويصيح في الصحابة الذين تجمّعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح

« إن أعظمكم عني غَناءً، رجل كفّ يده وسلاحه » .. !!

* ويرى أبا هريرة شاهراً سلاحه في اهتياج شديد ، فيدعوه إليه ويقول له :

« أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وأنا معهم ؟

« أما إنك والله لو قتلت رجلاً واحداً ، فكأنما قتلت الناس جميعاً » .

* وحين يعلم أن عصبة كبيرة من شباب المسلمين .. وعلى رأسهم الحسن ، والحسين ، وابن عمر ، وعبد الله بن الزبير .. قد أخذوا مكانهم لحراسته ، وشهروا سلاحهم ، يتفطر قلبه أسًى ، ويدعوهم إليه ، ويناشدهم قائلاً :

« أناشدكم الله وأسألكم به ، ألا يُراق بسببي مِحْجَمةُ دم » !!

ألم أقلْ لكم .. إنه أوّابٌ رحيم ..

وإنها الرحمة جامعة ، تعطي نفحاتها المقسط حلائل الأحداث وصغارها .. فتحدد منها حظّه وحقّه في أن ينعم براحة اليوم وإن أضنى الخليفة نفسه وشيخوخته في ظلمة الليل البهيم .. وبعطرات الدم حظّها وحقها في أن تنعم بالسلامة والعافية .. وإن كان يدفع ذلك أن ترهق روح الخليفة الشيخ ، بيد معتد أثيم ، وغادر لئيم !!

لقد كان "عثمان" رضي الله عنه أحد الملائكة الذين يدفعون حياتهم ثمناً لفضائلهم العالية ..

ولقد توعدت الرحمة في حياته وفي سلوكه حتى اقتضته آخر الأمر حياته نفسها فجاد بها .. مؤثراً أن يموت وولاؤه للرحمة ممدود الأواصر ، على أن يحيا وقد فقد مكانه في طليعة الرحماء الأبرار ..

ولقد كان من الطبيعي لرجل وسعت رحمته الناس جميعاً أن يعطي رحمته ذوي قرباه ..

ولقد كان رضي الله عنه يسبح وحده في حبّه أهله ، وفي صلته رحمه ..

وحسبنا في ذلك قول الإمام علي عنه :

« أوصَلُنا للرحِم عثمان » .

وغداً .. عندما يلقي علي كاهله مسئولية الخلافة ، سنرى رحمته الممتدة بأهله ، وحبّه الفيّاض لذوي قرباه ، يلعبان دوراً حاسماً في الأحداث الضارية التي نزلت بالإسلام بأفجع مآسيه ..

* * *

قد .. إن "عبد الله بن عمر" رضي الله عنهما ، كان يتلو قول الله تعالى :

﴿ أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه ﴾

ثم يقول : إنه "عثمان بن عفان" ..

وهي شهادة حقّ تتألق في صدقها ، بل تتألق هي في ضوء الحقيقة الصادقة المثيرة التي تُرِعت وزدانت بها حياة "عثمان" منذ عرف الله ، إلى أن لقيه شهيداً مجيداً ..

فقد كان رضي الله عنه ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ..

وحذره الآخرة ورجاؤه رحمة الله، يتبديان في حياته كلها، وفي تصرفاته جميعها. حتى تلك التصرفات التي أُخِذَتْ عليه، كان وراءها طمع رجل يرجو رحمة ربه..

ولقد كان يحمل إشفاقاً من الآخرة عظيماً. نراه في خطبه التي كان يخطب المسلمين بها:

« أيها الناس

اتقوا الله، فإن تقوى الله غُنْمٌ. وإن أكْيَس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واكتسب من نور الله نوراً لقبره.

وليخشَ عبدٌ أن يحشُره الله أعمى وقد كان بصيراً »..

وفي خطبة أخرى يقول:

« إن الله أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يُعطِكُموها لتركنوا إليها.

إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، فآثروا على ما يبقى على ما يفنى

إن الدنيا منقطعة.. والمصير إلى الله وحده ».

وكانت روحه ترتجف، وعبراته تفيض عندما يذكر الآخرة، وعندما يتخيل نفسه وقد انشق عنه قبره، وتَسَلَّلَ من جَدَثه مسرعاً إلى العَرْض والحساب..

ولقد رُوي عنه قوله:

« لو أني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيتهما يُؤمَرُ بي، لتمنيت أن أصير رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير »!!

* * *

ورجل يحذر الآخرة كل هذا الحذر، لا يخطئ السبل المفضية إليها، ثم هو لا يخطئ أفضل هذه السبل وأسماها. ذلكم هو الجهاد في سبيل الله.

وهنا - كما في بقية شمائله وفضائله - لا نجد في عثمان "عابد صومعة".. بل "عابداً" يملأ الحياة سعياً وجداً وبذلاً واستبسالاً.

لقد كان بطبيعته وبتركيبه النفسي يكره رؤية الدم المسفوح.

ولكن حين هبت قوى الوثنية والشرك لتطفئ نور الله، وأمر الله رسوله ومن معه أن يأخذوا سلاحهم بأيمانهم، وأن يبيعوا له أنفسهم وأرواحهم، ألقى "عثمان" بنفسه في المعمعان الرهيب، وأخذ مكانه في الصفوف المرصوصة على أرض الغزوات والمعارك.

* لم يشهد "غزوة بدر"، لأن زوجته "السيدة رقية" بنت الرسول ﷺ كانت مريضة مرض الموت، وأمره النبي ﷺ أن يبقى بجوارها ويسهر عليها. ولقد مثل وأطاع. وفي اليوم الذي جاءت البُشرى إلى المدينة بانتصار المسلمين في "بدر" مضت روح "رقية" إلى بارئها.

* وعندما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يوزع غنائم النصر على المقاتلين،

اعتبر "عثمان" حاضراً وبدرياً ، وفرض له قسمه ونصيبه !!

* وفي غزوة أُحُد صال وقاتل . ولكن عندما بغت جيش الشرك المسلمين من جديد وأخذهم على غِرّة شتّتت صفوفهم ، وبعثرت تماسكهم ، وتعالت الأصوات الداعية [أن محمداً قد مات] تغشى "عثمان" من الذهول والفجيعة ما جعله يولّي عن أرض المعركة مُدْبِراً مع الذين تَوَلَّوْا يومئذٍ مُدْبِرين ، يدفعهم الذهول لا الجُبْن . فقدّر الله عُذْرهم وقبل اعتذارهم ، ونزل الوحي بشأنهم يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾

* ولم يتخلف عن المعارك التي خاضها الإسلام من بعد ، فشهد خيبر ، والفتح ، والطائف ، وهَوازن ، وتبوك .

وفي يوم "الحُدَيْبِيَة" تصدّى للمخاطرة [illegible] اختاره لها الرسول ، فسارع إليها في بسالة واستبشار .

* * *

كان ذلك في العام السادس للهجرة ، حين عزم رسول الله ﷺ أمره وخرج بأصحابه إلى مكة ليزور البيت الحرام .. حتى إذا بلغ مَتْهمة من مَنَاهِل الطريق عند "عسفان" جاءه الأنباء أنّ قريشاً قد علمت بمسيره ، فخرجت في ثياب الحرب للقائه .

واستأنف الرسول مسيرته المباركة حتى بلغ مهبط الحُدَيْبِيَة على مشارف مكة ، واستقر بأصحابه هناك .

وأخذت "قريش" تبعث برُسُلها ومندوبيها إلى النبي ليُثبطوا عزمه ، ويحملوه على الرجوع .. لكن مندوبيها جميعاً كانوا يعودون بغير الوجوه التي جاءوا بها .

أجل .. كانوا يقدمون على الرسول بوجوه كالحة غضبى تحكي إصرار قريش على التحدّي .. ثم لا يكادون يجلسون بين يَدَي الرسول ويسمعون كلماته حتى تلين قلوبهم وتخشع .

بل إنهم وقد جاءوا يُحذّرون الرسول بأسَ قريش ، عادوا جميعاً ليُحذّروا قريشاً بأس الرسول ﷺ .. !!

كان آخر هؤلاء المبعوثين "عروة بن مسعود" .. جلس يقول للنبي عليه السلام « يا محمد ، إن قريش قد خرجت معها العُوذُ المطافيل ، قد لبسوا جلود النُّمور ، متعاهدين ألا تدخلها عليهم عَنْوة أبداً » .

لكنّه وقد أذهله جلال ما سمع وما رأى ، عاد إلى قومه ليقول لهم [أي معشر قريش إني قد جئت "كِسْرى" في مُلكه ، و"قيصر" في ملكه ، و"النجاشي" في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً يعظمه قومه ، مثلما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً .. ولا رأيت ملكاً يحبه قومه ، كما يحبُّ أصحاب محمدٍ محمداً .. وإنهم والله لن يُسْلِموه أبداً .. فروا رأيكم] .. !!

لكن قريشاً كعادتها ، أخذتها العزّة بالإثم

هنالك رأى الرسول أن يبعث إليهم من عنده رسولاً يؤكد لهم أنه - عليه السلام - لم يأت غازياً، بل زائراً للبيت ومعظماً له. فدعا "خراش بن أمية الخزاعي" وبعثه بهذه المهمة. بيد أن قريشاً لم تكد تراه وتسمع كلماته حتى عقرت بعيره الذي كان يركبه، وهمُّوا به يقتلونه لولا أن منعته الأحابيش وردته من الموت.

وعاد "خراش الخزاعي" إلى الرسول وقصَّ عليه ما حدث.

وفي اليوم التالي، بعثت قريش خمسين رجلاً من أشدائها، ليتحرَّشوا بالمسلمين، ويضربوا معسكرهم بالحجارة والنبال، وليختطفوا منهم من يستطيعون خطفه.

بيد أن خطتهم خابت، حين قبض نفر من جنود الرسول عليهم، وهو أمر كانت تقابلهم بأمنه ورحمته ونداه عما عرف عنهم عند هذا السراء.

ورأى الرسول عليه السلام أن يتحرى الموقف من وراء سدود الخطر، فقرر أن يبعث رسولاً آخر يردُّ قريشاً إلى صوابها إن كان قد بقي لها صواب!

واختار "عثمان بن عفان".

كانت الأخطار تتهدَّدُ هذه الوفادة..

فالمبعوث الذي أرسله النبي من قبل، حاولت قريش قتله.

ولم تكتف بهذا، فأرسلت خمسين من رجالها يشاغبون أصحاب الرسول ويحاولون اختطاف بعضهم.

وسط هذه المخاطر المنذرة المرعدة، حمل "عثمان" أمر الرسول ومضى إلى قريش، لا يعنيه أن يرجع حيّاً أو يقضي هناك شهيداً، ولقي أبا سفيان بمكة وجاء الجموع المحتشدة من قريش فبلغهم رسالة الرسول ﷺ. فكان جوابهم له: «إن شئت أنت أن تطوف بالبيت فطفْ، أما محمد وأصحابه فلا».

ويجيبهم "عثمان":

«ما كُنتُ لأفعل، حتى يطُوف رسول الله ﷺ».

وحالت مكانته وسؤدده في قريش دون الاعتداء على حياته، لكنهما لم يحولا دون اعتقاله واحتجازه. ويبدو أن قريشاً أرادت أن تختبر عزم المسلمين، وتبلو نواياهم، فأوعزت إلى بعض رجالها، كي يذهب إلى معسكر المسلمين ويشيع أن قريشاً قتلت "عثمان".

هنالك قرر الرسول عليه السلام أن يري المشركين من تصميمه وقدرته ما يزجرهم عن طغيانهم وما يعمهون، فدعا أصحابه إلى البيعة. وهناك تحت الشجرة، تمَّت أروع مواثيق التاريخ وأكثرها جلالاً وسمواً.

تلك كانت "بيعة الرضوان" التي خلدها القرآن في آياته الكريمة وآياته المباركات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

﴿لقدْ رضيَ اللهُ عنِ المُؤْمنينَ إذْ يُبايعونكَ تحتَ الشَّجرةِ، فعلمَ ما في قلوبِهمْ فأنزلَ السَّكينةَ عليهمْ وأثابهمْ فتحاً قريباً﴾

وكأنما كان الرسول ﷺ يعلم بما معه من نور الله وصفاء البصيرة أن "عثمان" لم يُقتل ولم يصبْه سوء، فبايع نفسه باسم "عثمان"، إذ لم يكد ينتهي من بيعة أصحابه، حتى شدَّ بإحدى يديه على الأخرى قائلاً:

« وهذه بَيْعَةُ عثمان »!

فلم يبقَ من المسلمين أحد، إلا تمنّى لو أنه كان صاحب هذه الحظوة وهذا التكريم.

وعاد "عثمان" سليماً مُعافى، وأرسلت قريش سفيراً جديداً هو "سهيل بن عمرو" الذي أبرم مع الرسول معاهدة عُرفت في التاريخ بـ "صُلح الحديبية".

* * *

هكذا كانت العبادة عند عثمان.

يقوم ليله ضارعاً ويصوم نهاره خاشعاً.

وينفق ماله بغير حساب.

ويحمل سيفه إذا نوديَ للجهاد والضِّراب.

وهو يؤدي كل فرائض دينه وشعائر عبادته داخل دائرة وثقى من الأمانة على مسئولياته وتبعاته، كمؤمن صادق وصحابي جليل.

كانت عيناه تفيضان من الدمع كلما تلا هذه الآية الكريمة:

﴿إنّا عَرَضْنا الأمانةَ على السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ منها وحمَلها الإنسانُ﴾.

أترى بصيرته الباطنة كانت تستشفّ من وراء الغيب أنه سيحمل فيها من الأمانة والمسئولية ما يُطيق وما لا يُطيق..؟؟

لقد حمل قدْرَ طاقته وجُهده أمانة دينه، وأمانة حياته.

وكانت الأمانة في مفهومه تعني الإخلاص الكامل لهذا الدين.

ومن ثم أخلص وصدق حتى بشّره الرسول بالجنة، واصطفاه ليكتب له الوحي، كما بشّره عليه الصلاة والسلام بالشهادة يوم كان يقف على مرتفع من جبل أُحد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فارتجف المكان الذي يقفون فوقه، فضربه الرسول ﷺ بقدمه وهو يقول:

« اثْبُتْ أُحُد، فإنما عليك نبيٌّ، وصدِّيق، وشهيدان »!!

ثُلثُ الخلفاء

أبَى أمير المؤمنين "عمر" وهو يجود بأنفاسه الطاهرة أن يستخلف أحداً

وحين ألحَّ عليه بعض أصحابه كي يختار بنفسه مَن يخلفُه ، استمسك برأيه ورفضه ، وقال لهم :

« أأحمل أمركم حيّاً وميتاً .. ؟ وددتُ أن يكون حظّي منكم الكفاف ، لا عليّ ولا لي .. »

« ألا إني إنْ أستخلفْ ، فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أتركْ ، فقد ترك من هو خير مني - يعني رسول الله ﷺ - والله حافظ دينه »

وولّى رُوحه الضارعة شطْرَ الله الرحيم العليم ، يسأله أن يُلهمه الرُّشد ، وأسبل جفنه وأعمل فكره وعلى النور لاح له من الله نور .. وكأنما تذكَّرَ ذلك اليوم البعيد القريب ، وقد أرهفوا السمع لرسولهم الكريم يعظهم ويناديهم قبل وفاته بأيام .

« أيها الناس ..

إن أبا بكر لم يَسُؤْني قطّ ، فاعرفوا له ذلك .

أيها الناس ..

إني راضٍ عن عمر ، وعليّ ، وعثمان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك» .

علي ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن ، ما أجلَّها من ذكرى تعود الآن في أوانها ! .

فليكن لهؤلاء الستة الذين منحهم الرسول كل هذا التكريم ، عاقبة الأمر الذي يشغل الأمير المحتضر ، وليَضعْ في أعناقهم مجتمعين ، الأمانة التي حملها طوال سني خلافته في مثل عزم المرسلين ، وهكذا جمعهم حوله ، ووجَّه إليهم الحديث .

« إني نظرت فوجدتكم القادة ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قُبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ ، وإني لا أخاف الناس عليكم ، ما استقمتم ..

فإذا أنا متّ فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ..

وليحضر معكم عبد الله بن عمر مشيراً ، ولا يكون له من الأمر شيء .. »

* * *

كان "طلحة" غائباً عن المدينة ، فاجتمع بقية الصحاب الذين وضع "عمر" الأمانة في أعناقهم قبل رحيله

واقترح عليهم "عبد الرحمن بن عوف" أن يخلع أحدهم نفسه ويتنازل عن حقه في الترشيح ليكون صوته مُرجحاً إذا قام خلاف .

ويدعو محلّع نفسه. ثم تنازل "الزبير" عن حقه لـ "علي"، وتنازل "سعد بن أبي وقاص" عن الترشيح أيضاً. وهكذا انحصر الاختيار بين "عثمان وعلي"، وفوّض "عبد الرحمن بن عوف" في اختيار أحدهم.

كان على "ابن عوف" أن ينجز المهمة في الأيام الثلاثة التي أوصاهم الخليفة الراحل ألا يتجاوزوها.

وكان عليه خلال هذه المهلة القصيرة أن يجري شورى واسعة واستفتاءً عميماً بين أصحاب الرسول جميعاً.

وهكذا راح يذرع المدينة ويقرع أبواب دورها.. يقول "ابن كثير":

"نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس، ويجمع رأي المسلمين عامتهم وقادتهم.. جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى ومجتمعين.. سراً وجهراً، حتى خلص إلى النساء المحجبات في بيوتهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل الركبان الوافدين على المدينة..

ونواصل السير مع "ابن كثير" لنرى معه كيف تم الأمر، وكيف حمل "عثمان" أمانة الحكم، وما أفدحها من أمانة..!!

ثم أرسل عبد الرحمن في طلب عثمان وعليّ، فقدما عليه، فأقبل عليهما وقال لهما: إني سألت الناس عنكما، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً.

ثم أخذ العهد على كل منهما لئن ولاه ليعدلن، ولئن وُلّي عليه ليسمعن وليطيعن.

ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عمّمه بها رسول الله ﷺ، وتقلّد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس كافة: الصلاة جامعة. وتراصّ الناس حتى غصّ بهم المسجد، وحتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا في أخريات الناس –وكان رجلاً حييّاً– ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ، فدعا دعاءً طويلاً ثم تكلم فقال: أيها الناس، إني قد سألتكم سراً وجهراً، فلم أجدكم تعدلون بعليّ وعثمان أحداً. فقم إليّ يا علي. فقام إليه وأخذ عبد الرحمن بيده وسأله: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه، وفعل أبي بكر وعمر؟

قال عليّ: على كتاب الله وسنة رسوله واجتهد رأيي.

ثم قال: قم إليّ يا عثمان. فقام إليه، فأخذ بيده وقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله، وفعل أبي بكر وعمر..؟

قال عثمان: اللهم نعم.

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد.. اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان..

وازدحم الناس على عثمان يبايعونه..."

* * *

كانت أول يمين شدّت بيعته على نفسه ، يمين "علي بن أبي طالب" وتتابع المسلمون جميعاً يبايعون.

وهكذا حمل "عثمان" أثقال الخلافة .. حملها وهو على وشك أن يستقبل السبعين من عمره ، ترى هل كان بها حفيّاً وعليها حريصاً ؟؟

فيما نعلم من طبائع البشر ، فإن سن السبعين ليست سن المناصب والطموح ، ولا السن التي تتفتح فيها الشهوات لمتاع السلطان ، فكيف وصاحب هذه السن رجل يبسط الحياء على حياته والحياء يدفع أصحابه دائماً إلى الظلال ؟؟

ثم كيف ، وصاحب هذه السن رجل تلقى المسؤولية على وقع نذير رهيب يتمثل في اغتيال خليفة تحدت الجريمة عدله وورعه وبأسه ونفوذه العظيم الرهيب ؟؟

أغلب الظن أن "عثمان" رضي الله عنه تلقى البيعة وهو يرتجف.

ويعطينا مؤشراً إلى هذا المعنى ، تلك الرواية التي تحدثنا أن الخليفة بعد تلقيه البيعة من أهل الشورى توجّه إلى المنبر وعلى محيّاه اكتئاب.

ولعلّ هذه الخشية لجلال المسؤولية ، هي التي أمسكت لسانه عن الإفاضة في أول خطبة ألقاها ، فاكتفى بأن حذر الناس من الدنيا وغرورها ورغّبهم في الآخرة وحبورها.

ولولا ضغط الموقف وثقل المسؤولية لأفاض ، فما كان رضي الله عنه عاجزاً عن الحديث ولا عَيِيّاً .

يروي عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قوله:

«ما رأيت أحداً كان إذا حدّث أتمّ حديثاً من عثمان ، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث»

ومن الطبيعي أن يكون هيّاب الحديث ، ما دام يحكم فيه هذا القدر الفائق الهائل من الحياء.

فإذا انضاف إلى حيائه الشديد وطأة المسؤولية الفادحة ، فإن خطبته السريعة العاجلة يوم ذاك تعطينا أول صورة من صور المجابهة المضنية التي ستقوم بين الخليفة الشيخ ، ومسؤولياته الثقال الجسام.

* * *

على أنه مهما تكن وطأة المسؤولية ، فإن "عثمان" بما معه من إيمان وأمانة سيعطي المسؤولية حقها ، وسيباشر على الفور تبعات البيعة التي أعطاها والبيعة التي تلقاها.

لقد أعطى عهده وموثقه أن يسير على سنة الرسول ﷺ ونهج صاحبيه أبي بكر وعمر وهو حين أعطى ذلك العهد لم تكن نواياه منفصلة عن كلماته ، ولم يكن عزمه منحسراً عن نواياه ، لكنه مع ذلك كان يدرك أن قدرته محدودة ، وأن صاحبيه العظيمين لا يُدرَك شأوهما ، ولا يُنال مداهما.

وإنه الآن ليذكر ذلك اليوم الذي أطلّ فيه من نافذة داره ، فأبصر على البعد رجلاً يجري في قيظ الظهر ، وهجير الصحراء ، فظنه غريباً نزل به كرب عظيم ، ولبث متطلعاً من نافذته حتى يعود ذلك الرجل المتلهف فيدعوه إلى ظل داره ويعفيه من لهفه

وكم كانت دهشته وعجبه حين اقترب الرجل ، فإذا هو أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" ممسكاً بخطام بعير يهادي وراءه

وسأله عثمان: من أين يا أمير المؤمنين ..؟

وأجابه عمر من حيث ترى .. بعير من إبل الصدقة ند هارباً فأسرعت وراءه ، ولحقت به ..

وعاد "عثمان" يسأل: ألم يكن هناك من يقوم بهذا العمل سواك؟

وأجابه عمر: ومَنْ يقوم مقامي في الحساب يوم القيامة ..؟!

ودعاه "عثمان" إلى الراحة حتى ينكسر حدة الهجير ، فما رد "عمر" عليه إلا قال ودموعه الورعة تسيل من مآقيه: "عُدْ إلى ظلك يا عثمان"

ومضى لسبيله ، ووقف "عثمان" متعلقاً به حتى غاب عنهما .. وراح "عثمان" يتمتم قائلاً

« لقد أتعبتَ الذين سيجيئون بعدك » !!

* * *

إنه الآن وقد صار خليفة ، وشاء له القدر أن يكون أول رجل يجيء بعد "عمر" ليذكُر هذه الوقائع وعشرات الوقائع مثلها ، فيأخذه الإشفاق على نفسه وعلى أمته

إنه يجيء على أثر خليفتين ليس لهما نظير

يجيء بصفة خاصة بعد عشر سنوات "عُمرية" فرض فيها "الفاروق" على المسلمين منهجه الصارم ، وعدله المكين ، وحمل ولاته وعماله على مثل ما حمل عليه نفسه من زهد وتقشف وعناء

كما يجيء والدولة تتسع رقعتها بغير حساب ، وتتلاطم تحت رايتها أجناس شتى ، متباينة الطبائع والعادات .

كذلك يجيء والدنيا قد فُتحت على المسلمين فتحاً عريضاً .. بحيث أصبحت دخولهم من التجارة ، ونصيبهم المشروع من الفيء ومن العطاء تزيد على احتياجاتهم زيادة تنقل الكثيرين منهم إلى عداد الأثرياء ، وكبار الأثرياء

كان "عمر" رضي الله عنه يرى إقبال الدنيا وهي في بدايتها فيرتجف إشفاقاً على المصير.. ويقول

« إن للمال ضراوة كضراوة الخمر » !

ويذكر قول الرسول عليه السلام لأصحابه يوماً

« والله ، ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها »

وها هي ذي قد فُتحت ، وها هو ذا "عثمان" يدعى ليحمل المسئولية ويمسك الزمام

تُرى هل سيحسن استخدام الشكائم التي استخدمها سلفه العظيم "عمر" في مهارة تبهر الألباب ؟!؟

إن الرجل الليّن الجانب، الهادئ السَّمْت، الوديع اللطيف ليدرك أن المهمة ثقيلة، وأن أثقل ما فيها هذه الدنيا التي أقبلت بكل إغرائها الخطِر على المسلمين، والتي زاد امتلاؤها بحرمهم وتطويقها لهم عندما انكسر السدُّ المنيع الشامخ الذي كان يصدها ويثنيها.

بل لا نكاد نشك في أن "عثمان" كان يدرك أيضاً أن أكثر الذين رحَّبوا باختياره للخلافة دون "عليٍّ" كرم الله وجهه، إنما فعلوا رغبة منهم في الانعتاق من ترمُّت الحياة وتقشف المعيشة اللذين طالت معاناة الناس لهما، واللذين كان سيفرضان عليهم من جديد لو تسلَّم الأمر "علي بن أبي طالب" الذي كان بمنهجه الصارم وعدله المكين، وبورعه وبتقشُّفه يمثل امتداداً واضحاً وأكيداً لصرامة "عمر" وعدله، وتقشفه، وورعه.

كل ذلك - فيما نحسب - لم يغِب عن بال الخليفة الثالث "عثمان".

ومن أجل ذلك لا نخاله إلا قد رأى في الدنيا المقبلة على المسلمين أعْضَل مشكلات عهده.

ومن أجل ذلك أيضاً، كانت أولى كلماته إلى الناس في أول خطبة له، التنبيه لهذا الخطر قبل أن يستفحل فلا يستطيع ولا يستطيع المسلمون له دفعاً.. وهكذا، وقف بعد تمام البيعة يقول:

«.. إن الدنيا طُوِيَتْ على الغرور، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا، ولا يغرَّنَّكُمْ بالله الغَرور»

«.. ارموا بالدنيا حيث رَمَى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب للدنيا مثلاً فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۞ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

* * *

على أن موقف الخليفة الثالث من مشكل الثراء ظلَّ محتملاً في التقدير رغم اختلافه عن موقف سلفه أمير المؤمنين.

فكلا الاثنين متفقان على أن الثراء بمتاعه يُشكِّل خطراً على المسلمين الذين نذروا حياتهم للدعوة والجهاد، والذين أراد لهم دينهم أن يكون زاد أحدهم من الدنيا كزاد الراكب، بيد أنهما في مقاومة هذا الخطر يختلفان.. فأما أمير المؤمنين "عمر" فيركز على قمع الاستمتاع المشروع بهذا الثراء، ويقاوم الاستسلام لطيبات الحياة الدنيا.

وهو يبدأ هذا القمع وهذه المقاومة مع نفسه وأهل بيته وعشيرته، ثم مع ولاته وعماله.. فلا يكاد يسمع عن والٍ ترفه في ملبسه أو في مطعمه حتى يستدعيه إليه في المدينة ويزجره ويعنفه، فإن عاد إلى استسلامه للنعيم أقصاه وعزله.

ولقد كان يريد بهذا أن يجد عامة الناس في ولاتهم قدوة تعينهم على عدم الاستسلام لمغريات الثراء وأطايب الحياة وترف المعيشة.

هذا كان نهج "عمر"

أما الخليفة الثالث "عثمان" فكأنما كان يرى أن المال إنما خلق ليجعل الحياة مُوطَّأة الأكناف .. وما دام الثراء حلالاً ، والاستمتاع مشروعاً ، فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة ونعيمها ، لا فرق بين الأمراء والولاة والعامة .. وهي وجهة نظر تتسق مع نشأته وسجاياه .

أجل لم يجد "عثمان" من حقه - مثلاً - أن يعزل والياً رغد عيشه ، ورفهت حياته ، واغترف من طيبات الدنيا بكلتا يديه ، ما دام في استمتاعه هذا لا يَجْترح منكراً ولا يُقارف إثماً

ولم يضع الخليفة في حسابه ما وضعه "عمر" من قبل في حسبانه من أن للمال ضراوة كضراوة الخمر ، وأن للحلال أحياناً فتنة وخطراً كفتنة الحرام وخطره ، وأن النفس البشرية طامحة دائماً في المزيد ، وإذا لم يُفرض عليها الفطام عن كثير من الطيبات المباحة ، سَهُل إباقُها وانفلاتُها نحو التمتع المحظور !!

* * *

على أيِّ حال ، فقد اختير "عثمان" للخلافة ، وهو واثق من أمانته على دين الله ، وعلى مُقدَّرات الدولة والأمّة اللتين حمل مسئولية الحفاظ عليهما .. وهو كخليفة ، له الحقّ في اختيار الأسلوب الذي يمارس به سلطته ، ما دام واضعاً عينيه دائماً على الأسس الرئيسة التي شرعها الله ، وسار عليها رسوله ﷺ وصاحباه

وهكذا بدأ في ظل تلك المبادئ لوثقى يُباشر مَهامَّه ومسئولياته في عزم وسداد .

وسنصححه الآن في بعض إنجازاته المتألقة فتراه يبدأ كما يحدث ابن كثير: بالكتابة إلى ولاة الأقاليم ، وأمراء الحرب ، والأئمة على الصلوات ، والأمناء على بيوت المال ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويَحثُّهم على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، ويُحضُّهم على اتِّباع السنّة وتَرْك الإحداث والابتداع .

ورأى بيت المال عامراً ممتلئاً ، فزاد في عطاء الناس ، واتخذ في المسجد سماطاً يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدين وأبناء السبيل

بيد أنه لم يكد يستقر في منصبه ويتهيأ لإنجاز ما كان يودُّ إنجازه من إصلاح، حتى فوجئ بالانتفاضات المسلحة تنقضُّ على الدولة من كل مكان.

فقد نقضت دولة الروم عهودها السابقة، وكذلك فعلت بعض المقاطعات الفارسية.

لكأنما كان مقتل "عمر" رضي الله عنه إشارة البَدْء بين قوى التمرُّد ، فقامت قومة واحدة في "أذربيجان" ، و"أرمينية" ، وأغار الروم بأسطولهم على "الإسكندرية" و"فلسطين" ، وسرت النار مطوِّقةً الدولة العربية المترامية .

لم يكن التمرد من شعوب تلك البقاع ، فلقد كان فرحها بالإسلام عظيماً يوم ذهب إليها وحررها من طغيان فارس والروم .

إنما جاء التمرد من فلول القوى التي كانت تملك قبل الإسلام وتسُود .. لكنها لم تكن فلولاً قليلة ولا ضعيفة، وقد زاد في قوّتها ما أشاعوه بين الجماهير في بلادهم من أن

الإسلام قد انتهى، وأن خليفته القوي "عمر" قد غُسل بدم مجوسي منهم، وأن الفوضى ستثبت في البلاد.

ولقد أغرى زعماء تلك الفتنة ما علموه من أن الخليفة الجديد رجل في سن السبعين.

ولم يكن لـ "عثمان" رضي الله عنه بطولات مسموعة مثل "خالد بن الوليد" مثلاً، و"سعد بن أبي وقاص"، و"علي بن أبي طالب"، بل إن اسمه لم يكن يتردد بين الأسماء الشهيرة خارج المدينة، لا لشيء إلا لأن حياءه وهدوءه كانا يحجبانه دوماً في الظلال.

كل ذلك أغرى المتمردين بالانتقاض.

ورأى ابن السبعين عاماً نفسه مطالباً بأن يُري هؤلاء الحمقى المخدوعين أن أصحاب "محمد" ﷺ لا يُمارى قدرهم يصحبهم الإقدام، وأنهم يحملون فوق كواهلهم من سني الأعوام [illegible] بما وقر في قلوبهم من إيمان بالله وبوعده، وبرسوله وبدينه.

هنالك لم يضيع لحظة في تفكير...!

لم يلتفت ذات اليمين ولا ذات الشمال...!

لم يسأل أحداً ـ حتى مجرد سؤال ـ ماذا يجب أن يصنع..؟

فقد حدد له ضميره المؤمن الطريق.

وعلى الفور أصدر أوامره بإطفاء النار وقهر المرتدين.

ليس ذلك فحسب، بل أصدر أوامره أن يجاوز الفتح تلك البقاع المتمردة إلى حدود أبعد، حتى لا تبقى أطراف الدولة سهلاً عليها التمرد كلما شاءت.

ولقد اختار بنفسه قواد الجيوش التي ستقوم بهذه المهام.

ومن عجب أن أحداً منهم لم يخسر معركة قط إذا استثنينا معركة واحدة.

لقد كان "عثمان" يومئذ يفكر ويدبر، ويعزم ويحزم، وكأنما قد حل داخل إهابه شباب صريح...!!!

إن هذا الخليفة العظيم الكهل سيُريه بمضاء عزمه وروحه خلال سنين لاحقات، فهو يرى أن ضرورات الفتوحات وأحب جانب للنصر يتطلب تجهيزات حربية، وإنزال عدد ضخمة من الجنود إلى البحر لم يتردد، مع أنه يعلم أن "عمر بن الخطاب" ظل طوال خلافته يرفض هذه المخاطرة.

ولقد رأى القواد والجنود يومئذ هذه الروح المتوثبة من خليفتهم الشيخ، فازدادوا بدورهم مضاءً ومقدرة واستبسالاً.

* * *

بدأ الخليفة مجابهة القوى المتمردة التي حملت السلاح ضد الإسلام ودولته، في "أذربيجان" و"أرمينية" اللتين نقضتا العهد الذي كانتا قد أبرمتاه من قبل، فسيّر إليهم جيشاً بقيادة "الوليد بن عقبة" فردّهم إلى صوابهم، ووقّعوا معاهدة بالشروط نفسها التي كان قد أبرمهم عليها من قبل "حذيفة بن اليمان" رضي الله عنه.

وبينما كان الوليد وجيشه راجعين إلى الكوفة، جاءتهم الأنباء بأنّ الروم تتحرش بالشام، وجاءت هذه الأنباء مشفوعة بأمر الخليفة للوليد أن يجهز عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة رجل [أمين كريم شجاع]

وننظر كيف يبزغ نبوغ الخليفة في هذه المهمة، فهو يأمر الوليد أن يختار لقيادة هذا الجيش رجلاً كريماً

إن السخاء الذي لا يعرف لسخائه حدوداً، يقترن بالسخاء، ومن ثم يجدر بالقائد إذن كان سخياً جواداً !!

واختار "الوليد" أمر الخليفة قائد الجيش ووضع على رأسه قائداً شجاعاً سمحاً، هو "حبيب بن مسلمة الفهري"

سار "حبيب" بجيشه الذي لا يجاوز عشرة آلاف جندي، بل لعله كان دون هذا العدد، وأقبل الروم والترك في جيش قوامه ثمانون ألفاً.

وكانت زوجة القائد "حبيب بن مسلمة" مجندة في جيش المسلمين

وقبل أن يبدأ القتال سألته:

- أين ألقاك إذا حَمِيَ الوطيس وماجت الصفوف ؟

فأجابها الزوج القائد:

- في خيمة قائد الروم .. أو في الجنة..!

الله أكبر !!

والتقى الجيشان، لتدور الدوائر آخر الأمر على جيش الروم والترك. ولم يقف "حبيب" عند هذه الجولة الظافرة، بل سار متوغلاً في بلاد الروم، يفتح الحصون الشاهقة حصناً وراء حصن، ويفتح الأبواب للإسلام والحرية أمام جماهير غفيرة طالما انتظرت يوم الخلاص ؟

* * *

وكانت مقاطعة "الري" قد نقضت هي الأخرى عهدها وتمردت، فزحفت عليها قوة بقيادة "أبي موسى الأشعري" ردت المتمردين إلى الجادة، وأنزلتهم مرة أخرى على العهد القديم الذي كان قد واثقهم عليه "حذيفة بن اليمان".

* * *

وتلقى الخليفة الرضي في "المدينة" عاصمة الإسلام صوت الإسكندرية التي جاءته أنباؤها بأن الأسطول البحري للروم قد أغار عليها. كما أن أعداداً هائلة من المشاة والركبان يزحفون نحوها. فأرسل الخليفة بأمره إلى "عمرو بن العاص" واليه على مصر، كي يسير بجيشه إلى الإسكندرية. وهناك أصلى المغيرين سعيراً، وأنزل بالمتمردين هزيمة مستأصلة شأفتهم إلى الأبد، وفي الوقت نفسه كان "معاوية" يفتح "قنسرين"، وكان "عثمان بن أبي العاص" يقهر التمرد الناشب في "اصطخر" ويعيد فتحها من جديد !!

وإلى الشمال الإفريقي بعث الخليفة جيشاً كبيراً بقيادة "عبد الله بن سعد بن أبي سرح" وأرسل معه "عبد الله بن عمر" و"عبد الله بن الزبير"

وأقبلت جيوش البربر بقيادة ملكهم في أعداد ضخمة قدّرها بعض المؤرخين بمائتي ألف مقاتل.

وكان لقاء رهيب، أبلى فيه المسلمون بلاء باهراً ورائعاً، ولا سيما "عبد الله بن الزبير" الذي شهدت منه هذه المعركة ما ليس له منقطع النظير.

وكُتب النصر المبين للمسلمين، وعاد جيشهم الظافر بما لا حصر له من الأسرى، ومن الغنائم، والأموال..!!

* * *

ورأى الخليفة "عثمان" رضي الله عنه وأرضاه أن الأسطول البحري للروم يتخذ من جزيرة "قبرص" منطلقاً لعدوانه، فقرر غزوها.

ولكن كيف..؟ والمسلمون لم يمتطوا ثبج البحر من قبل في قتال

وأميرهم العظيم الراحل "عمر" كان، كما أسلفنا من قبل، ضد كل مخاطرة من هذا القبيل.

لقد تدارس "عثمان" الأمر مع بعض أصحابه ومشيريه، واقتنع بحتمية هذه المخاطرة.. ولأول مرة تشهد التاريخ ميلاد "البحرية الإسلامية"

أذن الخليفة لمعاوية بغزو "قبرص"، فأبحر إليها من الشام، وأمدّه الخليفة بجيش آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وأطبقت القوتان الغازيتان على الجزيرة فاستسلمت ووقّعت الصلح الذي فرضه المسلمون.

وفي هذه الغزوة تحققت نبوءة قديمة للرسول ﷺ

ذلك أنه كان عليه السلام يقيل يوماً في دار "عبادة بن الصامت" رضي الله عنه، ونهض من نومه وهو يضحك، فسألته "أم حرام بنت ملحان" عمّ أضحكه. فقال الرسول ﷺ

«ناس من أمتي عُرِضوا عليَّ يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرّة».

فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم.

فقال لها الرسول ﷺ: أنت منهم.

ونام الرسول ثانية، ثم استيقظ وهو يضحك.. ويقول:

«ناس آخرون من أمتي عُرِضوا عليَّ يركبون ثبج هذا البحر، مثل الملوك على الأسرّة».

فقالت: «أم حرام»: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم:

فأجابها الرسول ﷺ: أنت من الأولين

كانت هذه الواقعة ذائعة بين الصحابة أيام كان الرسول ﷺ معهم ثم بعد أن فارقهم بعد إلى الرفيق الأعلى، وكانوا ينتظرون تأويلها، ويعجبون كيف يركبون البحر مثل الملوك على الأسرّة!! حتى جاءت غزوة "قبرص" هذه، فركبوا ثبج البحر لأول مرة، وكانوا فوق سفنهم الكبيرة الظافرة كالملوك فوق أسرّتهم وعروشهم

وفي هذه الغزوة خرج مع الجيش "عبادة بن الصامت" ومعه زوجه "أم حرام بنت ملحان" رضي الله عنهم، وتحققت نبوءة الرسول الصادق الأمين لها حين قال لها: «أنت منهم».

ولعلكم تذكرون أن الرسول عندما استيقظ ضاحكاً للمرة الثانية وهو يقول:

«ناس آخرون من أمتي يركبون ثبج هذا البحر».

وسألته "أم حرام" أن يسأل الله لها كي يجعلها منهم، أجاب الرسول ﷺ قائلاً:

«أنت من الأولين»

وهنا تستكمل النبوءة صدقها الرائع وبهاءها الجليل، فإن "أم حرام" لم تَعِشْ حتى تركب البحر مع الآخرين .. لقد ماتت بعد انتهاء معركة "قبرص" ودفنت هناك، وعُرف قبرها الطاهر فيما بعد باسم "قبر المرأة الصالحة" .. !!

* * *

وجاءت غزوة "الصواري" لتؤكد صلابة الدولة المسلمة تحت خلافة "عثمان بن عفان"، فقد جمع "قسطنطين" إمبراطور الروم جيوشاً لَجبة لم يلتق المسلمون من قبل بمثل كثرتها عدداً وعَتاداً.

خرج قسطنطين بجيشه الجرار هذا على ظهور خمسمائة سفينة، زاحفاً على بلاد المغرب ليلاقي بها "عبد الله بن سعد بن أبي سرح".

وجمع عبد الله جيشه ونزلوا بسفنهم إلى البحر، والتقى الجمعان في معركة تتحدى ضراوتها كل وصف، ودعاهم قائد المسلمين ليخرجوا إلى البر، ويتقاتل الجيشان فوق الأرض الصلبة، فأبوا ذلك، عندئذ أسرعت فرقة من جيش المسلمين فربطت سفنهم بسفن الروم بعد أن أدنوْها منها، ثم راحوا يجتلدون بالسيوف والخناجر. كان ضحايا المسلمين وشهداؤهم من الكثرة إلى حد فادح، بيد أن قتلى الروم كانوا أضعاف أضعافهم، وانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً، وهرب قسطنطين بجسده الذي أثخنته السيوف والخناجر.

* * *

وهكذا سارت جيوش الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان.

فمعاوية يوغل في بلاد الروم حتى يقرع أبواب "القسطنطينية" ذاتها.

وفي فارس، وكرمان، وسجستان، ومرو، يزحف ابن عامر، والأحنف بن قيس، والأقرع بن حابس، فيفتحون ويظفرون.

ومهّدت الأرض لزحف المسلمين الظافر حتى بلغوا السودان والحبشة في الجنوب، والهند والصين في الشرق.

والخليفة الكهْل الذي كانت سنّه قد بلغت السابعة والسبعين رابض في المدينة يدعو بفتح الله عليه وعلى جيوشه

ومع الجيوش العائدة من معاركها بالنصر، كانت الغنائم والأموال تتدفق على العاصمة، وكأنها أبواب السماء فتحت بماء منهمر!

لقد أخلفت كل الظنون، تلك السنوات العظيمة المتألقة، لخليفة الذي أساء أعداء الإسلام به الظنون!!

ولم يشغله ذلك الجهاد الموصول، والحروب المتلاحقة عن همومه بالعمارة

فراح يجمِّل المدينة، ويزيد في بنايتها وعمارتها، فبدأ بمسجد الرسول ﷺ، فوسَّع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة، واتخذ عمده من الحجارة المرصَّعة

ولئن يهرف المخرّفون والمتوقون الذين صاغوا "لخليفة عثمان" في مخيلتهم المحمومة صورة الرجل على الإسلام يريد أن يطفئ نوره، فلسوف يبهرت تصوره ممثلة أو مزيد، إنجازه الرائع العظيم في جمع المسلمين على مصحف واحد، حفظ القرآن من دفتيه إلى يوم الدين.

* * *

نحن نعلم أن القرآن كان ينزل به على الرسول الأمين مُفرَّقة وفق ظروف وأسباب نزوله، وكان من بعض أصحاب الرسول ﷺ من حفظوه لكنهم لآيات لم تبدأ أول نزول

وكان الصحابة يتلقون الآيات المنزلة، يعتمد بعضهم على قوة ذاكرته فيحفظها، ويسطرها بعض آخر حيث يحتفظ بها مكتوبة

وفي عهد الخليفة الأول "أبي بكر الصديق" رضي الله عنه، بمشورة من "عمر ابن الخطاب" رضي الله عنه أن يجمع القرآن، فعهد إلى الصحابي الجليل "زيد بن ثابت" بالإشراف على هذه المهمة العظيمة، وكان "زيد" قادرا بمسلمين على ما ثبت له، إذ كان يحفظ القرآن كله كما كان أكثر كُتَّاب الوحي ملازمة للرسول ﷺ

وجمع "زيد" القرآن باذلاً من وعيه ويقظته وأمانته جهدا خارقا، مستعينا بعدد كبير من الصحابة الذين كان بعضهم يحفظ القرآن، وبعضهم يحتفظ به مسطورا

وهكذا صارت الآيات التي كانت متفرقة في صدور الرجال أو على ألواح الكتابة مصحفاً واحداً مرتب السُّور والآيات، معروف البدء والمنتهى

وحفظ المصحف عند "أبي بكر"، ومن بعده انتقل إلى "عمر"

* * *

خلال عهد "عمر" شرعت الفتوح الإسلامية تطوي البلاد طيًّا، وآلت إلى الإسلام كثير من الأرض التي كان يجثم فوقها طغيان فارس والروم

وخلال عهد "عثمان" بعثت الموجات مددا بعد، وآفاقا أرحب

ومع هذا الفتح العظيم في عهد "عمر وعثمان" كان الإسلام يستقبل شعوبا مختلفة الألسنة، وبما أن المجتمع الإسلامي نموا هائلا، تضم بين موجاته ناسا كثيرا

وكانت أسرع مظاهر هذا التباين في الكشف عن نفسه وعن عواقبه - للأسف -
في بعض الغزوات التي اشترك فيها الصحابي الجليل "حذيفة بن اليمان" راعه
الطرائق الكُثر التي تُقرأ بها القرآن.

صحيح أن عرب الجزيرة أنفسهم كانت لهم لهجات مختلفة، بيد أن لغة قريش التي نزل القرآن بها كانت قد استقطبت معظم تلك اللهجات ووثقتها في لغة واحدة صارت "اللغة الأم"، وحتى حين كان يندر حدوث خلاف حول قراءة بعض آي القرآن الكريم في أيام الوحي، كان الرسول ﷺ يحسم في الأمر بتيسير قراءة واحدة حيناً، أو بإقرار القراءات المختلف حولها حيناً آخر. أما بعد الفتح الكبير، وبعد أن صحب القرآن كثيراً شعوباً كثيرة، لكل منها لهجتها ولسانها، فقد بات الاختلاف في قراءته مصدر خطر عظيم، وهو خطر يهدد وحدة الأمة الجديدة المنتشرة في الأرض أكثر مما يهدد القرآن ذاته.. فالقرآن تكفّل الله بحفظه حين قال سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

ولقد ظهر هذا الخطر في الواقعة التي شهدها "حذيفة"، إذ نشب خلاف مروع بين أهل الشام وأهل العراق..

كان أهل الشام يقرءون على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء..

وكان أهل العراق يقرءون على قراءة عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري..

وتعصّب كل من الطائفتين لقراءته، وكاد الخلاف يمسي نزاعاً وقتالاً..

ولم يكد "حذيفة بن اليمان" يفرغ من تلك الغزوة التي كان يشترك فيها بجهاده حتى امتطى راحلته، تسابق الريح إلى المدينة، وهناك وضع القضية بين يدي الخليفة الراشد، مختتماً حديثه بقوله:

« يا أمير المؤمنين..

« أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كما اختلف الذين من قبلهم في كتبهم».

ولم يتوانَ الخليفة لحظة، فقد دعا من فوره من كان بالمدينة من أصحاب الرسول، وشاورهم في الأمر، ثم قرر أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجمع المسلمين في عصره وإلى الأبد على قراءة واحدة تكون هي القراءة "الأم"، حتى يندفع هذا الاختلاف المنذر بالسوء..

واستدعى إليه "زيد بن ثابت" الذي قام بجمع القرآن في عهد "أبي بكر"، و"سعيد بن العاص"، و"عبد الله بن الزبير".. و"عبد الرحمن بن الحارث بن هشام" وشرح لهم مهمتهم، وأوصاهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش..

وجاءهم الخليفة بالمصحف الأول ليكون دليلهم وأساس عملهم، وكان "عمر" قد أودعه قبل استشهاده عند ابنته "حفصة" رضي الله عنها.

وعندما أنجز الأصحاب عملهم الجليل، أمر الخليفة أن تنسخ عدد من المصاحف، وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولة مصحف.

ومضى الكاتبون في كل إقليم ينسخون لأنفسهم ولغيرهم مصاحف أخرى من هذا المصحف الجامع الذي سمي يومئذ ـ ولا يزال يسمى إلى يوم هذا ـ مصحف عثمان.

على أن المشكلة لم تحل تماماً بظهور "مصحف عثمان" إلى الوجود فقد بقي منها طرف، كان أشدّ أطرافها حساسية وأكثرها إحراجاً..

فقبل أن يتم تروع هذا المصحف الجامع، كانت هناك مصاحف أخرى لنفر من الصحابة، وكان من بينها اختلاف في بعض الآيات نطقاً ورسماً، وكان الرسول عليه السلام قد أقرّ أكثر هذه القراءات حين قال:

«أنزلَ القرآنُ على سبعة أحرُف»

الأمر الذي نتج عنه فيما بعد ظهور القراءات السبع المعروفة، وكان "عثمان" في إرادته حسم الخلاف والاختلاف، وفي إيمانه المطلق بضرورة هذا الحسم، لا يجد أمامه سوى اتجاه واحد، هو جمع المسلمين جميعاً على مصحف واحد، هو هذا الذي أنجزه وأقرّه

فماذا عساه يصنع بالمصاحف الأخرى، وبالألواح التي كانت لا تزال موجودة عند بعض الصحابة حاملة عدداً من الآيات؟

لقد جمعها جميعاً وأنهى مهمتها، مسلماً مكانها للمصحف الواحد الجامع، يلتقي المسلمون حول آياته المباركات عبر القرون تلو القرون.

* * *

هكذا أعطى "عثمان" عزمه الرشيد لمسئولياته الجسام

وملأ بصدقه وبقدرته وبإقدامه فراغاً كان يمكن أن يتحول إلى فوّهة فاغرة تشدُّ إلى قيعانها الغائرة العديدة كثيراً من مقدّرات الدين ومصائر المسلمين.

ولكن، هل كانت ريح الخلافة تجري رخاء خلال تلك السنوات التي ملأ الخليفة فيها دنيا الإسلام فتحاً وخيراً

لعلها كانت كذلك لوقت قصير، قد لا يجاوز العامين أو الثلاثة أمّا ما بقي بعد ذلك من سنوات الخلافة الطوال، فقد تحولت الريح الرودة الهادئة إلى عاصفة، أحداث تتجمع شتاتاً فشتاً ويتداعى بعضها بعضاً حتى تحولت إلى إعصار كتب على الخليفة الشيخ أن يواجهه وحده في محنة هبطت بها شراسة المتآمرين إلى السفح وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القمّة.. !!

وقد آن لنا الآن أن نصحب الريح إلى تلك السنوات التي شهدت نشأة وتطوّر ونهاية الأحداث التي لا نزال ذكراها تفجع الأنفس وتروّع الأفئدة، برغم احتجابها وراء أربعة عشر قرناً من الزمان !!

■ ■ ■

السّنوات الصّعبة

إن التغيير الهائل الذي أحدثه الإسلام في خريطة العالم المحيط به ، وفي عقائده ونظمه وسنته لم يكن ليمرّ دون أن ينعكس أثره بصورة أو بأخرى على الإسلام نفسه ، مُمثّلاً في دولته وفي مجتمعه . ومُمَثّلاً بصفة خاصة في القادة والرواد الذين حملوا أكثر من سواهم أعباء هذا التغيير العظيم .

ولقد كان اغتيال الخليفة الراشد العظيم أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" أولى ظواهر هذا الانعكاس الخطير .

كان نذيراً واضحاً بأن ردود الفعل لتلك الفتوحات الإسلامية الطامية ، قد بدأت تنفذ قانونها وتفرض سلطانها .

لقد مزّقت الفتوحات العريضة يومئذ مُلك فارس والروم وبقيت نقمة الفلول الباقية من السلطان والمهارة نار تشحذ ضرامها تحت الرماد .

وجاء الفتح بمشاكل الثراء الطارئ والدنيا المحدقة بالإغراء ، والاختلاط الهائل بين أجناس وأمم وتقاليد

كان لابدّ لهذا كله من أن ينعكس على الفاتحين ظلاله .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشف من وراء الحجب تلك الانعكاسات المدمرة .

يقول أسامة بن زيد رضي الله عنهما .

« أشرف النبي ﷺ على أُطُم - أي مُرتفع - من آطام المدينة وقال هل ترون ما أرى ... ؟

قال أصحابه الذين كانوا معه : لا .

قال فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر »

ويقول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال رسول الله ﷺ

« إذا مشت أمتي المطَيْطاء - أي الخيلاء - وخدمها أبناء الملوك . فارس والروم ، سُلّط شرارها على خيارها » ..

وهو بهذا ، يشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم الواسع العظيم ، ويهيّئ نفوسهم لأخذ حِذْرهم ، ولتكون مستعدة لمواجهة الأحداث المقبلة بما منحهم الإسلام من فضائل وثبات .

* * *

والحق أن الفتن التي تعرّض لها الإسلام والمسلمون في عهد الخليفة "عثمان" ، والتي فرضتها حركة التاريخ عليه فرضاً ، دون أن يكون له يد في إزجائها ، ما كان في وسع أحد أن يدفعها .

صحيح أنه ربما كان من الممكن تخفيف ضراوتها، وتأجيل هبوبها، أما دفعها بصورة شاملة فما نحسب ذلك كان في مستطاع أحد.

لقد كانت تلك الأحداث على جسامتها جزءاً من حركة النمو الإنساني والتطور التاريخي وكانت مظهراً لسنّة لا يحيد عنها فرضت نفسها على كل الحركات الكبرى عبر تاريخ الإنسان.

ولقد أرادت مقادير "عثمان" له، أن يصطلي بمسئوليتها مرتين:

الأولى: عندما حتّمت المقادير أن يكون الخليفة الذي تشهد عهده وأيامه مقدم الفتن وانفجار المؤامرات.

والثانية: عندما حُمِّل أوزار تلك الأحداث لتزحمه واعتبر مسئولا عنها !!

ومن الظلم لتاريخه، ولتاريخنا أيضاً، أن نرى في الخلاف الذي قام بينه وبين نفر من أصحابه ومن المسلمين الوافدين من بعض الأقطار جوهر محنته، وشكلها الوحيد.

ثم إن كان هذا الخلاف، وما كانت الأخطاء التي أُخذت على الخليفة يوم ذاك سبب الفتنة الضارية، بل كان الخلاف والأخطاء واحداً من نتائج كثيرة لمؤامرات عنيدة لعوب، أحكمتْ تدبيرها قوى أجنبية، مستعينة بعناصر عميلة دخلت الإسلام خِلسة، لتكيد له وتَتَخرّب فيه.

ولو أن الأخطاء التي عزيت إلى الخليفة "عثمان" كانت سبب الفتن الهُوج التي تعرض لها الإسلام، فما الأخطاء إذن التي كانت سبباً في اغتيال أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب"؟؟

لقد كان مقتل "عمر" كما قلت بداية الضربات الأولى التي صنعتها في المعركة الخفية، قوى الشر المتحالفة ضد الإسلام.

ومن عرف الناس لأمير المؤمنين "عمر" خطأً واحداً، فضلاً عن أخطاء تبرر اغتياله الأثيم !!

ولسنا قادرين ـ مهما نتسامح ـ على أن نعتبر جريمة اغتياله جريمة فردية.

وحتى لو كانت كذلك، فإن منفذها لم يكن عملاً فردياً، بل صار عملاً جماعياً، اشتركتْ فيه جميع القوى التي حصد الإسلام شوكتها.

فاليهود الذين أُجلوا عن المدينة، وشتّتهم غدرهم في البلاد.

والإمبراطورية الرومانية التي قوّض الإسلام عظمتها، وكنس جنودها بعيداً عن البلاد التي كانت تحتلها وتستعمرها، ودفعها داخل حدودها الضيقة.

والإمبراطورية الفارسية التي صنع بها مثلما صنع بالروم، والتي خسرت كل مصالحها وكنوزها وسلطان قادتها العسكريين.

كل هؤلاء لم تجف دماء حقدهم على الإسلام وعلى دولته الناهضة في شموخ عظيم، ولم يهدأ لهيب الثأر في نفوسهم، إلا ريثما تسنح الفرصة، وفي يوم، راحوا يعدون له، ويهيئون

ولقد جاءتهم الفرصة في مقتل "عمر" أمير المؤمنين.

من أجل ذلك رأينا التمرد المسلح يجتاح كثيراً من البلاد التي كانت الإمبراطوريتان قد خسرتاها في حروبها السابقة مع الإسلام.

ولم يكن تمرداً داخلياً من أهل تلك البلاد الذين كانوا - كما أسلفت من قبل - قد فرحوا بمقدم الإسلام إليهم فرحاً عظيماً، حتى إن الذين لم يعتنقوه منهم [illegible] كان تحريضاً من الروم والفرس لبعض العناصر التي فقدت بالإسلام نفوذها وسلطانها، كما كان في حالات أخرى هجوماً مباشراً من جيوش الروم والفرس على تلك البلاد.

وكما تحرك هؤلاء من الخارج، فقد تحرك اليهود من الداخل. ولم يكن عبثاً ولا مصادفة أن يفد من اليمن إلى المدينة في عهد "عثمان" يهودي يقول إنه درس الإسلام وأحبه ويريد أن يعلن إسلامه ويأخذ مكانه في صفوف المؤمنين، ثم يلعب هذا اليهودي تحت قناع إسلامه، أخطر وأفدح دور في تفريق وحدة المسلمين وتجهيز الفتنة المسلحة التي أودت بحياة الخليفة الشهيد. ذلكم الرجل هو "عبد الله بن سبأ" الذي سنشهد طرفاً من نشاطه المنحرف عما قريب.

لم تكن - إذن - المآخذ التي وجهت إلى الخليفة، والتي سنناقشها فيما بعد، سبب الفتنة ولا قوامها.. إنما هي المؤامرة الخبيثة ضد الإسلام كانت تنسج خيوطها من بعيد، حتى إذا واتتها الفرصة وثبت عبر الزمن، وقفزت فوق المسرح لأحداث تلعب دورها جهرة وعلانية.

ولكي تكتمل جوانب الصورة الصحيحة ينبغي علينا أن نعود بالحديث إلى عهد قديم.

هناك صورة ناقصة وغير واقعية تغشى أذهان كثيرين منا حين نفكر، أو حين نتصور الجزيرة العربية في ماضيها السحيق، فنحسبها مجرد متاهة عريضة في الصحراء يسكنها ناس معزولون عن عالمهم لا يهتمون بأحد، ولا يهتم بهم أحد.

ونتصورها - عندما جاءها الإسلام - مجرد قبائل متناثرة، وقرى متباعدة، جاثمة فوق الرمال، تتوسطها أم القرى "مكة" التي تغدو قوافل تجارتها وتروح ما بينها وبين الشام، ثم هي بعد هذا لا تهتمُّ بأحد، ولا يهتمُّ بها أحد ..!!

وهذه الصورة فضلاً عن مجافاتها للصواب، فإنها تعزل إدراكنا وفهمنا عن الحقائق المهمة التي لا نستطيع بدونها تفسير الأحداث الهائلة التي شهدتها جزيرة العرب قبل الإسلام ومع الإسلام.

ولكي ندرك الصورة الصحيحة، لن نحتاج إلى الإيغال في الزمن بعيداً، حسبنا قصة في جنوب الجزيرة العربية حضارات: سبأ، ومعين، وحضرموت، وقتبان، الذين جعلوا بلادهم جنات عن يمين وشمال.

وحسبنا قصة في شمال الجزيرة مدينة "البتراء" تسيطر على طريق القوافل بين الشمال والجنوب، وتشمخ حصونها المنيعة، حتى إذا جاء على أبوابها عام ٣١٢ قبل الميلاد جيش "أنتيجونوس" أحد خلفاء الإسكندر الأكبر، وردته عنها حصونها العاتية ومنعتها وبأسها

وحيث قامت "تدمر" التي أنشأتها في بلاد الشام بضع قبائل عربية ، خرجت من جزيرة العرب فنهضت بحضارة سامقة ، وشادت قوة عسكرية جبارة مكنتها من أن تنزل بالفرس هزيمة منكرة ، وتستولي منهم على سورية ، وبلاد ما بين النهرين عام مائتين وستين بعد الميلاد . مما جعل إمبراطور الروم "يتخذ من "أذينة" حاكم "تدمر" نائباً له في سوريا ومصر وأرمينية .. !!

وحيث خرج من اليمن في جنوب الجزيرة العربية نفر من القحطانيين ، فأسسوا مملكة "اللخميين" في العراق .

كما خرج منهم نفر آخرون أنشأوا مملكة "الغساسنة" في سورية .

أقول : لن نحتاج إلى الإيغال وراء ذلك التاريخ الذي يكشف عما كان لشبه الجزيرة العربية من حياة وأهمية وخطر ، وما كان لها وللقبائل النازحة منها صوب العراق وسورية من علاقات متكافئة في أحايين كثيرة مع الإمبراطوريتين الكبريين ـ فارس ، والروم .

وسيكون حسبنا إلقاء نظرة سريعة على شبه الجزيرة العربية وعلى مكانتها وعلاقاتها منذ بزوغ الإسلام ، أو قبل ذلك بقليل .

فقبيل الإسلام كانت الجزيرة العربية موضع اهتمام القريبين إليها والبعيدين منها ، على الرغم من عدم وجود أيِّ سلطان سياسي لها يوم ذاك .

وعلى الرغم من أن مطامع الغزاة كانت تولّي وجهها دائماً شطر الجنوب حيث بلاد اليمن باستراتيجيتها وخيراتها ، فإن الشمال كان لا يغيب عن اهتمامهم كذلك ، فهناك مكة بثرواتها وتجارتها .. وفي مكة "الكعبة" التي تهوي إليها أفئدة العرب من كل مكان ، وتهبُ لـ "مكة" نفوذاً روحياً لا يُقاوم .

من أجل ذلك نرى "أبرهة" نائب إمبراطور الحبشة يومئذٍ يقود جيشاً لجباً لغزو مكة وهدم الكعبة ، وذلك بعد أن عجزت كنيسته التي بناها في صنعاء عن اجتذاب العرب إليها كما كان أبرهة يظن ويتوهم .

وكانت "مكة" كطريق للعراق ، وبتجارتها الواسعة مع الشام ، تعيش أهلها في اهتمام مُتبادَل مع العالم الخارجي .

ونمت هذه الاهتمامات المتبادلة مع ظهور الإسلام ، فنرى النبي عليه السلام يختار الحبشة دار هجرة لأصحابه الذين اضطهدتهم قريش .

كما نراه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكتب كتبه ، ويُرسل مبعوثيه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

فبعث إلى قيصر الروم ، وإمبراطور فارس ، ونجاشي الحبشة ، وعزيز مصر ، وإلى رؤساء عُمان ، والبحرين ، واليمامة ، والشام .

وحين أوقع الفرس بالرومان هزيمة منكرة، واستولوا على مستعمراتهم في آسيا، كما دخلوا مصر، وقرعوا أبواب القسطنطينية، تمشّى المسلمين في المدينة همٌّ عظيم، فقد كانوا حسبما علّمهم دينهم يتعاطفون مع أهل الكتاب، وكان الرومان نصارى، فأحزن المسلمين أن ينتصر عليهم عُبّاد النار من الفرس، ونزل الوحي يطمئنهم ويحمل لهم عزاء وبُشرى في سورة سُمّيَتْ باسم "سورة الروم"

﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

إلى هذا المدى كان اهتمام المسلمين بالعالم الخارجي وتلاحمهم مع مشاكله وتطوراته.

ولقد صدقت آيات الله وتحقق وعده، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى أنزلت جيوش الروم بجيوش الفرس هزيمة منكرة، واستردّت الإمبراطورية الرومانية من "فارس" ما كانت قد استولت عليه في حربها السابقة.

بيد أن قيصر الروم لم يلبث وقد أسكره انتصاره على الفرس أن تنمّر للمسلمين، وخشيَ على مُلكه من قوّتهم المتعاظمة، فجمع صفوف جيشه في الشام، وقرر الهجوم على الجزيرة العربية.

وهنا نلحظ المزيد من اهتمام الرسول ﷺ والمسلمين بالعالم الخارجي، وشهد سلامة تدبيره عليه السلام لكل موقف يوجبه ذلك الاهتمام.

وهكذا رأيناه يرفض التسامح تجاه هذا التهديد الموجّه لأمته وبلاده، فيخرج في أيام بالغة القيظ والعسرة ليلاقي الروم بكتائب الإسلام ـ هناك عند حدود الشام ـ في غزوة "تبوك" التي لم ينشب فيها القتال، إذ آثر قيصر الروم السلامة، ورجع من حيث جاء.

كما رأيناه عليه السلام يوصي في مرض موته قائلا:

«أنفذوا بَعْثَ أُسامة».

وكان "أسامة" قد وضعه الرسول ﷺ على رأس جيش وُكِلَ إليه مهمة زجر أولئك المتربصين بحدود البلاد.

* * *

لم تكن الجزيرة العربية إذن تعيش في تيه ولا في حرمان لا قبل الإسلام ولا بعد بزوغه، بل كانت دائماً في بؤرة اهتمام العالم الخارجي، كما كان العالم الخارجي في مركز اهتمامها.

حتى إذا جاء عهد "عمر" وزحفت جيوش الإسلام حاملة رايات الحقّ والعدل والهدى والخير، وتهاوت تحت سنابك خيلها إمبراطوريتا الروم والفرس، كانت الجزيرة العربية التي أصبحت "الوطن الأم" للإسلام قد فرضت اسمها والاهتمام بها على كل فم، وعلى كل سَمْع، وعلى كل فؤاد..!!

صدر المسلمون يومئذ ـ الزاحفون من مدينة الرسول ـ إلى عالم الشرق والغرب في كل مكان ـ حدث العالم الخارجي بأسره، وموضوع اهتمامه الوحيد.

وعلى الرغم من أن القوة العسكرية والسياسية للروم كانت قد تحطمت أمام جيوش الإسلام، فإن سعير الثأر من محمد ولم يتم في صدور الذين طووا أحشاءهم، ممن كان بهم في ديارهم وبلادهم نفوذ وسلطان.

ففي فارس كما في الروم كان الكهنة، والمرازبة، والأشراف، والنبلاء، والإقطاعيون مالكو الأرض، ومحتكرو التجارة والثروات ـ كان هؤلاء جميعاً يحملون للعرب وللمسلمين حقداً يصطلي في صدره من كل مكان، وسلطان.

وكان هناك في الجانب الآخر، اليهود في قينقاع وبني النضير الذين نُفوا إلى الشام، فاتخذوا منها حتى بعد الفتح الإسلامي مركزاً يصنع الفتنة ويصدرها إلى كل مكان تبلغه أيديهم ومكائدهم.

كانت مؤامرات هؤلاء وأولئك ضد الإسلام تجتمع كالسيل الطامي.

وكان عمر بكل يقظته، وبقوة الدولة المسلمة بكل عنفوانها، يقف سداً منيعاً، وردعاً.

فلما مالت شمس "عمر" للمغيب، وجدت المؤامرات الضارية المسعورة نفسها أمام فرصة، فكانت الحروب المسلحة التي واجهت المسلمين في مطلع خلافة "عثمان"، والتي تحدثت عنها من قريب.

حتى إذا أحست جيوش الإسلام بدسائس المتآمرين وحطمت جيوشهم على أعقابها، وحشدت إلى الأبد آمالهم في سور حدود الدولة المسلمة الشامخة، ألقوا سلاحهم صاغرين مدحورين، بيد أنهم لم يُلقوا ما في صدورهم من حقد مسموم، بل دابت أصابعهم سحراً وبهتاناً، وقرروا أمام إخفاق حملاتهم العسكرية، أن يلجأوا إلى أسلوب آخر، وهو الفتنة داخل الدولة من الداخل، والتسلل بالفتنة إلى الصفوف الأولى بين قادة المسلمين من كبار أصحاب الرسول ﷺ، ثم بين صفوف الجماهير في أقاليم الدولة البعيدة والقريبة.

ولقد كان ذلك لعب المنهج لتفتق منذ المرحلة التي ستلي "عمر" في خلافته.

وكان هذا الرجل "عثمان" رضي الله عنه وأرضاه دفعته مقاديره ليحمل فوق كاهله مسئولية هذه "السنوات الصعبة" في تاريخ الإسلام كله.

وإن لنعرف بأن في وصف تلك السنوات بالصعوبة وحسب، تبسيطاً كبيراً تحطمه الحقيقة، لأنها كانت أكثر من "صعبة"، بل أكثر من رهيبة.

* * *

ستظل البلاد المفتوحة دائماً على مشكل يؤرق الفاتحين.

وعلى الرغم من أن الإسلام كان يصر على حصانة وعدالة على تلك البلاد ومن فتحها، وعلى الرغم من أن فتحه لها كان تحريراً لشعوبها من طغاة مستعمرين عتاة، فربما كانوا

أو رومان؟ فإن ذلك لم يقض على مشاكل الفتح كلها ، وإن كان قد قضى على الكثير منها .

بيد أن البقية الباقية من المشكلات أخذت تنمو وتتضخم مع مرور الأيام وتقدم العهد

* فمثلاً ، بعد أن كانت شعوب البلاد المفتوحة تشرف وتسعد بأن يكون ولاتها من أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين يختارهم أمير المؤمنين في المدينة ، ويوفدهم لحمل مسئولية الولاية ، أخذ بعض هذه الأقاليم يتساءل أمله أو بعض أمنه : لماذا لا يكون ولاتنا من أنفسنا .. ؟ ولماذا من قريش أو من المدينة .. ؟

وكان لبعض هؤلاء مناورات كاد يضيق منها "عمر" نفسه برغم حزمه وصرامته وحسبنا واحدة منها تبعث الأسى حتى تدمع منه محاجر الصحائف يوم سأل أهل الكوفة أمير المؤمنين "عمر" أن يعزل عنهم واليهم الذي كان من خيار الصحابة وأجلائهم ، مبررين طلبهم هذا بقولهم : « إنه لا يحسن يصلي » !!!

* وبعد أن كان أهل تلك الأقاليم في بهر عظيم بما أفاءه الإسلام عليهم من عدالة وقصص ، حتى رأوا دولته المنتصرة تترك لكل زارع أرضه ، ولكل تاجر متجره ، بل لقد حرمت على رجالها أن يأخذوا من ذمي شبراً من أرضه ، ولو كان ذلك شراء وبعد أن بهرتهم الحماية والأمن اللذان أفاءهما عليهم الإسلام ، فضلاً عن حماية أملاكهم التي لم يمسسها سوء ، عادوا أو عاد بعضهم يتساءل : ولماذا الخراج ؟

* وبعد أن كانت روح الإسلام تغمرهم جميعاً ، كأمة واحدة ، حتى الذين لم يسلموا وآثروا البقاء على دينهم ، وعاشوا في الدولة مواطنين تربطهم بها عهود وذمم ، حتى هؤلاء صهرتهم روح الإسلام ، فلم يشكوا بين وحدتها الجامعة الصاهرة سوءاً ولا شراً ، نقول بعد أن كان ذلك كذلك ، عادت العصبية تذر قرنها ، والقبلية ترفع رأسها ، والشعوبية تقول ها أنذا .!

* وبعد أن كانت سياسة "أبي بكر وعمر" تقوم على استبقاء زعماء الصحابة وكبارهم بالمدينة ، لا يغادرونها أبداً ، تغير المنهج في عهد "عثمان" فانتشر بعضهم في الأرض وهكذا توزع مركز الثقل الذي كان موحداً بالمدينة ، وفي كل إقليم زعيم .

* وبعد أن كانت نعم الحياة وطيباتها خاضعة لإرادة الورع والزهد ، راحت أسباب كثيرة تعمل عملها في تطويع الأنفس لسلطان اللذات وإغراء الترف وعلى الرغم من أن صفوة كبيرة من أصحاب الرسول ﷺ ظلوا مستمسكين بورعهم وزهدهم ، فإن المجتمع الإسلامي وقد غمره الرخاء وغطاه الثراء ، راح يحتطى كواهل الضمير المتصوف ، آخذاً من طيبات الحياة فوق حاجته ، وناهلاً من متاعها بغير حساب !!

هذه العوامل التي ذكرناها تشكل ، أو قولوا تصور المناخ الذي ستعيش فيه السنوات الصعبة بكل مشكلاتها وأزماتها .

وهذه العوامل كلها كانت ـ برغم خطورة عواقبها ـ صورة لطبائع الأشياء ، فليس من سنن الحياة البشرية مهما سمت بها رعاتها وسيطر عليها أن تظل على وتيرة واحدة ، ولا أن تتجمد في أنماط واحدة.

ونستطيع أن نلخص كل هذه العوامل في وصف واحد ، هو "التوتر".

ولقد كانت هناك ظروف تاريخية ، واجتماعية ، ونفسية ، تجعل هذا التوتر محتوماً

كما أنه كان من الممكن أن يتحول هذا التوتر إلى طاقة صاعدة ، ومخاض سديد ، تتحول خلالهما الأزمات المزعجة إلى حلول سعيدة ، وتلتقي مشيئة العصر بمشيئة التطور في غير فتنة ومن غير سوء .

أجل .. كان ذلك ممكناً لو لم تتقدم القوى الشريرة بكل ما يملأ أفئدتها من حقد ، وبكل ما يعمر عزمها من تربص وإصرار .

هذه القوى المتمثلة ـ كما ذكرنا من قبل ـ في الطوائف التي حطم الإسلام نفوذها الطاغي ، وسلبها امتيازاتها الظالمة ولم يكن يخلو من هؤلاء بلد ولا مكان والمتمثلة كذلك في القبائل اليهودية التي لم تكف لحظة عن الكيد للإسلام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة .

لقد شحذت كل هذه القوى أنيابها في عهد "عثمان" وركزت جميعها على تغذية الشكوك ، وتوهين الولاء للدولة ، وتصعيد الأزمات ، وتحويل "التوتر" من طاقة تتلمس الطريق نحو الأفضل والأمثل ، إلى قوة هدامة ، وفوضى مخربة !

* * *

في ذلك الحين ، وفي ظروف مريبة ، وفد على المدينة من اليمن يهودي اسمه ـ عبد الله بن سبأ ـ وكنيته ـ ابن السوداء ـ حيث انتحل الإسلام ثم استحل نفيره الشديدة على قيمه وحرماته

وفي المدينة ألقى سمعه المرهف لكل كلمة وكل نبأ

سمع نقداً بريئاً يوجهه الصحابة لبعض الأخطاء فراح سمعه ، ليجمع من شأنه صحيفة اتهام !!

ومضى يدرس في صمت ودهاء كل جوانب الحياة في المدينة ، ويفحص مواطن الضعف والقوة ، ويستمع أخبار الأقاليم والأمصار ، ويزن أقدار الصحابة وحظ كل منهم من النفوذ والمكانة

حتى إذا جمع مادته ، وعرف طريقه ، وأتم رسم خطته ، مرع على الفور في العمل والإنجاز .

وأدرك ـ ابن سبأ ـ أنه لكي ينشر الاضطراب في الدولة والأمة ، عليه أن يوجه مؤامراته الأولى إلى الخليفة ذاته ، وإلى شرعية منصبه كخليفة للمسلمين ، ولكي يتيسر له ذلك ، لابد من أن يرفع في وجه الخليفة شخصية من الصحابة تضاهي الخليفة في جلالته وسبقه

هنالك بدأ نفثاته المسمومة بهذه العبارة

« إن لكل نبي وصياً ، وإن "علياً" وصيّ "الرسول" ﷺ . ولقد وثب "عثمان" على أمر هذه الأمة ، وأخذ الحقّ من صاحبه » !!

وراح يُزكّي دعوته هذه ، بطائفة من الأحاديث التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أطرى بها "علياً" وزكّاه . مثل قوله عليه السلام :

« من كنتُ مولاه ، فعليٌّ مولاه » .

ومثل دعائه عليه السلام بشأن عليّ :

« اللهم والِ مَن والاه ، وعادِ من عاداه » .

وعلى الرغم من أن الإمام "علياً" كرم الله وجهه لم يكد يسمع دعوة ابن سبأ ، حتى لعنه وسفّهه ، وحذّر المسلمين من خبث طويته ، وسوء سريرته .

نقول على الرغم من ذلك ـ فإن ـ ابن سبأ ـ ظلّ سادراً في خطته ، وانطلق كالريح السَّموم يشعل نيران الفتنة في أقطار الإسلام ، فرحل إلى البصرة . ثم إلى الكوفة . ثم إلى الشام . ثم إلى مصر التي استقر بها طويلا .

وخلال رحلاته تلك ، اصطفى من المفتونين به أنصاراً وحواريّين ، أطلقهم هم الآخرين ليطوّحوا بفتنته في الآفاق ، ورسم لهم منهجهم في هذه الكلمات :

« تظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس إليكم . وابدءوا بالطعن في أمرائكم . وقولوا للناس إنّ "عثمان" قد أخذ الخلافة بغير حقّ . وإن "علياً" وصيّ رسول الله ﷺ ، فانهضوا وردّوا الحق إلى صاحبه » . !

ومن عجب أن الفتنة الضارية التي بدأت حتى مقتل عثمان رضي الله عنه ، سارت وفق هذه الوصايا الثلاث .

فأولاً : لبس المحرضون عليها والمسهمون فيها مُسوح الرهبان ، ورفعوا في أيمانهم شعار الأمر بالمعروف وتغيير المنكر . !!

وثانياً : راحوا يطعنون في الأمراء والولاة ، ويُحصُون أخطاءهم ويَدْحضون وُجودهم .. !!

وثالثاً : رفعت الفتنة رأسها ، لتواجه الخليفة مباشرة ، وتطالبه بضرورة التخلي والاعتزال . !!

ولقد كانت هناك عوامل كثيرة أحسن ابن سبأ ودعاته استغلالها ، ومكّنت لدعوته بين أعداد كبيرة من الناس في الكوفة ، والبصرة ، ومصر . وكان من أبرز تلك العوامل ، بل على رأسها ، سلوك بعض المسئولين والولاة من الأمويين .

وفي تقديرنا أن دور هؤلاء في مضاعفات الفتنة ، لا يتمثل في أخطائهم التي كان يمكن إصلاحها وتلافيها . بقدر ما يتمثل في تجاهلهم صيحات النذير ، وفي استجابتهم لنداء الغرور المستعلي ، والكبرياء المتحدية ، ثم في تمترسهم بعنصر الحصانة ذاته في سبيل أهواء كان في استطاعتهم كبحها ، دون أن يعود عليهم هذا الكبح بخسران أيّ

خسران

فموقف "معاوية" عامل الخليفة على الشام يومئذٍ من وفد المعارضة لم يكن في مستوى مسئوليته، ولا في مستوى ما عرف عنه من قدرة على الحلم والدهاء.

لقد بهرهم بكلمات شائت فيهم روح الموجدة والغيظ، حين قال لهم:

« يعني أنكم تعيبون قريشًا .. وإن قريشًا لولاها لعدتم كما كنتم أذلة .. إن الله بنى هذا الملك على قريش، وجعل هذه الخلافة فيهم .. ولا يصلح ذلك إلا بهم »

ثم تمادى - عفا الله عنه - في عصبيته هذه فقال:

« وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها، إلا ما جعل الله لنبيه » !!

و "سعد بن العاص"، عامل الخليفة على الكوفة، يجلس وسط الناس وقد أسكرته السلطة، ويلوح بيمناه صوب أرض العراق التي بهر خضرتها، وزرعها، وعمرانها، ثم يقول:

- « إنما هذا السواد بستان لقريش » .. !!

قريش .. قريش .. ؟؟!!

ماذا جرى، حتى أحدث كلمة "قريش" مكان كلمة "الإسلام" ؟!

إن سنجد من هذه "النغمة" كانت سابقة خطيرة، فمرتها الإسلام العظمى أنه هدم - وفي سنوات معدودة - قواعد عصبية، كانت من أشد عصبيات التاريخ ضراوة وعتوًا

لأن تعود العصبية فتطلق أهازيجها .. ؟ وعلى لسان حاكمين من حكام الدولة ومسئوليها .. ؟ على أن الإنصاف يقتضينا أن نذكر دور المتمردين يومئذٍ في تغذية تلك النغمة الكريهة.

فقد كانت أساليبهم في المعارضة تثير غيظ الحليم، لكأنهم كانوا يضعون نصب أعينهم إثارة الدولة بكل رجالها، واستفزازهم بمختلف الوسائل والمثيرات، حتى يتصرف المسئولون فيها بأعصاب متوترة مشدودة !!

ومثل واحد يعطب بفظاظته وغلظته عن عشرات الأمثلة يقدمه لنا - جبلة بن عمرو - أحد زعماء المتمردين يومئذٍ، حين تصدى للخليفة نفسه أمام جمع كبير من المسلمين يقول له:

« - والله لأقتلنك يا نعثل .. ولأحملنك على قلوص جرباء » .. !!

نعثل .. ؟؟

أهذا وصف ينعت به، وفي وجهه، وأمام جموع المسلمين، ثالث خلفاء الإسلام، ومن لقبه الرسول ﷺ بـ "ذي النورين" وقال عنه: « ورفيقي في الجنة عثمان » ؟

وهل على قلوص جرباء، يريد جبلة بن عمرو وعصابته، أن يحملوا الخليفة الطاهر الذي جهز جيش العسرة بالف بعير وفرس، لم يكن فيها جرباء ولا عرجاء ؟!

إلى الآن ، وبعد ألف وأربعمئة عام ، ولا تصلنا بتلك الوقائع سوى الكلمات المسطورة في كتب التاريخ ، لنأخذنا غيظ مرير من أمثال تلك المجابهه المتهورة . فكيف إذن كانت مشاعر الذين يشهدون بأعينهم ، ويسمعون بآذانهم ، ويبصرون الخليفة في جلال شيبته يتعرض لمثل تلك المحن والجهالات والشرور ؟ وكيف كانت مشاعر الخليفة ذاته .. ؟!

على أنه إذا كان في الواقعة التي ذكرناها ما يثير الغيظ والأسى ، فلعلم أنها كانت أخف ما تعرض له الخليفة يومئذٍ ، إذ هي تنسب بوقائع أخرى كثيرة تحدّى بها المتآمرون سلطان الخلافة وكرامتها .

أجل ، سلطان الخلافة وكرامتها .. فالخلافة لا الخليفة ، والدولة لا رئيسها ـ كانت هي الهدف الذي عمل له المتآمرون طويلاً .

هذه "السنوات الصعبة" لم يكن "عثمان" رضي الله عنه هو الذي خلع عليها هذا الوصف .. بل هي التي فرضت عليه وعلى الدولة كلها صعوبتها ، ومشاقها ، وأخطارها ، وذلك بما كان يُدَّخر لها من قبل أمدٌ تأبيها .

بيد أن ذلك كله لن يُعفينا من هذا السؤال المحتوم .

ـ أين كان "الخليفة عثمان" من تلك الأخطاء التي أجاد المتآمرون استغلالها ؟؟

* * *

في استطاعتنا أن نردّ تلك المآخذ كلها إلى أربعة أصول .

أولها عن الولاة .. فقد أخذوا على الخليفة أنه عزل نفراً من الصحابة ووضع مكانهم نفراً من أقربائه الذين لم تكن لهم أو لبعضهم على الأقل سابقة ترفعهم إلى مستوى الولاية على المسلمين .

ثانيها .. عن الأموال العامة .. فقد قيل : إن الأمويين استغلوا صلتهم وقرابتهم ، فاستحوذوا على ما ليس لهم بحق .

ثالثها .. عن موقفه من بعض فضلاء الصحابة .. وعن بعض الإجراءات العنيفة التي اتخذت ضد بعضهم .

رابعها : عن موقفه من بعض مسائل الدين .. إذ كان له فيها اجتهاد خاص .

* * *

فأما عن الوُلاة ، فمن حقّ الخليفة أن يختار الرجال الذين ينوبون عنه في حمل مسئوليات الحكم ، ما دام هذا الاختيار لا ينجمُ عن هوًى يُنقص أو يناقض القيم الرئيسة للدولة وللمجتمع ، وهي هنا ـ كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ .

على أن "عثمان" رضي الله عنه ، وإن يكن التعبير من حقّه ، لم يستعمل هذا الحق مبتدئاً ، إنما دفعته إليه ظروف الأقاليم التي غيّر وُلاتها ، وإلحاح أهل تلك الأقاليم بضرورة التغيير .

وأول إقليم نبه بالتغيير ، كان إقليم الكوفة ، وكان واليه "المغيرة بن شعبة" ، ولقد رغب أهل الكوفة في تغييره فعزله "عثمان" وولّى مكانه "سعد بن أبي وقاص"

وظل "ابن أبي وقاص" حاكماً للكوفة حتى نشب خلاف كبير بينه وبين "ابن مسعود" الذي كان خازناً لبيت المال فيها ، فعزل الخليفة "سعداً" ووضع مكانه "الوليد بن عقبة"

وبقي "الوليد بن عقبة والياً عليها وأبلى بلاء حسناً في غزو أذربيجان وأرمينية ، ولكن حين نمى إلى الخليفة أنه يشرب الخمر ، استدعاه إلى المدينة على الفور ، فأقام عليه الحدّ وعزله ، وولّى مكانه "سعيد بن العاص"

وأما البصرة ، فقد أرسل أهلها وفداً إلى المدينة يطلبون منه عزل واليهم "أبي موسى الأشعري" ، فاستجاب لهم وولّى مكانه "عبد الله بن عامر"

وأما مصر ، فقد تكرر إلحاح الوفود القادمة منها إلى المدينة طالبة تنحية "عمرو بن العاص" وتولية آخر مكانه ، فعزله الخليفة عن الحرب والخراج ، وأبقاه على الصلاة ، وولّى "عبد الله بن سعد بن أبي سرح" على الخراج والحرب ، بيد أن الخلاف لم يلبث حتى نشب بينهما ، فاستدعى الخليفة عمرو بن العاص إلى المدينة ، وتفرّد ابن أبي سرح بولاية مصر كلها

هكذا كان موقف الخليفة من الولاة المعزولين استجابة سريعة لرغبات المواطنين في تلك الأقاليم .

فما بقي من مآخذ يناقش فيها حول هذا الموضوع ؟ قيل : إنه تخطّى الصالحين من أصحاب الرسول ﷺ فلم يولّهم شيئاً من المناصب الشاغرة ، وادّخرها لأقاربه : فعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ولاّه مصر ، هو أخوه من الرضاعة ، وعبد الله بن عامر الذي ولاّه البصرة ، ابن خاله ، ومعاوية الذي استبقاه على الشام ، ابن عمه ، ومروان بن الحكم ، الذي أعطاه رئاسة الديوان ، ابن عمه ..

* فأما تخطيه الصالحين الورعين إلى غيرهم ، فقد أجاب الخليفة نفسه عن ذلك ، بأن أمير المؤمنين "عمر" كان يفعل ذلك أحياناً ، لا إهمالاً لشأن الصلاح والورع ، ولكن نشداناً للصلاحية والكفاءة ، وضرب الأمثال ببعض الذين اختارهم "عمر" للإمارة ، على حين كان معه في المدينة من أصحاب الرسول ﷺ مَن يفوقهم ورعاً وتقوى

* وأما إيثاره أهله الأقربين ، فتلك مسألة لا تردد في القول بأنه كان من الحزم للخليفة أن ينتهج فيها منهجاً آخر ، مهما تكن كفاءة الأقربين وصلاحيتهم

إن الخليفة - رضي الله عنه - ليذكر يوم ذهب العباس عمّ النبي عليه السلام سائلاً النبي أن يوليه إمارة ، فقال له وهو يرده عنها

« إنّا والله يا عم ، لا نولي هذا الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليه »

ثم أتبع قوله هذا بنصيحة غالية :

« يا عباس ، يا عمّ النبي محمد ، إيّاك والإمارة ، فإنها نِعْمَتِ المرضعة وبئست

الفاطمة » !!

وفي تلك السنوات الصعبة بالذات، حيث اشرأبّت أعناق الفتنة، وأخذت العصبية ترمي فحيحها، كان من حق الناس على الخليفة أن يجنبهم كل شائبة تدور حول الأمويين وحول ما يأخذونه لأنفسهم من امتيازات. لكن هذه القصة لا تقترب من الإنصاف إلا بقدر ما تقترب بحق من الظروف التي كانت تشكل يومئذٍ وعاءً للأحداث كلها.

والظروف كما قلنا من قبل، كانت تشكّل فتنة عارمة وجامحة تهدف في التحليل النهائي لأهدافها إلى تقويض الدولة المسلمة التي قوّضت في بضع سنوات أركان العالم القديم المحيط بها.

والآن وقد أُعِدّت المؤامرة تماماً، فإنها تتلمّس كل سبيل لتوجيه ضربتها الأخيرة إلى معقل الدولة .. الخليفة ذاته. وليكن على رأس تلك الأسباب قضية الوُلاة.

ولقد كانت نزوة التشهير بالأمراء دَيْدَناً قديماً لبعض الأقاليم، وكان أمير المؤمنين "عمر" وهو يدعم تجربة الحكم الإسلامي في سنواتها الأولى يؤثر دائماً أو غالباً أن يضع رغبات المحكومين موضع الاعتبار والتقدير - خصوصاً فيما يتعلق بتغيير أمرائهم الذين يرغبون في تغييرهم، ولقد رأيت كيف سار الخليفة "عثمان" على نهجه، فغيّر أمراء البصرة، والكوفة، ومصر، نزولاً على رغبات أهل تلك البلاد.

لكنّ المسألة سرعان ما تحولت إلى جزء من المخطط المرسوم لتخريب الدولة وتجريدها من سلطانها. ولم يعد الاستسلام لرغبات التشهير والتغيير سوى مظهر للعجز يزيد المتآمرين إغراءً وقوة. هنالك لم يكن بُدٌّ من زجر تلك المحاولات المغرضة، ولم يكن للدولة بدٌّ من أن تُضفي على موقفها قدراً كبيراً من الحزم والحسْم.

ولقد وقف الخليفة وقفته الرشيدة التي صوّرتها كلماته هذه للمتمردين:

« وأيّ شيء لي من الأمر، إذا كُنتُ كلما كرهتم أميراً عزلتُه، وكلما رضيتم عن أمير ولّيته » ؟؟!

إن هذا الموقف، بصرف النظر عن أيّ اعتبار آخر، يشكّل في أيام الفتن والمؤامرات، الضمان الأهم لحماية الدولة من التمسّخ والضياع.

فإذا استطاع حفنة من المتمردين، أن يصدروا أوامرهم للدولة، ويسلبوها أخصّ حقوقها، فما من سبيل ثمّة لاستبقاء كيانها وكرامتها سوى دحض الفئة المتمردة والمتطفّلة عليها.

* * *

وصحيح أن "عثمان" رضي الله عنه كان من أكثر الناس حبّاً لأهله، وصِلةً لرحمه

ولابدّ أن هذا الحب المفرط للرحم ولذوي القربى، كان واحداً من أسباب اختيار هؤلاء الأمراء. بيد أنه لم يكن كلَّ الأسباب.

فالفتنة التي نجمت يومئذٍ في زلزلة الثقة المتبادلة بين المسلمين وخليفتهم، وضعت

الخليفة في "مُناخ نفسيّ" حمله على تناسي النعم المعهودة . فقد أقرب الناس إليه وأحناهم عليه . فلنضعْ هذه من سيئات برّه بأهله وذوي قرباه

كذلك كان هناك التحدّي الذي يستهدف شخصه ، ويتنكّر في دعوى المناداة بعزل الأمراء الأمويين . كان هذا التحدّي بكل ما توسل به من تهجّم على الخليفة وتمرّدٍ على مقامه - سبباً آخر من أسباب تشبّثه باختياره

ثم كانت هناك كفاية أولئك الأمراء . ففي أيديهم ، وبأمرهم وقيادتهم ، سارت جيوش المسلمين تقهر ذلك التمرّد المنتشر كالنار في أنحاء الدولة كلها . وبسبب حذر الصحابة الذين اشتركوا في تلك المعارك ، عادت البلاد الهاربة إلى حظيرة الإسلام ، وتحطمت جيوش "بيزنطة" وجيوش "فارس" ، وخفقت إلى الأبد رايات الإسلام في تلك الديار .

من حقّ الخليفة إذن أن يعتز ببلائهم هذا ، ومن حقه ألا يجعلهم مضغة في أفواه المتمردين والمخرّبين من أعوان "ابن سبأ" حامل لواء الفتنة وناشر الظلام

* * *

وهنا سؤال لابدّ من طرحه حتى نكون أمناء على الحقيقة التي نقتفي آثارها

ذلكم هو : هل كان أولئك الأمراء الذين اختارهم الخليفة من ذوي قرباه ، هدفاً لسخط المتآمرين المخرّبين وحدهم ؟ أم أنهم كانوا كذلك موضع سخط نفر من خيار الصحابة وفضلائهم ؟

وماذا كانت أسباب هذا السخط ودواعيه ؟ وماذا فعل الخليفة لتفاديه ؟

* * *

من المعروف أن عدداً من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ، كانوا - ومعهم الإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه - يرون صلاح الأمة والدولة في تنحية الأمراء الأمويين ، وتنحية مروان بن الحكم الذي كان يشرف على ديوان الخلافة

وكانت وجهة نظرهم تتمثل في أن إيثار هؤلاء الأمراء الأمويين بالإدارة يضفي على شكل الحكومة طابع الأثرة . كما أنهم - أي الأمراء - لم يكونوا في مستوى القدوة التي تفرضها وتتطلبها مناصبهم ، لا سيما في تلك الآونة التي لا يشدّ أزر الإسلام فيها شيء مثلما تشدُّه التقوى والإخبات والورع ، وضرب الأمثال الغالية من وليّ الأمر في التفوق على مغريات الترف ، وزخرف الحياة .

أي أننا نستطيع القول إنه كان هناك يومئذٍ مؤامرة .. ومعارضة .

* مؤامرة يتولاها ، ويتعهدها الحاقدون على الإسلام كله الدين ، والدولة ، والأمة يهدفون بتآمرهم المتفشّي والمسعور ، إلى إنزال ضربات قاصمة بالدين ، وبالدولة ، وبالأمّة

* ومعارضة يقوم بها نفرٌ من خيار الصحابة رضوان الله عليهم يهدفون بها إلى

تصحيح الخطأ، وإقرار الصواب في حدود الكلمة الصادقة، والنصح الأمين.

ولئن كانت نفس الخليفة قد امتلأت بعتب لسوء طويّة المتآمرين المتّبعين في تشهيرهم بولاته، فلا نحسبه قد خدعته الشكوك لحظة في سلامة النية التي حدت بخيار الصحابة من أمثال "عليّ، وعمّار" إلى اتخاذ موقفهم العدائي من أولئك الولاة.

بيد أنه كان يدير خواطره على قضيته بطريقة أخرى، فهو غير مقتنع بوجوب عزلهم لمجرّد أنهم من ذوي قُرْباه. ولا لأنهم تفسّحوا في مناعم الحياة.. وهو يريد أن يُدانوا بأخطاء تستوجب عزلهم، وآنئذ يكون حقاً عليه عزلهم بغير إبطاء.

من أجل ذلك نراه يبادر بإجراء سديد.

فلقد اختار نفراً من الصحابة الذين لا يختلف في نزاهتهم، ولا يختلف في أمانتهم وورعهم.. اثنان.

اختار "محمد بن مَسْلمة" الذي كان أمير المؤمنين "عمر" يأتمنه على محاسبة ولاته، والتفتيش على الأقاليم، وتقصّي أحوال الناس في كل بلد.

واختار "عبد الله بن عمر" الثقة الصالحة من آل الخطاب، والإمام الورع الذي عرضت الإمارة عليه نفسها أكثر من مرة، ورفضها في كل مرة.

واختار "عمّار بن ياسر" المجاهد العظيم المبرور، بطل الأيام العصيبة في فجر الإسلام.

واختار "أسامة بن زيد" الحِبّ ابن الحِبّ، الذي كان الرسول ﷺ يتهيأ للقاء ربه وهو يقول: «أنفذوا بَعْث أسامة».

اختار هؤلاء على رأس جماعة عهد إليهم بالسفر إلى الأقاليم والتحقق من مسلك كل والٍ وأمير.

أليس عملاً سديداً ومنهجاً عادلاً وحكيماً..؟ بلى.. فماذا كان جواب أولئك السفراء المبعوثين..؟ لقد عادوا جميعاً ـ عدا عمّار بن ياسر ـ الذي كان قد أُرسل لتقصّي الحقيقة في مصر فطال بها مُكْثُه.

عاد "ابن مَسْلمة" من الكوفة.

وعاد "عبد الله بن عمر" من الشام.

ورجع "أسامة بن زيد" من البصرة..

وقدّموا للخليفة تقاريرهم وما شهدوه وما سمعوه، فما كان هناك خطأ واحد يستوجب عزل أمير..!!

ترى هل نعتبر شهادتهم هذه دحضاً لموقف "الإمام عليّ" وإخوانه من أولئك الأمراء..؟؟

كلا.. كما أن موقف الإمام وأصحابه لا يعتبر دحضاً لموقف الخليفة عثمان.. ذلك أن الفريقين متفقان على رعاية حرمات الإسلام.

ولكنهما في هذه القضية ينظر كل منهما إليها من زاوية مختلفة.

فالإمام وأصحابه يرون ألا حقّ للطلقاء في ولاية أمور المسلمين.. خصوصاً أولئك

الذين كان لهم قبل إسلامهم وبعد إسلامهم نكبات لا تجعلهم للولاية أهلاً

و"الطلقاء" هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة تحت بريق السيوف، وأشرف الرسول على جموعهم الضارعة المرتجفة وناداهم:

«اذهبوا، فأنتم الطلقاء»

ومن هؤلاء، كان أولئك الأمراء الأمويون الذين تدور حولهم الخلاف.. أما "الخليفة عثمان" فقد كان له في القضية رأي آخر.. هو أن الإسلام يجبُّ ما قبله.. وأن التوبة تجبُّ ما قبلها.

فأخطاء هؤلاء قبل الإسلام، قد وضع الإسلام عنهم وزرها

وأخطاؤهم، أو أخطاء بعضهم بعد الإسلام، قد وضعت التوبة عنهم وزرها

وفي رأي الخليفة أنه ما لم يُدنْ أحدهم باقتراف منكر أو ظلم لرعيته، فلن يعزله عن الإمارة، ولا سيما تحت ضغط الفتن المسلحة التي تقودها جماعة من الموتورين والمخربين، يصبح أمراً فوق طاقة اقتناعه، وضميره.

لقد كان الوليد بن عقبة أميراً بالكوفة، وحقق بدولته انتصارات كبيرة، ثم هو في الوقت نفسه من ذوي قربى الخليفة.. ومع ذلك كله، فإنه حين ترامت إليه أنباء اتهامه بالخمر لم يمهله يوماً حين استدعاه إلى المدينة، وعزله عن الإمارة. وأقام عليه الحدَّ جهاراً علناً، وهذا هو ما لن يتأخر عن صنعه تجاه الأمراء الآخرين من ذوي قرباه، إذا أُدين أحدهم بخطأ يستوجب عزلاً أو عقاباً.

ذلك في إيجاز، كان رأيه في أزمة الولاة، وهو رأي ازداد به اقتناعاً بعد عودة مبعوثيه إلى الأقاليم، معلنين في أمانة وصدق أنهم لم يروا منكراً، ولم يشهدوا ظلماً

ومع ذلك، فقد بعث كتبه إلى الأقاليم جميعاً يقول فيها

«بلغني أن أقواماً منكم يُشتمون، وآخرين يُضربون، فمن كانت له مظلمة فليأت في الموسم، وليأخذ بحقه مني أو من عمالي عليكم»

* * *

وهناك حوار ينقله لنا "ابن كثير" في كتابه، قام بين "الإمام عليّ" و"الخليفة عثمان" يضع وجهتي نظرهما وجهاً لوجه، وبالتالي يغمر القضية بضوء جديد.

ولقد جرى هذا الحوار يوم اختار الناس "عليّاً" كي ينقل إلى الخليفة ما في أنفسهم من شكوى ومضض، وجلس الإمام إلى الخليفة وحدهما، وبثّه كل ما في نفسه، ونقل إليه ما في أنفس الآخرين.. وكانت كلمات الإمام مترعة بحرص شديد على خير الخليفة وخير الأمة

وعقب "عثمان" على كلمات "عليّ" قائلاً

«أما والله لو كنت مكاني ما عنّفتك، ولا أسلمتك، ولا عبت عليك

أتراني جئت منكراً إن وصلتُ رحماً، وسددت خلة، وآويتُ ضائعاً، ووليّت شبيهاً

بمن كان ـ عمر ـ يولّي .. ؟؟

أناشدك الله يا عليّ ..

هل تعلم أن المغيرة بن شعبة كان والياً لعمر .. ؟

قال عليّ : نعم .

قال عثمان : فلِمَ أُلامُ إذ ولّيتُ ابن عامر في رحمه وقرابته ، وليس للمغيرة عليه كبير فضل .. ؟

قال عليّ : سأخبرك .. إن عمر كان إذا ولّى أحداً فإنما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه شيء جاء به وبلغ في زجره أقصى الغاية .. أمّا أنت فلا تفعل ، فقد ضعفت ورفقت بأقربائك

قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً يا عليّ ..

قال عليّ : نعم .. إن رَحِمَهُم مني لقريبة .. ولكن الفضل في غيرهم .

قال عثمان : ألم تعلم أن ـ عمر ـ ولّى معاوية طوال عهده وخلافته .. فهل أُلامُ إن أنا ولّيتُه .. ؟

قال عليّ : فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من "يَرْفَأ" غلام عمر .. ؟

قال عثمان : نعم ، كان كذلك ..

قال عليّ : فها هو ذا يقطع الأمور دونك ، وأنت لا تنهاه ... » .

هذه الفقرة من الحوار ، تريك كيف كان هناك قطبان يحركان الدولة ، والمعارضة ـ كلاً في اتجاه .. وحين نقول "المعارضة" فإنما نعني بها المجموعة الخيِّرة من الصحابة وعلى رأسهم عليّ بن أبي طالب .. دون أن نعني بحال تلك العصابات الأخرى التي كانت تعدُّ للفتنة الجامحة .. في أقطار الدولة وأمصارها ، والتي لم تخبُ نارها حتى اغتالت الخليفة في وحشية بالغة ..

وفي هذا الحوار نرى في وضوح تام تصوُّر الخليفة للموقف .

فهو يرى في موقف المعارضة ـ حتى برغم سلامته وسداده ـ مفسدة للآخرين الذين يُبيّتون له الشر ويتربصون به الدوائر ، فهو لهذا يقول للإمام عليّ « لو كنت مكاني ما أسلَمْتُك ، ولا عنّفتك » ..

ثم هو يرى في استناده للولاية إلى نفر من أقربائه ، نوعاً من تألُّفهم والإحسان إليهم ، واستبقاء ولائهم للإسلام ، فضلاً عمّا أظهروه من كفاءة واقتدار في الإدارة وفي القتال

كذلك يرى أنه في إيثاره ذوي الكفاءة والمقدرة على بعض ذوي الفضل والورع ، إنما يتأسّى بما كان يصنعه ـ أحياناً ـ أمير المؤمنين عمر ..

وهكذا تشكّل اقتناع الخليفة تجاه أزمة الولاة واتخذ فيها موقفاً ثابتاً صامداً .

وكان للمعارضة اقتناعها الذي عبّرت عنه كلمات الإمام عليّ في حواره مع الخليفة .

فالإمام يرى أن المصالحة بتنحية هؤلاء الأمراء قضية عادلة .

وأنه إذا وُجد أناس يتخذون من التشيُّع للحقّ ستاراً يخفون وراءه أغراضاً باطلة ـ كما تفعل عصابات التمرد الآنفة ـ فليس معنى ذلك أن يسكت المخلصون للحقّ عن الجهر به والدعوة إليه.

كذلك يرى "الإمام" أن تقوى الأمير أهم من كفاءته، وإخلاصه أرجح من ذكائه.. وأنه إذا كان "عمر" قد آثر أصحابه ذوي الذكاء والدهاء والمقدرة، فلأنه كان يُحكم قبضته على ولاته وأمرائه جميعاً بصورة لا تمكّن أحدهم من أن يُغمض عينه عن الحق لحظة من ليل أو نهار.. أما الآن والخليفة يُدلِف نحو الثمانين، ثم هو بطبيعته رجل طيّب، متسامح، هادئ العزمة، مأمون الغضب، فإن أولئك الأمراء يتصرفون تصرُّف مَنْ ليس وراءه معقب، ولا عليه رقيب.

لم يكن "الخليفة" يبرئ ولاته من الخطأ، لكنه كان يريد أخطاء كثيرة تبرر عزلهم وإبعادهم..

وكان "الإمام" يرى أن شأنهم وطبائعهم وتكوينهم النفسي والعقلي، لا يجعلهم أنسب الناس للمناصب التي يولّونها، وأنهم بهذا وبهذا، سيتمادون في الأخطاء ويَسْتَمْرِئُونَها حتى تبلغ بهم المزالق الوعْر، والهُوّة الفاغرة.

والحقّ أن الحوادث مضت نحو غايات مريرة كشفت عن صدق فراسة "الإمام علي" وعن سداد نظرته، وسلامة وجْهَته.(1)

* * *

ونتقل الآن إلى ثاني المآخذ، أو ثانية الأزمات التي ثارت ثائرتها حول الخليفة، وهي خاصة بالأموال العامة.

وبادئ ذي بدء، نؤكد أن أحداً قط من خصومه لم يكن إذا خلا بنفسه ليُدين ذمّته بسوء، حتى أولئك الذين أثاروا الفتنة لوجه الفتنة وائتمروا بدمه وحياته.

لقد كانت طهارة ذمته، وعظمة نفسه، وطهر أخلاقه موضع يقين لا يتطرق إليه شك، ولا يقترب منه مغمز.

لكن الذي قيل يومئذٍ وتولى المتآمرون تضخيمه، هو أن الخليفة كان يختصُّ ذوي قرباه بمزيد من الأعطيات من بيت المال.. وقد سرح بهم تحمّسهم إلى القول بأن الخليفة أقطع مروان بن الحكم خمس أفريقية مرة واحدة!!

وراح المتآمرون ضد الإسلام وضد الخليفة يُرَوِّجون الإشاعات الكاذبة الخبيثة حول التصرفات المالية للخليفة.

---

(1) راجع كتاب "في رحاب علي" للمؤلف

* وإذا زوّج ابنته من ابن الحارث بن الحكم، وزوّج ابنته من ابن مروان بن الحكم، وجهّزهما - من خالص ماله الذي كان واسعاً ووفيراً من الجاهلية إلى الإسلام - قالوا إنه جهزهما من بيت مال المسلمين.. !!

* وإذا أقرض عبد الله بن خالد بن أسيد بضعة آلاف من بيت المال - وكان من حق المسلمين يومئذ أن يقترضوا من بيت مالهم - قالوا: إن الخليفة منحه إياها بغير حق.. !!

* وإذا توسّع في المراعي التي كانت الدولة منذ عهد "عمر" تحميها لإبل الصدقة ولتنمية الثروة الحيوانية، أرسل - ابن سبأ - وفداً من ثوار مصر لتتهم الخليفة بأنه إنما فعل ذلك كي يُسَمِّن إبلَه وماشيته.. !!

* ولقد حدث أن ولّى "الخليفة" الحارث بن الحكم أمانة سوق المدينة، واستغل الحارث وظيفته، فراح يشتري النوى ويحتكره.. ولم يكد الخليفة يعلم بهذا حتى استدعاه إليه وعنّفه ثم عزله من فوره.. فهذه أيضاً نسجوا منها اتهاماً.. !!

* وكانت الأرض البور التي لا تجد مَنْ يزرعها ويستثمرها، تملأ فجاج الأمصار، لاسيما في سواد العراق، فراح الخليفة يُقطعها نفراً من أثرياء الصحابة الذين يمكنهم ثراؤهم من الإنفاق عليها واستثمارها، وكان هناك مبدأ إسلامي يشجع على هذا التعمير

« مَن أحيا أرضاً ميتة فهي له »

فهذه أيضاً نسجوا منها اتهاماً.. !!

* وكان أمين بيت المال "عبد الله بن أرقم" قد تقدمت به السن، كما وقع خلاف هادئ بينه وبين الخليفة، فرأى الخليفة أن يُولي مكانه "زيد بن ثابت"

هنالك أطلق المرجفون المتمردون قولهم بأن الخليفة عزل ابن أرقم، لأنه عارض إسرافه وتصرفاته

ترى لو كان ذلك كذلك، أفما كان الأجدر بالخليفة أن يختار رجلاً غير "زيد بن ثابت"؟

إن "زيد" هذا هو الذي ائتمنه "أبو بكر، وعمر، وعثمان" على جمع القرآن

وهو الصحابي الجليل الذي كان له في قلوب المسلمين كافة أعمق مشاعر الاحترام والثقة والتقدير.. وهو بدينه وبخلقه وبأمانته لا يمكن أن يتحمل أمام ربه مسئولية أي خطأ أو تقصير

هذا هو الرجل الذي ولاه الخليفة بيت المال..

ومع ذلك، فقد نسجوا من هذه الواقعة اتهاماً

* بل لم يخجلوا من أن يزعموا أن الخليفة كان يأخذ من بيت مال المسلمين ليبني لنفسه ولأهله قصوراً وينشئ ضياعاً.. !!

* * *

لقد أخذ المرجفون في المدينة وفي الأمصار من المسائل المالية موضوعاً خصباً لأخيلتهم التي راحت تنسج الأكاذيب، وتصنع البهتان

ولربما يقال هنا: لا دخان بغير نار.. وإذن فلكن أخطاء الخليفة قد اتخذت من تصرفاته المالية مادة ثرة للتجريح والإساءة.. أفلا يعني ذلك بوجود أخطاء في تلك التصرفات، أجاد المرجفون والمتآمرون استغلالها..

والحقّ الذي نستخلصه من استقراء الوقائع التاريخية عن ذلك العهد، أن خصوم الخليفة من أتباع ابن سبأ والمتآمرين معهم، كانوا في حملة التشهير بالخليفة لا ينتظرون وجود أخطاء يستخرجون منها اتهاماتهم.. فلقد كانوا مصممين على هذا التشهير وقادرين عليه ولو برئت تصرفات الخليفة كافة من الهفوات، بل لو رضوا أن يعدوا صفحتها بيضاء من غير سوء..

ولسنا ننفي أو نستبعد وقوع أخطاء.. إنما ننفي بنفس القدر أن تكون هذه الأخطاء ناجمة عن أدنى قصور في ذمة الخليفة العظيم ونزاهته.. الأمر الذي أراد المتآمرون أن يصلوا إليه..

كل الذي حدث يومئذ، وشكّل بدوره مناخاً صالحاً للتجريح الزائف، أن الأموال قد درّت لقاحها، وكثرت في أيدي الناس جميعاً، وكثرت معها النعم، وانتشر الترف، ولم يكن مع الأمراء الأمويين من الزهد ولا من الورع ما يصرفهم عن مشاركة الناس في ترفهم وبذخهم، بل راحوا بحكم شبابهم يوغلون في الترف والاستمتاع.

وكان الخليفة عن اقتناع ـ لا عن تساهل ـ لا يرى بأساً في أن يستمتع الناس ما شاءوا بمتاع الحياة، ما داموا لا يأخذون المال من حرام، ولا ينفقونه في إثم..

ونحن نسلم بداهة أن الخليفة "عثمان" لو سار في هذه المسألة على نهج سلفه "عمر" وكبح جماح الأنفس عن الإغراق في الطيبات المشروعة، لكان ذلك أسلم، ولا سيما بالنسبة للولاة والأمراء الذين يجب أن يظلوا دائماً قدوة للآخرين في بساطة العيش والترفع عن إغراء النعيم..

لكنّ سؤالاً يفرض نفسه علينا فرضاً، هو: هل كان ذلك ممكناً مع رياح التغيير والتطور التي هبّت على الدولة الواسعة العريضة من الجهات الأربع، حاملة أمماً شتى.. وحاملة مع تلك الأمم والجماعات، تقاليد وعادات تصطرم في موج كالجبال..؟؟!!

تلك هي القضية.. وفي ضوء هذه الحقيقة فيها، ينبغي أن نبحث عن تفسير مآخذ الإسراف والترف التي أرادوا أن يحمّلوا الخليفة وحده مسئولياتها..

الخليفة الذي بقيت ذمته برغم كل شيء، كمثل الطهر، وناصعة كالضياء..

* * *

والآن، إلى ثالثة الأثافي.. تلك التي تتمثل في الخلاف الذي نشب أواره بين المعارضة النزيهة البريئة التي قام بها نفر من خيار الصحابة، وبين الخليفة "عثمان" رضي الله عنه وعنهم أجمعين..

لقد أُخذ على الخليفة أنه كان له موقف اتسم بالعنف تجاه الصحابي الجليل ـ أبي ذرّ الغفاريّ ـ والصحابيّ الجليل ـ عمّار بن ياسر ـ والصحابي الجليل ـ عبد الله بن مسعود

وإنّ لنجانب الصواب إذا نحن درسنا هذا الخلاف بعيداً عن الإطار العام للأحداث والفتن التي كانت تجتاح الدولة والمجتمع يومئذ.

لقد كان ممكناً لكلّ خلاف في الرأي يقع بين الخليفة وإخوانه من الصحابة الفضلاء الطيبين، أن يجد حلّه الموفق السعيد، لولا ذلك الجو القاتم الذي كان المتآمرون المغرضون قد أفلحوا في صُنْعِه..

فقد غطّوا ضوء النهار بغمامة مظلمة سوداء، تدعُ الحليم حيرانَ

ولقد استغلوا ذلك الخلاف الصادق البريء، في تأجيج نارهم التي يُوقِدون.

وصارت النصيحة الأمينة الهادئة التي يقولها صحابي جليل، تتحول على أفواه المشّائين بنميم، إلى قذف وسباب..

وكلمات العتاب التي يرسلها الخليفة في أناة، تتحوّل على فم تلك الشِّرذمة المسمومة إلى وعيد وتهديد

وليس أشدّ إيلاماً لنفس الرجل الحييّ المُفْرِط الحياء ولا أدْعى لغضبه، من أن يتخذ الناس حياءه سبباً لاستضعافه وللتجرؤ عليه.

تلك قضية من قضايا النفس البشرية لا تحتاج إلى برهان

ولقد كان "عثمان" رضي الله عنه مفرط الحياء.. وبدلاً من أن يصدّ هذا الحياء تهوُّرَ المتآمرين على وقار الخليفة ومكانته، إذا هم تَجْذب نفوسهم من كل توقير لهذا الحياء.. !!

هنالك مُلِئَتْ نفس الخليفة ألماً، وأُفْعِمت غضباً، وقال للمتمردين قولته المأثورة

«أما والله، لقد عِبْتُم عليّ بما أقْرَرْتم لابن الخطاب.. ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدِنْتم له على ما أحببتم أو كرهتم

أمّا أنا فلنتُ لكم، وأوطأتُ لكم كتفي، وكففت يديّ ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ»

إن هذه الكلمات المتفجّعة، تكشف عن الجرح الذي دمي مشاعر الخليفة الحَييّ، المتسامح، والوديع!

ورجل مثل "عثمان" في أناته وهدوء سمته، لا يتفجّر غضبه في كلمات كهذه، إلا إذا كان الجُرح قد بلغ من نفسه أعمقها، وإلا إذا كان شعوره باستخفاف المتآمرين قد جاوز القدرة على الصبر والاحتمال.

وفي جوٍّ نفسي كهذا، فإن مَسَّ الصديق يُدمي البنان.

ومن هنا لم تكن نفس الخليفة المثقلة بالجراح، مهيأة للتجاوب مع المعارضة التي أثارها رفاقه في الدعوة وفي الصحبة وفي صحبة رسول الله ﷺ منذ الأيام السعيدة الباكرة في فجر الإسلام.

ولم يكن ذلك منه استنكافاً لكلمة الحق ولا استعلاءً عليها.. إنما كان ذلك، لأنه رأى المتمردين يتخذون من معارضة هؤلاء الأصحاب الكرام وقوداً لفتنتهم المدمرة.

ولسنا نريد بهذا التوضيح أن نشجب حق الصحابة الأجلاء في نقد ما رأوه من خطأ، فما كان لمثلهم أن يسكت على خطأ.. وإنما أردنا أن نبصر بعينين مفتوحتين طبيعة "المناخ النفسي" الذي كان يعكس نفسه لا محالة على مشاعر الخليفة وعلى تفكيره.

* * *

والآن نتجه إلى وقائع الخلاف الذي قام بين الخليفة وأولئك الأصحاب.. هذا الخلاف الذي استغله زعماء الفتنة المسلحة، وشكلوا منه مهاداً يبررون به مع غيره انتهاكهم حرمة الخلافة، وحياة الخليفة.

ونبدأ بالخلاف بين الخليفة وأبي ذر، رضي الله عنهما

وأبو ذر الغفاري واحد من أعظم الرواد الذين أنجبهم الإسلام [1]

استخلص من روح الإسلام منهاجاً في الزهد وفي توزيع الثروات، ثم راح يبشر به في تفانٍ رهيب عظيم.

وهو بمنهجه هذا لم يختلف مع الخليفة وحده، بل اختلف كذلك مع بعض الصحابة الآخرين الذين كان لهم من المال وفرة ومدّخر..

ذلك أنه كان يرى في الأموال ودائع الله عند عباده، استخلفهم فيها، ولكلٍّ أن يأخذ منها حاجته وضرورته ثم لا يزيد.

كذلك كان يرى أن محمداً وأصحابه إنما جاءوا الحياة ليعطوا.. لا ليأخذوا..

ولقد أعطى الرسول الحياة أثمن العطايا وأروعها بما منحها من هُدًى، وحكمة، ونور، ثم رفض طوال عمره أن يغلق يديه على شيء من زخرفها ونعيمها.. بل مات ودرعه مرهونة في حفنات شعير صنع منها خبزاً يابساً له ولأهل بيته..!! فأصحابه يجب أن يمضوا على ذات النهج حتى يلقوه..

ولقد مضى على النهج أبو بكر.. ومن بعده عمر

والآن يريد أبو ذر أن تكون خلافة عثمان "امتداداً" لأيام الوحي.. وأيام الصدّيق.. وأيام الفاروق في زهدها، وتقشفها، وتجنبها كل المغريات حتى المشروع منها والحلال

ولقد عاش -كما تنبأ له الرسول ﷺ- وحده.. ومات وحده.. وسيُبعث وحده..

أما في الجانب الآخر، فقد كان أكثر الصحابة لا يَرَوْن بأساً.. أيَّ بأس- في الاستمتاع بطيبات الحياة.. فالقرآن يحدثهم:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

---

(١) راجع كتاب "رجال حول الرسول" للمؤلف

ويحدثهم:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

على أن "أبا ذر" وإن جاز أن يتسامح بعض الشيء مع المعتدلين المقتصدين، فإنه لم يكن ليتسامح لحظة تجاه الترف، والسرف، واحتكار الضياع، وكنز الأموال.

ومن ثم، لم يتردد في أن يقطع الطريق وثباً إلى الشام حيث سمع أنباء ما تموج به من تَرف، وما تشق فضاءها من بروج وقصور، ويغطي أرضها من ضياع ويمد بين المناكب وأخلد إلى نعيمه الأمراء، وعلى رأسهم معاوية ونفر آخر من الصحابة الذين لم يُخلقوا في رأي "أبي ذر" للدَّعَة ولا لنعيم الدنيا الفانية.

وفي الشام رفع لواء معارضة كادت تعصف بمقعد معاوية.

وراح يتلو على الجماهير هذه الآية، فكأنما يسمعها الناس لأول مرة:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

وحاول "معاوية" أن يُهدِّئ من ثورته دون جدوى. والحق أنه برغم إحساسه بخطر دعوته عليه، فإن مسلكه تجاهه ظلّ متّسماً بإجلاله وتوقيره.

ولقد اكتفى بأن يكتب إلى الخليفة كتاباً يقول فيه:

«إن أبا ذر أفسد الناس بالشام»، فجاءه رد الخليفة سريعاً:

- «أرْسِلْه إليَّ»

وعاد "أبو ذر" إلى المدينة. وجرى بينه وبين الخليفة حوار لم يقتنع أحدهما فيه بوجهة نظر الآخر.

وهنا تنتهي بروايتين تتناقضان، إحداهما تقول: إن الخليفة قرر إبعاده إلى "الرَّبَذَة" مكان بعيد عن المدينة. وأخرى تقول: إن أبا ذر هو الذي طلب من الخليفة أن يأذن له بالخروج إلى "الرَّبَذَة" حيث يقضي بها بقية أيامه. وسواء صحّت هذه الرواية أو تلك، فليس ثمة شك في أن الخليفة كان حريصاً على أن يظل "أبو ذر" في جواره بالمدينة، قائلاً له: «تَقِرّ معنا، تغدو عليك اللِّقاح وتروح»

لكن أبا ذر، كان يعرف نفسه جيداً، ويعرف أنه سيظل مرتفع الصيحة ضد الأشياء التي لا يبدو أن الخليفة مستريح لطريقته في معارضتها..

وهكذا خرج الصحابي الجليل في هدوء إلى الربذة حيث عاش بها يعبد الله العلي الكبير، حتى نادته ساعة الرحيل إلى الرفيق الأعلى.

على أن والجدول في وقفة هذا الخلاف بين الخليفة وأبي ذر مشهداً يغلب وجهة الدليل الحق على أن الخلاف بين الدولة والمعارضة لم يكن مهما استحر وتفاقم ـ ليصل للأحداث

إلى ذلك المدى البغيض الآثم الذي بلغه على أيدي المتمردين المحرّضين.

فها هو ذا "أبو ذر" رضي الله عنه، يزوره بـ "الربذة" بعض متآمري "الكوفة" ويعرضون عليه أن يتزعم ثورة مسلحة ضد الخليفة، فإذا هو يجبههم بهذه الكلمات الباهرة:

« والله، لو أن "عثمان" صلبني على أطول خشبة، أو أطول جبل، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيراً لي.

ولو سيّرني ما بين الأفق إلى الأفق، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيراً لي.

ولو ردّني إلى منزلي، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيراً لي » !!

هكذا كان نوع الخلاف بين الخليفة وبعض صحابه، وهكذا كان مداه.

ونحن نستبعد وجود خلاف على الإطلاق، لأمرٌ ضدُّ طبائع الأشياء.

* * *

والآن نغادر واقعة الخلاف مع "أبي ذر" إلى مثيلتها مع "عمار بن ياسر".

و "عمار" (1) صحابي جليل، استشهد أبواه على خشبة التعذيب الذي أرادت قريش أن تطفئ به نور الله، وتحمل "عمار" مع أبويه حظه الرهيب من العذاب، كما تلقى معهما حظه من البشرى الرائعة التي زفها إليهم الرسول ﷺ حين ناداهم وهم يعذبون:

« صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة» !

لقد اختلف "عمار" مع "الخليفة" حول بعض المناصب، ولعله عالج الخلاف بطريقة أزعجت الخليفة، ولا سيما في أواخر عهد "عثمان"، حيث كان بعض الولاة الأمويين قد أسرفوا في تسويئهم على معارضيهم، غير مفرقين بين صحابي جليل يجهر بالحق لوجه الحق، وبين مُغرض دخيل، يريدها فتنة عمياء.

ولقد كان من الممكن أن يظل الخلاف بين الخليفة وعمار محكوماً بحقوق الصحبة الغالية التي جمعت بينهما في أيام العسرة وأيام الانتصار. بل لقد بقي كذلك فعلاً برغم المضاعفات التي أحدثتها بفعل الفتن التي كانت الأنفس تمور بها مَوْراً، والتي كانت الأحداث والمؤامرات تزيدها كل يوم اشتعالاً.

ولقد رأينا الخليفة وهو يختار من بين خيار الصحابة مَن سيُشكّلون لجنة تقصّي الحقائق، وإذا به لا ينسى "عمّاراً" بل يختاره برغم معارضته له، ويُرسله إلى مصر.

ولم يعد مبعوثو اللجنة إلا "عمار" الذي طال مكثه بمصر، وتصادف أن كان بها في ذلك الوقت "عبد الله بن سبأ"، ووجد الوشاة فرصتهم ليوغروا صدر الخليفة على عمار، زاعمين أنه كان يجتمع بابن سبأ، ويُصغي إليه.

---

(1) راجع كتاب "رجال حول الرسول" للمؤلف.

ولقيتْ هذه الوشاية مع غيرها دوراً في تصعيد الخلاف بين الخليفة وعمار. على أنّ واقعة الاعتداء على "عمار" كانت أقسى مظاهر هذا الخلاف، فهل اشترك الخليفة في هذا الاعتداء كما تزعم بعض الروايات ..؟

إن "الإمام الطَّبري" ينفي ذلك ويدحَضُه، وسوف نقرأ النبأ على لسان الخليفة نفسه عندما نخوضَ في هذا الاعتداء الذي اقترفه بعض موظفي ديوان الخلافة.

قال الخليفة:

«جاء عمار، وسعد بن أبي وقاص إلى المسجد، وأرسلا إليّ: أن ائتنا، فإنّا نريد أن نذاكرك في أشياء فعلتها.

فأرسلتُ إليهما: إني عنكما اليوم مشغول، فعودا إليّ في يوم آخر..

فانصرف سعد، وأبَى عمار أن ينصرف، فأعدْتُ إليه الرسول فأبى. ثم أعدتُه فأبى.

فتناوله رسولي بالأذى بغير أمري.

ووالله ما أمرتُه، ولا رضيتُ ضربه، وهذه يدي لعمار، فليقتصَّ مني ما شاء» ..!!

وكما رأينا "أبا ذر" من قبل، يرفض دعوة متمردي الكوفة ليقود ثورة ضد الخليفة، نرى الآن لعمار موقفاً مماثلاً .. فعندما حاصر المتمردون المسلحون دار الخليفة ومنعوا عنه الماء، غضب "عمار" وصاح فيهم:

«يا سبحان الله.. أتمنعون الماء عمَّن اشترى بئر رُومه، ووهبها المسلمين» ؟!!

ثم سارع إلى "الإمام عليّ" وأنبأه النبأ، واقترح عليه أن يحمل بنفسه قربة الماء إلى دار الخليفة، فلعل الثوار لا يَجْرُؤونَ على اعتراض سبيله.

إن هذا الموقف بدوره، يعطينا الدليل على أن الخلاف بين الخليفة وذلك النفر الكريم من أصحابه، ما كان ليطغى على جلال الصُّحْبة التي جمعتهم في الله إخواناً.

* * *

على أن الخلاف الذي شابَهُ كثير من الجفوة، ورأينا الخليفة يلجأ فيه -على غير عادته- إلى إجراء عنيف، كان الخلاف الذي شَجَر بينه وبين "عبد الله بن مسعود" و "عبد الله"[1] صحابي رائع في صحبته، واستبساله، وفي صحبته لرسول الله ﷺ.

ولقد تفاقمَ الخلاف بين الخليفة وبينه، حتى قطع الخليفة عنه راتبه من بيت المال.

وعلى الرغم من أن إجراء كهذا لا يتّسقُ بحال مع طيبة قلب الخليفة، وسماحة نفسه، فإنه فيما أفضَى إليه من موقف، لم تعدم هذه الطيبة، وهذه السماحة

ذلك أن الخليفة لا يكاد يعلم بمرض "ابن مسعود" - ذلك المرض الذي لقي فيه ربه، حتى يغشى ضميره ندمٌ عظيم. ويخرج إلى دار "عبد الله" متوكئاً على شيخوخته المجْهَدَة الواهنة. ثم يمضي في الاعتذار لابن مسعود، ويرجوه في إلحاح أن يغفر له ما كان منه

(١) راجع كتاب "رجال حول الرسول" للمؤلف.

ثم يذهب إلى دار "أم حبيبة" رضي الله عنها ويرجوها أن تشفع له عند "ابن مسعود" كي يصفح عنه ويغفر له.

وبعد أن مات "ابن مسعود" ودفن دون أن يخبروا الخليفة بذلك خرج حزيناً إلى قبره، ووقف عنده، ورثاه قائلاً، ودموعه تنحدر من مآقيه:

« دفنتم والله خير مَن بقي من أصحاب رسول الله ﷺ »!

وكما حدث من "أبي ذر" و"عمار بن ياسر" حين رفضا أن يستغل المتمردون خلافهم مع الخليفة، حدث موقف شبيه من "عبد الله بن مسعود". ففي مرض موته عاده بعض أولئك، وبدأوا الخليفة في حديثهم معه بالسوء فزجرهم "ابن مسعود" وقال:

« أمَا إنكم إن قتلتموه، لن تُصيبوا مثله »

* * *

هكذا كان الخلاف بينهم مهما تضطرم مواجهه، لا يلبث أن يبهر حِدّته ولاؤهم للصحبة الحسنة التي أنشأها بينهم دين الله وصحبة رسوله.

فالخليفة حين يخطئ في حقّ أحدهم يعتذر.

وهم يرفضون أن تُستغل خلافاتهم وقوداً لأطماع المتآمرين.

ولو أن الولاة الأمويين توفّروا يومئذٍ على دواعي الغلظة في أنفسهم وفي مسلكهم، لوفروا على الخليفة الكثير من المتاعب. لكنّ كثيراً منهم كانوا يرسلون النار بقسوتهم صراحاً، ولا سيما في أواخر عهد عثمان، عندما رأوا تفوّق الفتنة تسعى من حولهم وتوشك أن تلتهمهم نارها.

وحينما كان ضغط الأحداث يضطر الخليفة لأن يجابه بعض الأصحاب، فلأنه كان قد دخل مرحلة حرجة، صار شغله الشاغل فيها المحافظة على هيبة الدولة في أفئدة الناس.

ولعله كان يرى في تخطئته نفراً من زعماء الصحابة وخيارهم زجراً بلا حرج للذين ليس لهم في صدر الخليفة ولا في نفسه مثل ما للصحابة من مودة واحترام.

ولعله كذلك حين طلب من "الإمام علي" كرم الله وجهه أن يغادر المدينة إلى مكان قريب منها، إنما كان يهدف إلى إقرار هذا الأمر دون سواه، وإلا فما كان الخليفة يستغني قطّ عن مشورة الإمام ونجدته. ولقد كان كلما حزبته الأمور يستنجد به، ويقاسمه أعباءه وأخطاره.

كذلك، لابدّ من أن نذكر في هذا المقام حرص الخليفة الشديد على ألا ينشب بين المسلمين قتال يكون هو سبباً له، أو طرفاً فيه.

ولقد مرت بنا كلمته للمغيرة بن شعبة حين أشار عليه بقتل المتمردين:

« لا والله، لا أكون أول من يخلف الرسول في أمته بسفك الدماء »

فالخليفة تتأجّج من حوله الفتن والمؤامرات التي تحوّلت إلى عصيان مسلح خبيث الأهداف، وهو لا يريد، مهما يكن الموقف، أن يواجه هذا التمرد بقوة السيف مكتفياً

بالزجر والتهديد . ومع من ؟؟ مع أناس يسلقونه بألسنة حداد ، ويحرضون على خلع طاعته وقتله ، ويضمرون للإسلام كل شر وسوء .

أيعقل أن تقف مسالكه مع هؤلاء عند حدود الزجر والتأنيب ، ثم يسمح له ضميره وخلقه بالإساءة لصحابة أجلاء ، ومخلصين أمناء ، من طراز "علي" ، و"عمار" ، و"أبي ذر" ، و"ابن مسعود" ؟؟

* * *

لم يكتف المتمردون الخوارج ببث الاتهامات الباطلة التي راحوا يشغبون بها على الخليفة ، والتي سردناها على الصفحات السالفة وفندناها ، فراحوا يزعمون بأن الخليفة يبتدع في الدين بدعاً لم تكن على عهد رسول الله ﷺ ، ولا في عهد صاحبيه .

وهذا هو المأخذ الرابع والأخير في سلسلة المآخذ التي لفقوها .

لقد راحوا يتصيدون للخليفة الراشد ، ما حسبوه بسوء تدبيرهم وخبثه ثأليهم طعناً سينال من ورع الخليفة وحسن طاعته لله ولرسوله .

* فقالوا : إن الخليفة وحد المصاحف كلها في مصحف واحد ، وجمع المصاحف الأخرى وأحرق أوراقها . ولقد فصلنا هذا الأمر من قبل ، وشرحنا أسبابه ودواعيه ، ثم إنها خطوة باركها جميع الصحابة ، حتى الذين كانوا على خلاف مع الخليفة في مسائل أخرى .

* وقالوا : إن الخليفة أتم الصلاة بمكة في أثناء حجه ، وكان الرسول ﷺ وصاحباه يقصرون الصلاة .

* وهذه وحدها كافية في الكشف عن حقيقة البواعث الشريرة الفاسدة التي كانت تحرك ولب الخارجين ، وكيف كانوا يتصيدون الوهم ليصنعوا منه تهماً يحملون العامة به على مهاجمة الخليفة والنيل منه . فقصر الصلاة في السفر رخصة لا واجب ، وإذن فمن لم يستعمل الرخصة إلى العزيمة ، فلا تثريب عليه ولا حرج . وحتى حين نأخذ برأي الذين يوجبون القصر في السفر ، فإن الإمام علياً كرم الله وجهه ـ فيما يروى عنه ـ قد أجاب عن هذا المأخذ المعرض ، وهو يحاور المتمردين ، فقال : « إن الخليفة كان قد تأهل بمكة ونوى الإقامة بها ، فأتم صلاته » .

* وقالوا : إن الخليفة لم يقم حد القتل على "عبد الله بن عمر" .

وكان "عبد الله" قد انطلق في ثورة غضبه الماضية والده أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" فقتل طفلة لأبي لؤلؤة المجوسي المجرم الذي قتل أمير المؤمنين ، كما قتل الهرمزان بعد أن شاع نبأ تآمره مع أبي لؤلؤة .

وصحيح أن الشريعة الإسلامية كانت توجب القصاص ، لكن الخليفة اجتهد في القضية اجتهاداً كان مبعثه تقديره للظروف التي دفعت ابن أمير المؤمنين عمر للثأر لأبيه ، وللإسلام . كما أنه لم يشأ أن يجمع على آل الخطاب حزنين وكارثتين ـ الأولى

مقتل "عمر" غدراً . والثانية : قتل ولده قصاصاً . ثم إنه لم يطلق سراح "عبيد الله" مُهدراً بذلك الدم لدى أرقه . بل استبدل الدية بالقصاص ، ودفع لأولياء الدم دية سخيّة ، وكبيرة .

* وقالوا : إن الخليفة ردّ إلى المدينة الحكم بن أبي العاص ، وكان الرسول ﷺ قد نفاه منها ..

ولقد أجاب الخليفة عن هذا ، بأنه كان قد شفع به عند رسول الله ووعده الرسول ﷺ بالعفو عنه بعد حين . ثم إن الخليفة لم يردّه إلى المدينة إلا بعد أن زالت أسباب نفيه ، إذ كان قد أقلع وتاب عمّا كان استحق من أجله عقوبة النفي .

وقالوا .. ثم قالوا . ولم يشبعوا قولاً ، ولم يعدموا كذباً ولا بهتاناً ، ينسجون منه خيوط مؤامراتهم الوبيلة . منتهزين فرصة أيّ معارضة نزيهة يقوم بها صحابيٌ ناصحٌ أمين ، ليضخّموها بوسائلهم ، وليتوسّلوا بها إلى باطلهم .

* * *

على أن الخليفة رضي الله عنه أمام المعارضة النزيهة التي واجهه بها أصحابه بعض قراراته ، لم يقف موقف المستعلي على الرأي ، ولا المستنكف عن الحق ، بل وقف على ملأ من المسلمين في يوم الجمعة ، يعترف بالأخطاء التي وقعت ، ويرفع ضراعته إلى الله مستغفراً وتائباً . باكياً ومبكياً جميع الذين كانوا هناك يستمعون له وينصتون ..

* * *

وأمام موقفه هذا ، تبددت الموجة الأولى من الهجوم على المدينة ، ذلك الهجوم الذي كان المتمردون قد انطلقوا به من مصر ، حيث كان "ابن سبأ" قابعاً ومقيماً ، يفرّخ ويبيض .. !!

ضيف الجنّة الشهيد

سارت "المعارضة" في طريقها، تلحّ على التغيير والتحول نحو ما تراه أفضل وأمثل متوسلة بالحوار الدائب مع الخليفة.. ذلك الحوار الذي كان يروح بين الرّفق والحدّة، ولكنه لا يُفسد بالإيمان ولا للصحبة قضية

وسارت "المؤامرة" في طريقها، تريد تقويض الدين والدولة، وتشيع لكل الأهواء، وتستغلّ الظروف كافة، وتدفع في طريقها بكل القُوى المناوئة للخليفة، متوسلة بالفرْية والتآمر

* * *

والخليفة "عثمان" رضي الله عنه، وقد بلغ الثمانين من عمره، لا تزال خصاله وفضائله عصيّةً فتيّة، تقوده على طريق اقتناعه ومبادئه

فهو يكره سفك الدماء، وينأى عن القسوة، ومن ثمّ، راح يحاول ثم يحاول أن يحسم امتداد التآمر بالرفق تارة وبالزجر مرة أخرى... فلا الرفق أجدى، ولا الزجر أفاد!!

هنالك، سيطر على رُوع الخليفة واجب، بدا له يومئذٍ أنه أهم الواجبات وأقدسها ذلكم هو: المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها... وعندما نطالع أنباء تلك الأيام الأخيرة في حياة الخليفة نكاد نسمع صوت تفكيره وخواطره وهو يدرس القضية والأزمة في ضوء هذا السؤال: لمن يجب أن تكون السيادة.. للدولة أم للفوضى؟؟

وعندما تُواجه دولة ما فتنة مخرّبة، وتمرّدًا [illegible]، يهدفان إلى هدم كيانها، وتخريب قيمها، فإن اعتصام هذه الدولة بكبريائها، وسلطانها، يصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة

ولقد أدرك الخليفة ذلك ببصر ثاقب، وحمل مسئوليته بعزم مجيد!!

لقد كانت تترامى إليه أنباء "عبد الله بن سبأ" وتحركاته... كذلك أنباء الذين يُعدّون للثورة المسلحة ضد الخليفة، في مصر... وفي البصرة... وفي الكوفة... هؤلاء الذين كانت طريقتهم في التحرش بالدولة تفضح نواياهم، وتشي بأغراضهم المريبة والبعيدة... ابتعد كثيرٌ ممن كانوا يتظاهرون به ويدورون حوله... ومع ذلك فقد بقي الخليفة مستمسكًا بعُرى مبادئه، وفضائله، ومزاياه

ولم يكن ثمّة مظهر لهذا الاستمساك أجلّ ولا أروع ولا أبهى من تصميمه المطلق على ألا يستخدم القوة في دَحْر الفتنة، وإذا كان لا بدّ لدمٍ من أن يُسفك في ذلك الصراع، فليكن دَمَه هو.. دون غيره من المسلمين..

هذه صورة باهرة، ما أكثر ما تغيب عن بال الذين يدرسون تاريخ الخليفة العظيم!!!

فكأنه صورة "مسيح" آخر.. مُمتحَن وجليل... يرى الثوار يُحاصرون داره، شاهرين سيوفهم الغوية... وتُؤتيه فرص قتالهم وقتلهم، فيرفضها، قائلاً كلمته الخالدة

"ما أحبُّ أن ألقى الله وفي عُنُقي قطرة دمٍ لامرئٍ مسلم"!!

ثم يرفض عرض الخروج من الدار المحاصرة، والنجاة من الفتنة المتربصة، ليرقبها مغتبطاً أنه على موعد في الجنة، مع الرسول وصاحبيه .. وأنه يتهيأ الآن للسفر إلى موعده"!!

ألا من شاء أن يبصر الشخصية الباهرة لـ"عثمان بن عفان" بكل ما تزخر به من حقيقة وعظمة، فحسبه هذا الموقف وحده، دونما حاجة إلى سواه.

ولكن، ما لنا نتعجل الحديث ونطوي الأحداث؟

فلنعد، إلى وراءٍ قليلاً

* * *

قلنا إن جماعة من المتمردين، كانوا قد غادروا مصر إلى المدينة، كما خفَّ إليها وفد من الكوفة ووفد من البصرة

وهناك تقدموا للخليفة بمطالبهم، وجرى بينه وبينهم حوار عنيف، انتهى بوساطة "الإمام عليّ"، وبوعد من "الخليفة" أن يستجيب لما هو صواب من مطالبهم، ثم بتعهد منهم أن يعودوا إلى بلادهم وأمصارهم في طاعة وهدوء.

بعد ذلك، أرسل الخليفة إلى ولاته على الأمصار حيث شاورهم في الأمر .. ولو أنهم أخلصوا يومئذٍ في معاونته على أمره، لوضعوا استقلالهم جميعاً بين يديه .. ولكن موقفهم كان مغايراً، مما جعل الخليفة يتردد في عزلهم، ويتحصَّنه وهو يرى نار الفتنة يزداد من حواليه ضِرامُها

* * *

كان هذا الزحف الأول على عاصمة الخلافة نذيراً رهيباً، ونذيراً عاتياً، لأعاصير زاحفة

ولكنَّ الخليفة وطَّن نفسه، ووطَّد عزمه على الصمود أمام الأخطار

لقد اقتنع بأن الأزمة تفاقمت إلى حدٍّ، لم يعد من حقه أن يتنازل عن ذرَّة من هيبة الدولة وسلطانها .. ومهما يكن هناك من مآخذ وأخطاء، فإن فوق هذا، السلطان هو الواجب الأول والأهم أمام الفوضى الجارفة التي تتمثل في التهجم على شخص الخليفة، ومجابهته بهُجْر القول وفاحش السِّباب فحسب، بل تمثلت في تهديد الدولة بقوة السلاح

ويزدحم أمامنا صور الثبات الباهر للخليفة .. نختار منها هذه الصورة

فعندما انتهى اجتماعه بأمراء الأمصار، وتأهبوا للعودة إلى أمصارهم، عرض معاوية على "الخليفة" أن يصحبه إلى الشام حتى تستقر الأمور، فرفض الخليفة قائلاً

"لا أختار بجوار رسول الله ﷺ جوارَ سواه"

وعاد معاوية، يعرض عليه أن يرسل جيشاً من الشام يرابط بالمدينة، ويحافظ على حياة الخليفة.

فرفض الخليفة قائلاً

"أخشى أن يُزحموا المدينة، وأضيق بهم على أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار"

وعاد معاوية يقول للخليفة: إذاً سيقتلونك

وكان جواب الخليفة العظيم:

"حسبي الله، ونعم الوكيل"

ثبات عجيب على مبادئه، وولاء فذ لاقتناعه !!

ونمضي الأحداث سريعة، لا ترحم ساساً ولو بنفس من البطء

فمن زعماء الأحزاب في مصر، وفي البصرة، وفي الكوفة تكاتبوا واتفقوا على أن تخرج قوافلهم المسلحة إلى المدينة، حيث يلتقون هناك ويعزلون الخليفة بقوة السلاح

واستيقظت المدينة يوماً على مثل هزيم الرعد، وعلى منظر رهيب من آلاف الثوار المسلحين الذين احتشدوا هناك عند مشارف المدينة، وأرسلوا وفداً منهم للقاء "الإمام عليّ" الذي لم يكد يعرف نبأهم، ويرى حشودهم حتى صاح فيهم بكل عزمه وبكل إخلاصه

* "ارجعوا إلى بلادكم، لا صبّحكم الله" !!

لكنّ الثوار المتمردين ظلوا في مواقعهم، وعلى رأسهم زعماؤهم من الأمصار الثلاثة والخليفة في داره يتساءل: ماذا يريدون..؟!

* أن أعزل أمراء الأمصار؟ وماذا ستكون العاقبة، إذا كانوا كلما كرهوا أميراً عُزل؟

* أن أسلّمهم مروان بن الحكم؟! وكيف أسلّمهم إياه ليقتلوه؟ أجلْ سيقتلونه

* ثم ماذا سيكون مصير الدولة بكل سُلطانها، وهيبتها، وكرامتها، إذا هي غُلبت اليوم وركعتْ أمام هؤلاء الثائرين المتمردين..؟؟

بيد أن الموقف كان يتطور في سرعة رهيبة، فحمل الخليفة على أن يستنجد بالإمام عليّ كرم الله وجهه، ليفاوض الثوار، ويحملهم على إلقاء السلاح والرحيل عن مدينة رسول الله وعاصمة الإسلام. لقد كانت "كرامة الدولة" تشغل باله إلى أبعد مدى

ولكي يحافظ على هذه الكرامة، شرط لتسوية الأزمة أن يرحل الثوار أولاً

وبعدما يعودون إلى بلادهم، يقوم بعزل "مروان" رئيس ديوان الخلافة، وعزل أمراء الأمصار الذين تلاحقهم شكوى الثائرين.

وأعطى عثمان وعداً صادقاً، وعهداً وثيقاً بذلك

ومن فوره، خرج "الإمام عليّ" إلى خيام المتمردين ومعه "محمد بن مسلمة" و"سعد بن أبي وقاص"، واستطاع "الإمام" أن يقنعهم بالعودة والرحيل باذلاً في هذا السبيل جُهداً خارقاً ونبيلاً.

* * *

ومضت أيام قليلة، وإذا بالمدينة تروّع ذات صباح بالثوار الذين عادوا أدراجهم، وحلّوا على المدينة يحتلون شوارعها، ويفرضون حول دار الخليفة حصاراً رهيباً !

ماذا حدث..؟ ولماذا رجع الثوار..؟!

لقد خرج إليهم "رسول السلام" عليّ بن أبي طالب يسألهم لماذا نكثوا العهد وعادوا ؟؟

فنشر زعماء ثوار مصر أمامه كتاباً وقالوا : أمسكنا في الطريق رجلاً أرسله مروان بهذا الكتاب ممهور بخاتم الخليفة ، وفيه أمْر لوالي مصر بقتل وصَلْب ...

وعاد الإمام يسأل ثوار الكوفة والبصرة : وأنتم ، ما الذي جاء بكم .. ؟

قالوا : جئنا لِنُصْرَة إخواننا المصريين

وسألهم الإمام لكنكم دهيتم من طريق ، وهم من طريق .. فأنى لكم عِلْمُ بهذا الكتاب ..؟؟

لكنَّ الوقت لم يكن وقت مناقشة وحِوار ..

إنها الفتنة ، قد شدَّ زمامها إلى أقصاه ، تنتظر لَمْسَة بَنان .. فتمتع الكارثة ، وتحلّ الفاجعة ..!! تُرى ، ماذا كانت حقيقة ذلك الكتاب الذي قالوا إنهم ضبطوه ؟؟

أمّا أن يكون "الخليفة" هو الذي كتبه ، أو أمْلاه ، أو علم به ، فأمْرٌ أبعد من المستحيل

لقد أقسم بالله وهو صادق ، أنه ما كتبه ولا أشار بكتابته .. ولا عَلِم من أمره شيئاً

ومن غير أن يُقْسِم ، رضوان الله عليه .. فما ذلك بخلق رجل تحمَّل ألوان الأذى والوحشة في سبيل ألا تراق قطرة دم من مُسلم .. حتى لو يكون هذا المسلم أحد أولئك الذين ثَلَمُوا إسلامهم بالتآمر والعصيان !!!

إذن ، من الذي يحمل وِزْر هذا الكتاب ؟

إنه أحد اثنين :

إمّا "نفر" من زعماء الثوار .. وإمّا "مروان"

أمّا الأولون .. فلأن لهم سابقة في مثل هذا التزوير ، فحين عزموا أمرهم على الخروج من مصر ومن الكوفة ، ومن البصرة إلى المدينة ، دبّر بعض زعمائهم حيلة يحملون بها كثيراً من عدد من المسلمين على الخروج معهم - فزوَّروا كتباً على لسان "أم المؤمنين عائشة" ، وعلى لسان "طلحة" و "الزبير" .. يدعون المسلمين فيها إلى الزحف على المدينة لقتال "عثمان" .

ولم نُعرف حقيقة هذه الخدعة الكاذبة الخاطئة ، إلا بعد وقوع الواقعة واغتيال الخليفة

وهكذا ، لا يبدو غريباً على الظن أن يكون مُزوِّرو تلك الكتب ، هم الذين فعلوا هذه الأكذوبة الجديدة ، وأتقنوا إخراجها ..

فإن لم يكونوا .. فهو إذن "مَرْوَان"

ومروان - كما يُعرفنا به التاريخ - لم يكن له من دينه ولا من خُلُقه ، ما يردعه عن اقتراف مثل ذلك العمل المُوزُور

ولقد طالب الثوار بتسليمه إلى الموت .. ولكن "الخليفة الرحيم" كان يرى مصيره المحتوم إن هو وقع في أيديهم .. فرفض تسليمه ..

لم يقمْ الخليفة ذلك رضاً بما فعل مروان .. وربما في صنعة رجل لا يُطيق أبداً أن يُسْلم بيديه إنساناً إلى ساحة القتل والإعدام ..!!

أليس هو الذي رفض من قبل إعدام "عُبيد الله بن عمر" وكان قصاصاً مشروعاً ، وتحمَّل أمام الله مسئولية استبدال الدِّية بالقصاص ..؟!

إن رحمته بالآخرين ، وجزعه من رؤية دم المقتول ، لا يدعانه حتى في هذه الساعات الرَّهيبة ينجو بحياته ، ويخلص بمصيره !

* * *

وأخرج الثوار ورقتهم الأخيرة ، ورفعوا عقائرهم في جرأة ضارية .. "إمَّا اعتزال عثمان ، وإمَّا قتله"

وفي ثبات مذهل ، رفض الخليفة أن يعتزل .. لماذا ..؟ أحرصاً على مجد المنصب ووجاهه ..؟

ألا فَلنسأل طبائع البشر ، مذ وجد أبو البشر "آدم" حتى يومنا هذا .. أيمكن لرجل جاوز الثمانين ، أن يستبدَّ به طموح تحتمل به الأخطار ويثبت على هذا النحو المزلزل الرهيب ..؟؟!!

لقد رفض "عثمان" أن يعتزل ، لأنه "رجل مسئول" من طراز فريد

وهذا خُلق كان مخبوءاً تحت ستار تواضعه وحيائه ، وما كان سره ليتألَّق كرائعة نهار ، إلا في أزمة كهذه .. ومحنة كهذه .. وموقف كهذا الموقف الخطر العظيم !

لقد ذكر وَصيَّةً كان الرسول قد أوصاه بها:

«يا عثمان ..

إن الله كساك يوماً سربالاً ، وأرادك المنافقون على خَلعه ، فلا تخلعْه لظالم»

ولقد كساه الله "سربال الخلافة"

وها هم أولاء المتمردون الظالمون ، يريدون منه والسلاح الآثم في أيديهم ، أن يكرهوه على خلعه

أفيرضخ لهم ..؟؟

أفيُسلم مصائر الإسلام ، وكرامة الدولة ، لعصابة مفتونة ..؟؟ لا ..

ولكي يستوثق من سلامة موقفه وسداده ، أرسل إلى رجل من خيار أصحاب الرسول يستشيره ، ذلكم هو "عبد الله بن عمر" رضي الله عنه

ولنُصغ لـ "نافع" مولى "ابن عمر" ، ينقل إلينا الحوار الذي دار بين الخليفة وعبد الله

الخليفة : إن هؤلاء القوم يريدون خلعي ، فإن خلعت تركوني ، وإن أبيت قتلوني ، فماذا ترى ..؟

ابن عمر : أرأيت إن خلعت نفسك ، تبقى في الدنيا مخلَّداً ..؟

الخليفة : لا ..

ابن عمر : أرأيت إن لم تخلع نفسك ، هل يزيدون على قتلك شيئاً ..؟؟ هل يملكون جنة ولا نار ؟

أتحسبه لا

ابن عمر ... فلا تسُنَّ هذه السُّنَّة في الإسلام، ولا تخلع قميصاً ألبسكه الله.

وإننا لنكاد نرى الفرحة ترقرق في مُحيّا الخليفة، وهو يسمع لهذه الكلمات، يشدّ أزره بها صحابي جليل مثل "عبد الله بن عمر"..!!

ولكنه إذا كان قد وطد عزمه على التضحية بحياته في سبيل كرامة الدولة وكيانها، فإنه لم يتقاعس عن بذل كل جهد مستطاع لإقناع المتمردين بإلقاء سلاحهم، والتخلي عن بغيهم

وفي ذلك، كان يلجأ إلى الإمام علي كرم الله وجهه كثيراً، بل دائماً

والحق أن "الإمام" تحمّل في تلك المحنة فوق طاقته. وكانت الرياح الهوج التي يثيرها المتمردون من جانب، ومروان من جانب آخر، تتحدّى رؤيته الصافية النافذة، وتعصف بمحاولاته النبيلة.. بيد أنه لم ييأس، وظلّ يغالب العاصفة، ويمضي في محاولته الصعبة رغم ... لكنّ الفتنة كانت قد جاوزت كل حدود التعقل، وخلّفت أعصاباً متوترة إلى أقصى درجات التوتُّر، فلم يعد للحكمة ولا للإقناع مكان.

وحين يبلغ القلق العصبيّ ذروته القُصوى، فإن أصحابه يحتمون من أعبائه المرهقة بمواجهة الأخطار التي أثارته وكانت سبباً له.

وهذا هو الذي حدث في نهاية المطاف.

لقد أحكم المتمردون حصارهم القاسي حول دار الخليفة، فمنعوه زوّاره. ومنعوه الماء.. الماء الذي تتفجّر به "بئر رومة" التي اشتراها من خالص ماله في أوائل أيام الهجرة إلى المدينة وجعلها هدية منه للمسلمين!!!

ولم يكفّ بعض زعماء الفتنة ما أنزلوه بالخليفة من أحزان، حين وقّحوا عليه بشتائم بذيئة على ملأ من الناس..!!

ولم يكفهم تهجّم أحدهم عليه، وهو فوق منبر رسول الله ﷺ متهيئاً لإلقاء خطبة الجمعة..!!

لقد غرّهم حلمُه، وأغرتهم مُصابرته.

ظنّوا ـ وكان ظنّ السُّوء ـ أن وراء هذا الحلم وهذه المصابرة، حرص الخليفة على الخلافة، وعلى الحياة..

ولم يعلموا ـ أو لعلّهم علموا وتجاهلوا ـ أن وراء حلمه ومصابرته، إدراكه الثاقب للمصير الفاجع الذي سيحيق بالأمة وبالدولة، إذا هم سوّروا حُرمة السُّلطة، واغتالوا حياة الخليفة..!!

ولقد قال لهم ذلك من قبل:

"إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمري..

أما والله لئن فارقتهم ليتمنَّوْن لو أن عمري طال فيهم كل يوم بسنة. وذلك مما يرون من الدماء المسفوكة"..!

كان إدراكه لهذا المصير الذي تحققت عنه نبوءته ، هو الذي يحمله على المصابرة بل على التوسل ، كي تتخلى الثوار عن غضبهم ، لكنّ زعماء الفتنة الذين عملوا لها طويلاً ، لم يكن يرضيهم إلا تحطيم الأمجاد السمحة ، لتسقط الدولة كلها كسفاً

والآن وقد أحكموا قبضتهم على زمام الموقف ، فإنهم راحوا يتهيئون للضربة الأخيرة ، فحاصروا دار الخليفة استعداداً لإنزالها

وطال الحصار ، ثم طال .. حتى صار أهل المدينة من طول إيلافهم له يروحون ويغدون ويحيون حياتهم العادية في رتابتها المألوفة

كانوا جميعاً أقرب إلى اليقين بأن شيئاً ما سوف يحدث ، فتنحل الأزمة ويرحل الثوار

لم يكن أحد يتوقع - برغم ضراوة التمرد - أن يداً ستمتد إلى حياة الخليفة فتغتالها

*إنه شيخ في الثمانين من عمره ، بل جاوز الثمانين

*وإنه من المؤمنين الأوائل المبكّرين

*وإنه صهرُ رسول الله ﷺ .

*وخليفته .

*والمبشَّر بالجنة ..

*ومجهّز جيش العسرة

*وباذل ماله بغير حساب في سبيل الله ، ورسوله ، ودينه .

فمن ذا الذي لا يرعى كل هذه الحرمات ، ومهما يختلف مع الخليفة في أمر أو في أمور ؟؟

من ذا الذي يحمل في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ، ثم يجد التهوُّر الذي يدفعه لمواجهة "عثمان" بسلاح قاتل رجيم ؟

الحق أن غيلة الخليفة رضوان الله عليه ، كشفت تماماً عن حجم المؤامرة ، وخفيّة بعض زعمائها الواغلين .. كما كشفت عن تلك الكثرة المخدوعة من الناس الذين لم تكن النوايا السيئة تنقصهم ، بيْد أنهم خُدعوا ، وغُرِّر بهم ، فساروا وراء حفنة من المتربصين بالإسلام سوءاً ، وأيُّ سوء .. !!

قلت : إن الغلو العصبي حين يبلغ ذروته القصوى لا يجد أصحابه سبيلاً للتخلُّص منه ، سوى مواجهة المخاوف التي سبَّبته ..

ولقد سارت المجابهة بقسوة حتى بلغت هذا المدى ، ولم يعد بُدّ من أن يتهيأ المسرح للمشهد الختام

* * *

*في دار الخليفة كان يقبع "مروان" مع نفر من أتباعه المسلحين

*وعلى الباب ، ثلة كريمة من الصحابة ، يحفّون بسلاحهم لافتداء الخليفة ، فيهم

الحسن والحسين ابنا علي ، وصلهما أبوهما العظيم بحراسة منافذ الدار .. ومنهم عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وآخرون ..

* وخارج الدار ، وحواليها من كل جانب ، صفوف عريضة من الثوار المدججين ، يؤزهم أن عصفت تلك الأنباء التي جاءتهم بأن معاوية أرسل قوة من جيش الشام .. وهي على مقربة من المدينة في الطريق إليها .. !!

* أما الخليفة ، فقد طبع عنه صباح ذلك اليوم وهو في عالم آخر ، لا يكاد يعنيه شيء من كل هذه الأحداث القائمة حوله والقاعدة ..

لقد تلقى دعوة إلى الجنة .. وهو اليوم في شغل بها عن كل شيء عداها ..

ففي الأمسية السابقة ، وبعد أن صلى من الليل ما صلى .. وقرأ من القرآن ما قرأ .. وألقى نفسه بين يدي ربه ضارعاً مبتهلاً ، أوى إلى فراشه ونام .. وفي منامه رأى الرسول ﷺ يقول له :

" أفطر عندنا غداً .. يا عثمان " !!

ما أبهجها من كلمات ، بعثته في خلق جديد !!

وإنها لرؤيا حق ..

و " عثمان " أكثر الناس يقيناً بصدقها ..

وإذن ، فليس أمامه سوى وقت قصير كي يتهيأ لموعد المصطفى ورحلة الخلود ..

سيترك للناس دنياهم ..

وسيدع للثوار تلك الجدران الأربعة التي يحاصرونها .. منطلقاً في عزمه العظيم إلى رحاب الله ، وجوار محمد .. !!

أصبح ذلك اليوم صائماً .. فقد كان منذ أسلم يمضي أكثر أيامه في صيام ، وكل لياليه في قيام ..

ودعا جميع الذين في داره ، وأمامها .. ممن يحملون السلاح دفاعاً عنه ، أن يلقوا سلاحهم ، ويغادروا الدار مشكورين ، وفي رعاية الله ..

لكنهم أبوا جميعاً أن يتركوا مواقعهم حوله ومعه .. ولا سيما الحسن ، والحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر ..

بيد أن مرّ الخليفة وإلحاحه ، ظلا يهيبان بكل حامل سلاح أن يلقي سلاحه ..

« إن أعظمكم عني غناءً ، رجل كف يده ، وسلاحه »

" أناشدكم الله ، ألا تهرقوا بسببي دماً "

وانتهى إلى سمعه هرج شديد خارج الدار .. فقد أقبل من أهل المدينة ناس كثيرون ، اشتبكوا مع المتمردين ، وراحوا يحاولون إبعادهم عن دار الخليفة .. وأطل الخليفة على الجمع الحاشد من شرفة داره ، ونادى المتمردين بكلماته الأخيرة ، ولكن لم يلبث أن ناداهم :

« أيها الناس ، لا تقتلوني ..

فوالله، لئن قتلتموني، لا تتحابون بعدي أبداً، ولا تُصَلُّون جميعاً بعدي أبداً »

وعاد إلى حجرته، فصلى ركعتين، ثم حمل مصحفه بيديه، وراح يقرأ.. ويقرأ، متأنقاً بين آياته المحكمات، وروضاته اليانعات..!!

* * *

وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوع زعماء الفتنة، وخَشُوا أن تدور عليهم الدائرة، فأمروا بمهاجمة الدار..

لكنّ الثلّة الطاهرة بإمرة الحسن، والحسين، وابن الزبير، وابن عمر أبلت في صَدِّهم بلاءً مُعجزاً، حتى ردتهم عن الأبواب صاغرين..

هنالك أراد حقدهم صراعاً وركبهم كل شياطين الجريمة، فنظروا، فإذا دار مجاورة لدار الخليفة قريبة المنال، فقرروا أن يتسوروها، ويتسللوا إلى مكتب الخليفة منها..

واختاروا من بينهم نفراً يقوم بالمهمة على عجل، ونادوا "محمد بن أبي بكر" ليصحبهم.

وما هي إلا دقائق معدودة، حتى كانت الخطة قد أُنجزت، وفجأة رأى الخليفة أمامه أولئك المتسورين، ورأى "محمد بن أبي بكر" يتقدمهم، ويمسك لحية الخليفة بيده ويهزها متوعداً..

وفي هدوء القديسين ناداه الحميمة:

«يا ابنَ أخي..!!

دَعْ لحيتي، فوالله لقد كان أبوك يُكرمها، ولو رآك في مكانك هذا لاستحيى مما تصنع..»!!

ودارت الأرض بمحمد.. وأرسل يده في خشوع وندم..!!

وانطلق مسرعاً خارج الدار يسوق أمامه أولئك الذين كانوا قد تسوّروها معه، وعلى بابها المسبح، وقف يرود المهاجمين !!

وجُنّ جنون أولئك النفر من زعماء الفتنة، وهزّهم موقف "محمد" هذا، كما لم يهزهم موقف آخر، وتراءى لهم مصيرهم الأسود، فشدّوا على الدار المجاورة شدّة واحدة، ومن فوق سورها تقريباً قفزوا كالذئاب الجائعة المسعورة، واقتحموا على الخليفة خلوته

وكان آنئذ قد بلغ في تلاوته، هذه الآية الكريمة:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾.

لم يأبه بهم، ولعله لم يُحس بتقحّمهم، فقد كانت غبطة روحه، وأُنسه بآيات ربه، وفرحته بمأدبة الجنة التي دعي إليها.

كان كل ذلك يحجب عنه أشباح الشياطين

واستمر في قراءته حتى حين اندفع القتلة نحوه ليقترفوا جريمتهم البشعة النكراء لم يقاوم، ولم يتحرك من مجلسه، ولم يتخلّ عن مصحفه.

ولم يرد على أن قال حين أصابت إحدى ضرباتهم الآثمة كفّه فأصابتها في صميمها

"والله إنها لأول يد خطت المفصّل، وكتبت آي القرآن"!!

وحين رأى دماءه تتفجر، فتضمّخ أوراق المصحف، طواه حتى لا تطمس الدماء بعض آياته، ثم ضمّه وهو يسلّم الروح إلى صدره.

وحين تمدّد جثمانه الطهور ساكنا سكون الموت، كان كتاب الله بجانبه وفي يديه!

ومن أولى بذلك منه..؟؟

أليس هو الذي وحّده، وحفظه، وافتداه..؟

* * *

لكن لا اغتيال الخاطف لحياته قد تمّ بين العصر والأصيل

وإذن، فأمامَ روحه وقت كافٍ لبلوغ موعدها على مائدة الإفطار، في الجنة، عند الغروب..!!

فلنعرجْ إلى بارئها، ولنذهب إلى صاحبه في حبور عظيم

إن رسول الله ﷺ هناك ينتظر على شوق، وينتظر معه صاحباه، الصدّيق، والفاروق

لقد تعب "عثمان" طويلاً، خلال اثنتي عشرة سنة قضاها في الخلافة حاملاً أعباءها ولواءها..

ولقد كان همه ألاّ تسقط الراية من يمينه، وألا يلقى الله حين يلقاه، وعلى يديه قطرة واحدة من دماء مسلمة

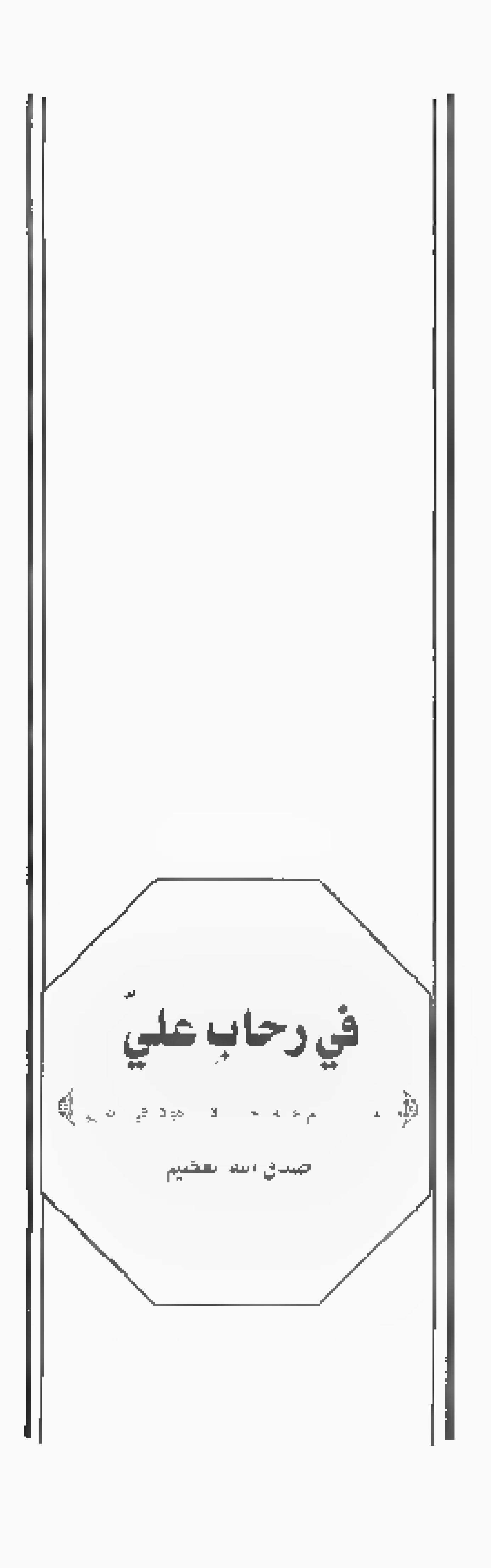
أو قد ظفر بمبتغاه..؟؟

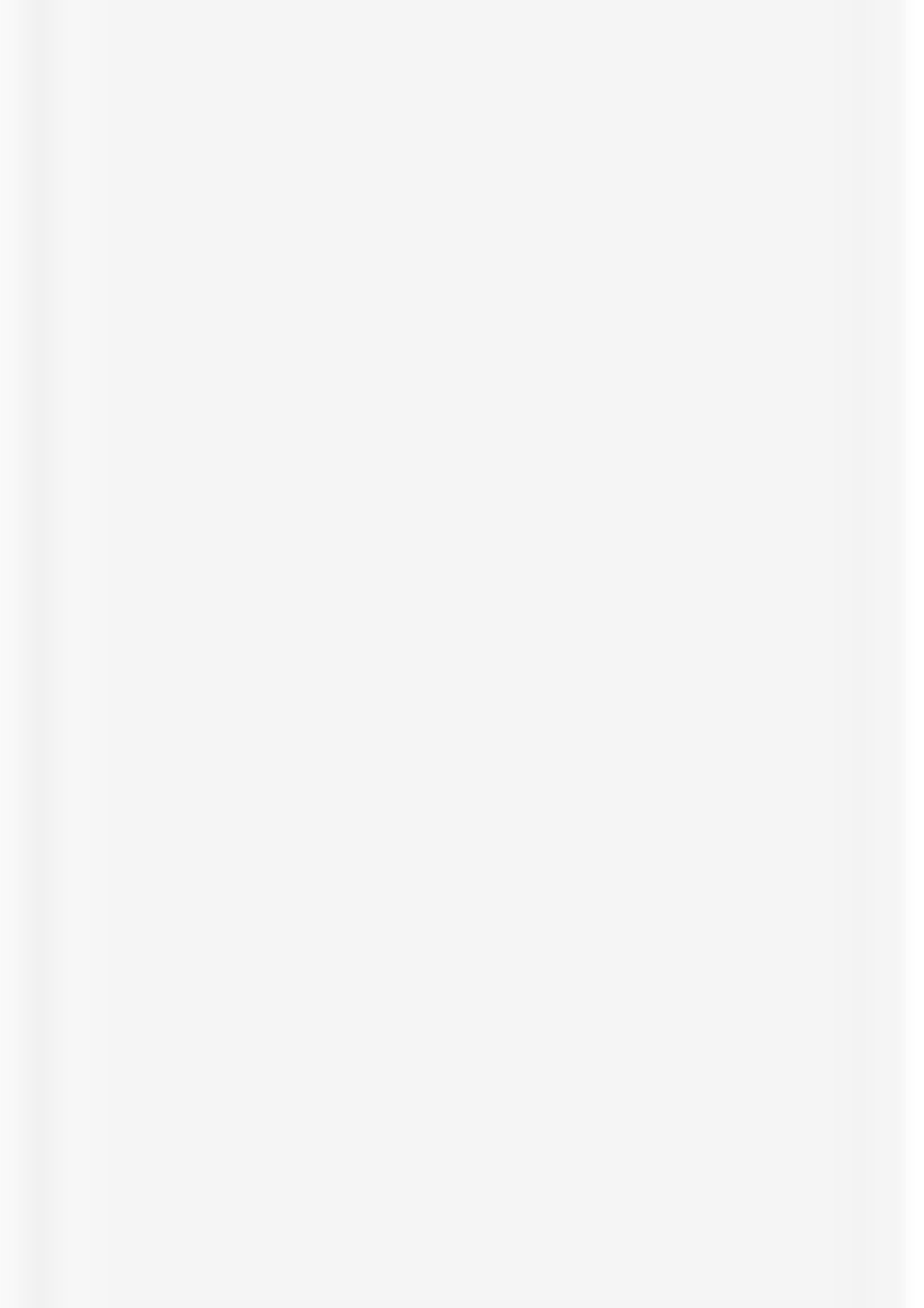
أجل، كان الظفر حظه، والفوز نصيبه

فليتوارَ في الأرض جسده، متشحاً دماءه، أو سليماً معافى.

ذلك أمر لا يعنيه، ما دامت روحه الطاهرة قد فرت بمستقبلها عند الله

■ ■ ■


في رحابِ عليّ
صدق الله العظيم





مقدّمة

إنها لمحاولة صعبة.. محاولة تلخيص حياة "الإمام" وسيرته بين دفتي كتاب"..!!

والحقَّ أقول لكم: لقد حاذرتُ هذه المحاولة من قبل، وهربتُ منها

فبعد أن قدَّمت كتابيَّ "وجاء أبو بكر" و"بين يديْ عمر" منتظرة سيرة "الإمام علي" لأحظى بشرف تصويرها وتقديمها، بيد أني لم أكد أقترب حتى غشيني تهيُّب شديد لم يخفَ عليَّ سببه.

فحياة "الإمام" - لا سيما في مرحلتها الأخيرة، التي بدأت باستخلافه وانتهت باستشهاده - لم تكن حياة عادية

إنها حياة أخرى، تتطلب مواجهة تاريخها المكتوب مستوى غير عادي من يقظة الذهن، وجلد الأعصاب.

لقد كانت حياة تتفجر عظمة، وجلالاً، وإعجازاً.. ولكنها - أيضاً - تموج بالأسى والهول موجاً..!!

حياة التقى فيها النصر والهزيمة.. المقدرة والورع.. البأساء والضراء.. البطولة والألم.. العظمة والمأساة.. التقاء يتبع في جنباته وخلال ذروة خطر فريد يجعل مواجهته - ولو في صورة كلام مسطور - أمراً صعباً ومهيباً..

من أجل ذلك تهيَّبت الموضوع كله.

كما تهيَّبت رؤية "أسفل" [؟] في أيامه العصيبة حيث المؤامرات والفتن والحروب تقعد له بكل مرصد..!

كما تهيَّبت الصراع الرهيب بين المسلمين، وقد هدم بعضهم بعضاً حقبة من الزمن [؟]!!

* * *

هنالك عبَرت "ورقي" الجانحة [؟]، واستقبلت نفراً كثيراً من أصحاب رسول الله ﷺ، حيث قدَّمتهم في كتابي: "رجال حول الرسول"

وخلال معاناتي المتساوية مع أولئك الأصحاب الكبار، أخذت عندئذ شيئاً فشيئاً مواجهة المحنة التي حملتُ بالأمس من مواجهتها، وتنزّل على روعي كثير من الطمأنينة والفهم، حيث واتتني القدرة على متابعة أشواقي إلى رحاب الإمام

* * *

بيد أني لم أكد أقترب حتى فاجأني إشكال جديد.. ذلك أني بعد كتب من سير وتراجم، لا أريد أن أقدِّم كتب تاريخ ذات نهج مدرسي، بل بغيتي روح التاريخ

أجل، إني لا أؤرّخ للوقائع، وإنما أؤرّخ للعظمة الإنسانية المتمثلة في الوقائع والأحداث.

وطريقتي أن أصحب التاريخ في كل مقاصده .. ومساربه، ثم أعود من رحلتي هذه، لأصوغ رؤيتي التاريخية في شيء أشبَهَ باللَّوْحة ينأى عنها جوهر الشخصية، وخطها المتفرد من التفوق والعظمة.

وفي سيرة "الإمام علي" تزدحم المناصب والوقائع ازدحاماً لا يؤذن بتسهيل، حتى لقد خشيتُ أن أزيغ عن نهجي في زحمة تلك الأحداث الرهيبة، والوقائع التي تملأ الزمان والمكان.

لكنني لم أكد أمضي على الطريق حتى صدتني بمر عجيب، جعلني هتف من عمق روح شاكرة:

- ألا حيّا الله بركات الإمام..!!

وهكذا، لا تجيء هذه العبارة «في رحاب الإمام» مجرد عنوان للكتاب.

بل هي تعبير متواضع عن ذلك الشعور الحق الذي يحدوه المُنْشمون وجوههم صوب "علي" - الحواري العظيم للرسول ﷺ والفدائي الأول للإسلام!

فمن عظمة نفسه، ونُبل شمائله، وإعجاز زهده وبلائه.. سطعت رحاب ليس لها أبعاد، تتلألأ عليها بطولات وتضحيات، عظائم وأمجاد، تكاد تحسبها لولا صدق التاريخ - أحلاماً وأساطير..!!

* * *

ولكمْ وددت لو أطول في هذه المقدمة حديثي، فما أجمل القول عندما يكون موضوعه رجلاً من طراز "علي"، بيد أنه ليس من حقي، وقد دعوتكم قديماً لصحبة سعيدة بهاء الإمام على هذه الصفحات، أن أطيل وقوفكم على الباب.

فلأفسح لكم الطريق تمضُوا إلى رحاب ما أزكاها، وما أشرفها من رحاب!

* * *

ويا أبا السِّبطين..

يا أبا الحسنين..

إذا كنت تجاوز قدري تهذيب اللقاء، فإن عظمة نفسك الراضية الزاكية تعطيني حق الرجاء.. في أن تتقبل ضيوفاً على مأدبة سيرتك الوضيئة الجليلة

وضيوفاً على رحابك المضيئة الحرية.

صلى الله عليك

خالد

الابن والحفيد

وورّث فرع المجد من آل هاشم ... وجهاً كريماً من كرام أماثل !!

أحس الفتى مبهور الأنفاس، مشدود المشاعر، وسط القوم الذين أحاطوا بوالده، وهو يُحتضَر ...

كان احتضار أبيه يَشغَلُه ويحزنه

لكنه مع ذلك، ويا له من شيء كان يشغله ويستغرق وعيه وفطنته، ولعُه الشديد بأن يرى: كيف يلتقي الأبطال وجهاً لوجه، البطولة والموت .!!

ألا إنها لفرصة فريدة للفتى المشغوف بمعرفة فن ممثل البطولة في زمانه بهذا الأسلوب ...

مرحبين، ويقترب الموت منه في خطوة صديق !

فلينظر الفتى - ما شاء - كيف يواجه الأبطال الموت

* * *

ويتململ الشيخ المحتضر في فراشه، ويُشير إلى الذين حوله لينهضوه قليلاً، حتى إذا أقاموا ظهره ورفعوا رأسه، عانقهم من عينيه بنظرات حانية، امتلأت بها أسماعهم حتى وجدوا بَرْدَها في صدورهم !!

ثم راح يوجه إليهم كلمات، أراد أن تكون آخر عهده بهم، ويا لها !!

يا معشر قريش ...

أوصيكم بتعظيم هذه البنية - الكعبة - فإن فيها مرضاة الرب، وقواماً للمعيش

صلوا أرحامكم، ولا تقطعوها، فإن صلة الرَّحم منسأةٌ في الأجل

اتركوا البغي، فقد أهلك القرون من قبلكم

يا معشر قريش ..

أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة، وشرف الممات

وعليكم بصدق الحديث .. وأداء الأمانة ..

ألا وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصدوق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ..

ولقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن

وايْمُ الله لكأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت

وكأني به وقد محضتْهُ العربُ ودادها، وأعطته قيادها .

والله، لا يسلكُ أحد سبيله إلا رَشَد، ولا يهتدي بهَدْيِه إلا سَعِد

[ولو كان في العمر بقية، لكففتُ عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي]

ثم وضع عينيه على أهله الأقربين من بني هاشم، واختصّهم بوصية أخرى.

وأنتم يا معشر بني هاشم

[أجيبوا محمداً وصدّقوه، تفلحوا وترشدوا] !!

وأومأ إليهم، يعيدوه إلى صحيفته الأولى، وسوى تحت عطائه

وعبَرت لحظات، تغشّته بعدها سكينة الموت !!

بعد أدّى الراحل المُسَجّى، آخر الأمانات لديه .. أمانة كل جديرٍ أن تعجزه رهبة الموت عن أدائها !!

ومال رأسه المثقلُ بالخوف، على صدره المثقل بالإشفاق.

ولكن .. الخوف ممّن .. ؟

والإشفاق على مَنْ .. ؟

الخوف من قريش .. والإشفاق على ابن أخيه الذي حشدت قريشٌ له كلَّ كيدها وبأسها، لأنه يهتف فيهم.

ـ أن « لا إله إلا الله » .. !!

أعرفتم الآن عمّن نتحدث .. ؟

أجلْ إنه هو .. أبو طالب، شيخ قريش، وسيد جميعه

وأما الفتى الذي كان يجلس قبالة الأب، مشدوه، مشدود، مشاعره، فهو ابنه وفلذته علي بن أبي طالب !!

نظرة .

هاهو ذا، يقبّل جبين أبيه، ثم يسجّيه، ثم ينهض في ثبات يدبّر أمره

إن عظمة ظاهرة تزدحم في نفسه كل مشاعر الحزن والفجيعة، لرزئه بأبيه بموت ـ حين بموت ـ لا صامت، ولا محدود .. حسب، يتخصص في كلمات تجمع كل قصائد حياته التي عاشها فوق الأرض وبين الناس، ويوصي في .. وقفه إلى جانب تلك القصائد، وإلى جانب المثل الحية .. الداعي إلى الله بإذنه "محمد بن عبد الله ﷺ" !.

أجل .. فبقدر ما أحزن الابن فقدُ والده، كانت عظمته إذ سمّى في لحظة لحتم هذه أصدق عظات الحياة وأروعها:

عَظِّموا الكعبة ..

صِلوا الرَّحم

اتركوا البغي

اجيبوا الداعي

كونوا صادقين ..

عيشوا أمناء.

وأولاً وأخيراً
انصروا محمداً
فإنه الهادي إلى سواء السبيل ..!

* * *

من صلب هذا الوالد جاء "عليّ"..
فقد كانت قريش كلها تنظر إلى "أبي طالب" نظرتها إلى زعيم
الكل يحبه، ويهابه، ويحترمه، لا لمكانته في قريش فحسب، بل قبل هذا وذاك، لما يحمله من نفس كريمة، وحصافة عظيمة، وشخصية عادلة فاضلة، تبهر الناس بقوتها واستقامتها، وشموخها ..!!.
وإنه يكفينا في التعرف إلى شخصيته هذا الطراز المضيء من موقفه تجاه الإسلام، وقريش
لقد وقع على كاهله دون أعمام النبي جميعاً.. ودون أهله وعشيرته كلهم، عبء مناصرة الرسول ﷺ، ومقاومة قريش..
ويثبت الرجل ثباتاً باهراً أمام مناورات ومؤامرات بهذا التحدي!
ذلك أنه كان أوسع رجال قريش أفقاً، وأذكاهم قلباً، وأوفرهم جسارة وعزماً

* * *

في الأيام الأولى لدعوة النبي ﷺ، رأى أبو طالب ولده علياً يصلي خلفه وراء الرسول، وكانت هذه أول مرة يعلم أن ابنه الصغير السن قد اتبع محمداً
وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يبصره مُصلياً
ولمّا أتمّ صلاته ذهب تلقاء والده، وقال له في صراحة وثبات [illegible]
[يا أبت ..
لقد آمنت بالله، وبرسوله، وصدّقت ما جاء به، واتبعته]
فأجابه أبو طالب
[illegible]
ليس ذلك فحسب
بل إنه رأى النبي يوماً يصلي، وقد وقف "عليّ" إلى يمينه
وسمع من بعيد ولده "جعفر" فناداه، حتى إذا اقترب منه قال له
[صلّ جناح ابن عمك
صلّ عن يساره] !!
سعة أفق، وذكاء قلب يحملان صاحبهما على إفساح الطريق للحقيقة الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتثبت صدقها وأحقيتها
ومنذ بان أن ابن أخيه "محمداً" نفسه هو الذي جاء بهذه الدعوة، لم يتخلف أبو طالب عن نصرته
فهو - كما نراه في أخباره وسيرته - من أولئك الأذكياء المتفوقين الذين لا يرهبون

في حمقه بحميد الرمل والحجر على المعتقين

وهو - كما رأينا في وصيته عند موته - من المؤمنين بقوة الفضيلة والخير وبقد عاش حياته ينتصر لكل دعوة وكل دعامة في هذا السبيل .

* * *

وأبو طالب بعد هذا ، أعلم الناس برسول الله ﷺ

فهو عمه ، وكافله ، ومربيه

إنه يعرفه إنساناً كاملاً ..

صادقاً ، لم يُعهد عليه كذب قط ..

أميناً ، لم تشب أمانته شائبة

طاهراً ، لم تعلق به شبهة .

وطالما رآه يتفجر شوقاً إلى رؤية الحقيقة ..

وطالما رآه يضطرم هماً وأسى على أهله وقومه حين أخذ عقولهم ووجودهم أمام حجارة مركومة زعموها آلهة وأرباباً ..!

فهل يتخلى عنه ؟ هو الذي لم يكن سيتخلى عن أي غريب آخر جاء يحمل رايته ويعلن دعوته ؟!

لقد كان "أبو طالب" عظيماً بشخصيته ، وبمواهبه ، وبسجاياه

ولقد وقف إلى جانب الرسول ﷺ ، والإسلام ذلك الموقف الذي تمليه عليه رجولته وعظمة نفسه

* * *

لقد صمد لقريش ، وأحبط كل مكائدها ، حتى لم تجد آخر الأمر بداً من أن تلجأ إلى عمل تأباه تقاليد العرب وأخلاقهم

وذلك حين يئست من ثني الرسول عن دعوته ، ومن ثني أبي طالب عن مناصرته ، فقرروا مقاطعة بني هاشم وبني المطلب

وفعلاً ، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، ودخلوا معه في شعبهم ولبثوا داخل هذا الحصار الرهيب قرابة أعوام ثلاثة ، حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدفعوا به غوائل الجوع

وأبو طالب كالطود شموخاً ورسوخاً ، يرفض كل مساومة تحاولها قريش ، ويسلط عليهم موهبته الشعرية فيلفحهم بالقصيد تلو القصيد

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى	ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا	أواصرنا بعد المودة والقرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا	لعزاء من عض الزمان ولا كرب
ولما تبن منا ومنكم سوالف	وأيد أترت بالقساسية الشهب

إن أبا طالب إذ آمن بشيء، كان إيمانه قويًّا صُلْبًا

بنفس الصلابة والقوة للنبي، وورثهما عنه ولده "علي"، بل بنوه أجمعون

ولقد آمن "أبو طالب" بحقّ الرسول ﷺ في أن يقول كلمته، ويبلّغ دعوته، فإن كانت حقًا، فمن حقّ الحق أن ينتصر ويسود

وإن كانت باطلاً، فإن الباطل سيذهب جُفاء..

من أجل هذا قاوم قريشًا عندما راحت تعرض للعنت على الرسول ﷺ

أجل، إنه لا يقف مع "محمد" ابن أخيه...

وإنما يقف مع "محمد" الداعي إلى الحق، وإلى الخير

"محمد" الصادق والأمين.

ولو شك "أبو طالب" في صدق ابن أخيه ما ناصره ولا ظاهره

فهو إنما ينتصر فيه للحقّ، لا القرابة..!!

وليس أدل على ذلك من موقفه يوم أنبأه الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الله قد سلّط الأرضة على الصحيفة التي كانت قريش قد سطرت فيها عهدها بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وعلّقتها في جوف الكعبة.

أنبأه الرسول أن الله قد سلّط عليها الأرضة فأكلتها، ولم تُبقِ منها إلا اسم الله

هنالك ذهب أبو طالب إلى قريش في ناديهم وقال لهم

[يا معشر قريش..

إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلمّوا صحيفتكم، فإن يك كما قال محمد فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عمّا فيها.. وإن يك كاذبًا دفعته إليكم]..

ورضي زعماء قريش بهذا..

وقاموا إلى الكعبة، وجاءوا بالصحيفة من مكانها.. فإذا الأمر كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وسقط في أيديهم، وخرج الناس من عهد المقاطعة، وباءت المؤامرة بالهزيمة والفشل

إن أبا طالب هنا يحتكم إلى حق الصدق في ابن أخيه.. لا إلى حق القرابة في التشيع!!

فهو يقول لقريش:

إذا تبيّن صدق محمد ﷺ في هذه الواقعة التي يمكن التثبت منها في يُسر، فله عليكم الحُجة

وإذا تبيّن كذبه، فأنا لا أحمي الكاذبين

وحاشا رسولَ الله ﷺ ألّا يكون صادقًا!!

ومن قبل هذا، عندما ذهب وفد قريش إلى أبي طالب قائلين له

إن لك فينا سنًّا، وشرفًا، ومنزلة.

ورَدّ قد استشهدت من ابن أخيك فمرْ نَنْهَهُ عنا ..

ورَدّ لا نصبر على هذا ، من سبّ آبائنا ، وعيب آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا

[فإما أن تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين]

حين قالوا له ذلك ، وحين جاء هو رد الرسول

[لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه] .

رددا الطود شموخاً ، والعزم مضاء ، وراح البطل أبو طالب يلفح قريشاً بصلابته وإصراره ويقول

ولقد علمت بأن دين محمد	من خير أديان البرية دينا
والله ، لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا

مرة أخرى هذا هو الرجل الذي من صلبه جاء "علي"

* * *

كان يجلس ذات يوم في سقيفة بيته ، عندما أقبل عليه الرسول ﷺ حزيناً أسفاً

وتحرّاه الأمر فعلم أن قريشاً أغرت به سفيهاً من سفهائها فألقى عليه روثاً ودماً وهو ساجد في الكعبة يناجي ربه ، وخالقه .. !!

فنهض من فوره ، حاملاً سيفه بيمينه ، متأبطاً ذراع النبي بيساره حتى إذا وقف على المتآمرين ، ورآهم يبتسمون حين أبصروا به مقبلاً ، وصاح فيهم

[والذي يؤمن به محمد ، لئن قام منكم أحد لأعاجلنّه بسيفي] .

وراح يمسح الروث والدم بيده عن رسول الله ﷺ ثم قذف به على وجوههم جميعاً وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل إلى جرذان .. !!

ولقد أدركت قريش آخر الأمر ، أنها لن تنال من الرسول منالاً وأبو طالب إلى جواره ، يذود عنه ويحميه

* * *

لقد أحب أبو طالب في ابن أخيه كل الفضائل التي كان يعشقها ويقدسها ، والتي رأى الرسول يرفع لواءها في ولاء منقطع النظير

ولقد عبّر عن حبه ذلك بإرادته الصلبة في تلك المواقف التي رأينا طرفاً منها كما عبّر عنه بموهبته الفذة في شعره الشامخ

لقد علموا أن ابننا لا مكذب	لدينا ، ولا يُعنى بقول الأباطل
حليمٌ ، رشيد ، عادل غير طائش	يوالي إلهاً ، ليس عنه بغافل
وأبيض ، يستسقى الغمام بوجهه	ثمال اليتامى ، عصمة للأرامل

* * *

ومات أبو طالب

مات، وملء فؤاده ملء عارم إلى دين الجديد.. وحنان مفعم، على رسوله المجيد

واشتد أذى قريش للرسول ﷺ ..

وذات يوم وقد اشتدت عليه وطأة المشركين وأذاهم، وجّه لعمّه تحية يستحقها حين قال

[ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب] !!

ثم هز رأسه العظيم في أسى وقال:

[يا عمّ

ما أسرعَ ما وجدتُ فقدك] !

* * *

هل كان "علي" ابن هذا البطل فحسب..؟

لا .. بل كان حفيد بطل آخر، عظيم أيّ عظيم!

ذلكم هو: عبد المطلب

وبوقفة سريعة نقفها مع فضائل عبد المطلب، وسجاياه العظيمة، يتبين لنا أن "عليًا" لم يرث عن أبيه فضائل طارئة.. بل ورث فضائل أصيلة وعريقة، سارت مسير النور عبر أصلاب نقيّة شامخة ...

فمن يكون ذلك السيد الماجد، عبد المطلب..؟

إنه الرجل الذي لمع في قريش وفي العرب جميعاً نجم شرف لم يكد يبلغه أحد

وعندما يزدحم الحجيج حول زمزم في مواسم الحج كل عام، فإن عليهم أن يذكروا بالخير والإجلال، الرجل الذي حفرها وتعرّف على مكانها بعد أن درست معالمها

ومن عساه يكون غير عبد المطلب..؟

لقد استقبلت روحه الصافية ذات ليلة وهو نائم هاتفاً هتف به في رؤيا حقّ، يقول له:

- احفر طَيْبَة.

واستيقظ من نومه، لا يدري ما تفسير رؤياه

بيد أن الهاتف زاره في الليلة التالية، وقال له

- احفر برّة

واستيقظ كذلك دون أن يدري ماذا يُراد منه، وماذا يراد له

وفي الليلة الثالثة نوديَ مرة أخرى في منامه:

- احفر زمزم

- فقال: وما زمزم..؟؟

أجابه الهاتف:

- لا تنزفُ أبداً، ولا تُذمّ

تسقي الحجيج الأعظم!!

ودلّ على مكانها

ولم يكد يطلع النهار حتى اصطحب ابنه "الحارث" وذهب حيث راحا يغوصان في الأرض بمعاولهم، فتفجرت مياه النبع لعبد المطلب الحمد الذي كتب الأقدار لرحيمه قد منحته اسم عين و مياه وسط الصحراء اللاهبة في الدهر سعيد، ثم طمرته الصخور والرمال!

إن عبد المطلب، أو "شيبة" كما كان اسمه الحقيقي، الرجل الفذ، من طراز نادر، بقدر ما هو نادر.

ومن يكون الجدُّ الأول لرسول الله ﷺ والجدُّ الأول لعلي بن أبي طالب إلا رجلاً تصنعه الأقدار على عينها؟

لقد كان ذكره يملأ الصحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذًى وعبيرًا

ومن كثرة محامده دعاه الناس.. "شيبة الحمد".

وكانوا يصفونه بأنه "الرجل الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال"!!

وكان غزير الحكمة، عميق الإيمان.

عندما غزا "أبرهة" مكة ليهدم الكعبة وجاء في جيش لجب لا طاقة لقريش بمقاومته، فزعت قريش إلى شيخها وزعيمها - عبد المطلب - تسأله الرأي

فأمرهم عبد المطلب - وقد أدرك عجز قومه عن مجابهة الجيش الزاحف - أن يحملوا نساءهم وأطفالهم، ومتاعهم، ويغادروا مكة إلى شعاف الجبال، تاركين البلد الحرام "مدينة مفتوحة" يتولى رب البيت حراسته

ثم إذا حاول الجيش المهاجم أن يتسوّر الجبال وراءهم للتعدي على أعراضهم، فليسقطوا جميعاً صرعى قبل أن يمسّ أعراضهم بسوء..

ويعين بموقف وقفه من أبرهة عندما طلب أن يتحدث إلى زعيم قريش، فذهب إليه "عبد المطلب"

وهنا ألقى على مسامعه كلمته المأثورة

[أمّا الإبل، فهي لي.. وأما البيت، فله ربٌّ يحميه]

* * *

ثم يأخذ "شيبة الحمد" هذا الموقف إلا بدافع من يقينه الوثيق القوي بالله وبقدرته

من أجل ذلك، لا يكاد يرجع من لقائه بـ "أبرهة" حتى يتجه من فوره إلى البيت الحرام

وهناك يأخذ بحلقتيْ باب الكعبة، ويمضي يناجي الله في إيمان الواثق بنصره

[لاهُمَّ إن المرء يمنع رَحْلَه، فامنعْ رحالك]

ولكن، ماذا لو تركت الأقدار "أبرهة" يهدم البيت، وأين يذهب عندئذ إيمان عبد المطلب بالله..؟

هنا يبزغ عمق إيمانه، وأصالة حكمته، وهو يستكمل مناجاة الله قائلاً

[إن كنتَ تاركهم وكعبتنا، فأمر ما بدا لك]؟!

أجل.. فحتى إذا وقع ما يخشاه عبد المطلب، وما يحذره من أبرهة وجيشه،

وهدمهم بيت الله الحرام

حتى إن حدث ذلك، فإن إيمان "عبد المطلب" بالله لن يزلّ ولن يخبو

وسيحدث ما يحدث إنفاذاً لحكمة يعلمها الله .. !!

هذا إيمان رجل إلهي، تموج الأرض من حوله بالوثنية - لا في جزيرة العرب وحدها .. بل في بلاد الحضارة نفسها - في "فارس" و "الروم" - في حين سيطر على وجدانه شعورٌ حميٌ بأن هناك إلهاً أسمى، وأجلّ، وأعظم

إن إيمان "عبد المطلب" يبدو نقياً .. نقيّ في مناجاته تلك التي مرّت بنا الآن ..

لقد كان يقبع حول الكعبة أكثر من ثلاثمائة صنم، لم يدعها "عبد المطلب" لتحمي الكعبة ...

لم يُناد "هُبل" ولا "اللات" ولا "العزّى" !

ولم يناد شيئاً من تلك الأوثان والأصنام التي لا يفصلها عن الكعبة بُعْدٌ أو مسافة.

إنما نادى الله .. وضرع إلى الله العليّ الأعلى، الذي كان شعوره الكامن في أعماقه يدل عليه .. ويشير به إليه .. فقال مناجياً له وضارعاً :

[لا هُمَّ، إن المرء يمنع رَحْله، فامنع رحالك] !!

* * *

ولقد وجد إيمان عبد المطلب مثوبته العاجلة، في الضربة الماحقة التي وجهها القدر العظيم لأبرهة وجيشه .. إذ سلّط عليهم الله أضعف جنده .. طيراً أبابيل، حملت إليهم المنايا، وخلّفتهم صرعى وأحاديث !

كان عبد المطلب يَمُنّ قومه وبركتهم.

وكأي من مرة حجبت السماء عنهم غيثها، وكاد القحط يفنيهم، فيذهبون إلى شيخهم "عبد المطلب" الذي يخرج بهم صفوفاً ضارعة خاشعة إلى قنن الجبال، حيث تضرع إلى الله كي ينزل المطر، مبتهلاً بهذه الكلمات :

[اللهم هؤلاء عبيدك وإماءُ عبيدك، وقد نزل بنا ما ترى، فاذهبْ عنا الجدب، وآتنا بالمطر والخصب] !!

فلا يلبثون إلا قليلاً .. ثم تجيء الأمطار الكريمة رحيمة، تُنبت، وتُحيي، وتُنعش

* * *

الحق أنه إيمان عجيب .. إيمان هذا الرجل العربي في عصر كانت الوثنية دينه وضلاله !!

إن عبد المطلب، ليرى الله في كل نعمة يؤتاها، وفي كل خطوة يخطوها ..

عندما بُشّر بمولد حفيده "محمد بن عبد الله" - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره، وذهب به مسرعاً إلى الكعبة حيث صلى صلاة شكر وحمد .. وراح يقول :

الحمـــد لله الـــذي أعطـــاني	هـــذا الغـــلام الطيـــب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان	أعيـــذه بالـــله ذي الأركــــان

حتى أراه يبلغ الشباب

ولقد دفعه شغفه به وحدسه على ما سيكون لهذا الولد من شأن عظيم.. فأحبه حبًّا ما أحبّ مثله أحداً، وراح يعامله في طفولته معاملة صديق!

وفي كل مناسبة، كان يأخذ بيد ابنه "أبي طالب" ويضعها في يد حفيده "محمد" عليه الصلاة والسلام، ويقول لأبي طالب في إحساس من يكاد يرى الغيب المقبل بأي عين:

[يا أبا طالب.

سيكون لابني هذا شأن فاحفظه، ولا تدع مكروهاً يصل إليه]!!

ولقد حفظ أبو طالب العهد، ورعى ابن أخيه، ووصية أبيه، رعاية تليق برجولته، وبأرومته، وبعظمة سجاياه...

* * *

وهكذا حمل العبير من الجد، ومن الأب، كان "علي" الابن والحفيد من أبي طالب، والحفيد لعبد المطلب يحمل منهما ميراث السجايا الفاضلة، والعظمة المفردة

كان يحمل منهما نبالة الخلق.. ونباهة القدم معاً..

فبنو هاشم في ميزان المجتمع، سادته، وقادته، وأشرافه

وبنو هاشم في ميزان القيم، أجود الناس كفًّا وأوفاهم ذمة وأبذلهم عطاء وأكثرهم في سبيل الخير بلاءً وأرحمهم بمضطر وأحفظهم للجار.

وبكلمة واحدة هم في قومهم ورهطهم، ضمير أولئك القوم، وذلك الزمان!

* * *

ولعلنا الآن قادرون على أن نعرف ماذا أخذ الابن عن أبيه، والحفيد عن جده؟

ماذا تلقى "عليّ" من أبي طالب، ومن عبد المطلب..؟

ماذا أخذ عنهما، وماذا ورث؟

لقد أخذ الفضائل كلها، وورث المكرمات جميعها

ورث عنهما "مضاء البذل" و"مضاء العزم" و"مضاء العقيدة"!!

أجل.. هذه هي السمة المميزة لهذا الميراث الحسن.. المضاء الذي يجعل فضائل هؤلاء القوم مُهيأة دائماً للنجدة والعمل!

كل قوى الخير فيهم مشحوذة ماضية.. لا تعرف الوهن، ولا التردد، ولا الاسترخاء

وسوف نرى ذلك واضحاً أكثر ما يكون الوضوح في "عليّ" الابن والحفيد.. ولا سيما بعد أن تدخل هذه الفضائل الموروثة في مختبرات الدين القيِّم، والإسلام الحنيف، فتخرج حَيَّةَ النفس، ويزداد ألقها الفريد.

وثمة أمر آخر، نراه واضحاً في حياة "عليّ"، كما هو واضح في خصال جده عبد المطلب.. ذلكم هو التفويض الذي يكاد يكون مطلقاً.

لقد رأينا عبد المطلب حين نزل به وبقومه ما لا طاقة لهم به يفوّض الأمر إلى الله في

بساطة عجيبة ، بل قولوا في مثل براءة الأطفال !!

ذلك لأنه لم يكن تفويض العاجزين الواهنين ، بل تفويض مؤمن بأن الله هناك وراء كل حركة وكل عمل .. وأن ما تعجز قوى البشر عن إنجازه ، يتولى هو أمره وحسابه ... تفويضٌ حلوٌ ، ورائع .. ورثه فيما ورث .

ولسوف يرى "علياً" في مقبل حياته وأيامه حين تنزل به الشدائد الثقال ، يفوّض الأمر إلى ربه في أمن عظيم

وسنرى فيه هذا التفويض حين لقاء إيمان الأبرار .. لا استسلام العجزة

وسنراه وهو يفوض الأمر إلى عالم الغيب والشهادة لا تشغله نتائج الموقف وعواقبه

ذلك أن ابن أبي طالب ، في حياته ، وفي صراعه ، لم يكن يعنيه إحراز أيّ انتصار لشخصه ، أو غنيمة لذاته .. إنما كان يعنيه ، ويأمُر له ، ويستغرق وعيه وجهده ـ فوز المبادئ التي آمن بها ، وحمل أمام الله مسئولياتها ...

وعلى رأس هذه المبادئ كلها الإيمان بالله ، وحسن الاعتماد عليه .

* * *

لقد رأى ولاء أبيه لما كان يراه حقاً ..

وورث ولاء جَدّه عبد المطلب ، ومن قبل جدّه "هاشم" لما كان يريانه حقاً ..

لقد جاء من أصلاب قوم عُرفوا بأنهم حُماة العقيدة وحماة الفضائل ، وسَدَنة الخير على الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة الإله الذي إليه يتجهون ، وعليه يتوكلون ، فإن ولاءهم لقوّته القاهرة وفضله الرحيم كان على الدوام مشحوذاً .. فكيف بولاء "عليّ" وقد عرف حقيقة الله واهتدى إليه .. ؟!

ولكن كيف عرف .. وكيف اهتدى .. ؟ تعالوا لنرى .

* * *

أتبصرون هذه الدار البسيطة ، والمجللة

إن الفتى الذي نقفو أثره ، هناك .

إنه مع ابن عمه .. محمد بن عبد الله رسول رب العالمين .

ذلك أن الرسول ﷺ كان قد استأذن عمّه أبا طالب منذ عهد بعيد ، وقبل نبوته ببضع سنين كي يترك له علياً ، يعيش معه في داره ودار خديجة زوجه ، فأذن له

وإنه الآن في تلك الدار التي يرتسم الوحي داخل جدرانها خريطة عالم جديد مقبل ، وبشرية جديدة وافدة .. !

يالهُ من فتىً مُبَارك ، محظوظ !!

إن وراثته المجيدة تزدهر الآن بين يدَيْ أستاذ قدير .. هو ابن عمه ، ووصيّه ومربيه ، وهاديه إلى صراط مستقيم .

في هذه الدار المباركة ، لنصحب "علياً" في رحلة حياته المجيدة ..

وفيها ، تعالَوْا نمضِ خاشعين ..

الرَّبيبُ والسّابِق

من كُنتُ مولاه فعليٌّ مولاه
"الرسول ﷺ"

هانحن أولاء نقترب ..

هانحن أولاء على الأبواب

ماذا ..؟

ألا تسمعون ..؟

إن ترتيلاً عذباً يجيء من الداخل

إن قرآناً عجباً يُتلى.

إن أهل الدار يصلّون.

تُرى مَن هناك؟

لا أحد بالطبع سوى الرسول ﷺ يؤمُّ وراءه في الصلاة ابن عمه "علي" وزوجه "خديجة" وخادمه "زيد بن حارثة"

يا لجلال المشهد

وما أروَعَ الآيات التي تنبعث من داخل الدار عبر الصوت الشجيّ، ورنينها القويّ

فلنصغِ في خشوع وتقوى.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم • تنزيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم • إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين • وفي خلقكم وما يبثُّ من دابةٍ آياتٌ لقومٍ يوقنون • واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقومٍ يعقلون • تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون • ويلٌ لكل أفاكٍ أثيم • يسمعُ آيات الله تُتلى عليه ثم يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشّره بعذابٍ أليم • ﴾

* * *

لقد سكن الصوت.

لعلهم الآن يركعون، ويسجدون ...

لعلهم يسبّحون، ويستغفرون !!

لعلهم يتدبّرون، ويتأملون !!

فلنبقَ مكاننا مُنصتين خشوعاً وصمتاً

إن ربين لعذب تعود ..
وها هو ذا يعلو في جماله وجلاله، فاستمعوا يا صحاب

* * *

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون • إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين • هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون • أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون • وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون • أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون • وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون • وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين • قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون • ﴾

* * *

هنا نعيش "علي" والوحي

حين، هنا منذ كان "محمد عليه السلام" عابداً يبحث عن الحق، ويتعبد في غار حراء، ويقلب وجهه في السماء، وكأنه على موعد يترقبه ويستعجله

وهو هنا يعيش بعد أن أوحي إلى الرسول ودعته السماء ليقول كلمتها، ويبلغ رسالتها

وعندما بدأت أيام الرسالة الأولى .. بل عندما بدأت أولى ساعاتها ولحظاتها ـ كان هناك ثلاثة يلحظون التغير الهائل الذي أخذ يرتسم سيماه على حياة الرسول ﷺ

هم: خديجة ـ زوجته.

وعليّ ـ ابن عمه.

وزيد ـ خادمه.

ولقد أسلموا بهذا الترتيب أيضاً.

سأله "عليّ" وهو ابن عشر سنين لا غير:

ـ ماذا أراك تصنع ..؟

وأجابه الرسول ﷺ

ـ إني أصلي لله ربّ العالمين

وسأل عليّ:

ـ ومن يكون ربّ العالمين ..؟

وعلّمه الرسول وهداه،

ـ إنه إله واحد لا شريك له، له الحق وبيده الأمر يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

ولم يتردد الغلام المبارك، فأسلم وكان أول المسلمين في حين كانت خديجة رضي الله عنها أولى المسلمات.

ومن ذلك اليوم، وهو مع النبي لا يفارقه، يصلي معه، ويصغي إليه، ويراه وهو يتلقى الوحي.

وكم من آية، وآيات، كان هو أول من سمعها وهي لا تزال حديثة العهد بمُنزِلها وموحيها.

وأخذ الذين اصطفتهم السماء لصحبة الرسول ﷺ يقبلون عليه مؤمنين

أبو بكر الصديق، فعثمان، فالزبير، وطلحة، وابن عوف، وسعد بن أبي وقاص..

فأبو عبيدة، وأبو سلمة، والأرقم، وابن مظعون، وخبّاب، وسعيد بن زيد، وعمّار، وعمير، وابن مسعود الذين كانت لهم حظ السبق إلى الإسلام

وصارت "دار الأرقم" على الصفا مكان لقائهم، يلتقون فيه خفية وسرًّا، فيتلو عليهم الرسول ما يتنزّل به الوحي على قلبه، ويصلي بهم، ويبارك إيمانهم

* * *

لم يغب "علي" عن دار الأرقم قط، ولم يفته من مشاهدها الخالدة مشهد واحد

وتحت سقفها، وكذلك تحت سقف الدار التي يسكنها النبي، وعلي معه فيها.. عالم سمح بن الله نمى وطابت عمرته بوادر النبوة تغسل حوبته ودنسه.. إذن ؟!

أأقول تغسل حوبته ودنسه..؟!

ولكن متى كان له حوب أو دنس ؟

متى، وهو الذي وُلد في الإيمان، والعبادة، والهدى...؟

إنه وهو في السادسة من عمره بدأ يعيش مع "محمد" الصادق الأمين، يتأدب على يديه، ويتأثر بطهره، وعظمة نفسه، ونقاء ضميره وسلوكه.. وحين بلغ العاشرة، كان الوحي قد أمر الرسول ﷺ بالدعوة، وكان هو سابق المسلمين!!

وسارت حياته من ذلك اليوم إلى أن يجيء اليوم الذي يسلمها فيه ربه تطبيقاً كاملاً وأميناً لمنهج الرسول وتعاليم القرآن

ألا بوركت هذه الحياة!!

حياة لم يكن لها قطّ، صبوة، ولا شهوة، ولا هفوة!

حياة، وُلد صاحبها، ويبعث الرجال فوق كاهله!!

حتى لهو الأطفال، لم يكن لعلي بن أبي طالب فيه حظ ولا نصيب

فلا مزامير اللهو، ولا أغاني السمر، شغلت منه سمع الطفل، ووجدان الشاب

لكنّ المقادير كانت تدّخر سمعه ووجدانه، لكلمات أخرى ستغيّر وجه الأرض، ووجه الحياة!!

أجل. لقد ادّخر سمع الفتى وقلبه، ليتلقى بهما كما لم يتلقَّ أحد مثله آيات الله العلي الكبير.

أرأيتم الآيات التي سمعتها من قبل..؟

فلنتصوّر "عليّاً" وهو يسمعها طازجة، مشرقة، متألقة، حديثة العهد بربها، برسولها، رسول رب العالمين..!

ولكن.. لا.. فلن نستطيع أن نتصوّر، أو حتى نتخيّل

وحسبنا ونحن نتابع هذه الحياة أن نتابع عليّاً متابعة الكلمات التي تروي أنباءها وعظائمها!

* * *

في نور هذه الآيات المرتّلة والتي كان الوحي يحملها تباعاً، قضى "علي بن أبي طالب" بواكير حياته منتصرة، يبهره نورها.. ويبهره هديرها.

يسمع آية الجنة يتلوها الرسول ﷺ، فكأنما العلاء الرشيد يرفعه إلى العرش، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها.

ويسمع آية النار، فيرتعد كالعصفور دهمه الإعصار.. ولولا جلال الصلاة وحرمتها لولّى هارباً من لفح النار الذي يكاد يحسّه وراءه!

أما إذا سمع آية تصفُ الله في عظمته، وجلاله، أو آية تعاتب الناس على إشراكهم بالله ما ليس لهم به علم، وجحودهم فضله ونعمته.. فعندئذ يتحوّل الغلام الراشد إلى ذَوْبِ تُقى وحياء!

لقد أُشرِبَ قلبُه جمال القرآن، وجلاله، وأسراره.. هذا الذي كان يشهد نزوله آية، آية حتى صار جديراً بأن يقول وهو صادق:

[سَلوني، وسَلوني، وسَلوني عن كتاب الله ما شئتم.

فوالله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلتْ في ليل، أم في نهار]!

وحتى كان كما وصفه "الحسن البصري" رضي الله عنه:

[أعطى القرآن عزائمه، وعلمه، وعمله.. فكان منه في رياض مونقة، وأعلام بيّنة]!!

* * *

هذا، هو: عليّ بن أبي طالب.

هذا، هو الذي نرجو ألّا نكون مغالين إذا وصفناه بأنه "رضيع الوحي"!!

فطوال السنوات الأولى لنزول الوحي، كان قلبه هناك، يشهد نزوله، ويسبق غيره في تلقّيه من رسول رب العالمين، ويملأ سمعه، وقلبه بأسراره ونوره.

ولطالما شهدته شعابُ مكة وهو "ثاني اثنين" - الرسول عليه السلام، وعلي كرّم الله وجهه - يصليان معاً، بعيداً عن أعين القرشيين ورصدهم..

وهناك في رحاب الصحراء الواسعة، حيث لا يرتد البصر أمام حدود أو سدود، وحيث تتنزل على النفس أسرار الكون العظيم، فتكسبه على الشعور جلاله ومجده. كان علي يتلقى من فم الرسول ﷺ كلمات القرآن وآياته.. نفسه مرهفة، وعزمه متهلل، وفهمه جميع، وروحه خاشع، وشخصيته بكل خصائصها الموروثة والمكتسبة، تتلقى تأثيراً لا تقاوم.. وتستسلم في غبطة مطمئنة لهذه الآيات التي من بها وحياً، وداست قدمي تعاليها وتلقيها نبياً ورسولاً.. !!

من أجل هذا، لا نعجب، إذا رأينا "علياً" طوال حياته يعطي القرآن ولاء مطلقاً، ولا يقبل أدنى ميل عنه، ولا يغفر أقل تفريط فيه.

إنه "ربيب الوحي" والتلميذ الأول للقرآن.

وإنه "سابق المسلمين".

ألم يسمع القرآن يتساءل في هدير ورهبة

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾

بأي حديث.. ؟!

بالفعل لأوّاب لم يحد من هول السؤال، وجلال التحدي، ويجيب في ضراعة مكظومة.. لا نجد بعد غير حديثك نؤمن، يا رب كل شيء!!

ومن هذه الآية، ومثيلاتها من آيات القرآن العظيم، أشرق قلب "علي" ولاءً للقرآن ليس له نظير.. !

ألم يسمع القرآن يحدد للرسول طريقه المستقيم فيقول:

﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾..

إنه ليبصر من هذه الآية، ومثلها من آيات القرآن وتعاليم السماء، يستمد عزمه حارقاً على أن يسير فوق صراط الحق يتحدى تياره وراسخة أكيدة، متحصناً من أهواء الذين لا يعلمون في استقامة قديس، وشموخ مقتدر.. إلّا لله، أبا الحسن!!

أكنت تدري، أي معارك ضارية ستخوضها عند صد أهواء الذين لا يعلمون؟

* * *

من ولائه الوثيق للقرآن، وشهود فجر الوحي وصحوته، كان "علي" ربيب الوحي

ومن ولائه الوثيق للإسلام، وسبقه إليه قبل غيره من رجال المسلمين.. كان "علي" سابق المسلمين.

و"سابق المسلمين" لقب لا يستحقه "علي" بمجرد سبقه إلى الإسلام فحسب، هو الذي علّم الناس فيما بعد، أن ليس الطريق لمن سبق بل لمن صدق

إنما يستحقه لأنه جاز كل المحن والمشاق وهو صادق

وحين نتتبع مظاهر إسلامه نرى عجباً

وحتى يستقبل شمائل نبلهم ، ويستقبل رُقباء بعطف يأتلق فيهم ، وتشمُّ عبيرهم ، وطهرهم ، وتقاهم !

* * *

والآن ، ما بالكم برجل اختاره الرسول ﷺ من بين أصحابه جميعاً ليكون في يوم المؤاخاة أخاه ؟

كيف كانت أبعاد إيمانه وعمقه ، حتى اختاره الرسول بهذه المكرمة والمزية ؟

عندما تمت هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة ، آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، وجعل لكلّ أنصاريّ أخاً من المهاجرين ، حتى إذا فرغ ـ عليه السلام ـ من دمْجهم في هذا الإخاء العظيم ، إذا بصره يقع على علي لجنبه ، طيب النفس ، مشرق الضمير .. وأشار الرسول إليه ، فأقبل عليه

وبين الأنصار المشدودة إلى هذا المشهد الجليل ، أجلس النبي "عليّاً" إلى جواره ، وربت على كتفه ، وضمّه إليه ، وهو يقول :

[.. وهذا أخي] !!

لقد كان الصدّيق "أبو بكر" ، وكان الفاروق "عمر" آنئذ هناك . فهل من حقنا أن نتساءل : لماذا لم يختص الرسول أحدهما بهذا الذي اختصّ به عليّاً ؟

إن تساؤلاً كهذا ، يفسد جلال المشهد ، ويفوّتُ علينا رُواءه

والمسلم الذي يتقلد الأدب مع رسول الله ﷺ ، وأصحابه ـ يحني هامته إجلالاً لهذا الرجل الأوّل والأسبق من أصحابه على حد سواء

* * *

اختار "الرسول" إذن "عليّاً" ليكون في هذه المؤاخاة أخاه

وكل شرف كان الإسلام يُضفيه على "ابن أبي طالب" ـ كان يزيد إحساسه بمسئولياته الدينية شحذاً ، وقوة ..

ولم يكن في طول الدنيا وعرضها ما يراه ابن أبي طالب كُفؤاً لأن يكون مثوبة على إسلامه وأجراً .

إن "الإمام" كرم الله وجهه كان يعرف تماماً قيمة الذي هداه ربه إليه . وكان من الذين يؤمنون بأنّ الخير مثوبة نفسه ، فالذي يوفّق للخير وللحق يكون حاصلاً بنعمة الحقّ والخير ، إذ هو حسب من الدنيا مثوبةً وأجراً نظير فعله الخير وحمْله راية الحق

وهكذا حمل "عليّ" إسلامه بين جنبيه ، واحتل ضوءه في أعماق روحه ، ومضى يستصغر شأن الدنيا بكل فتونها وزينتها

وكلما تراءت له مباهجها صدّها بعبارته المأثورة :

[يا دنيا ، إليكِ عنّي .. يا دنيا ، غُرّي غيري] .

* * *

و "عليٌّ" في إسلامه، نموذج عظيم مكتمل الشكل والجوهر

فإذا كان الإسلام عبادة ونُسُكاً، جهاداً ونضالاً، ترفعاً وزهداً، فطنة وورعاً، سيادة وتواضعاً، قوة ورحمة، عدالة وفضلاً، استقامة وعلماً، بساطة وتمكناً، ولاءً وفهماً

إذا كان الإسلام ذلك كله، فإن "سابق المسلمين عليّ كرم الله وجهه" كان أحد نماذج الباهرة والنادرة لهذا الإسلام..!!

ومن شاء أن يتعرف إلى حياة الإمام وسلوكه، فليقرأ كلماته.. ذلك أنه لم يكن بين مقاله وفعاله، تفاوت أو تناقض.

أجل.. لم يكن بين ما يقول وما يفعل بُعدٌ ولا مسافة، ولا فراغ..!

فإذا حثَّ الناس على الزهد، فلأنه أسبقهم إليه.

وإذا حثَّهم على البذل، فلأنه أقدرهم عليه

وإذا حثَّهم على الطاعة - أيّ طاعة - فلأنه تمرسها في أعلى مستوياتها

صلّى الفجر يوماً بأصحابه في الكوفة، وهو أمير المؤمنين.. فلمّا فرغ من صلاته جلس ساهماً حزيناً وشبث في مكانه ومجلسه.. والناس من حوله يحترمون صمته فلا يتحركون حتى طلعت الشمس، وسقط شعاعها العريض على حائط المسجد من داخل.. فنهض "الإمام علي" وصلى ركعتين.. ثم هز رأسه في أسى، وقلب يده وقال:

[والله، لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يشبههم

لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار الليل.. باتوا فيه سُجّداً لله.. يتلون كتابه، ويتروَحون بين جباههم وأقدامهم.. وإذا ذكروا الله، مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تَبتلَّ ثيابهم]

هذه صورة للماضي العظيم

صورة لأيام مجلّلة بالروعة.. أيام الوحي والرسالة.. يعيش فيها "عليٌّ العابد" دوماً وأبداً.. ولا يستطيع الزمن مهما توغل في الابتعاد بأيامه وأعوامه أن ينتزع "الإمام العابد" منها، فهي نُسُكه ومحرابه..!!

* * *

وها هو يحدّث المسلمين عن الإسلام الذي آمن به، وجعله كتاب حياته، فيقول:

[تعلّموا العلم، تعرفوا به.. واعملوا به، تكونوا من أهله

ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مُدْبرة، وإن الآخرة قد أتت مقبلة..

ولكل واحدة منهما بنون

فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا

ألا وإن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطاً، والتراب فراشاً، والماء طيباً

لا وإن من اشتاق إلى الآخرة ، سلا عن الشهوات .
ومن أشفق من النار ، رجع عن المحرمات
ومن طلب الجنة ، سارع إلى الطاعات
ومن زهد في الدنيا ، هانت عليه مصائبها
ألا ، وإن لله عباداً ـ شُرورُهُم مأمونة .. وقلوبهم محزونة .
أنفسهم عفيفة .. وحوائجهم خفيفة
صبروا أياماً قليلة لعُقْبَى راحة طويلة .
إذا رأيتهم في الليل ، رأيتهم صافين أقدامهم ، تجري دموعهم على خدودهم يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم .
وأما نهارهم فعلماء ، حُلماء ، بررة أتقياء ، كأنهم القداح
ينظر إليهم الناظر فيقول : مرضى
وما بهم من مَرَض ، ولكنه الأمرُ العظيم .. !!]
الأمر العظيم .. !!
ذلك هو شغله الشاغل .. ينام على هديره .. ويصحو على زئيره .. !!
دين الله الذي حمل أمانته ، وقرأ كتابه ... ويوم الله ، الذي سيقف فيه بين يديه غداً ، لينظر جزاءه وحسابه .. !!
أو من أجل هذا ، لا ينام "عليّ" ولا يستريح .. ؟
أجل ...
من أجل هذا ، يقضي ليله ونهاره في عبادة تضني جسمه الأنحل [illegible]
ومن أجل هذا ، يدع الدنيا وراءه ظهرياً ، فيأبى وهو خليفة المسلمين ، أن ينزل قصر الإمارة بالكوفة ، ويؤثر عليه الأرض الخلاء ، والدار المهجورة !!
ويلحّون عليه كي ينزل قصر الإمارة هذا ، فيجيبهم :
[لا
قصر الخَبال لا أنزله أبداً] !
ومن أجل هذا ، يلبس الثوب الخشن ، فيسأله أصحابه أن يعطي نفسه وعينه بعض حقهما ، فيقول :
[هذا الثوب .. يصرف عني الزهو
ويساعدني على الخشوع في صلاتي ..
وهو قدوة صالحة للناس ، كي لا يُسرفوا ويتبذخوا] .. !!

ثم يتلو آيته الأثيرة العظمى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾!!

إنه لا يركن إلى الدنيا لحظة من نهار.

إنها بالنسبة له، قد آذنت وآذنت بوداع.. فلماذا إذن يعطيها ولاءه وبلاءه؟

إن الآخرة عند الإمام هي الدار.. هي الأبد.. وما أهل الدنيا في مختلف العصور والدهور إلا مسافرون فوق جسر.. كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام الأبدية.. حيث الجنة، أو النار.. ألا فلنصغ لحديثه:

[إن المضمار اليوم، وغداً السباق..

ألا وإنكم في أيام أمل، من ورائه أجل..

فمن قصّر في أمله قبل حضور أجله فقد خاب عمله..

ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة..

ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبها!

ولم أرَ كالنار نام هاربها!

ألا وإن مَن لم ينفعه الحقّ، ضرّه الباطل..

ومن لم يستقم به الهدى، حادَ به الضلال..

ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البَرُّ والفاجر..

وإن الآخرة وعدٌ صادق، يحكم فيها مَلِكٌ قادر..

وإن أخوفَ ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل..

فإن اتّباعَ الهوى، يَصُدُّ عن الحق..

وإن طولَ الأمل، يُنسي الآخرة]!!

* * *

فسائر الأحداث والأهوال عاصفة، تنسخ الجبال من حول الإمام، فإنه لن يتبع الهوى أبداً..

[فإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحقّ]!!

ولتكنُ الدنيا له كل نفسها وزينتها، وبهجتها، وزخرفها، فإنه لن يربطها به أملٌ ولا رجاء..

[فإن طول الأمل، يُنسي الآخرة]!

وهو ـ رضي الله عنه ـ لا يريد أن ينبو عن الحقّ، ولا يريد أن ينسى الآخرة..

فالحقّ حياته.. والآخرة داره..

على أن زهد علي بن أبي طالب في الدنيا، وعزوفه عنها، ليس زهد الهاربين من تبعات الوجود ومسئوليات الحياة..

إنما هو زهد يشكّله إسلامه، الذي يجعل المسئولية العادلة ديناً، ويجعل العمل الصالح الدائب عبادةً وقربى

هنا نلقى "علياً" يصحح المعايير والموازين، إذ لا يكاد يسمع رجلاً يذم الدنيا مذمة العاجز المتواكل حتى يقول:

[إن الدنيا دارُ صدقٍ لمن صدقها، ودار نجاةٍ لمن فهم عنها، ودار غنىً وزادٍ لمن تزوّد منها..

مهبط وحي الله

ومسجد أنبيائه..

ومتجرُ أوليائه..

رَبحوا فيها الرحمة، واكتَسبوا فيها الجنة]

أجل هذه هي دنيا المسلم، كما يفهمها تابع الوحي، وسابق المسلمين.

دار عمل، لا لهو.. يكدح فيها الإنسان ليبلغ غايته المصير السعيد يوم يقوم الناس لربّ العالمين

وهي دار صدق، لمن عاش فيها صادقاً مع مسئولياته وتبعاته

ودار نجاة، لمن سار فيها على دروب النجاة

* * *

وبهذا الفهم السديد للدنيا أحبها "علي" وربح بها مصيره وأخراه

فهي بالنسبة له، لم تكن دار لعب ولهو قطّ.

منذ طفولته الباكرة، حمل الإسلام في قلبه، وحمل معه كل أعباء الرجال.

ولقد قطع حياته وقضى أيامه على الأرض في كفاح موصول، ونضال لم يعرف الراحة يوماً.!!

وعاش كما وصفه الرسول عليه السلام:

[مُخشوشنٌ في سبيل الله]

تجنّبَ الترف من كل نفسه، ونأى عنه بكل قوّته وعزمه

ذلك أنه فهم الإسلام وعاشه، وتعلّم منه أن الترف مشغلةُ للفارغين العاطلين

والإنسان الذي يعيش مع مسئولياتٍ كتلك التي يفرضها الإسلام الحقّ على أتباعه المخلصين وأهله، إنما يكون حظه من الصدق والوعي مضاعف حظه من الدعة والتنعم

وهكذا كان الإمام

وهكذا أراد للناس أن يكونوا..

عندما قدم مكة من اليمن، ورسول الله يومئذ يحج بها حجة الوداع، تعجّل هو إلى لقاء النبي ﷺ، تاركاً جنوده الذين عادوا معه على مشارف مكة بعد أن أمّر عليهم أحدهم، وبدا لهذا الأمير المستخلف أن يلبس الجند حللاً زاهية من تلك التي عادوا بها من اليمن، حتى يدخلوا مكة وهم في زينتهم يسرُّ منظرهم الأعين والأفئدة. فأخرجوا من أوعيتهم حُللاً جديدة ارتدوها، واستأنفوا سيرهم إلى مكة.

وعاد "عليّ" بعد لقاء الرسول ﷺ، ليصحب جنده القادمين.

وعلى أبواب مكة رآهم مقبلين في حُلَلِهم الزاهية.

وأسرع نحوهم، وسأل أميرهم. ويْلكَ.. ما هذا؟

قال: لقد كسوتُ الجند ليتجمّلوا إذا قدموا على إخوانهم في مكة.

وصاح به "عليّ":

ـ ويلك.. انزع قبل أن تنتهي بهم إلى رسول الله ﷺ.

فخلعوا حُللهم الجميلة، وكظموا في أنفسهم مرارة ما صنع بهم "عليّ" الورع، الزاهد، الأوّاب.

ولمّا دخلوا مكة، ولقوا الرسول ﷺ، شكا إليه بعضهم علياً، وقصّوا عليه نبأه معهم

فاستقبل الرسول القوم وقال:

[أيها الناس

لا تشكُوا علياً

فوالله، إنه لأخشنُ في سبيل الله من أن يُشكَى] !!

* * *

وهو بإسلامه وفي إسلامه لا يتغير ـ طفلاً، وشاباً، وشيخاً، جندياً، وقائداً، وخليفة للمسلمين..

إن تقوى الله تأخذ عليه لُبّه.. وهو لا يعامل الناس بذكائه، ولا بحسبه ونسبه، بل بإخلاصه وتقواه..

ثم هو لا يريد منهم، بل لا يقبل منهم أن يعاملوه بغير الصدق والتقوى

من أجل هذا سنراه حين يقع الصدام بينه وبين معاوية يؤثر الهزيمة مع الإخلاص والتقوى، على انتصار يتحقق بالمكر والمراوغة

ويقول له ابن عمه "عبد الله بن عباس" ـ وهو ناصح الورع ـ خادعْهُم، فإن الحرب خُدعة

فيجيبه الإمام الطاهر

[لا والله

لا أبيع ديني بدنياهم أبداً] !!

مُسلم عظيم .. تفخر الدنيا من حوله بدمثه ، وسماحته ، وطهره !

* * *

وكذلك نراه وهو يخطب أصحابه في أول جمعة له بالكوفة ، وهو أمير المؤمنين ، لا يخطب خطبة حاكم ولا أمير ولا حاكم.

لا يصدر قرارات ، ولا يرسم سياسته — على كثرة ما كانت الظروف تتطلب من قرارات ، وسياسة — بل لا يجعل خطبته الأولى هذه استجابة لحماس أصحابه ، وشدة رغبة الحمية في أنفسهم للاستعداد للمعركة التي سيخوضونها مع جيش الشام المقاتل المدرب ، الصعب المراس.

لا شيء من ذلك كله يُضمّنه الخليفة والإمام خطبته

إنما هي الدعوة الخالصة لتقوى الله وحسن عبادته وطاعته :

فلنسمعه :

[أُوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباده ، وأقرب الأعمال لرضوانه ، وأفضلها في عواقب الأمور عنده

وبتقوى الله أُمرتم ، وللإحسان خُلقتم .

فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه ، فإنه حذّر بأساً شديداً

واخشوا الله خشيةً ليست بتعذير .

واعملوا من غير رياء ولا سُمعة ، فإن من عمل لغير الله وكّله الله إلى ما عمل ، ومن عمل مخلصاً له تولاه الله ، وأعطاه أفضل نيته . وأشفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثاً ولم يترك شيئاً من أمركم سدى . قد سمّى آثاركم ، وعلم أسراركم ، وأحصى أعمالكم ، وكتب آجالكم ، فلا تغرنكم الدنيا ، فإنها غرّارة لأهلها ، والمغرور من اغترّ بها .

وإن الآخرة لهي دار القرار]

أهذا خطاب رئيس دولة .. ؟

كلا .. إنما هو خطاب ناسك .. !!

خطاب مسلم مؤمن وجّه وجهه وقلبه وحياته للذي فطر السموات والأرض ، لا يهمه إلا أن يحيا في مرضاته تقياً ، وأن يحيا الناس من حوله أتقياء ، أنقياء .

* * *

كذلك نراه في ذروة إسلامه لو تتبعنا خطاه بعد ذلك إلى لقاء عدوه في معركة "صفين" ، يستقبل جيشه لبدء المعركة خطيباً ، فلا يعدهم ولا يُمنّيهم ، ولا يرفع أمامهم مباهج الدنيا ونعيمها ثمناً للنصر إذا هم ظفروا به .

إنما يحدثهم حديثاً يختلف عن كل الأحاديث التي تتطلبها أمثال هذه المناسبة

انظروا..

[.. إلا إنكم ملاقو القوم غداً.. فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم، وأكثروا تلاوة القرآن، وسلوا الله الصبر والعفو والعافية]

في أوقات السلم، وفي أوقات الحرب..

فوق نشوة النصر، وتحت وقع الهزيمة.. في سرائه، وفي ضرائه لا يسيطر على تفكيره وعلى ضميره وعلى شعوره سوى تقوى الله سبحانه..!

حتى وهو يكتب إلى عمرو بن العاص الذي انحاز إلى صف معاوية، وبات يشكل خطراً حقيقياً على جبهة الإمام، لا يمنّي الإمام عمراً بدنيا.. ولا يستميله إلى هوى بنفس السلاح الذي كان معاوية يكسب به الأنصار.. بل يبصره، ينصح عمراً بالحق في غير مساومة، ولا مجاملة.

إنه يناشده تقوى الله لا غير.. هذه التقوى التي تجري من ابن أبي طالب مجرى الدم، فيقول له في كتابه إليه:

[من عبد الله "علي" أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص.. أما بعد، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها.. وصاحبها مقهور فيها ومهموم عليها.. لم يُصب منها شيئاً قط إلا فتحت له حرصاً، وإلا أدخلت عليه مئونة تزيده رغبة فيها.. ولن يستغني صاحبها بما نال عما لم يبلغه، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من وُعظ بغيره، فلا تُحبط أجرك أبا عبد الله، ولا تجارينّ معاوية في باطله، فإن معاوية غمط الناس، وسفه الحق]

* * *

إنه يرفض أن تحدد علاقاته بالناس، أو علاقاته بهم منفعة أو غرض

حتى في أحرج ساعات حياته، تمثل في الرفض وفي الاستعلاء

إنه يؤمن بأن "الحق مقدس" وأنه أجلّ من كل ثمن

ولا شيء على وجه الأرض يمثل الحق في نفسه مثلما يمثله الإسلام

من أجل ذلك بذر حياته لقضية الإسلام منذ عمره الباكر

وعاش عمره المسلم يتنفس النقاء، والصدق، والاستقامة.

ليس في حياته كلها وقفة واحدة مع المساومة، والمداجاة، والالتواء

ولعله لو شاء لكان داهية لا يشق له غبار.. فحدة ذكائه، واتقاد بصيرته يعطيانه من الدهاء ما يريد.

لكنه تخلّى عن كل مواهب الرجل "الداهية" وأحلّ مكانها كل مواهب الرجل "الورع" !!

بـ فهمه لحقيقة الإسلام، وإن ولاءه الوثيق به [illegible] حمّلا [illegible] من الأعباء فوق ما تطيق

ولقد كان بعض جهاده وبلائه كفيلاً بأن يبوّئه مكانه العالي بين الأخيار الصادقين

ولكنّ الرجل الذي وصفه الرسول بأنه "مخشوشن في سبيل الله" قد أخذ نفسه بعزم الأمور، وربط قدرته وطاقته بالمستحيل، ونذر للإسلام حياته جميعها، فراح يحمّلها أعباء [illegible] حياته.. !!

* * *

ومع [illegible] المجيدة التي [illegible] الناس [illegible] الإسلام [illegible] معجزة الصناعة [illegible] المعجزة المتمثلة في [illegible] على [illegible] العظمة [illegible] في أحسن تقويم !.

إن ابن أبي طالب في كل مجالات حياته، هو واحد من أولئك الذين تجلّى فيهم إعجاز الإسلام، فلنقترب منه [illegible]، لنرى كيف تكون عظمة الإنسان [illegible] وكيف تكون العظماء!

■ ■ ■

البَطلُ والرَّجُلُ

[لأعطينَّ الراية غداً ..] .
" الرسول ﷺ "

ذات يوم ، والرسول بالمدينة ، نزل عليه الوحي بآية جديدة من القرآن ، وراح الرسول يتلوها على أصحابه ، وهم منصتون
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾
وأحدثت الآية في أفئدة أصحابه رد فعل قوياً ، وظن بعضهم أنها نعي إلهم سبقهم عليه الصلاة والسلام
وصاح "عليّ بن أبي طالب" .
"والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .. ولئن مات أو قُتل ، لأقاتلنَّ على ما قاتل عليه حتى أموت " !!
وطوال عمر "علي" في حياة الرسول وبعد وفاته ، وهذه الآية لا تبرح ذاكرته ، وإنها لتلحُّ على وجدانه إلحاحاً دائباً وعجيباً .. !!
فهو دائماً يذكرها فيتلوها .. ويُتبع تلاوته لها بكلماته التي سمعتها الآن
"والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .. ولئن مات أو قُتل ، لأقاتلنَّ على ما قاتل عليه حتى أموت" .

* * *

ولكنْ لماذا اختار القتال سبيلاً للتعبير عن ولائه للدين ، وإصراره على متابعة طريق الرسول ؟
لماذا لم يقل "ولئن مات أو قُتل لأُصبرنَّ السير على نهجه ، والاهتداء بسنته وهديه" ؟
إن طبيعة "الفارس" تحضرُ كل مرة في كلماته .. فإذا أعطى العهد على مواصلة السير تحت الراية التي يرفعها بيمينه ، فإنه يصوغ عهده من الكلمات التي تتسق مع طبيعته .. وتُعبِّرُ عنها في أمانة وصدق .
وأيُّ كلمة تُعبِّرُ عن طبيعة "المقاتل" سوى كلمة "سأقاتل" ؟
صحيح أن الآية نزلت في معركة دائرة ، والقتال مشبوب ــ في غزوة أحد أو بعدها .. والمشركون يومئذ يرجفون بأن الرسول قد قتل .. فنزلت الآية تسفه أحلامهم ، وتشدّ عزم المسلمين ، وتخبرهم بأنه حتى لو مات الرسول .. أو استشهد ، فإن رايته لن تسقط .. ودينه لن ينهزم ، وجنده لن يضعوا السلاح !

فمتى كانت طبيعته المنافسة، تجعل الرد على سؤال الآية مستحيلاً، فإن "طبيعة المقاتل" هي التي جعلت كلمة "سأقاتل" شعار حياته بأسرها، وليست شعار مناسبة بذاتها.

وهكذا رأينا "الإمام" طوال حياته المديدة والمجيدة، لا يفتأ يذكر الآية الكريمة ويتلوها، ثم يُعقب عليها بنشيده ذاك:

"ولئن مات أو قُتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت" !!!

* * *

قل: إن "عليّاً" يحمل بين جنبيه "طبيعة المقاتل" وسجاياه.

فهل هذه منقبة توضع في ميزان فضائله، ومزاياه..؟

وبتعبير آخر: هل وجود طبيعة المقاتل في إنسان أمرٌ يشرّف ذلك الإنسان؟؟

أما بالنسبة لابن أبي طالب، فنَعم.

إن كون طبيعته مقاتلة في عُمقه، لممّا يزيده شرفاً، ورفعة، وكمالاً.

ذلك أن "طبيعة المقاتل" فيه قد بلغت من الاستقامة، ومن النبل، ومن المروءة المدى الذي أفاءهُ عليه القرآن، والرسول، والإسلام.

فهي ـ عند الإمام ـ لا تمثّل عدواناً، ولا تشكّل بهتاناً، ولا تطلق وقوداً لأغراض ذاتية، وأطماع نفس..

وهي بهذا، ولهذا، تحوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة، كما أن "البطولة" عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة.

و"الرجولة" عنده ليست اندفاعاً غير مرشّد، ولا جسارة طائشة، ولا تهوراً، إنما هي "التزام" بكل ما يكون مُطعماً لمنهج الرسول ﷺ الذي آمن به، والدين الذي حمل رايته.

وهكذا نرى "البطل" و"الرجل" و"المسلم" يلتقون في شخصية "الإمام عليّ" أصدق لقاء.

أجَلْ، لم ينفصم البطل عن الرجل، عن المسلم، في حياة "عليّ" قط.

فإن رأيته يبارز خصماً مثلاً، فليس البطل المتمكّن هو وحده الذي يبارز، بل إن رجولة الرجل، وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها..!!

انظروا..

في غزوة أُحد، يخرج من صفوف المشركين أحد فرسانهم الأشداء، هو أبو سعد بن أبي طلحة، وينادي: من يبارزه..

ويخرج "عليّ" إليه ويتلاقيان في مبارزة ضارية حاسمة..

ويتمكن منه سيف "عليّ" بضربة تطرحه أرضاً، وهو يتلوّى من الألم..

وبينما "عليّ" يتهيأ ليجهز عليه بضربة قاضية تنحسر ثياب الرجل فتنكشف عورته، فيغمض "عليّ" عينيه، ويغضّ بصره ويثني إليه سيفه، ويعود إلى مكانه في الصف.

ويسأله المسلمون: لماذا لم تجهز عليه..؟

ويجيبهم:

«لقد استقبلني بعورته، فعطفتني عليه الرَّحِم» !!

إنّ شرف المقاتل خُلُقٌ لا ينساه عليٌّ أمام النصر، وأمام الظفر.

ولقد عُرف عنه ذلك دائماً، فراح أعداؤه يستغلون منه هذا الأمر كلما رأوا الشهب تهوي عليهم من سيفه الوثيق !!

* * *

إن الأبطال الأصلاء العظماء، لا ينشدون النصر مجرَّد النصر.

إنما هم ينشدون النصر عفيفاً، شريفاً، عادلاً.. فإذا لم يأتهم النصر موشّى بهذه الفضائل، فلا خفقت راياته، ولا دقت طبوله!

وسنرى ونحن نتابع مشاهد البطولة في حياة الإمام، كيف كان حرصه الشديد على "شرف المقاتل" آثر وأبقى من كل غلبة ومن كل انتصار.

ومن المفارقات الممتعة لشخصيته، أن "براعته كمقاتل" فيه، كانت تزلزل خصومه خوفاً وهلعاً.. في حين "شرف المقاتل" فيه، كان يملأ نفوسهم طمأنينة وأمناً..!!

أجل، طالما تحولت نقمته على أعدائه إلى رحمة بهم بسبب إيمانه الحق بأن القتال الشريف النبيل العادل، هو وحده سبيل الرجال، إذا اضطروا للقتال.

* * *

بعد أن تحقق له النصر في موقعة الجمل، وقبل أن تبدأ موقعة "صفين" وكان لا يزال يرجو أن تفيء معاوية إلى الحق، على الرغم من كل إشارات الجد التي كانت تنبئ بإصراره على موقفه، وإعداده العريض للحرب والقتال.. يومئذٍ علم "الإمام" أن اثنين من كبار أنصاره يجهران بشتم معاوية ولعن أهل الشام، هما: حُجر بن عدي، وعمرو بن الحمق، فأرسل إليهما أمراً أن يكفّا عن هذا الشتم وهذا اللعن.. فقدما عليه، وسألاه:

- يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحقّ، وهم على الباطل..؟

أجابهما الإمام:

- بلى، وربِّ الكعبة.

قالا:

فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم..؟

قال الإمام:

"كرهتُ لكما أن تكونا شتّامين لعّانين

ولكن قولا: اللهم احقنْ دماءنا ودماءهم، وأصلحْ ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يَعرف الحقَّ مَنْ جهِلَه، ويرْعوي عن الغيِّ مَن لجَّ به" !!

إنه "شرف بمقاتل" عظيم

وإنها "البطولة" التي ترجمها "الرجولة"

و"الرجولة" التي صاغها الإسلام في أحسن تقويم

* * *

ولكنْ لماذا عجلْنا، وتخطيْنا الزمن، وذهب بنا شوق الأمثلة على بطولة الإمام من أُخريات أيامه.؟

ألا يَحسن بنا أن نستشرف هذه البطولة في بداياتها الرائعة.؟

بلى.. فلنرجع مع الزمن إلى وراء.. حيث الرسول ﷺ في "مكة" متهيأ للهجرة إلى المدينة التي سبقه إليها أصحابه.

وخطة الهجرة كما رسمها الرسول ﷺ، كانت تقتضي أن يأخذ مكانه في فراشه رجل يشغلُ حركتهُ ذلك حتى تلبث أنْظار المحاصرين له من مشركي قريش، وتخدعهم بعض الوقت عن مخرج الرسول عليه السلام، حتى يكون وصاحبه أبو بكر قد جاوزا منطقة الخطر، وخلّفا وراءهما من مناهب الصحراء مسافة تشتتْ فيها مطاردة قريش إذا هي خرجت في طلبهم.

ولكنْ ما مصير هذا الذي سيخلفُ الرسولَ في داره، ويخدع قريشاً كلها عن مخرجه..؟

ما مصيره حين تكتشف قريش خدعته، وترى كيدها الذي عبّأتْ فيه كل قواها يرتد، لا هزيمةً ماحقةً فحسب.. بل سُخْريَةً.

تُضحكُ منها ولْدانها، وخِزْياً يجثم فوق جبينها.؟

إن مصيره مفروغ منه

إنه القتل.. إذا لم تجد قريش ما هو أشد من القتل تشفياً وفتكاً!!

والحقّ أنها ستكون نهاية مُوحشة.. فالرجل الذي سيكْتب عليه أن يحمي هذه التضحية، لن يُقتل فحسب.. بل هو سيُقتل في بلد مُوحش.. قد خلا من كل أصحابه الذين كانوا بالأمس يَملئونَ فجاجه دَوِيّاً بالقرآن كدَوِيّ النحل

في هذا البلد الموحش سيُقتل وحده.. دون أن يجد من إخوانه من يشيعه ولو من بعيد بنظرة تثبيت.. أو يودعه ـ ولو من بعيد أيضاً ـ بنظرة عطف ومحبة.. أو يتسلل في جنح الظلام إلى قبره فيعطف عليه مسلّماً!

لا شيء من ذلك سيكون.

ولا شيء من ذلك سيُخفّفُ من وقْع النهاية التي ستحدثها قريش بمنْ يمثّل دور الرسول ﷺ عليها حتى يخدعها عنه، وحتى يردَّ كيدها الذي تراه في نحرها!!

فمن أيّ طراز، سيكون هذا الفدائي العظيم؟!

ومن أيّ ناحية سيجيء البطل ..؟!

إنه من بيت النبوّة يجيء

إنه سليل بني هاشم .. وسبط محمد ﷺ

إنه ربيب الوحي .. وسابق المسلمين

إنه "عليّ" يماحك قريشاً .. فلْنُلْقِ على يديه صفحتها .. كما سار بجروح سيّ مقتله !!

* * *

على أن مهمة "عليّ" رضي الله عنه، لم تكن مقصورة على تمثيل مكان الرسول ﷺ والمكر بقريش حتى يغادر الرسول مكة .. بل كان لها جانب آخر يتطلب نفس القدر من الفدائية والبذل والتضحية .. ذلك هو مهمة ردّ الأمانات والودائع التي كان الرسول ﷺ يحتفظ بها لذويها من أهل مكة.

لقد تسلّم "عليّ" من الرسول كلّ هذه الودائع وتلقّى منه أسماء أصحابها .. وكان عليه أن يذهب إليهم داراً داراً .. وفرداً فرداً .. ويعطي كل إنسان أمانته .. دون أن يترك لقريش فرصةً تحولُ بينه وبين إنجاز مهمته كلها.

ولقد قام البطل وانطلق بالمهمة على خير وجه، وحفظه الله ورعاه، وصدق وعد الرسول له حين قال وهو يودّعه:

"لن يَخلُصَ إليك شيء تكرهه منهم"

وبعد أيام ثلاثة، قضاها الفتى الوثيق بمكة .. يردّ الأمانات إلى ذويها .. ركب الصحراء مهاجراً إلى الله ورسوله ..

وحده .. خرج مجتازاً نفس الطريق الذي خرجت عليه قوافل قريش تطارد الرسول والصدّيق، وتطلبهما بكل جهد وثمن ..

وحده .. خرج "عليّ" في رابطة جأش تحسدُ عن الانتظار .. وفي إيمان مصقول جعل عزمه يتألق مضاءً وبهاءً !!

وبعد أيام وليالٍ، كان هناك في "قباء" يلتقي مع "الرسول" في نفس الدار التي أعدت له عليه السلام، دار كلثوم بن هدم، أخي بني عمرو بن عوف.

وبعد أيام ينتقل مع الرسول ﷺ إلى المدينة دار الهجرة .. وتنضمه للعالم الجديد الذي جاء "محمد" ينشئه ويبنيه على دعائم الإيمان، والحقّ، والعدل، والرحمة والسلام.

* * *

ويجيء "غزوة بدر"

ويواجه الإسلام الوثنية في أول لقاء ينشب بينهما

ويُظهر عليّ بن أبي طالب، وعمّه حمزة رضي الله عنهما من المقدرة والجلد والبطولة ما يبهر الألباب.

ثم تجيء "غزوة أُحد"، حيث حشدت قريش كل بأسها وقوتها وحقدها لتثأر لقتلاها في يوم بدر، ولتمحو عن جبينها عار الهزيمة الماحقة التي أصابتها في ذلك اليوم المشهود. ويملأ "عليّ" أرض المعركة ببطولته وبسالته، ويسقط اللواء من يد "مصعب بن عمير" يسقط بعد أن يبدي بطولة خارقة (١).

ويدعو الرسول ﷺ ـ عليًّا ـ ليحمل اللواء.

ويحمل اللواء بيد، وبيده الأخرى قبضة على سيفه "ذي الفقار"، هذا السيف الوثيق الذي قال الرسول ﷺ عنه وعن صاحبه:

"لا سيفَ إلا ذو الفقار، ولا فتًى إلا عليّ"!

ولا يكاد "ابن أبي طالب" يحمل اللواء ويشرئبّ في يده عاليًا، عزيزًا، خفاقًا حتى يبصره حامل لواء المشركين، فيصيح: "ألا هل من مُبارز"؟

ولا يجيبه من المسلمين أحد، فقد كانوا في شُغل عنه بالمعركة التي بلغت أقصى عنفوانها، وشدّتها، وضراوتها.

وتتكسّر السيوف على السيوف، والنّصال على النصال.

ويُعاود حامل لواء المشركين نداءه مرة أخرى فينادي: "ألستم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار؟ ألا فليخرج إليّ أحدكم".

ولم يطق "عليّ" صبرًا، فصاح به: "أنا قادم إليك يا أبا سعد بن أبي طلحة، فابرز يا عدو الله إليّ".

وانطلق بين الصفوف الملتحمة تحت وقع السيوف والنبال... فحسمت ضربتين ضربه "عليّ" ضربة واحدة، فسقط على الأرض يتلقى مصرعه ومنيته، وهمّ "عليّ" أن يضربه الثانية ليجهز عليه، فتكشّفت عورته أمام "عليّ" فاستحيا، وغضّ بصره وانصرف عنه، على النحو الذي أشرنا إليه من قبل.

وبعد انتهاء القتال، هرعت النساء المسلمات يداوين الجرحى.

ورأى الرسول ﷺ ـ عليًّا ـ وسط مجموعة منهن يكدن يحصين جراحه الكثيرة، حتى قلن لرسول الله حين رأينه:

ـ يا رسول الله: لا نعالج منه جُرحًا، إلا انفتق جرح!!

فمرّ الرسول ﷺ من جسده المثخن، والشجاع، وراح يسهم في تضميده ويقول:

"إن رجلًا لقيَ هذا كلّه في سبيل الله، لقد أبلى وأعذَرَ".

* * *

وانتهت معركة "أُحُد" بهزيمة المسلمين بعد أن حققوا على أرضها نصرًا عظيمًا في بدايتها

(١) راجع "مصعب بن عمير" في كتاب "رجال حول الرسول" للمؤلف.

ولكن السِّيَر والتاريخ تجمع على أن الهزيمة لم تكن نتيجةً لتفوّق المشركين في قتالهم أو في بلائهم، إنما كانت نتيجة خطأ ارتكبه فريق من المؤمنين.. أولئك هم الرماة الذين وكّل إليهم الرسول ﷺ مهمة حماية المؤخرة من فوق قمّة الجبل، وأمرهم ألاّ يغادروا مواقعهم مهما تكن الأمور حتى يأمرهم هو بمغادرتها.. بَيْدَ أنهم ما كادوا يبصرون قريشًا تهزم، وتنسحب فلولها من المعركة مخلفة أسلابها وغنائمها، حتى غادروا مواقعهم ونزلوا إلى أرض القتال يجمعون الغنائم والأسلاب..

هنالك، جمع الجيش المنسحب فلوله، وعاد حثيثًا إلى المسلمين وقد انكشفت مؤخرتهم، وفاجأهم بهجوم مُباغتٍ وعنيد

* * *

وهكذا تحولُ النصر إلى هزيمة..

ووعى الدرس كله، والعبرة جميعها حاملُ لواء المسلمين يومئذٍ "عليّ بن أبي طالب" كرم الله وجهه

لقد أدرك واستيقن أيما استيقان بما كان علمه من قبل وهو أن دين الله لا ينبغي أن يكون طريقاً إلى دنيا.. وأن الذين يتقدمون ليحملوا كلمة الله ورايته، يجب ألاّ يشغلهم عنهما أسلاب، ولا غنائم، ولا أطماع ولا مناصب.. فإن هم فعلوا وكلهمُ الله إلى أنفسهم، وما أعجز الأنفس حين تفقد رعاية الله وتوفيقه..!!

حذق "عليّ" هذا الدرس جيداً، كما حذقه يومئذٍ أكثر الأصحاب

وعاش "عليّ" عمره كله لا ينساه، فعندما عهدت إليه الخلافة في فتن كقطع الليل المظلم، ثم عندما فُرِض عليه بسبب الصدامات المروّعة مع معاوية، ومع الخوارج، لم ينس درس "أُحُدٍ" أبداً.

لن يصبح دينُ الله موضع مساومة، ولا مُزايدة

كل مغريات السلطان ومباهج الدنيا، لن تظفر منه بنظرة واحدة

ستظل كلتا عينيه على دين الله، لا تتحولان عنه، ولا تغمضان دونه.

لن يشتري سُخط الله برضاء الدنيا بمن فيها

ولكنه يقبل سخط الدنيا كلها والناس أجمعين بلحظة واحدة من رضاء الله رب العالمين..

* * *

والآن نُتابع "البطل" في خيبر

فأمام حصونها المنيع ارتدت ـ أول يوم ـ كتيبة قويّة يقودها أبو بكر الصديق

ثم ارتدت ـ في اليوم الثاني ـ كتيبة أخرى، يقودها عمر بن الخطاب

لم يجزع الرسول ﷺ، فما كان هو بالجازع قط، وربما أبقى على الصفوف لحظة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة وقال:

"لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه"

يقول "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه "ما تمنيت الإمارة قط إلا ذلك اليوم ، رجاء أن أكون ممّن يحبه الله ورسوله" .

* * *

أصبح الصباح ، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم ﷺ وكلهم شوق إلى معرفة الرجل الذي سيعطيه الرسول الراية ، والذي سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب

واكتملت أعدادهم ، واستوت صفوفهم ، واشرأبّت الأعناق متلمّسة راجية

وشقّ السكونَ صوتُ رسول الله ﷺ يقول :

"أين عليّ بن أبي طالب" ؟

كان "علي" هناك وسط الزحام ..

لم يخطر بباله يومئذٍ أن يكون هو الرجل الذي وعد الرسولُ أصحابه ، وجعله بشرى الفتح القريب .

لم يخطر له هذا الاحتمال لسبب يسير ، هو أنه في ذلك اليوم كان يشكو رمدًا في عينيه ، لا يمكّنه من العمل الصعب الذي تتطلبه مهمة ذلك اليوم المشهود .

ولكنه لبّى نداء الرسول ﷺ من فوره :

ـ هأنذا يا رسول الله ..

وأشار الرسول إليه بيمينه ليتقدم منه ، فتقدّم البطل .. ورأى الرسول ما بعينيه من وجع واهتياج ، فبلّل أنامله المضيئة بريقه الطهور ، ومسّ بها عيني البطل .. ثم دعا بالراية فأمسكها ورفعها إلى أعلى ، وهزّها ثلاثًا ، ثم غرسها في يمين عليّ ، وقال :

"خُذ هذه الراية ، فامضِ بها حتى يفتح الله عليك" .!!

دقائق ، لعلها لا تجاوز خمسًا ولكنها تمثّل حياة كاملة لا منتهى لأبعادها ، ولا غاية لأمجادها !!

* * *

حمل البطل الراية ، وتقدّم كالسهم يُهرول هرولةً .. وأمام باب الحصن نادى :

"أنا عليّ بن أبي طالب" .

أجل .. فإنه ليعرف تمامًا ما لهذا الاسم في أفئدة أعدائه ونفوسهم من رهبة ، وما يثيره فيهم من فزع وخذلان !

وتلقّى "عليّ" ضربة قوية لم تُصبه بسوء ، لكنها أطارت الترس من يده .. ورأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن ، فصاح :

"والذي نفسي بيده ، لأذوقنّ ما ذاق "حمزة" أو ليفتحنّ الله لي" !

رأى سليل بني هاشم نفسه ، ولا درع معه ، فاندفع نحو باب من أبواب الحصن .. ولا يدري الناس عندئذ ماذا حدث ؟

كل ما يذكرون أن عليًّا صاح "الله أكبر" ثم اقتحم نحوهم وباب الحصن بين يديه !!

يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، وقد كان ضمن كتيبة عليّ:

"لقد هممت أنا وسبعة معي أن نحرك هذا الباب من مكانه على الأرض فما استطعنا"!!

وهجمت كتيبة الإسلام بقيادة بطلها "عليّ" وفي وقت وجيز، كانت القوة المنتصرة تردد من شرفات الحصن الذي سقط بكل ما فيه، هتاف النصر:

"الله أكبر، خَرِبَتْ خيبرُ"

وصدقت نبوءة الرسول التي قالها لابن عمه:

"خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك"..!!

أجلْ.. لقد فتح الله عليه، ومنحه النصر المرتجَى.

* * *

والآن، مع البطل في يوم الخندق، حيث هوجمت المدينة بأربعة وعشرين ألف مقاتل بقيادة أبي سفيان، وعُيَيْنة بن حصن.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حين علم بخروجهم وتحركهم صوب المدينة، قد استجاب لرأي "سلمان الفارسي" بحفر خندق حولها

وحُفر الخندق، وفوجئ به جيش الشرك.

وانطلق من معسكر قريش - الذي ضرب خلف الخندق - نفر من مقاتليهم، على رأسهم عمرو بن عبد ودّ، وتيمّموا لأنفسهم ثغرة في الخندق ينفذون منها. وفعلاً وجدوا مكاناً ضيقاً تقحّمته خيولهم.

ووقف هو ومن معه من فرسان قريش، أمام المسلمين، وصاح من مبارز؟

وفي مثل ومض البرق وجد أمامه البطل.

إذ وقف "عليّ" أمامه وجهاً لوجه.

وقال:

- يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه

فأجابه عمرو: أجلْ

قال عليّ:

- فإني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام

قال عمرو: لا حاجة لي إلى ذلك

قال عليّ:

- إذن، فإني أدعوك إلى النزال.

قال عمرو: لِمَ يابن أخي، فوالله ما أحب أن أقتلك

قال عليّ:
- لكني والله أحبُّ أن أقتلك..!!
فغضب عمرو، وأخذته حمية الجاهلية، واقتحم عن فرسه وعقره، ثم هجم على "عليّ" الذي تلقاه بعنفوان أشد، وخاضا معاً نزالاً رهيباً، لم تطل لحظاته حتى رفع "عليّ" سيفه المنتصر، في حين كان خصمه عمرو بن عبد ود مُجَنْدَلاً على الأرض صريعاً.
وعاد "علي" إلى صفوف المسلمين، تستقبله تحيات شاعرهم:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرتُ ربَّ محمد بصواب
لا تحسبنَّ الله خاذل دينه ... ورسولِه، يا معشر الأحزاب

* * *

وقبل أن نستطرد مع مشاهد بطولته الخارقة، يحسن بنا أن نذكر ما قلناه من قبل - ألا وهو أن بطولة "عليّ" كانت تزدان بكل شرف الرجولة، ولم تكن قط في خدمة هوًى أو زهو، إنما كانت في خدمة الحق والمبادئ العُلا التي هداه الله إليها، والتي آمن بها "علي" أوثق إيمان.

من أجل هذا لا نعثر على مشهد واحد من مشاهد بطولته، يمثل عدواناً، أو بهتاناً
وبطولته على الرغم من شموخها واقتدارها، كانت بطولة مستقيمة عفيفة، وعادلة
فهي هذه البطولة التي تنصف شدة البأس ولين الجانب معاً موقعاً !!
من أجل هذا نجد الرسول عليه السلام يستبقه في مهام الحرب والقتال التي تتطلب حظاً وافراً من ضبط النفس وتجنب الغضب وفي هذا تزكية لبطولته وإطراء

* * *

في ذلك اليوم المشهود - يوم فتح مكة - كان الزعيم الأنصاري "سعد بن عبادة" يحمل الراية على كتيبة كبيرة من المسلمين.
ولم تكد تتراءى له مشاهد مكة، حتى سحبته ذكريات عداء قريش للرسول وصحبه فصاح قائلاً وسط نشوة الظفر التي سحقت الأغلال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلُّ الكعبة"
قالوا: وسمعه بعض الصحابة فروّعهم هذا النداء.
وسارع "عمر بن الخطاب" إلى النبي عليه السلام ونقل إليه كلمات سعد، وقال معقِّباً عليها:
- يا رسول الله، ما نأمَنُ أن يكون لسعد في قريش صَوْلة.
وعلى الفور نادى الرسولُ "عليّاً"، وقال له:
"أدْرِكْ سعداً، وخُذْ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها"
"عليّ" الذي شهد كل الأذى الذي صبته قريش على ابن عمه ورسوله ﷺ
"عليّ" الذي يحمل طاقة زاخرة فوّارة تحرّك الجبال

"علي"، وهذا يومه، حيث يتوقع منه بأس المقاتل، وهو المستقر بحضرته أعرف الناس به بمهمة قهر الرقاب، ولكنه يُثار بمهمة دخول مكة المفتوحة، في تواضع وخشوع، وسلام.

ومشهد آخر، نعرف بجمال هذه البطولة، والسماحة، وما كانت تتمتع به من أناة، ومعدلة.

فبعد فتح مكة، أرسل الرسول ﷺ إلى من حولها من القبائل سرايا تدعوهم إلى الله في غير قتال بها، أو حرب معها.

وكان "خالد بن الوليد" على رأس إحدى هذه السرايا، أمره الرسول ﷺ أن يسير بأسفل "تهامة" داعياً، لا مقاتلاً.

وعند قبيلة بني جذيمة بن عامر، تصرّف أحد رجالها تصرفاً سرّع بحدة "خالد" فأعمل فيهم السيف..

ولما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ غضب وحزن، وبرئ إلى الله مما صنع خالد بن الوليد، ثم رأى ـ عليه السلام ـ أن يبادر بإرسال "رسول سلام"، وكان "ابن أبي طالب" هو الرسول المختار.

دعاه رسول الله إليه، وقال له:

« يا عليّ..

اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك »

وأعطاه الرسول من المال ما يكفي لدفع الديات، وتعويض أهلهم عن كل خسارة حاقت بهم، وقام "علي" بالمهمة خير قيام.

وهكذا، حيث تصرّي البطولات، وتستعلي الأناة والحكمة يكون "علي" هو الرجل وهو الشخص الذي يختاره الرسول ﷺ ليقيم الميزان بالقسط، ويمزج القصاص بالعدل، والقوة بالرحمة، ويضع الشجاعة تحت إمرة الرُّشد والأناة والحكمة!!

* * *

ولعل أكبر الفضل ما يشهد به الأعداء، فلنستمع في هذا المقام لشهادة "أبي سفيان" أيام شركه ووثنيته.

فعندما نقضت قريش عهدها مع رسول الله ﷺ، واستخار النبي ربه في الخروج إلى مكة لفتحها، سرى الخبر إلى قريش فسُقط في يدها، وأرسلت "أبا سفيان" إلى المدينة ليعتذر إلى الرسول، وليسأله الموافقة على المعاهدة التي كتبت بينهما، والتي أُبرمت يوم "الحديبية".

ونزل "أبو سفيان" المدينة.. ولقي زعماء المسلمين راجياً أن يزكّوا مهمته عند الرسول ﷺ. فكلهم رفض.

بل إن ابنته "أم حبيبة" ـ وكانت إحدى زوجات النبي ـ أبت أن تُجلسه على فراش رسول الله ﷺ، وكان مبسوطاً في فناء حجرتها ساعة دخوله عليها، فطوته عنه. ولمّا عاتبها في صنيعها هذا أجابته قائلة:

[إنك مشرك..
وفراش رسول الله لا يعلوه مشركون]

ولما عاد إلى "مكة" خائب المسعى، جلس يحدث قريشاً عن محاولته، فقال فيما قال:

ـ "... وجئت ابن أبي قحافة ـ يعني أبا بكر ـ فلم أجد منه عوناً"

"وجئت ابن الخطاب، فوجدته أعدى العدوّ. لقد قال لي: أأنا أشفع لكم عند رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذَّرّ لجاهدتكم به".

"وجئت علياً فوجدته ألين القوم" !

أجل.. في هذه المناسبة بالذات، حيث لا يتوقع من "علي" كرّم الله وجهه سوى بأس المقاتل، وتشفّي صاحب الثأر، نجد لين الجانب ورحمة عليّ يسعفان موقفه وتصرفه !

وبشهادة مَن..؟ بشهادة خصمه "أبي سفيان" زعيم قريش يومئذٍ وقائد جيوشها، وحامل لوائها ووثنها !!

ذلكم هو نوع البطولة التي أفاءتها مقادير "عليّ" عليه.

بطولة يقودها العقل لا العاطفة

بطولة، تحكمها أخلاقيات النبيلة السّامية، فلا تستعلي على الرحمة.. ولا تزيغ عن الحقّ.. ولا تتنكّب طريق الأناة والحكمة.

وبهذه البطولة الشّهمة العادلة، قاتل المشركين، فما تخلّف عن غزاة ولا عن مشهد قطّ، إلا غزاة واحدة أمره الرسول بعدم الخروج إليها ليكون خليفته في المدينة على أهله.

ولمّا تململت روح البطل إزاء هذا التخلف، أرضاه الرسول بقوله على ملأ من أصحابه:

[أما يُرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ إنه لا نبيّ بعدي]. ؟!

وبهذه البطولة الشهمة العادلة، سيخوض قتاله مع معاوية.. ومع الخوارج..

وسيواجه الفتن الحالكة التي تدعُ الحليم حيران، بأخلاقه الطاهرة، قبل أن يواجهها بمقدرته القاهرة.

لن يجد بأساً ـ أيّ بأس ـ في أن يخسر ألف معركة، ولكنه لن يسمح للظروف مهما بلغ ضراوتها وشدتها أن تسلبه فضيلة واحدة من فضائل نفسه وفضائل دينه.

والحقّ أن معارك ـ الحروب الأهلية ـ التي اضطرّ الإمام لخوضها كانت أعظم مجالي عظمته، ورجولته، ونُبله !!

فإلى هناك لنرى بعض مشاهدها..

إنّ "منصّة الأستاذية" قد رُفعت فوق المشقّة والهول، وقد علاها "البطل والمُعلّم" ليُريَ الدنيا ـ على الطبيعة ـ كيف تعمل البطولات العظيمة في نُبل، واستقامة، وشرف.

■ ■ ■

الخليفة والقدوة

[إنما أهلككم ما تزرعون لا ما ترثون ..]
" الرسول ﷺ "

كلما تعاظمت مسئولياته ، تألقت فضائله ومزاياه

وتلك أصدق دلائل العظمة الإنسانية ، وأوثق براهينها .

فحيث تتفق المسئوليات الكبيرات وحيث تفرض خلال احتدامها وجيشانها توتراً قاسياً على الإرادة والفكر ، نجد المعادن الطارئة فرصتها للانكماش والتقهقر أما المعادن الأصيلة الجليلة فلا شيء يشحذ تفوقها وتقدمها مثل هذا المحك !!

* * *

ولقد كتب على " ابن أبي طالب " أن تكون حياته موكباً موصولاً من المسئوليات الجسام

كأنما أقداره محابية بها ، لتجعل حياته عرضاً مستمراً لفضائله الفائقة ، وعظمته السامقة ؟

إن حياته ، وإن إيمانه بالمسئولية لعجيبان !

لكنّ العجب يفقد مكانه ما دامت الأقدار قد جعلت منه ابن عم الرسول ﷺ وصهره وتلميذه الأول ..

فمن يك مكانه من الرسول هذا المكان ، فإن عليه أن يعطي ، ولا يأخذ .. وأن يغرم ، ولا يغنم ..

عليه أن يهيئ نفسه لشظف العيش ، ولأواء الحياة ..

أما مغانمها ، ومباهجها ، بل مجرد الراحة فيها ، فأشياء لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ﷺ !

تلك قصة وعاها " عليّ " جيداً ، فيما وعى .

وابن عم الرسول وتلميذه ، خير من يضع زهده وسلوكه في خدمة الحق الذي يحبه

إنه بغير تكلف ، ويغير افتعال أو محاولة ، نجد صفاته جميعاً تبلغ أوج احتشادها واكتمالها ، كلما بعثت الأخطار والصعاب ذروة تحديها ..

وإنه بغير تكلف ، وبغير افتعال أو محاولة كذلك ، نجد فضائله جميعاً تحلق في ذرى جلالها وسموها عند الخطر ، يرسم لمعداته وبطولته أسلوب العمل !

هكذا تعلم من " محمد " ابن عمه وكافله ...

وهكذا تعلم من " الرسول " معلمه وهاديه .

فلقد رآه عندما يبلغ الخطر به ويعمه أبي طالب عليه المحاقة ، يتقدم فصيلة الصمود

في خلافته المهيب فتظهر الخطر، ويعبّر عن نفسه في هذه الكلمات
[والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تركتُ هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلِك دونه] ..!!
ثم رآه يوم الفتح، وقد نصبت مصاحف قريش كلها بكلمة واحدة تفرج عنها شدائده، فإذا عظمته المتضعضع تتقدم في سهل الرحب وحنايا الرحب، لتقول لقتلة من جوّعوا أهله، وقتلوا أصحابه، ومضغوا كبد عمه بعد أن مثلوا بجثمانه الطهور أبشع تمثيل
[اذهبوا،
فأنتم الطلقاء]!!
ليس هناك خطر مهما عظُم، يستطيع أن يُقعِس الفضائل الراسخة عن دورها في توجيه الكفاءة والبطولة.
وليس هناك في كل معادن الدنيا ما يستطيع أن يثني الرجل العظيم العادي عن مستوياته العظيمة المعتادة
هذا هو الدرس الذي حَذِقه "علي" عن الرسول ووعاه
يُضاف إليه، بوصفه من آل بيت الرسول ﷺ، ما ذكرناه من قبل، وهو أن يُباشر مسؤولياته، ويحيا جميع حياته وسط دائرة صارمة من الزهادة، والتقشف
ليس له في طيباتها المشروعة، ولا في مناعمها الحلال حظ أو نصيب!!
عرف ذلك من قول الرسول ﷺ ومن علمه وسلوكه معرفة لا تحتاج إلى مزيد
عرفه حين كان يراه يضنّ على نفسه بشربة لبن ثم يرسلها لنفر من المسلمين !!
وعرفه، يوم أرسلت إليه زوجه "فاطمة" بنت الرسول ﷺ تسأله خادماً يسيراً مما جمع للمسلمين، فإذا هو يجيبها ودموع الوالد الحنون تملأ عينيه
[لا، يا فاطمة..
لا أعطيكِ وأدعُ فقراء المسلمين]!
وعرفه، حين رأى عمَّه "العباس" يسأل الرسول ولاية، هو لها أهل وبها جدير، فإذا الرسول ﷺ يجيبه في أسف:
[إنّا والله يا عمّ، لا نُولّي هذا الأمر أحداً يسأله، أو أحداً يحرص عليه]!!
وعرفه أكثر وأكثر، يوم فتح مكة، حين حمل "علي" مفتاح الكعبة، وتوجه تلقاء الرسول وهو جالس وسط أصحابه في المسجد الحرام وقال له:
[يا رسول الله
اجعل لنا الحجابة مع السقاية صلّى الله عليك].
فإذا الرسول يبسط إليه يمينه، ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادي: "أين عثمان بن طلحة"؟
وكانت وظيفة حجابة البيت الحرام معه ومع أسرته من قبل
حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائماً، أدناه الرسول ﷺ منه، ووضع مفتاح الكعبة في

يده وقال له

[هل منحتك يا عثمان ، إياهم يوم بر ووفاء !!]

ثم ينطلق صوت ابن عمه علي ويقول له

[إنما أعطيكم ما ترزءون لا ما ترزءون] !!

عليه ـ إذن ـ أن يحمل مسئولية كبرى فوق كاهله الشجاع ، ويمضي

وعليه ـ إذن ـ ألا ينتظر من الدنيا جزاء ولا ينتظر منها شكوراً .. فليس لآل محمد ﷺ سوى أن يُعطوا .. أما أن يأخذوا فلا

إن الدنيا لأهونُ على الله من أن تكون لهم مثوبةً وجزاءً .

والسر هنالك من الدنيا التي من أدرك هذه الحقيقة وآمن بها مثل الإمام علي

بل لقد أدرك أيضاً أن طيبات الحياة التي يجد فيها الآخرون فرحاً ومسرات تتحول حين نلمسها بمقادير على الدنيا إلى رزء ومشقة !!

ذلك لأنهم لا يبحثون خلال هذه الطيبات عن المتعة والمنفعة ، بل عن الواجب والتبعة

ومن أجل هذا كذلك ، لا نجد أحداً تفوق "علياً" رضي الله عنه في التعبير بحديثه وفق هذا الإدراك .

فحين جاءته الخلافة .. الخلافة تعم دون الأرض يومئذ نفوذاً وسيادة .. كانت هذه الخلافة التي يستبق السابقون لها لعبت الملوك رزءاً أصاب الإمام

ولو شاء لجعلها مصدر نعيم لا ينتهي ، ومسرات لا تنكف طبولها .

ولكن ، لأنها تحولت بين يديه إلى مسئولية يمارسها ضمير بلغ الكمال في ورعه ، واستقامته ، وفي تقواه وصرامته .. فلم تعد الخلافة مع "الإمام العظيم" أكثر من رزء ، يحمله في جلد الصابرين الحازمين ، لا في نشوة الفرحين العابثين !!.

* * *

إن المسئولية وحدها هي التي تعنيه

وموضوع المسئولية ـ أية مسئولية ـ هو الحق ، ولا شيء سواه .. فإذا رأى الحق ، حمل مسئوليته عنه من فوره ، وإذا حمل مسئوليته ، فإن العواقب لا تدخل في حسابه أبداً

* * *

وهذا يفسر لنا موقفه من الخلافة منذ انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى .. إلى أن لحق هو بهذا الرفيق

فعندما بويع "الصديق أبو بكر" رضي الله عنه بالخلافة .. تأخرت بيعة "الإمام علي" كرّم الله وجهه عن البيعة

لماذا .. ؟

لقد أعطى هو السبب في وضوح خلال حواره مع الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر فقال :

[إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم في الناس، وتمكرون عليهم حقهم
أما والله لنحن أحق منكم بالأمر ما دام فينا القارئ لكتاب الله
الفقيه في دين الله .. العالم بسنن رسول الله .. المضطلع بأمر الرعية .. القاسم بينهم بالسوية] ..

فهو - إذن - يرى، بل يعتقد أنه ما دام الرسول عليه السلام لم يعهد بالخلافة لأحد بذاته، فإن البيت الذي خرج منه سيد الأنبياء ليكون منه النبي المصطفى ﷺ، هو البيت الذي يختار منه المسلمون خليفتهم، ما دام في رجال هذا البيت من يتمتع بالكفاية الكاملة لشغل منصب الخلافة.

أجل، فليس الانتماء لبيت النبوة هو وحده مبرر هذا الترشيح. بل لا بد فوق ذلك من الكفاءة الكاملة التي تتمثل في الطاعة المطلقة لله ولكتابه، ولرسوله. وفي الاضطلاع القويم بأمر المسلمين.

هكذا قال الإمام

[.. ما دام فينا القارئ لكتاب الله ..
الفقيه في دين الله
العالم بسنن رسول الله.
المضطلع بأمر الرعية.
القاسم بينهم بالسوية].

* * *

ولسنا هنا بصدد مناقشة رأي "الإمام" في خلافة "الصديق" رضي الله عنهما

ولكننا نقرر عن يقين، أن الإمام في موقفه ذاك لم يكن مدفوعاً برغبة الشخصية في منصب الخلافة، ولم يكن ينفس على "أبي بكر" هذا المنصب.

إنما كان يدافع عن حق رآه واعتقده. ولم يكن بالنسبة له موضع ريب أو شك.

فعندما اجتمع المسلمون في "سقيفة بني ساعدة"، ورأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم .. على حين رأى المهاجرون أنهم أحق وأولى، كان بعض منطق المهاجرين الذين رجّح كفتهم، قولهم للأنصار: إن رسول الله ﷺ كان منا نحن المهاجرين. فلنا الخلافة في أهل الهجرة!

فهذه الحجة نفسها كانت بعض منطق الإمام.

فإذا استحق المهاجرون منصب الخلافة، لأن الرسول ﷺ منهم .. فآل بيت النبي أحق بها، لأن النبي منهم. هكذا فكّر الإمام..

ولكن من الخير ألا ينسينا الشكل الخارجي لهذا الخلاف عن جوهره وحقيقته

فأصحاب النبي الكبار يرتفع بهم وبتقواهم من أمثال أبي بكر، وعمر، وعليّ، وعثمان، لا يتنافسون على مغنم من مغانم الدنيا مهما عظم، ولا سيما في ذلك الوقت حيث كانت فجيعتهم بموت نبيهم ﷺ لا تترك في أنفسهم المفجوعة بالأسى مكاناً لأي من رغائب تحده

وإنما نرجع سماحات كل منهم بموقفه إلى أن كلاً منهم وقف إلى جانب ما اقتنع به، وما اعتقد أنه الحق.

ثم إن الخلافة، وإن تكن في شكلها الخارجي شكل سلطة سياسية، ومنصباً دنيوياً، إلا أنها في أفئدتهم وفي إدراكهم الحقيقي لها، لم تكن سوى وظيفة من أسمى وظائف الهداية، والقدوة. وفي مثل هذا لا جرم أن يتنافس المتنافسون.

إن كل وقائع التاريخ وحقائقه تؤكد في غير لبس أن أبا بكر، وعمر، وعلياً، هؤلاء الثلاثة بالذات، لم يكونوا يرون في منصب الخلافة سوى عبء فادح مثقل، ولولا أن الهروب منه خيانة لله ورسوله وللمسلمين، لحال بينهم وبينه بعد المشرقين.

فلا الطموح الشخصي ولا الرغبة في السمو والسلطة، كان لهما أو لأحدهما مكان بين دوافع ذلك الخلاف.

* * *

كان الفريق الذي آثر اختيار أبي بكر، ينظر إلى سابقته في الإسلام، وإلى سنه وحكمته وحزمه، وإلى ذلك الإيمان المعجز الذي جعله قبل الرجل يجعل شعار حياته كلها مع رسول الله ﷺ.

[إن كان قال، فقد صدق] !!

كانت المزايا التي تدعو لاختيار "أبي بكر" تملأ الأفق ألقاً، ومجداً، وعبيراً

وهي مزايا لم ينكرها "الإمام العظيم علي" لحظة من نهار

لقد جهر بها، وهو يبايع "الصدّيق" فيما بعد فقال:

[يا أبا بكر..

إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكاراً لفضيلتك، ولا نفاسةً عليك بخير ساقه الله إليك.

ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً أخذتموه]

كما عبّر عن هذه المزايا تعبيراً أجمل وأروع حين وقف يرثي "أبا بكر" بعد وفاته، فيقول

[رحمك الله أبا بكر.

كنتَ والله أوّل القوم إسلاماً..

وأخلصهم إيماناً

وأشدّهم يقيناً..

صدّقتَ رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس..

وواسيته حين بخلوا..

وقمت معه حين قعدوا.

كنت والله للإسلام حصناً

وللكافرين ناكباً

لم تهن حجّتك

ولم تضعف بصيرتك
ولم تجبن نفسك .
كنت والله كما قال الرسول ﷺ فيك
ضعيفاً في بدنك .
قوياً في دينك .
متواضعاً في نفسك .
فلا حرمنا الله أجرك ..
ولا أضلنا بعدك] .. !!
أجل ، كان الرجلان اللذان تحركه بينهما "بتدول" الاختيار بعد وفاة الرسول ﷺ من طراز رفيع ، رفيع ، رفيع ..
وكان الرجل الثالث الذي لعب الدور الأول في اختيار أبي بكر في نفس المقام من الرفعة والعظمة ...
ويكفي أن نذكر اسم أي منهم "أبو بكر" أو "عمر" أو "علي" .. حتى تتفتح الأبواب عن عالم من الفضائل والرفعة والسمو ، ليس له نظير !!
ولقد سعى "أبو سفيان" إلى "الإمام علي" أكثر من مرة يحضه على الاستمساك بحقه في الخلافة ويقول :
- إن شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجلاً ، ولأسدنها عليهم من أقطارها
لكن الإمام الزاهد ، الورع ، الفاهم ، يرده في كل مرة ويدحضه
[يا أبا حنظلة .
إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا ولا من شيمنا ..
ولقد سددت دونها باباً ، وطويت عنها كشحاً] .

* * *

أجل .. اختلاف وجهات نظر الأبرار حول الحق ، لا يخرج الأبرار من دائرة الحق ، والفضل ، والأمانة .
إن خلافهم ليس على دنيا يتنافسونها .. ومن ثم تبقى آفات الدنيا بعيدة عن أنفسهم وعن أخلاقهم ، وتبقى بعيدة عما يختلفون فيه .. بعدها عما يتفقون عليه !!
وهكذا طوى - الإمام - عنها كشحاً ، وأغلق دونها باباً ، وتفرغ لعبادة الله وتفقيه المسلمين ، وإسداء المشورة والنصح لولي الأمر .
فالمشكلات كلها ، والمعضلات جميعها لم يكن لها إلا "علي"
وطالما كان الخليفة "أبو بكر" يسعى إليه ويقول له
[أفتنا يا أبا الحسن] .. !!
ولطالما كان الخليفة "عمر" يستنجد بفقهه وذكائه وببصيرته ، ثم يقول :

[لولا عليٌّ ، لهَلك عُمر] .. !!

ولطالما كان لخليفه "عثمان" يأزر إليه ، ويستعين به ويستنصحه ، لكنّ عندما أوغلت الحاشية المحيطة به في الأمر ، استطاعت للأسف أن تمسد ذات بينهم ، فلم تعدْ تتيح للإمام وللمشورات الأمينة لعدِيه أن تبلغ من اهتمام الخليفة ما تستحقه .

ويستشهد الخليفة "عثمان" ذعي "الإمام علي" بنسيم الرزء الكبير ـ منصب الخلافة .. !!

وهكذا جاءته أخيراً ... مثخنة بالجروح ، مثقلة بالمتاعب ، مغشّاة بالعواصف .. !

حقا ، إنّ "آل محمد" ليس لهم من حظوظ الدنيا إلا ما يُرزَءُون !! .

* * *

في أواخر عهد "عثمان" رضي الله عنه ، لعبت أهواء نفر من بني أمية بمصائر الدولة وبمقاديرها لعباً أفضى آخر الأمر إلى فتنة مسلحة نادى بها أصحابها من مختلف أقطار الإسلام ، واستغلها على نطاق ، واسع أعداء الدين الجديد الذين هدم عالمهم القديم كله ، وقضى على مصالحهم وضلالهم ..

وبعث الفتنة في جوانبها لأي غاية احتدامها وظلامها بمقتل الخليفة "عثمان" .

ولسنا الآن بصدد الحديث عن وقائع تلك الأحداث الرهيبة ، فقد تناولت ذلك بالتفصيل في كتابنا عن "عثمان" رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين .

أما هنا ، فسنكتفي برؤية الظروف الحالكة التي حمل فيها "أمير المؤمنين عليٌّ" كرّم الله وجهه تبعة الحكم ، ومسئولية الخلافة .

لقد قصدهُ الثوار إثر فراغهم من اقتراف جريمتهم النكراء .

قصدوه وأيديهم لم يجفّ منها دم الخليفة الشهيد الذي اغتالوه في بشاعة مفزعة .

ورفض "الإمام" بعد أن ألقى عليهم من تقريعه ووعيده ما جعلهم وهم في بأسهم المتمرد يتلاومون ، ويتخاذلون ، وينصرفون عنه في خزيٍ وهوان .

ذهبوا إلى "طلحة" فرفض ، وإلى "الزبير" فرفض ، وإلى "عبد الله بن عمر" فرفض ، وإلى "سعد بن أبي وقاص" فرفض ..

ومن ذا الذي يقبلها ، وقد رفضها الإمام عليٌّ ؟

والحقّ أن رفض "عليٍّ" لها هو الذي حتّم عليه آخر الأمر قبولها .

ذلك أنه برفضه هذا ، قد دفع عنها كل الرجال ، حتى الطامعين فيها ، ولم يجرؤ أحد ـ وقد رأوا "ابن أبي طالب" يرفضها احتجاجاً على غيلة الخليفة الشرعي "عثمان" ـ نقول . لم يجرؤ أحد أن يتقدم منها أو يتلقّى مسئولياتها .

ولكنْ لابدّ للدولة من حاكم وخليفة ، وكل دقيقة تمر والمكان شاغر ، تشكل خطراً قد يودي بمصير الأمة كلها والإسلام كله .

وبعد أن أدرك ذلك سريعاً جمع الناس بالمدينة ـ أهلها والثوار الطارئون عليها الساخطون على مقتل "عثمان" والمشتركون فيه .

كلهم أدركوا الخطر الماحق المريع الذي سيحل بالأمة في أقطارها القريبة والنائية إذا لم يمسك الإمام بزمام الأمور، وهو وحده المقتدر المستطيع أن يوقف جموح الفتنة، ويرأب ذلك الصدْعَ العريض.

وهكذا عاد "الثوار" إلى الإمام يلحّون ويرجون.

وقبل الثوار، تقدّم الراشدون من أهل المدينة يبايعون "عليًّا" على الخلافة.

وبهذه البيعة التي كانت ـ يومئذ ـ الطريقة التي يُختار بها الخليفة، صار "الإمام عليّ" خليفة للمسلمين.

***

لم يكن بين أصحاب رسول الله ﷺ الأحياء يومئذٍ، من يفوق "الإمام" في كفاياته الهائلة التي تجعله جديراً بمكانه في الخلافة.

ولم تكن الخلافة عندما عُرضت على "الإمام" وعندما قبلها، تشكل أيَّ مغنم من مغانم الحياة، بل كانت تشكّل عبئاً، لحامله الويل كل الويل، إن لم يعنْهُ الله.

وكان الواجب الكبير الذي ينتظر كل مؤمن وكل مسلم يومئذٍ، بذل الجهود المستطاع لوقف امتداد الفتنة، والبت بالوقوف في ولاء وصدق وإيثار وراء "المعقد" الذي تقدّم لحمل مسئولية الموقف كله ولتدرأ عن الإسلام ودولته وأمته أخطاراً لو قُدّر لها أن تبلغ مداها، لأتت على البناء كله من قواعده.

لكنّ ذلك لم يكن.. بل كان نقيضه تماماً.

***

إن رجولة الإمام، وبطولته، وعظمة مبادئه وسلوكه، تتجلى الآن في أبهى صورها، وقد صار خليفة وسط الأهوال.

تتجلّى في الدرس الذي تركه حيّاً للدنيا بأسرها ألا وهو: أن الولاء الشديد للحقّ، يتمثل في الوقوف الصامد إلى جانبه، وليس في الدوران حوله، لأن الوقوف إلى جانبه مهما يصاحبه ذلك من هزائم ومصاعب، هو وحده الذي يرده في نفوذ الحقّ، ويجعل انتصاره النهائي أمراً محتماً.

بروح هذا الإدراك لقيمة الحق، وبوثاقة هذا الولاء له، بدأ "ابن أبي طالب" مهامّ منصبه كخليفة.

لقد بدأ يردُّ طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذي كان يسير عليه الخليفة الأول "أبو بكر الصديق".

وكان "الصدّيق" رضي الله عنه، يعطي جميع الصحابة والمسلمين بالتسوية دون تفريق بين مَن سبق إلى الإسلام، ومن جاء متأخراً.

فلمّا وَلِي الخلافة "عمر" رضي الله عنه نهج نهجاً آخر، فجعل للسابقين الأوّلين أكثر مما يأخذ الذين تأخّر إسلامهم.. وقال في ذلك قولته المأثورة:

[لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ، كمن قاتل معه]..

يشير بهذا إلى أنه لا يسوّي في العطاء بين الذين لقوا حرب الرسول مبكرين، وقاتلوا معه من أول يوم، والذين ظلوا قاتلوه وهم كفار، ثم صاروا فيما بعد من المسلمين.

وكان "الإمام علي" على نهج أبي بكر، مفسراً رأيه، بأن الدولة لا تعطي المسلمين مثوبة دينهم، وثمن إيمانهم، فمثوبة الدين والإيمان عند الله.. إنما تعطيهم حاجتهم للعيش، ومن ثمّ فلا داعي للتمييز بينهم والتفضيل.

كما أن التفاوت في العطاء من شأنه أن يخلق فرصاً لتراكم الثروات لدى بعض الأفراد، مما يشكل مع الزمن فتنة في الدين وفساداً في الدنيا.

* * *

وفي خلافة أمير المؤمنين عمر، لم تدع صرامته وتقشفه أي مجال لتراكم الثروة، فقد كان حسبه أن يعلم أن "فلاناً" من ولاته قد فاضت نعماؤه وكثر ثراؤه، حتى يرسل إليه فيقاسمه كل ما يملك ويردّه جميعاً إلى بيت مال المسلمين.

* * *

ولكن في خلافة "عثمان"، وكان المسلمون قد بلغوا من الجهد أقصاه، بسبب ذلك التقشف والزهد الذي فرضهما عليهما في خلال عهد أميرهم العظيم "عمر بن الخطاب".

كما وجدوا في خليفتهم الجديد "عثمان" من الطيبة والسماح، ما أغراهم بأن ينالوا من طيبات الحياة كل ما يستطيعون.

هنالك انفتحت أبواب الدنيا بغير حساب، ولئن وجدت من أصحاب الرسول من يعتصم دونها بورعه وزهده وتقاه، فقد وجدت من بعض المسلمين - ولا سيما الذين أسلموا بعد الفتح، والذين أسلموا بعد وفاة الرسول - كثيرين، استسلموا لعرض الحياة الدنيا، وفتنتها، وعجزوا عن النهوض إلى مستوى الحياة التي يرسمها الإسلام للمسلم، وخصوصاً في أيامه الأولى.

ولقد صار لكثير منهم ضياع، وتجارة عريضة، وثروات وقصور وبذخ، ولا سيما ذلك النفر من الأمويين، الذين استطاعوا ظروفاً معينة، أن يجعلوا من أنفسهم طبقة متميزة بثرائها ونفوذها.

* * *

جاء "الإمام عليّ" فقرر أن يرد العطاء إلى نهج أبي بكر.. وهو يعلم علم اليقين أن ذلك سيغضب منه بعض الصحابة الكبار الذين هو، ولا ريب في حاجة أكيدة لاستمرار تأييدهم.

لكن ابن عمّ الرسول ﷺ لا يعرف المساومة في الحقّ، فليقف إلى جانب الحقّ، وليكن ما يكون..!

مدة واحدة.

والثانية التي ذهب إليه المنطق، وفقهه في ولاء للحق ونبل، هي أن يعزل من ولاة الخليفة الراحل "عثمان" من يكونون في رأي "علي" غير أهل لهذه الولاية.. ولقد كانوا السبب الأكبر في الفتنة الرهيبة التي ذهبت بحياة الخليفة "عثمان".. لذلك بدأ "الإمام" في الساعات الأولى لخلافته يصدر أوامره بعزل هؤلاء، ووضع مكانهم فريقاً من الأصحاب الذين معهم من الدين، ومن الاستقامة، ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة، وملاذ المسلمين.

عزلَ أولئك، وولّى هؤلاء.. وكان ضمن المعزولين "معاوية" الذي كان يومئذٍ والياً على الشام بأسرها.

وكان "معاوية" قد طاب بالشام مكثه، وكان يعد بطموحه البعيد لكل جانب بعد المرتقب.. ومن ثم أتمّ هناك بناء جيش قوي.

وتألف الناس للأمويين وبلدانها حتى صارت الشام حصنه المغلق، المنيع.

كان أمير المؤمنين "عليّ" يعرف هذا جيداً.. كما كان يعرفه بعض أصحابه الذين ذهبوا إليه يرجونه متوسلين أن يُرجئ عزل ولاة "عثمان"، وخصوصاً معاوية، حتى تهدأ الفتنة، وحتى تستقر الأوضاع المضطربة، وحتى تمكّن "الخليفة" لسلطانه، ثم بعدها يعزلهم كيف شاء.

لكنّ ابن عمّ الرسول ﷺ وتلميذه الصدوق لا يعرف المساومة في الحقّ، فهو يرفض أن يبقى واحد من هؤلاء في مكانه يوماً واحداً.

ويذهب إليه ابن عمه "عبد الله بن عباس" يرجوه أن يرجئ أمر "معاوية" بعض الوقت، وستأتي قريباً فرصة عزله.

لكنّ الإمام الرشيد يرفض ـ برغم كل العواقب ـ أن يحتمل أمام الله مسئولية إبقاء معاوية في مكانه والياً للمسلمين، ولو ساعة واحدة من نهار، قائلاً عبارته المأثورة:

«لا والله، لن يراني الله متخذاً المضلّين عضداً» .!

وأمام ولائه الباهر لمسئولياته، لم يضيع وقته هدراً..

فقد نهض على الفور فأرسل عماله الجدد إلى الأمصار:

عثمان بن حنيف، إلى البصرة

وعمارة بن حسان، إلى الكوفة

وعبد الله بن عباس، إلى اليمن

وقيس بن سعد بن عبادة، إلى مصر..

وسهل بن حنيف، إلى الشام

ولقد تسلم الولاة عملهم في سلام، إلا سهيل بن حنيف، والي الشام الذي عُيّن مكان معاوية، فإنه لم يكد يصل أرض "تبوك" المتاخمة للشام حتى استقبلته كتيبة من جيش

معاوية حالت دون دخوله البلاد

ولما رجع إلى المدينة، حاملاً هذا النبأ إلى الإمام، لم يفاجأ بما سمع فقد كان يتوقع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع

* * *

طوال حياته العظيمة، لم يعوِّد "عليٌّ" قط أن يكون هناك خيار بين مبادئه، ومصالحه وذلك لسبب يسير، هو أنه لم تكن له مصالح قطّ..

كانت حياته رسالة.. وكان عمله وسلوكه تعبيراً وفياً عن هذه الرسالة

وبه الآن المقدرة بمثل من الدهاء والمسايرة أن يغوي "معاوية" حتى يقتلعه من مكانه في هدوء

ولكنه يتساءل دوماً: ما حاجة الحق إلى أن يساوم.. وإذا ساوم الحق فما مزيته على الباطل..؟؟

وها هو ذا يتصرف الآن وفق هذا الإدراك لطبيعة الحق ولقداسته

لقد عرف "والي" الشام لا يراه أهلاً لمكانه، ورفض هذا الوالي تنفيذ أمر خليفته، ورئيس دولته

إذن، فليتحمل مسئولية موقفه وتمرده..

هنالك كتب إليه الإمام:

« ... أمَّا بعد، فقد بلغك الذي كان من مصاب عثمان، واجتماع المسلمين عليَّ ومبايعتهم لي، فادخل في السِّلْم أو ائْذَنْ بحرب »

كان يرجو أن يردع هذه الكلمات "معاوية"، لكن رد معاوية كان عجباً.. فقد قال لرسول الخليفة: « عد إلى حيث جئت، وسأرسل بجوابي مع رسول من عندي »

وفعلاً.. أرسل جوابه مع رجل من بني عبس قطع الطريق إلى المدينة حاملاً رسالة حاكم الشام..

وما كاد "الإمام علي" يفض الرسالة ويقرأها، حتى ملأت الدهشة محياه

لقد كانت الرسالة ورقة طويلة وعريضة، ليس فيها من كلام مسطور سوى هذا السطر الواحد

- من معاوية بن أبي سفيان، إلى علي بن أبي طالب..!!

وارتسمت على شفتي "الخليفة" ابتسامة مريرة، والتفت صوب مبعوث معاوية الذي كان قد نهض وراح يتكلم قائلاً

- أيها الناس، اسمعوا مني وافهموا عني

« إني قد خلفت بالشام خمسين ألفاً، خضبوا لحاهم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان، رافعيه على أطراف الرماح.. قد عاهدوا الله ألا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته

أو تلحقَ أرواحهم بالله » .. !!

هذه إذن : رسالة "معاوية" .

وهذه خطته المرسومة لمناهضة الخليفة الجديد

قميص عثمان .. !!

نحن هنا ، وفي كتبنا المماثلة(١) لا نؤرخ للوقائع ، بل نؤرخ للعظمة

أجل .. للعظمة الإنسانية التي نبحث في حياة من نؤرخ لهم عن سماتها ، وعن بواعث العظمة

من أجل هذا .. لا ندع ـ الآن ـ صخب الحوادث ودوامة الوقائع ، تصرفنا عن تتبع العظمة التي يرسمها لنا "الإمام" .. ومواقفه تجاه الوقائع والأحداث

لقد سارت الأحداث على النحو الذي ساعد معاوية ، في حين زادت الأمور صعوبة وتعقيداً أمام "الإمام"

فالسيدة "عائشة" رضي الله عنها ، وكانت قد خرجت إلى "مكة" معتمرة قبل مقتل "عثمان" قد جزعت لمقتله أشد الجزع

و"الزبير" و"طلحة" من كبار أصحاب رسول الله .. وقد تركهما "الإمام" يغادران المدينة إلى مكة عندما طلبا ذلك .. على الرغم من نصيحة بعض أصحاب "الإمام" له كي يتحفظ بهما إلى جانبه حتى يأمن أمرهما

عائشة أم المؤمنين ، والزبير ، وطلحة ، صاحبا رسول الله ﷺ .. ساروا على رأس حشد كبير من المسلمين إلى "البَصْرة" ، يحرضون المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان

وكان "الإمام عليّ" قد غادر المدينة إلى العراق عندما جاءته رسالة معاوية التي مر بنا ذِكرها ، وقال الإمام :

« إنَّ لأهل الشام وثبةً أُحبُّ أن أكون قريباً منها »

ولكنه ، وهو في طريقه إلى العراق ، جاءته الأنباء بمسيرة عائشة ، وطلحة ، والزبير إلى البصرة .

أيُّ رزءٍ هذا .. وأيُّ بلاء ؟!

ألا يُدرك ثأرَ "عثمان" للدولة نفسها .. ويقتصُّ له في الوقت المناسب والفرصة الملائمة .. ؟

لم يكن لدى "الإمام" ريب في اقتناع "السيدة عائشة" و"طلحة" و"الزبير" ببراءته الكاملة من دم عثمان .. ففيم إذن خروجهم .. ؟

إن نبأ الثائرين يقول .. إنهم خرجوا لينتقموا من قتلة عثمان في البصرة ، وليستعينوا بصالحي البصرة وبقية أهل العراق ممن أسفهم قتل الخليفة ، على أولئك الذين تآمروا على حياته وخاضوا في دمه ..

(١) كتب "محمد والمسيح" و"وجاء أبو بكر" و"بين يدي عمر" و"رجال حول الرسول"

ولكنْ هناك "دولة" على رأسها رجل مسئول لم تكن دقّته، ولا أمانته، ولا ورعه، ولا شدّته في الحق حتى على نفسه.. لم يكن ذلك كله موضع تساؤل، أو اتهام منذ رأى نور الحياة وليداً إلى يومه هذا..

فلا تُترك الدولة وعلى رأسها حاكم من هذا الطراز الرفيع الأمثل، لتسوّي هي، ويسوّي حاكمها مسألة عثمان.. ؟

وإذا وقف فريق من الأمة يطالب بدم عثمان، وفريق آخر يدافع عن نفسه وعن هؤلاء المطالبين، ونشبت المعركة في معركة مسلحة فأين الدولة يومئذٍ.. تجلس في شرفة المتفرج لتتفرج على المذبحة..؟ وما مصير الإسلام كدين..؟ وما مصير المسلمين كأمة..؟

دارت على ذلك كله خواطر "الخليفة" واتخذ قراره سريعاً، فأمر موكبه أن يغادر المدينة وأن يولي زمامه شطر البصرة.. وعندما شارفوا تخومها نزلوا هناك بمكان يسمّى "ذا قار".

* * *

وسرعان ما تحققت ظنونه وصدق حدسه، فإن موكب السيدة عائشة لم يكد يستقر في البصرة حتى وقع صدام مروّع بينه وبين حشود كثيرة من أهل البصرة أبوا أن يسلّموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا في مقتل عثمان..

إنها إذن الحرب الأهلية التي حاذرها الإمام..

وإنه وحده المسئول الأول والأخير عنها..

أليس هو رئيس الدولة..؟ وإذن فإما أن يكون كفئاً لفرض احترام القانون والدولة، وإما أن يَدَع مكانه لآخر من الأكفاء..

وليس هناك يومئذٍ أكفأ من أبي الحسن، وإن تعاظم كفؤه العظماء!!

* * *

لقد اعتاد "الإمام" دائماً أن يتصرف تصرّف "القدوة".. فهو في كل حركاته، وقراراته، وأعماله يلتزم واجبات القدوة..

إن كلماته، وخطواته، تشكل طريقاً عاماً للأجيال المقبلة على طول الزمن وعرضه، ومن ثمّ فإن الشعور بتبعات القدوة أكثر الأشياء ملاءمة لنفسه وإيحاءً له!!

في طفولته، كان يسلك مسلك "القدوة" فلا يلعب لعب الأتراب، ولا يلهو مع الصّبية!!

وفي شبابه، كان يسلك مسلك "القدوة"، فقضاه شباباً طاهراً، وحمّله مسئوليات الرجال مبكراً..

وفي رجولته، وخلافته، أعطى كل عزمه وكل نفسه لما تتطلبه "القدوة" من بأس وصمود!!

وهو الآن وقد واجهته الفتن في موج كالجبال، لن يعنى بمسئوليات "الخليفة" فحسب.. بل سيلقاها قبل ذلك بمسئوليات "القدوة"!

إن مسئوليات "القدوة" التي ستصبح ألفاظه وقراراته طريقاً عاماً، وقانوناً عاماً

للعصور مثله، وأجل قدوة.

ولن نجد في حياة "علي" نكثاً بعصمته وعظاته، ولا انحرافاً عن موقفه في تلك الفتن المظلمة الرهيبة التي واكبت خلافته من أول ساعة فيها إلى آخر لحظة.

هنا نلتقي بمعنىً كبير، ليس من طراز سواه .. "معلمٍ" لم يكن همه النصر على خصومه، ولا تأمين خلافته وحكمه وسلطانه.

إنما كان يعنيه ـ لا غير ـ أن يعطي من حياته ومسلكه صورة مشرقة من الرعيل الأول، سمع دويّ الوحي، وصلى وراء محمد ﷺ !!

أجل صورة مشرقة لمسلم ربّاه القرآن، وقدوة صالحة لكل المسلمين الذين معه مع الجيل القريب والبعيد !!

هذا هو الذي كان يعنيه .. وبعد ذلك، ليكن ما يكون .. نصر، أم هزيمة .. خلافة، أم عزل .. حياة، أم موت.

لا شيء بعد القدوة الصالحة، ترنو له النفس، أو تحوم حوله الرغبة !!

وهكذا نلقى "الخليفة" يتصرف تصرف "القدوة" .. الآن، وكل آن .. اليوم، وهو يواجه جيشاً تقوده "أم المؤمنين" و"الزبير" و"طلحة" .. وغداً وهو يواجه جيوش معاوية .. وبعد غد .. وهو يواجه الخوارج .. !!

* * *

عندما جاءته أنباء الصدام في البصرة، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته، فلما وفدوا عليه، زلزلوا الأفق بصيحاتهم، ولوّحوا بسيوفهم المشرعة، وراحوا يتعجلون "الإمام" ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير.

ولم تخب فطنة الإمام ونور بصيرته، فقد استبان من الحماس المشبوب لأهل الكوفة، أنهم كانوا على وشك أن يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة، ليضموا إلى المقاومة المسلحة التي هبّت هناك في وجه طلحة والزبير.

ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك في الثورة على الخليفة الراحل "عثمان" فإن في أهل الكوفة من اشترك أيضاً، والآن وقد رأوا أنفسهم في مهب العواصف، فقد لاذوا بالبصرة، وتلاقوا على الحمية.

فوضعُ هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة كان عملاً حكيماً وحصيفاً.

* * *

رأى "أمير المؤمنين" حماس أهل الكوفة، فأراد أن يهديهم سواء السبيل، وراح يعلمهم أن لإحقاق الحق أسباباً كثيرة، أخرى غير امتشاق الحسام .. وأنهم إذا فرض عليهم أن يخوضوا قتالاً، فلابدّ من أن يكون مشروعاً وعادلاً .. وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد في التماس الحق عن طريق الإقناع والسلام ..

هنالك دعا ـ القعقاع بن عمرو ـ وأرسله يحمل رسالته إلى أم المؤمنين، وطلحة، والزبير

وفي البصرة بدأ "القعقاع" بمحادثة "أم المؤمنين"، ثم جاء "طلحة" و"الزبير" فعقدوا اجتماعاً طال فيه الحوار.

وينقل "ابن كثير" المؤرخ الكبير، ينقل لنا بعض فقرات هذا الحوار:

القعقاع: يا أم المؤمنين، ما جاء بكِ إلى هذا البلد؟

أم المؤمنين: الإصلاح بين الناس.

القعقاع: وأنتما ـ طلحة والزبير ـ ما جاء بكما؟

طلحة والزبير: الإصلاح بين الناس؟

القعقاع: فأخبروني كيف يكون هذا الإصلاح؟

طلحة والزبير: يكون بالثأر لعثمان، وقتل قاتليه..

القعقاع: لقد قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أصوب منكم بعد قتلهم، لأنكم قتلتم ستمائة، فغضب لهم ستة آلاف.

وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو ـ حرقوص بن زهير ـ فلا تقدرون على إدراكه، لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه.. أفلا تعذرون ـ أمير المؤمنين علياً ـ إذا هو أخّر قتل قتلة ـ عثمان ـ إلى أن يتمكّن منهم؟

إن الكلمة في جميع أقطار الإسلام مختلفة، وإن خلقاً كثيرين من ربيعة ومضر قد تجمّعوا ليشعلوها حرباً ضروساً..!!

أم المؤمنين: وما ترى يا قعقاع؟

القعقاع: أرى أن تُؤثروا العافية، وتُعطوا البيعة، وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له!!

وانتهى الحوار ـ كما يحدثنا ابن كثير ـ باقتناعهم بمنطق القعقاع، واتفاقهم على أن يجيء الإمام عليّ إلى البصرة ليتم لقاء السّلام.

***

عندما رجع "القعقاع" إلى "الخليفة" وأنبأه بما كان، طار فؤاده فرحاً، ولم يكن على وجه الأرض ساعتئذٍ أسعد منه ولا أهنأ.

لقد حُقنت دماء المسلمين قبل أن تُراق.. وليس مثل ذلك شيء يفيء على روح "الإمام" السعادة والغبطة.

وخطبته في أتباعه عن جنده ساعتئذٍ، تمثل لنا أفراح نفسه، وحبور ضميره..

فقد راح يستعرض لهم الجاهلية بخصوماتها العاتية وحروبها الضارية.. حتى جاء الإسلام فألّف بين القلوب، وآخى بين البشر، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

وذكّرهم بتلك الوحدة الباهرة التي جمعت المسلمين من كل مكان بإمرة رسول الله ﷺ..

ثم بإمرة خليفته من بعده "أبي بكر الصديق"، ثم بإمرة أمير المؤمنين "عمر"، ثم بإمرة خليفة المسلمين "عثمان"، وختم حديثه قائلاً، وكأنما كانت عينه إذ ذاك على معاوية:

«... ثم حدث هذا الذي جرى على الأمة .. أقوام طلبوا الدنيا وأرادوا للإسلام أن يرجع القهقرى.. ولكن الله بالغُ أمره. ألا إني مُرتحلٌ غداً، فارتحلوا معي..

ولا يَرتحلْ معي أحدٌ أعان على قتل عثمان ولو بشطر كلمة» !!

إنه الرجلُ القدوة هو الذي يتحدث، وإنه ليتخذ، من الكلمات ومن المواقف ما يزيد الحقَّ نفوذاً، والعدل رسوخاً، والفضيلة ازدهاراً.

* * *

ورحل أمير المؤمنين إلى البصرة بمن معه من صحبه وجنده.. وحطّوا رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لإجراء الصلح..

ولكنْ كانت هناك عيون لا تنام، ومؤامرات لا تغفو.. والله وحده يعلم حقيقة القُوى المجهولة التي حرصت تلك العيون وتحركت تلك المؤامرات، وعرفت اتجاه الرياح!

لندع التاريخ يحدثنا.. فهو يُحدثنا أن قتلة "عثمان" أجمعوا أمرهم على إفساد هذا الصلح، معتمدين أنه سيتم على حساب رؤوسهم ودمائهم. فهل كان ذلك كذلك فحسب..؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها في اشتعال النار هوًى ومصلحة..؟

على أيّة حال، ففي فجر اليوم الذي ضُرب موعداً لتمام المصالحة لم يكد يبزغ حتى كان نفر من قتلة عثمان يقتحمون خيام جيش البصرة الذي تقوده طلحة والزبير، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون.

ونهض الجميع إلى سيوفهم.. ولم يكن هناك مجال لإزالة اللَّبس وتبديد المؤامرة، ووقف نفسه، فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خدعة..

وهكذا التقى الجيشان في موقعة "الجمل"، على الرغم من كل ما حاول الإمام أن يُبعد به الإسلام !!

* * *

مضى القتال حامياً عنيداً..

ومع كل رأس يطيح، أو معصم يبتر، أو يدٍ تقطع، بل مع كل قطرة دم تسيل، كان قلب "الإمام" يتفجع ويذوب..

لقد كان يَكْرَهُ الكرَّ والفرَّ في صراعه مع المشركين

أما اليوم، فالقاتل والمقتول أبناء دين واحد، وهو الخليفة المسئول عن هذه الأمّة بكل دمائها وأرواحها، فمن يُجيره من هذا الموقف؟ من يجيره؟

لكنه حتى وهذه الأهوال كلها تحيط به، لا يفقد شرف البطولة وعظمة النفس!

فلِمَ تقتتل هذه الألوف من المسلمين؟

أليس بعضهم يقاتل من أجل "عليّ"، وبعضهم الآخر مع "طلحة والزبير"؟

إذن ليبرز طلحة والزبير وعليٌّ معاً.. حتى يسوّوا مع أنفسهم وحدهم الحساب على أيّ صورة، فيقف جريان سيل الدماء الغاشمة.

هنالك دفع جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له، ونادى

- إليّ يا طلحة .. إليّ يا زبير !!

وخرجا إليه ..

وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان

وصاح في "طلحة" صيحة احتشد فيها كل ما ورثه آباؤه من شرف ونخوة

«يا طلحة أخبأتَ عرسك في البيت وجئت بعرس رسول الله تقاتل بها» ؟!!

وزأر الأسد زئيراً هزّ أرجاء الأفق، وسقط المطر فجأة، وكأنما هي دموع السماء هزّتها روعة الكلمات وأساها

ثم التفت صوب الزبير:

«.. وأنت يا زُبير ..

أتذكر يوم كنت عندما رأيتني مقبلاً على رسول الله ﷺ فضحكت لي

فسألك الرسول: أتحبه يا زبير؟

فقلت: نعم ..

فقال لك: أما إنك تقاتله وأنت له ظالم»

كانت الكلمات تحتشد في فمه ثم تتفرج عنها شفتاه في مثل ألق الشمس وعنفوان القدر

وصاح "الزبير":

«أجلْ .. ولقد ذكّرتني بما كنت قد نسيت».

وألقى سيفه إلى الأرض، وراح يحملق بين الصفوف ودموعه تبلّ الأرض أمامه

وعاد "عليّ" إلى صفوف جنده.

وغادر "طلحة" أرض القتال .. وغادرها "الزبير"

غادراها بعد أن سمعا من "الإمام" ما سمعا.

وبعد أن علما أن "عمّار بن ياسر" يقاتل في جبهة "الإمام "عليّ"، وتذكّرا ما كان الرسول قد قاله ذات يوم لعمار

«تقتُلك الفئةُ الباغية» !!

بيد أن الأصابع المريبة لم تدعهما يذهبان في سلام، فأمّا الزبير فقد تربصت به في الطريق عصابة آثمةٌ قتلته .. !!

وأمّا طلحة، فما كاد مروان بن الحكم - الأموي - يعلم بعزمه على الانسحاب من القتال حتى تربّص به ورماه بسهم أنهى حياته!

* * *

ثم لم يبقَ للجيش بالبصرة من قادته أحد.

لقد ذهب عنه طلحة، والزبير بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم

عندئذ لم يجد الراغبون في استمرار القتال سوى "أم المؤمنين" في هودجها، فوق ظهر الجمل الذي كانت منطقته مشرفة على القتال.

ورأى الإمام أن خصومه قد يتخذون من الجمل كمية أحاطوا بها.

وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء منوطان بنهاية هذا الجمل.

وأشير عليه، أو أشار هو على نفسه أن يرمي الجمل بسهم يجهز عليه.. وأوصى بعض أصحابه وجنده، أن يكونوا على أهبة الوثب مستطيع من الجمل، حتى إذا عقر وسقط، سارعوا هم إلى هودج السيدة عائشة فأحاطوه بأرواحهم، وتلقوه قبل أن يسقط على الأرض فيصيبها سوء.

رجل، وبطل، ونبيل.. فماذا ننتظر منه غير هذا الصنيع؟!

وتمت الخطة بنجاح.

وانتهت المعركة، ووقف القتال.

ودعا الإمام "محمد بن أبي بكر"، فأمره أن يصحب أخته أم المؤمنين عائشة إلى دار أعدت لاستقبالها ريثما تتهيأ لها وسائل العودة إلى مكة فالمدينة في أمن، وتكريم، وسلام.

ثم وقف "الإمام" بنفسه وسط جنده وأصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد:

«.. لا تتبعوا مولياً

ولا تجهزوا على جريح..

ولا تنهبوا مالاً..

ومن ألقى سلاحه فهو آمن

ومن أغلق بابه فهو آمن» ..

يقول المؤرخون (1):

«فكان أتباع الإمام يمرّون بالذهب والفضة، فلا يعرض لهم أحد»

لقد بدا أمر الإمام في حربه ووصيته هذه هكذا، كان شأن بعضهم على الأقل مما جعلهم يسألون الإمام:

ـ كيف حلّ لنا قتالهم، ولم يحلّ لنا سبيهم وأموالهم؟

فأجابهم الإمام

«ليس على الموحّد من المؤمنين سبيٌ.. ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه»

كان "أبو حنيفة" يعلم أن نهاية هذا سؤال صدّه بعض مؤيديه من ضعاف الورع.. ولكن ليبعض عنه ليس من يجمعون إذ كان إشارة الحق يستظل قصده ونبله!!

* * *

وانتهت هذه الجولة بانتصار أمير المؤمنين

ولم يكن الانتصار العسكري يمثّل سوى الخط الأدنى في هذا الانتصار الكبير.. أما

---

(1) الأخبار الطوال، لأبي حنيفة الدينوري.

الحظ الأوفى فيه، فكان انتصار حقه، ومبادئه.

فانسحاب طلحة والزبير من القتال في أوج احتدامه، جاء اعترافاً منهما بأن "علياً" مع الحق.

وندم "أم المؤمنين" فيما بعد على اشتراكها نفسها في هذا الموقف يشكل اعترافاً بأن "علياً" على الحق.

وهذا هو النصر الأهمّ الذي ينشرح له صدر الإمام.

إن كل ما يرجوه ويطمح إليه، أن يقف بجانب الحق، وأن يفهم الناس عنه ذلك، ليكونوا له عوناً على نصرة الحقّ. وإن كل ما يرجوه ويطمح إليه، أن يظلّ أميناً على واجبات "القدوة" والترفع، وأن يفهم الناس عنه ذلك أيضاً، لتشعر بهذه القدوة في شكل حي بينهم. ولقد واجه الموجة الأولى من موجات الفتنة العاتية بحماس البطل، وأناة الحكيم، وورع القدوة.

لننظر هذا المشهد الأخير من مشاهد موقعة الجمل.

لقد كان يجلس في داره بعد انفضاض المعركة ومعه أصحابه، حين دخل عليه أحد أتباعه يقول:

عمرو بن جرموز قاتل "الزبير" بالباب يستأذن في الدخول.. وأذن "الإمام" بدخوله..

ودخل "القاتل" مزهواً مغروراً، يظن أن الخليفة سيهش له، ويستقبله استقبال الأبطال.

لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ في وجهه:

- أهذا الذي تحمله سيف الزبير..؟

قال وقد هزمت غروره صرخة الإمام:

- نعم هو.. سلبتهُ منه بعد أن قتلتهُ.

فأخذه منه "الإمام" بيمينه.. ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه في خشوع إلى فمه.. ثم قبّله في حب وحزن، وقال ودموعه تسيل على وجنتيه:

«سيف طالما - والله - فرّجَ به صاحبهُ الكربَ عن رسول الله» !!

ثم صوّب إلى القاتل نظرات مسهبة وقال له:

«أما أنت، فأبشر يا قاتل ابن صفيّة بالنار»

وخرج "عمرو بن جرموز" يتعثر في جريه، وخيبة أمله، ويقول:

«عجيب أمركم.. نقتل أعداءكم، وتبشروننا بالنار !!».

تلك عظمة ربيب الوحي، وسابق المسلمين.. تلك عظمة الرجل، والبطل.. تلك عظمة الخليفة، والقدوة، وإنها لعظمة لن تكفّ عن توكيد ذاتها، ما دام صاحبها حيّاً يُمارس العظائم، ويصوغ المكرُمات.

وفي مشهدٍ آخر لنرى من أمرها عجباً.

تذكرون تلك الرسالة وذلك الرسول اللذين أرسلهما معاوية إلى أمير المؤمنين.. الرسالة ورقة بيضاء فيها سطر واحد مكتوب، وهو:

« من معاوية بن أبي سفيان، إلى عليّ بن أبي طالب » هكذا « عليّ بن أبي طالب » لا غير.. دون أيّ ذكر لِلقبه.. فلا خليفة المسلمين، ولا أمير المؤمنين!!

بل إن وَضْعَ اسمه واسم أمير المؤمنين في مقابلة كهذه يومئ إلى التنابُز القبلي والجاهلي في هذا الخطاب..

فكأنه يقول له:

أنا ابن أبي سفيان.. وأنت ابن أبي طالب وسننظر أيّ الابنين أعلى مقاماً، وأشد ساعداً..!!

غفر الله لمعاوية.. فما كان أغناه عن هذا الذي لجَّ فيه، وتهالك عليه..

لقد رفع في الشام ـ كما قال رسوله لعليّ ـ قميص عثمان، حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضبي لحاهم بدموع أعينهم، رافعيه على أطراف الرماح، قد عاهدوا الله لا يُشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلة عثمان، أو تلحق أرواحهم بالله!!

فِيمَ كل هذا..؟ ولِمَهْ..؟

حقاً إن قتل الخليفة الشهيد "عثمان" كان أبشع جريمة ارتكبت في تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم.

ولا تتمثل الجريمة في اغتيال الخليفة الشرعي فحسب، وإن يكن ذلك كافياً لدمغها بالجريمة وبالبشاعة.. إنما تتمثل أكثر وأكثر في الطريقة التي تمَّ بها الاغتيال..

تلك جريمة لا مكان للحديث عنها الآن.. وقد وجدتُ مكانها في كتابي عن "عثمان"، أما هنا.. فحسبنا أن نسأل: فيمَ هذا الصُّراخ كله في وجه "عليّ" ـ أين دم عثمان..؟

إنا لا نلوم، بل نحيّي كل صوت صادق نزيه، ارتفع مطالباً بدم عثمان!

وإن الطريقة التي اعتُدي بها على حياة الخليفة، وعلى كرامة الدولة في شخصه، لتجعل الحجر الأصمّ ينطق ويصيح: اقتلوا قتلة عثمان..

ولكن: هل كان نهج "معاوية" هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بقتلة الخليفة..؟

أكان طريق القصاص أن يمتنع أولاً عن البيعة للخليفة الجديد، الذي اختاره المهاجرون والأنصار في المدينة، ثم دخل المسلمون في بيعته أفواجاً من كل الأمصار والأقطار..؟

أكان طريق الثأر لعثمان أن يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة في تلك الظروف المزلزلة التي لا تتطلب شيئاً كما تتطلب رأبَ الصَّدع وجمع الكلمة..؟

أكان طريق الثأر لعثمان، أن يطوف بقميصه بلاد الشام كلها، غارساً في قلوب الناس أن "علياً" هو الذي أعان على قتل "عثمان" بالأمس.. وهو الذي يؤوي قاتليه اليوم..؟

أكانت آية ولائه وحبه لعثمان، أن يجعل من قميصه المضمَّخ بدمه ـ راية ـ يبعث تحتها كل

غرائز الجاهلية، ويدير بحمقها أبشع حرب شهدتها ربوع الإسلام وبنو المسلمين ؟

مرة أخرى، يغفر الله لمعاوية .. فما كان أغناه عن هذا المرتقى الوعر، والهُوّة الفاغرة !!

* * *

إن جميع المسلمين الراشدين وقتها بعد مقتل الخليفة يطالبون بأخذ ثأره، والاقتصاص له

إن ذلك كان يمثّل أيضاً احترام الدولة والمقاصد لحرمتها وهيبتها. و"الإمام عليّ" نفسه كان طالب بدم "عثمان" ولكنه وقد صار على رأس الدولة - فإنه لم يعد مجرد مطالب بالدم .. بل صار السلطة التي عليها أن تنزل القصاص.

ولمّا كان المشتركون في قتل عثمان والمحرضون عليه، ألوفاً، وليسوا عشرات، أو آحاداً .. ولمّا كانت قبائلهم المسلحة لا ترى في إثمه وذنبه .. فضلاً عن المضاعفات الحادثة الخطيرة التي طرأت على الدولة ممثلة في معركة الجمل، وفي تمرُّد معاوية وأهل الشام - فإنه لم يكن ثمة فرصة لإنزال هذا القصاص إلا بعد عودة الهدوء وتثبيت الحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الجو المضطرب وتلك الفوضى.

و"عبد الله بن عباس" ابن عم الإمام عليّ، وأحد قواده في حروبه كلها، طالب أيضاً بدم عثمان، بل قال في ذلك كلمة تغني عن كل مقال في ذلك المجال

قال رضي الله عنه:

«لو لم يطالب الناس بدم عثمان لأمطرت السماء عليهم حجارة» !!

فلم إذن كل هذا الاتهام لأمير المؤمنين علي ؟ ولم كل هذا التحريض على عصيانه وقتاله .. ؟

هاهو ذا - معاوية - بالشام لا يضيع لحظة من وقته في التجهيز لمعركة كبرى .. هاهو ذا يثير الجموع ضد الإمام، فأين الإمام الآن ؟

انظروا .. هاهو ذا قد رحل عن البصرة، وسار بأصحابه حتى نزل "الكوفة".

لم تشغله المفاجآت الجديدة ولا الأخطار المائلة عن قضيته، فراح يمارسها بطريقته المرضية

بدأ ببيت المال فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال، وقسّمها على مستحقيها

ويقترح عليه بعض مرافقيه أن يتأنّى في الأمر، وأن يستبقي من المال ما سيحتاج إليه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات، فيرفض.

ثم يمضي في عدله حتى إذا فرغ بيت المال، يأمر الإمام أن تمسح أرضه وتغسل بالماء، حتى إذا تم ذلك، قام فصلى فوق أرضه المغسولة ركعتين!

كانت هذه الصلاة في بيت المال بعد مسح أرضه بالماء، رمزاً لمعنى جليل

كان بداية لعهد جديد ستسيطر فيه الآخرة على الدنيا، ويبسط الورع والتقى نفوذهما على الدولة، وعلى المجتمع، وعلى الأنفس والأفئدة جميعاً !!

ثم دُعي ليسكن قصر الإمارة .. قصر كبير يقف أمامه في شموخ وفتنة .. فلا يكاد يبصره

حتى يُوَلّي مدبراً وهو يقول:

«قصر الخبال هذا، لا أسكنه أبداً» !!

ويُلح عليه أهل الكوفة أن ينزل به، فهو أرحب، وأنسب، فيصرُّ على رفضه ويقول: «لا حاجة لي فيه؛ إن عمر بن الخطاب كان يكرهه».

ويمشي في أسواق الكوفة، وهو خليفة المسلمين، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقي بالشيخ المسنّ الكهل، فيحمل عنه حاجته، ويخرج أصحابه ممن يرون، فيمرون معه بأمير المؤمنين، ولكنه لا يدعهم يتمّون حديثهم، بل يتلو عليهم قول الله تعالى:

﴿تلكَ الدّارُ الآخرةُ نجعلُها للذين لا يُريدون عُلواً في الأرض ولا فساداً والعاقبةُ للمتّقين﴾

ويشتري حاجات أهله وبيته، ويحملها بيديه، فإذا اقترب منه بعض مرافقيه ليحملوها عنه أبى وقال وهو يبتسم لهم:

«أبو العيال أحقُّ بحمله» !!

* * *

ويرتدي "جلبابه" جلباباً اشتراه من السوق بثلاثة دراهم، ويركب حماراً، وقد تدلّت على جانبيه ساقاه، وكأنه واحد من فقراء البادية، ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جواداً يليق بأمير المؤمنين، فيجيبهم قائلاً:

«دعوني أمنْ هذه الدنيا» !!

* * *

أجل، ذلك كان طريقه أن يقهر كل إغراء الدنيا ومباذخ السلطان، وأن يعيش كما كان رسوله ومعلمه يعيش، في تواضع النبوّة، لا في بهرجة الملك، وفي نظر الآخرة، لا في الرُّكون إلى الدنيا.

ولقد أحسن وصفه "عمر بن عبد العزيز" رضي الله عنه حين قال:

«أزهدُ الناس في الدنيا عليُّ بن أبي طالب»

كما وصفه "الحسن البصري" رضي الله عنه حين قال:

«رَحِمَ الله علياً كان ربانيّ هذه الأمّة»

* * *

ربانيّ هذه الأمة، مقيم هناك بالكوفة، يعيش عيشة البسطاء الودعاء، ويعبد ربه عبادة القديسين الأولياء، ويحمل مسئوليات دينه وأمّته في مثل عزم الأنبياء.

ولقد دخلت جميع الأقطار المسلمة في بيعته، عدا الشام، فقد كانت بها دسائس هائلة من مؤامرات تتحرك ضده، وتتهيأ لفرض القتال عليه.. !!

معاوية بالشام، يحضّ الناس على سبّ الإمام وشتمه

والإمام بالكوفة، ينهى في حسم وقوة عن شتم معاوية، ويقول لأصحابه

«قولوا: اللهم احقنْ دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم» !!

معاوية في الشام، بين قصوره الباذخة، والمطاعم الرافهة، والأموال التي تأتي بغير حساب، وتُنفق في خدمة طموحه بغير حساب

وعليٌّ بالكوفة، يلبس قميصاً بثلاثة دراهم، ويأكل الطعام الخشن اليابس، ويوزع أموال المسلمين على المسلمين في عدل لا يعرف الميل، وفي ورع لا يعرف الهوادة !!

* * *

وأخذت وفود المسلمين تغدو وتروح بين الإمام في العراق، ومعاوية في الشام

منهم مَنْ يبحث عن الحقّ ليهتدي إليه ويقف إلى جانبه .

ومنهم مَنْ يبحث عن المغنَم الأكثر، والفرصة الأحسن.

كانت الشام تسخو بالأماني والوعود، كما كانت تسخو بالأموال والعطايا

وكان العراق يهتف بكلمة الحق وحده

﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾

وبعد هذا، لا أمانيَّ ولا وعود، ولا رشوة، ولا مقامرة بأموال الأمة ـ كما يفعل خصومه ـ مهما تكن المخاطر والعواقب

وحين اقترب من الإمام بعض أصحابه، يرجونه أن يتألّف ببعض المال هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بأعطياته الغامرة، صاح بهم الإمام

« أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور » ؟

إيه يا تلميذ محمد !!

إيه يا بن عم الرسول !!

من سواك في هذا المقام يستطيع أن يأخذ موقفك هذا، ويقول كلماتك هذه ؟!

وبعث ـ معاوية ـ وسط الوفود الزائرة من يحطّهم تحت قميص عثمان، فيتّهم الإمام بالتحريض على قتله وإيواء قتلته.

ووقف الإمام في العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص القضية كلها في كلمات ذهب في الصدق والوضوح وعظمة المقال:

« أما بعد، فإن الله بعث نبيه ﷺ، فأنقذ به من الضلالة، وحفظ به من الهلكة، وجمع به بعد الفرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدّى ما عليه

ثم استخلف الناس أبا بكر

ثم استخلف أبو بكر عمر

وقد أحسنا السيرة، وعدلا في الأمة .

وقد وجدْنا عليهما أن تولّيا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحقّ بالأمر، ولكنا غفرنا ذلك لهما ..

ثم ولي أمر الناس عثمان، فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فسار إليه ناس فقتلوه، ثم

جاءني الناس وأنا معتزل أمرهم، فقالوا لي بايع، فأبيتُ عليهم

ثم عادوا فقالوا لي: بايع، فإن الأمة لا تَرْضَى إلا بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس، فبايعتُهم.

فَلَمْ يَرُعْنِي إلا شِقاق رجلين قد بايعاني ـ يقصد طلحة والزبير

وخلافُ معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين، ولا سَلَفَ صدقٍ في الإسلام

طليق ابن طليق.. دخلا في الإسلام كارِهَيْن مُكْرَهَيْن

ـ يعني معاوية وأبا سفيان

إني أدعوكم إلى كتاب الله، وسنَّة نبيِّكم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم».. !!

* * *

هذه هي القضية، يعرضها الإمام في وضوح.

فلقد أقلق الإمام فعلاً من بدء الخليفة الراحل عثمان، بسبب ثقته المفرطة في بعض أقربائه من بني أمية الذين لم يُحسنوا قط الارتفاع إلى مستوى مسئوليتهم كولاة للخليفة ورُعاة للأمّة

ولطالما نصحه الإمام وحذّره العواقب.

ولمّا وقعت الواقعة كان أكثر الناس همّاً وكرباً.

وراح يهتف ويصيح

« اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.

اللهم إني لم أقتل، ولم أُمالئْ

اللهم العَنْ قتلة عثمان »

* * *

لكنَّ أهل الشام ـ ومعظمهم يومئذٍ من المسلمين الجُدد الذين لم يروا عليًّا ولا يعرفونه ـ راحت على أفئدتهم دعوى معاوية.. ولم يجدوا هناك من ينبئهم بحقائق الأمور

لم يجدوا من يقول لهم إن قتل عثمان جريمة لا تصدر عن دين "علي" ولا عن خُلُقه

لم يجدوا من يقول لهم إن "عليًّا" كان "مُحدَّد الإقامة" في المدينة، وإن الثوار جاءوا من بلاد شتى ونائية.. فمتى جمعهم في بلادهم؟ ومتى أخرجهم منها للثورة؟ ومتى حرَّضهم على القتل..؟

لم يجدوا من يقول لهم إن "عليًّا" لم يكن يملك أيَّ قوة يستطيع بها مواجهة عشرة آلاف ثائر، رابطوا في المدينة وحاصروها

وبرغم ذلك، فقد استعلن عليهم بمنطقه الأخَّاذ، وحجته المقنعة، حتى استجابوا

لنصحه بمغادرة المدينة والرجوع إلى بلادهم. وقد غادروا المدينة فعلاً عائدين إلى أمصارهم، لولا أن صادفوا في الطريق رسولاً يحمل كتاباً زوّره "مروان بن الحكم" على الخليفة، ومهره بخاتمه من غير أن يعلم.. وكان الكتاب أمراً بقتل زعماء الثوار جميعاً وكان "مروان" يومئذ بمثابة رئيس ديوان الخلافة، فعاد الثوار إلى المدينة أشد غيظاً وغضباً!

أجل.. لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك. ولا من يقول لهم إنه عندما أحكم الثوار الحصار حول دار "عثمان" ومنعوا عنه الماء ذهب "علي" بنفسه يحمل قربة ماء على كاهله، ولما حاولوا منعه صرخ فيهم قائلاً:

« والله إن الكفار من فارس والروم لا يفعلون فعلكم..
إنهم ليأسرون أعداءهم، فيطعمونهم، ويسقونهم » !!

وناوشهم وناوشوه، حتى سقطت عمامته على الأرض، وهو لا يبالي إلا بأن يبلغ بالماء "عثمان" ولقد فعل وأوصل قربة الماء إليه..

لم يجد أهل الشام من يقول لهم: إن "الإمام" دعا ولديه وقرة عينيه ـ الحسن والحسين ـ وأعطى كلاً منهما سيفه ـ وأمرهما أن يقفا حول سرير "الخليفة عثمان" وهو يرى الحصار الرهيب حول الدار، ويدرك أنه يقدّم ولديه لموت لا محالة !!

لم يجدوا من يقول لهم إنه عندما عاد "الحسن والحسين" بخبر مقتل الخليفة فعل بهما ما لم يفعل بهما طوال حياته، إذ صفعهما صفعاً شديداً، وصاح بهما: كيف قتل "عثمان" وهما لا يزالان يحملان رأسيهما على أكتافهما

« إذ لم تستطيعا أن تمنعا عنه، فكان عليكما أن تموتا دونه » !!

لم يجد أهل الشام من يقول لهم: إن "علياً" كان يرى الأخطاء الجسيمة وكان يؤلمه ويفزعه تسامح الخليفة تجاهها، ولكنه لم يكن يرى الاغتيال للخليفة علاجاً ـ أيّاً كان هذا الخليفة ـ فما بالكم والخليفة المقتول أخوه في الله، ورفيقه في الغزوات والمشاهد، ومجهز جيش العسرة بخالص ماله، وصهره ـ عديله ـ إذ كان كل منهما ـ علي وعثمان ـ زوجاً لبعض بنات رسول الله ﷺ .. !!

لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك، ولا شيئاً من ذلك.

لم يجدوا إلا "قميص عثمان"، وكان بعض المسلمين قد حصل عليه، وحمله إلى معاوية بالشام، حيث رفعه عالياً، وحشد تحته خمسين ألفاً يلوّحون بسيوفهم ورماحهم، ويصيحون: يا لثارات عثمان !!

* * *

ترى لو لم يتولَّ "علي" منصب الخلافة، أكان معاوية سيحمل دم عثمان ؟

كلا .. إنما كان سيتجه بأطماعه إلى الخليفة الآخر، إلا إذا كان ممن يرضى عنهم

معاوية ويطمع في طيّهم تحت جناحيه .

لقد كان معاوية من الذكاء بحيث أدرك مصيره مع "عليّ" وقد أصبح خليفة للمسلمين

من أجل هذا قرر أن يخوض معركة المصير .. مصيره هو .. لا مصير حق ضائع ، ولا مصير عدالة مغموطة ، ولا مصير دم مطلول ..!

ومرة ثالثة ، يغفر الله لمعاوية ، فما كان ينبغي له أن يستخف بمصائر الإسلام وبمقاديره إلى هذا المدى ، وإلى تلك الغاية

* * *

قلت لكم إن مؤرخ العظمة الإنسانية في نماذجها الباهرة

وها أنتم أولاء تشهدون عظمة "عليّ" في غمرة ذلك الصراع

رأيتموها من قبل أن أقول لكم : انظروها ..!

ولم يكن نضاله النبيل والمستميت ليدرأ الخطر عن حياته ، كان يراها حياته .. ولا عن مصير ، كان يراه مصيره

فلنتابع رؤية بعض مشاهد عظمته ، إن لم نستطع متابعتها جميعاً

* * *

لقد كان يعرف حقيقة دوافع معاوية وحوافزه .. ولقد وصف هتافه بدم عثمان وصفاً بليغاً وجامعاً فقال :

« كلمةُ حقٍّ ، أُريدَ بها باطل »

ومع علمه بتلك الدوافع المريبة ، لم يألُ جهداً في تجنيب المسلمين ويلات الحرب الأهلية ، فرضي ، وهو يعلم حقيقة دوافع معاوية ، أن يفاوضه ويجري معه حواراً طويلاً علّه يتوب ويرجع

أرسل إليه ينبئه أن دم عثمان لن يذهب هدراً ، وسيتم القصاص الذي تفرضه الشريعة في وقته المعلوم

ذلك لأن مقتل الخليفة ، لم يتمحض في مقتل اثنين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، حتى اغتالوه خفية وهربوا .. بل وقع الاعتداء على حياته وسط ثورة مسلحة اشترك فيها عشرة آلاف ظلوا محتلين المدينة ومحاصريها أربعة أشهر ، لم يستطع معاوية خلالها أن يرسل من جيشه الكبير المنظم فرقة أو فرقتين لزجر الثوار ، ونجدة الخليفة

وهؤلاء الآلاف العشرة من الثوار لا يزالون يحملون السلاح

فكيف يقدر الإمام أن يحاسب هؤلاء جميعاً ليحاكمهم .. ومتى ؟ في تلك الظروف التي مكّنت للفوضى وللدماء شرّ تمكين .

فهلا أعطاه معاوية الفرصة ، فبايعه ووقف إلى جانبه بجيشه ليتمكن الخليفة من انتزاع القتلة المتخفين من بين هذه الآلاف العشرة الذين كانوا يحمونهم ويمنعونهم !؟

لو فعل معاوية ذلك .. ثم قصّر الإمام أو غمض عن القتلة عينيه ، لكان ساعتئذٍ نفسه

ولاّه المسلمون.

لكنّ معاوية، لأمر في نفسه، راح يرفض كل محاولة للتفاهم والصلح، معلقاً ذلك على تسليم قتلة "عثمان" وهو يعلم بأنه بعد الواقعة المشهورة عندما توسط بعض أهل الخير عند عليّ، لتسليم قتلة عثمان، وبينما هم يتفاوضون معه إذا عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المكان الذي كان الحديث يجري فيه بين الإمام والوسطاء.

وإذا هذه الآلاف العشرة تزلزل الأفق بصائحها: كلنا قتلة عثمان) !!

عشرة آلاف ـ سيوفهم بأيديهم، وحناجرهم تدمدم (كلنا قتلة عثمان)

ثم يقول معاوية للإمام: لا صلح إلا بعد أن تسلّمني قتلة عثمان !!

ولماذا يتسلّم هو قتلة عثمان؟

أهو وليُّ الدم؟ كلا، فأبناء عثمان أحقُّ منه بهذه الولاية؟

وحتى لو كان وليّ الدم، أظن نفسه لا يزال يعيش في النظام القبلي، يقتل الفرد، فتأخذ قبيلته الثأر أو الدية .. ؟

أو لا يعلم ـ أمير الشام ـ أنه يعيش في دولة عظمى، وهي وحدها المسئولة عن فرض كلمة القانون .. ؟

الواضح أن "معاوية" بصيحته ذاك لم يكن يريد سوى إحراج الإمام وتأليب الثوار عليه.

لم يكفه منهم أنهم قتلة عثمان.. فحاول أن يجعل منهم قتلة "علي" أيضاً !!

* * *

لكنّ الرجل العظيم "علياً" سظل يتصرف وفق فضائله.. وها هو ذا ينشد السلام مرة أخرى، بل مرات ومرات ..

أرسل إلى معاوية "جرير بن عبد الله" بكتاب منه

وسافر "جرير" إلى الشام، واجتمع بمعاوية، وبعض أصحابه حوله، فسأله معاوية: ما وراءك؟

فقال جرير:

« لقد اجتمع لعليّ أهل الحرمين: مكة والمدينة، وأهل المصرَيْن ـ البصرة والكوفة ـ وأهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل مصر، وأهل عمان، وأهل البحرين واليمامة

ولم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها ـ الشام ـ لو سال عليها سيل من أوديته لأغرقها.

وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك »

ودفع إليه كتاب الإمام، فلنظروا ماذا قال في كتابه الرجل الذي ينشد السلام بكل طاقته وعزمه:

بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد ، فإن بيعتي بالمدينة ، لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ . وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسمّوه إماماً ، كان ذلك لله رضى .

فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن ، أو رغبة ، ردّوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتّباعه غيرَ سبيل المؤمنين ...

وإن طلحة والزبير بايَعاني ، ثم نقضا بيْعتي ، وكان نقضُهما كرِدَّتهما ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله .

فادخلْ فيما دخل فيه المسلمون ، فإنّ أحبَّ الأمور إليّ فيك العافية !!

إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك .

وقد أكثرت في قتلة عثمان فادخُلْ فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكِم القوم إليّ أحمِلْك وإياهم على كتاب الله .

أما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن !!

ولعمري ، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنّي أبرأ الناس من دم عثمان .

واعلم أنك من الطُّلقاء(1) الذين لا يبوّءون الخلافة ، ولا تُعرض فيهم الشورى .

وقد أرسلتُ إليك وإلى من قِبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعْ .. ولا قوة إلا بالله » !!

* * *

هذا هو كتاب الإمام ، كما ينقله لنا نصر بن مزاحم في كتابه « وقعة صفّين » .

فهل ثمة منطق أعدل ، وأمثل من هذا المنطق ؟..

لننظر قوله لمعاوية : « إنّ أحبَّ الأمور إليّ فيك العافية » .

ولننظر قوله له : « وأما قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون - أي البيعة للإمام - ثم حاكم القوم إليّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله » .. !

إن معاوية برغم تمرُّده ، ونكوصه عن البيعة ، وتأليبه الناس على الخليفة ، ودعوتهم لحربه .

معاوية ، برغم هذا كله ، يعرض عليه الإمام أن يكون « المدعي العام » في قضية عثمان . !!

أوراء ذلك نَصَفَةٌ ومَعْدلة .. ؟

أوَ بعد ذلك تنازُل وتسامح .. ؟

لكنّ « معاوية » كان قد بيّت الأمر مع معاوية ، فكان ردّه على هذه الرسالة إمعاناً في

---

(1) الطلقاء هم كفار قريش الذين خلّى رسول الله سبيلهم يوم فتح مكة قائلاً لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم أسلموا يومها ، وبعدها .

اتهام الخليفة بقتل عثمان، وبدلاً في جمع الحشود المسلحة من أهل الشام تحت قميص عثمان.!

كان بالمدينة جماعة من المهاجرين والأنصار آثروا الحياد، وكان على رأسهم نفر من أئمة الصحابة، أمثال عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة.

وعندما همّ الإمام بالخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل التي أشرنا إليها دعاهم للخروج معه، فاعتذروا. وكانت حجتهم أن الله أمرهم بقتال المشركين، أما الفتنة اليوم فتدور بين مسلم ومسلم، وهم فيها لا يشتركون.

وآلم هذا الموقف بعض أصحاب "علي"، فطلبوا منه أن يحملهم على الخروج معه بالقوة، لكنه أبى، واحترم حيادهم وقال:

"دعوهم وما اختاروا لأنفسهم"

لم يكن امتناع هؤلاء الصفوة عن غمطٍ لحق "علي" أو نقصه، وإنما كان للسبب الذي قدمنا.

قال سعد بن أبي وقاص:

« أعطني سيفاً إن ضربتُ به المشرك قطع، وإن ضربتُ به المسلم رجع، وأنا أقاتل معك ».

وقال عبد الله بن عمر:

« إني عاهدت ربي ألا أقاتل من يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ».

وقال أسامة بن زيد:

« والله يا أمير المؤمنين، لو كنتَ في شدق الأسد، لأحببتُ أن أكون معك فيه، ولكني لا أحب أن ألقى بسيفي مسلماً أبداً ».

احترم الخليفة حياد إخوانه هؤلاء، ولم يحُل بينهم وبين ما اختاروه لأنفسهم من منسك ومقام.

لكنّ "معاوية" في الشام، لم يكفه ما أعدّ هناك من قوة، فطمع في أن يكسب هؤلاء إلى صفه، وحسب أنهم قعدوا عن نصرة "الإمام" استرابة منهم في حقه أو في سلامة قصده.

فأرسل إليهم رسله يغريهم بالوقوف بجانبه، ويموه لهم أنه أحق بالخلافة من علي!

أرسل إلى سعد، وإلى عبد الله بن عمر، وإلى محمد بن مسلمة.

وسرعان ما تلقى "معاوية" منهم لطمات جعلته يندم على ما فعل.

أما "عبد الله بن عمر" فقد أرسل إليه يقول:

"أما بعد، فإن الرأي الذي أطمعك فيّ، هو الذي صيرك إلى ما صيرك إليه.

إني ما تخلفت عن علي لنظرٍ مني عليه، فلعمري ما أنت كعليّ في الإيمان والهجرة، ومكانه من رسول الله ﷺ ونكايته بالمشركين.

ولكنْ حدث أمر لم يكن لي فيه من رسول الله عهد، ففزعت فيه إلى الحيدة، فكففت

عما نصنت» !

وأما "سعد بن أبي وقاص" فقد ردّ عليه قائلاً :

« وإن هذا أمرٌ قد كرهْتُ أوّله ، وكرهْتُ آخره . وأما طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما ـ والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت ، ومن كتب لأفاتك عيبٌ ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول له : أنت مني بمنزلة هرون من موسى ، غير أنه لا نبيّ بعدي »

وأما "محمد بن مسلمة" فقد كتب إلى معاوية يقول :

« .. وأما أنت ، فلعمري ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتّبعت إلا الهوى . فإن تنصُرْ عثمان ميتاً فقد خذلتَه حيّاً

ولئن كنتُ أبصرتُ في الأمر خلاف ما تريد ، فما خرجت بذلك من نعمة ، ولا صرتُ إلى شدة .

وإني لأدرَى بالصواب منك » !!

* * *

كان من الخير لمعاوية أن يصغي إلى أصوات هؤلاء الثلاثة الكبار من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولكنه أخفى رسائلهم هذه ومضى في الطريق الذي اختار ، والذي رفع فوق نصبته قميص عثمان !

* * *

أدرك "الإمام علي" أن معاوية مزهو بجيشه ، وبقوة أهل الشام المنتفين حوله ، كما أنه لا يقدِّر قوة الإمام قدرها

ورأى الإمام أنه إذا أنزل بمعاوية بعض بأسه ، وأراه بعض قوّته ، فقد يحمله ذلك على الطاعة ..

ومن ثمّ رأى أن يزحف إلى الشام ، ويصبّح معاوية بصيحة عابرة ، لكنها زاجرة .. ثم يستأنف الإمام بعدها دعوته إلى الصلح وإلى السلام

* * *

غادر الإمام معسكر "النُخيلة" بالكوفة ، وغادر معاوية الشام ، والتقى الجمعان في "صِفِّين"

وتفتحت الساعات الأولى لهذا اللقاء بمشهد باهر من مشاهد "ابن أبي طالب" مشاهد عظمة نفسه ونُبل أخلاقه

فعندما بلغ معاوية وجيشه "صِفِّين" شرقيّ الفرات ، بادروا إلى الطريق الوحيد الذي يفضي إلى نهر الفرات فاحتلوه ، وأقاموا عنده عشرة آلاف حارس ، ليمنعوا جيش "الإمام" من الوصول إلى الماء !!!

وأرسل الإمام إلى معاوية ، يذكّره بشرف الحرب ، ويدعوه أن يترك طريق الماء مفتوحاً أمام الظامئين .. لكن معاوية ومن أشاروا عليه رفضوا .

وقضى أصحاب "الإمام" يوماً وليلة بلا ماء ، وجفّت حلوقهم ، وأشرف الضعاف منهم على الموت

وفي الصباح تحركت قوة من جيش أمير المؤمنين، يقودها الأشعث بن قيس، والأشتر، فكشفت قوات معاوية كشفًا من طريق الماء، وأجلته عنه، وأصبح مفتوحًا أمام جيش الإمام، ومحظورًا تمامًا أمام جيش معاوية ..!

ولْنُصْغِ لهذا الحوار الذي دار بين معاوية وعمرو بن العاص بعد طرد قواتهما عن طريق الماء.

عمرو: ما ظنك بالقوم اليوم ـ يا معاوية ـ إن منعوك الماء كما منعتهم بالأمس ؟!

معاوية: دع عنك ما كان ـ يا عمرو ـ ولكن ما ظنك بعليٍّ صانعًا ؟

عمرو: ما أظن "عليًّا" يستحلُّ منك ما استحللت منه، فإنه لم يأت لظمئك، بل جاء لغير ذلك.

* * *

حَسْبُ أمير المؤمنين ذلك الحوار يجري بين خصومه

حسبُه ذلك الرأي في رجولته، وعظمته ورفعة مسلكه من أشد متهميه بدم عثمان !

ولقد كان أول أمر أصدره "بطلنا عليّ" فور احتلال قواته طريق الماء ألا يُذاد عنه ذاهب، ولا يُمنع عنه شارب.. وهكذا، لم يذق جيش معاوية حرقة الظمأ لحظة واحدة، لأن "عليًّا" بعظمته وبرجولته كان هناك ..!

* * *

بعد هذه الزجرة الرادعة، حاول الإمام أن يلوي زمام "معاوية" عن الحرب، ويهيئ له فرصة كريمة للمصالحة، فندب لهذه المهمة أربعة من رجاله توجهوا إلى معسكر معاوية، وتحدثوا إليه قائلين له:

« إن صاحبنا لمن قد عرفت وعرف المسلمون فضله، ولا نظنه يخفى عليك

إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليٍّ عليه السلام، ولن يُفضلوا بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية، ولا تخالف عليًّا.. فإننا والله ما رأينا رجلًا قط أعمل بالتقوى.. ولا أزهدَ في الدنيا.. ولا أجمعَ لخصال الخير كلها منه ».

أفلا يلين قلب معاوية بعد هذا كله..؟

انظروا ماذا كان جوابه:

« إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرّق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتنا

وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، ونحن لا نردُّ عليه ذلك، فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة »

عاد الوفد إلى الإمام يحملون إليه كلمات معاوية، فلم يأخذ الإمام في شيء ثم تلا قول الله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ • وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

ولما كانوا يومئذٍ في شهر المحرم ـ وهو من الأشهر الحرم التي لا يحل فيها القتال ـ فقد انتظر أمير المؤمنين حتى هلَّ شهر صفر ، فاتخذ قراره بخوض القتال

وكان بعض المقاتلين معه يريد أن يدهَم جيش معاوية بهوات كثيرة تأخذهم على حين غفلة ، فأبى البطل ، والرجل .

وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر جماعة من أصحابه أن يقفوا على معسكر معاوية ، وينادوا بأن القتال غداً .

ودعا "مرثد بن الحرث" وأمره أن يعلو أقرب ربوة من معسكر معاوية ، ويسمعهم هذه الكلمات

« يا أهل الشام .

إنَّ أمير المؤمنين يقول لكم :

إني قد استدمتكم واستأنيت بكم لتراجعوا الحقَّ وتنيبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق

وإني قد نبذتُ إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » !!

أبى أن يأخذهم على غرة ، وأن يوجه إليهم ضربة خاطفة ، كانت ستوفر كثيراً من الوقت والجهد في كسب المعركة

أبى ذلك ، لأنه كان يرجو ويطمع في السلام إلى آخر لحظة ، فهو لهذا يرجو ويطمع إذ يدهم بمثال أن يتوبوا إلى الرشد ، ويرجعوا عن المعصية

وأباه أيضاً ، لأن أخلاقه ترفض هذا النوع من النصر والنصر مهما يكن سريعاً وحاسماً

وسوف نراه يمارس الصراع كله مع معاوية على هذا المستوى من الخُلق الرفيع

لا يتخلّى عن مثله ولا عن دينه مهما تكن العواقب ..

ولم تكن جبهة خصومه مجتمعة ، بأقدر منه ذكاء وفطنة لكنه ـ رضي الله عنه ـ رفض دائماً أنْ يضع الذكاء مكان الإخلاص والورع ولقد أخبر ـ وكان صادقاً ـ بأنه إذا انتصر عليه معاوية فإنه لن ينتصر بمقدرته ، ولا بشجاعته ولا بذكائه وإنما سينتصر بورع الإمام نفسه .

أجَلْ فإن ترفعه عن الوسائل التي يرفضها دينه وخلقه ، هيأ لمعاوية الكثير من أسباب انتصاره

* * *

دنهم "الإمام" بالقتال إذن ، على النحو الذي سمعنا ، وعاد يُعبّئ قواته ، وأصدر إليها توجيهاته في القتال .

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكُمْ ، فإنكم بحمد الله على حُجّة

وتركُكُم إياهم حتى يبدءوكم حُجّة أخرى لكم عليهم

فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم ، فلا تقتلوا مدبِراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل

فإذا وصلتم إلى رحالهم، فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً..

ولا تقربوا نساءً بأذى، وإن شتمكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ".

* * *

والتقى الجيشان في وقعة صفين ودارت معارك مثيرة وطالت واستطالت حتى غصت الأرض بالدماء، وغطتها جثث الضحايا

وخرج الإمام يكرر النصح.. وفي سبيل أن يحسم الأمر، ويصون الدم، نهض فوق جواده من صفوف مقاتليه ونادى، تخرج إليه فما خرج.. فلما فرغ من هذا كله لم كتب إليه كتاباً بعث به إليه

« يا معاوية.

لم تقتل الناس بيني وبينك؟

ابرز إلي، فأينا قتل صاحبه تولى الأمر من بعده»

واستشار معاوية صديقه "عمرو" فقال له:

- لقد أنصفك الرجل فابرز إليه

فأغضبته مشورة "عمرو" ووجد فيها إحدى مكائده للتخلص منه، لأنه يعلم أن علياً ما بارز أحداً إلا صرعه!

ولكي يبعد "عمرو" هذا الخطر المرعب عن معاوية، قال له:

- إني خارج إلى "علي" غداً، فبارزه.

وفي اليوم التالي، وقد تأهب كلا الجيشين لاستئناف القتال، وقف "عمرو" ونادى "الإمام علياً" لمبارزته.. وخرج الإمام إليه، وتبارزا وهما فوق فرسيهما.. وبينما الإمام يهوي بسيفه على "عمرو" ليجندله به، قذف "عمرو" بنفسه على الأرض، وتمدد عليها في استسلام، وفزع، وصرعه.. فولى عنه "الإمام" نظرة الظافر الكريم، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً.

* * *

ولو حفظ "عمرو" للإمام هذا الصنيع الجميل، وتخلى عن سعيه البالغ بالإمارة، لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى، لكنه لم يفعل.. وحين تهيأ القتال حتى أشرف النصر مؤكداً لجيش الإمام.. وصار واضحاً أنه لم يبق سوى ساعة أو بعض ساعة، ثم ينتهي إلى الأبد أمر معاوية ومن معه.. عندئذ، ومعاوية يفزع من الندم، ويحدق في وجه "عمرو" يستجديه الرأي والحيلة، فتح "ابن العاص" جعبته ليخرج منها حديداً

قال لمعاوية:

« لقد أعددت بحيلتي أمراً ادخرته لهذا اليوم

ترفع المصاحف . وندعو إلى تحكيم القرآن .

فإن قبلوا التحكيم احتلفوا . وإن ردوه احتلفوا أيضاً » .

حين فإن التحكيم بهذه الطريقة وفي تلك الظروف ، لا يثير خلافاً في صفوف المهزومين ، لأنه ـ على الأقل ـ يعطيهم فرصة لجمع صفوفهم وبناء قوتهم من جديد . أما بين المنتصرين الذين لا يفصل بينهم وبين النصر سوى ساعة زمن ، فإن يثير خلافاً كبيراً .

وهذا هو الذي حدث تماماً

فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف ، وتسير بها صوب معسكر العراق ، حتى نشب الخلاف

وقد أدرك الإمام من فوره أنها خدعة ، فحذر قومه منها . لكن ـ الأشعث بن قيس ـ وهو من الأمراء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله

قال الإمام

« أنا أحق من يجيب إلى كتاب الله ، ولكني أعرف بهم منكم

إنها كلمة حق يراد بها باطل ... وإني ما قاتلتهم إلا ليدينوا بحكم القرآن ، فكيف أرفض اليوم حكمه ؟

إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم يريدون حكم القرآن

إنما هي الخديعة ، والوهن والمكيدة .

فأعيروني سواعدكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه » !!

لكن المعارضة بلغت أوجها في سرعة غريبة ، وتولى "الأشعث" كبرها

كان "الأشتر" بكتيبته وقواته قد بات على مقربة من معسكر الشام المعادي وكان يستعد للصيحة الأخيرة عليه ، ولم يكن يفصل بينه وبينهم سوى "عدوة فرس" ـ على حد تعبيره فطلب الأشعث ومن معه من الإمام أن يرسل لاستدعائه ، وأرسل الإمام يستدعيه ، فجن جنون "الأشتر" وقال للرسول :

« أرجع وبينهم أنها سحابة ، وسيهي كل شيء ، فكيف أعود » ؟

ولم يكد يسمع أنصار التحكيم رد "الأشتر" هذا حتى هددوا بعمل مفزع ضد الإمام نفسه إذا لم يعد "الأشتر" على الفور !!

ماذا دعى هؤلاء هكذا ؟

وماذا دهى "الأشعث" بخاصة ؟

من أنهكته الحرب . ؟

هل كان يعمل لحساب نفسه ، أم لحساب غيره . وفق أغراض بعيدة عن القضية التي يقاتل دونها الإمام . ؟

هل كان ينفس على "الأشتر" ويضمر له في نفسه الحسد ، فعز عليه أن تكون على يده الضربة الأخيرة ، وصيحة الفتح ، وبشير النصر ؟

أو تراه كان يرى أن الحرب لن تنتهي بهذه السرعة المظنونة ، وأن الصلح المعروض فرصة لا ينبغي أن تفلت .. ؟

بعض ذلك جائز .. وكل ذلك جائز .. وعلى أية حال فقد فرضوا رأيهم بقبول التحكيم ، وعاد الأشتر تاركاً أبواب معسكر الشام التي كان يقف عندها متهيأ لإنزال الضربة الأخيرة بمن وراءها .. عاد يتضرّم غيظاً وثورة ..!

* * *

كانت وثيقة التحكيم ، وعلن معاوية أن ممثله في التحكيم هو "عمرو بن العاص" !!

فمن يمثل جبهة الإمام .. ؟

هنا برز "الأشعث" وجماعة أخرى يقترحون "أبا موسى الأشعري" وعارض الإمام ، مقترحاً "عبد الله بن عباس" .

لم يكن دين أبي موسى موضع شك لدى "أمير المؤمنين علي" ، برغم ما كان يأخذه علي موقفه من ذلك النزاع بينه وبين معاوية .. إنما كان الموقف في تقدير الإمام يتطلب مندوبا يكون في دهائه وسعة حيلته ، وتفطنه ، كفء لما يلقاه من عمرو بن العاص .

و "ابن عباس" كما يعرفه الناس جميعاً ، هو ذلك الكفء المطلوب .

إنه مع ورعه وتقاه أبعد منالاً ، وأبعد غوراً من كل ما لدى "ابن العاص" من حيله ودهاء .

لكن الأشعث وجماعته أصرّوا على "أبي موسى الأشعري" (١)

وحتى يتجنب "الإمام" وقوع الفتنة في صفوفه .. قبل رأيهم اليوم في أمر المندوب ، كما قبله أمس في أمر التحكيم .. !!

* * *

وسارت الأمور سيرها المعروف .. فقد اتفق أبو موسى وعمرو بعد حوار طويل بينهما على أن يخلعا معاً ، الإمام ، ومعاوية ، ويعود الأمر شورى بين المسلمين يختارون هم إمامهم وخليفتهم .

ودعا "عمرو" أبا موسى لكي يبدأ الحديث ..

وبدأ "أبو موسى" وخلع علياً ، ومعاوية .

ثم تلاه "عمرو" فقال : « إن أبا موسى خلع صاحبه كما رأيتم ، وإني أخلعه كما خلعه .. وأثبت معاوية ، فهو أمير المؤمنين والمطالب بدم عثمان فبايعوه » !

وثار "أبو موسى" لهذه الخدعة المكشوفة ، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة ، ليعود القتال ، من جديد !!

ولكن ضد من سيعود .. ؟

* * *

---

(١) راجع للمؤلف "أبو موسى الأشعري" في كتاب "رجال حول الرسول"

إن عظمة هذا الرجل ـ عليّ بن أبي طالب ـ معصمة فريدة، بكلّ ما كان يُحركه من عمده ولعٌ شديد بأن يذهب عن نجاته ـ يوم يذهب ـ شهيد مثله، ومبادئه، وإيمانه، شهيد استقامة المسلك، واستقامة القصد، واستقامة الضمير.

لقد واتته الفرصة لدحض خدعة التحكيم قبل اجتماع الحكمين.

وذلك حين راح الأشعث بن قيس يمر على جماعات الجيش المشوّه عبارة بالله عليهم وثيقة التحكيم، فإذا جماعة منهم ينفذ بصياح الكبير قائلة «لقد أخطأنا بقبولنا التحكيم وها نحن نرجع عن الخطأ، لا حكم إلا لله».

ولو تقدّم الإمام فتبنّى ـ مجرد تبنّي ـ هذه المعارضة الجديدة للتحكيم، لأمكن تغيير الاتجاه، ولكنه رفض عندما بلغه النبأ.

[.. أوَ بعدَ أن أعطيت العهد والميثاق .. ؟!]

لك الله أبا الحسن !!

أتراك قد كتب عليك أن تقاتل بشرف، في معركة كان الشرف عنها غائباً، وفيها غريباً .. ؟

رفض أن ينقض ميثاقاً أعطاه، والغدر يحدق به من كل جانب، وجاءت خاتمة التحكيم كما أراد لها وكما تنبأ بها عمرو بن العاص.

لقد مزّق الخلاف أصحاب الإمام، وفي سرعة غريبة أيضاً تحولوا إلى شيع يقاتل بعضهم بعضاً .. بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهه بالأم عصيان !!

* * *

وقف الإمام وسط البقية من أصحابه الذين لم يفسدوا عن الولاء للحقّ.

لم تكن لديه وقت للعتاب، ولا للاجترار الندم، إنما كان الوقت كله ـ إن كان هناك وقت ـ والفرصة كلها ـ إن كان ثمة فرصة ـ لتعبئة أصحابه والسير إلى الشام.

مع مَنْ تمضي إلى الشام يا أمير المؤمنين .. ؟

ولماذا .. ؟

مع المؤمنين بالحقّ وإن قلّوا .. الإمام المجاهد الذي بدأه في سبيل الحقّ ذاته !

إنه صارم في تحمل مسئولياته .. وإنه حين خاض القتال الذي فرضه عليه الجانب الآخر لم يخضه ليستمتع في حرب، أو لتدعيم مكانه في الخلافة، إنما خاضه لأن مسئولياته فرضت عليه أن يخوضه .. ولما فرض أصحابه عليه قبول التحكيم، كفّ عن القتال، وقبل التحكيم وتحوّل إلى خدعة وضلالة، فإن مسئولياته تفرض عليه القتال من جديد.

صحيح أن الموقف تغيّر تغيّراً شاملاً، ففريق كبير من أصحابه انقلب عليه وحمل سيف ضده بحجة أنه قبل التحكيم .. ؟ التحكيم الذي فرضوه هم عليه فرضاً !!

وفريق آخر، اعتزل وتقاعس عن القتال.

لكنّ ذلك كله وأضعافه معه لا ينهى من عزم الإمام، ذلك لأنه يعتقد أنه يقاتل في

معركة حق .

وما كانت معركة الحق قط معارك كثرة وأعداد .

إن عليه أن يمضي مع مسئوليته ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا

وهكذا عبأ قواته ، وبدأ مسيرته إلى الشام ، بيد أنه لم يكد يتحرك متقدماً حتى جاءته الأنباء مثيرة مزعجة

أنباء الخوارج الذين طفقوا ينتشرون في البلاد والقرى يقتلون كل منْ يخالفهم الرأي

إنهم يلقون الواحد من المسلمين فيسألونه

- ألم يكن قبول التحكيم كفراً .. ؟

- ألم يأثم "عليّ" بقبوله التحكيم .. ؟

- ألست في حلّ من طاعته وبيعته حتى يقر بإثمه ويتوب منه .. ؟

فإذا أجاب المسئول بـ "نعم" تركوه ينجو .. وإن أجاب بـ "لا" سفكوا دمه وأزهقوا حياته .. !!

جاءت أخبارهم إلى الإمام .. وأرسل الناس من كل مكان يستغيثون به .. ويتوسلون إليه ألا يذهب إلى الشام قبل أن يؤمنهم من هذا الوباء المحنق الذي استشرى فجأة بغير حساب .. !!

أيعرف الناس في التاريخ محنة مرّت ببطل ، مثل هذه المحنة

لكنّ أبا حسن لها .. ولن يتخلّى عن واجبه وإن بدلت الأرض غير الأرض ، وإن تحولت رمال الصحراء إلى جيوش تقتله ، وإن تحولت بحور الأرض إلى لهب ونار .. !

لتذهب عنه كل الألقاب والأوصاف .. الخليفة .. والإمام .. الداهية .. والمنتصر .. وليبْق له ومعه لقب واحد ووصف واحد هو .. المؤمن .. !!

إنّ المحنة في نفسه قضية إيمان .. فمن خسر إيمانه خسر حياته ، وإن عاش فيها ألف عام .. ومنْ ربح إيمانه ربح حياته ، وإن عاش فيها بضعة أعوام .. !

وهو اليوم .. ليس حوله سوى .. المهاترات والأخطار .. غير نادم على خطوة خطاها .. لقد اقترب منه ابنه "الحسن" رضي الله عنه ، يقول له في نبرة عتاب

[يا أبي

* أشرتُ عليك حين حُوصر عثمان أن تخرج من المدينة .

فإن قتل قُتل وأنت غائب عنه .

* وأشرتُ عليك حين قتل عثمان وراح الناس إليك وغدوا ، وسألوك أن تقوم بالأمر ألا تقبله حتى تأتيك البيعة من جميع الآفاق

* وأشرتُ عليك حين بلغك خروج الزبير وطلحة بأم المؤمنين عائشة إلى البصرة أن ترجع إلى المدينة وتقيم في بيتك ..

فلم تقبل رأيي في شيء من ذلك]

* * *

كان الحسن يقف من أجل أبيه فرح يرجع مع الماضي يحسب

لكنّ " أباه " كان مطمئن النفس، قرير العين بما كان وبما سيكون، لأنه لم يكن في رحلة حياته كلها عبد هوى، ولا طالب مجد، بل كان جندياً في معركة الولاء للحقّ

هنالك أجاب ابنه " الحسن " قائلاً

* " أمّا خروجي حين حُوصر عثمان، فما كان ذلك ممكناً، فقد كان الناس أحاطوا بي، كما أحاطوا بعثمان

* وأما انتظاري طاعة جميع الناس من جميع الآفاق، فإن البيعة لا تكون إلا لمن حضر الحرمين من المهاجرين والأنصار، فإذا رضوا وبايعوا حقّ على جميع المسلمين الرضا والبيعة ..

* وأما رجوعي إلى بيتي والقعود فيه، فإنني لو فعلت لكان ذلك غدراً بالأمّة وخيانة لها .. ».

هذه هي مواقفه .. وصحته مستمرة ..

وهذه هي بواعثه .. نظيفة طاهرة ..

لا يأسَى على وقفته مع حقّ، قصّرت عن إدراكه الأسباب ..

ولا يجزع من قدر، سبقَ به الكتاب .. !!

* * *

وخلال حياته بصفة عامة .

ثم خلال هذا الصراع وهذه المحن، بصفة خاصة، حرص الحرص دوماً على تحرّي الصواب، والسير تحت راية الحقّ

أجل . الصواب كان هو دينه، وكان طريقه .

الصواب جميعه .. صواب الفكر، وصواب الشعور، وصواب الإرادة، وصواب العمل

وحتى إذا أخطأ اجتهاده في أمر ما، فإن خطأه هذا لا يجيء انعكاساً لرغبة في الاستعلاء على الحقّ أو تحدّيه ولا لتقصير منه في نشدان الصواب وتحرّيه

إنما يكون بسبب مبالغته في الولاء للصواب، وللحقّ وبسبب مغالبته الظروف المعقدة المضطربة التي كتب عليه أن يستردّ من خلالها حقيقة الإسلام، ووحدة المسلمين

■ ■ ■

الرّاحِلُ والمُقِيمُ

[أتركُهم لدنياهم وأختار الله ، ورسوله]

"عليّ"

ضاعت الفُرص من نفسها ، وما ضاعت من عَليّ .

ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التي كان الإمام يريد أن يعيدها إلى جذورها ، ويمضي بها على صراطها الأول القويم

ضاعت من مقادير الإسلام التي كادت تصبح على موعد مع خليفة آخر من طراز "عمر" في صرامته ، وعدله ، في شفافيته وورعه ، في ترفعه ، وتواضعه وزهده

والخليفة المتقشف الذي تُجبَى إليه الأموالُ حلالاً طيبة من أقطار الأرض ، ثم هو يلبس قميصاً بثلاثة دراهم !

الحصيفُ الذي تبهر الدنيا حكمته ، وهي تخرج من وراء شفتيه نضرة باهرة !!

الفقيه العالم الذي تتفجر الحكمة من نفسه ، وعقله ، ويجري الحق على لسانه وقلبه !!

العابد ، الورعُ ، التقيُّ ، الذي تفوّق على إغراء الدنيا ، وأطماع البشر !!

تلميذُ "الرسول" الأوَّلُ ، والأمثل !!

ربيب الوحي ، وسابق المسلمين !!

كل هذا في طريقه الآن إلى الرحيل .. ليحتلَّ مكانه مُلْك عضوض ؟ يقوم بوابه وعرشه في الشام ، حيث ترتفع رايات الزهو والأنانية ..

وحيث تدق طبول المجد الفارغ والطموح المتألِّه !

* * *

الآن تقترب الأمور من نهايتها .

ويقف "البطل" بين فتنتَيْن عارمتَيْن

أولاهما : في الشام تصيح : (يا لثارات عثمان) !!

وثانيهما : في العراق تصيح : (لا حُكْمَ إلا لله) !!

ولئن كانت الأولى أعتى وأوسع ، فإن الثانية أمَضُّ وأوجع ذلك أن دعاتها ومشعليها الذين كانوا بالأمس القريب ، أتباعه وجنده وهم الذين أصرُّوا أو أصرَّ أكثرهم على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه ويدعوهم إلى رفضه

وهم الذين أصرُّوا أو أصرَّ أكثرهم على اختيار "أبي موسى الأشعري" حين كان هو يدعوهم في إلحاح إلى اختيار "عبد الله بن عباس" لأنه الند القادر على مواجهة "عمرو" ودَحض مناوراته .

هم أولئك بالأمس.. هؤلاء الذين يحملون السلاح، ثم يحكمون به وفق هواهم، وهم الذين يبثون الذعر والرعب والفزع في البلاد الآمنين، وهم ـ أخيراً ـ الذين يضطرونه ليحمل السلاح في وجوههم..!

لقد حاول أن يصابرهم، ويحتملهم بعطفه على ترجعهم ويكفّ نفسه والضلال كان قد أحكما الخناق على عقولهم وألبابهم.

ولقد فقد الإمام كل أمل في هداهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله بن خباب وزوجه، والطريقة التي قتلوهما بها.

إن "عبد الله" ابن صحابي جليل.. كان إسلامه، وكانت حياته روعة وبهاء.. هو ـ خبّاب بن الأرتّ (١).

ولقد لقيه "الخوارج" هو وزوجته في طريق سفرهما، فاستوقفوهما، وسألوا "عبد الله" أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول الله، فقال لهم:

[سمعت أبي يقول، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي]

وسألوه عن "الإمام عليّ" فقال فيه خيراً، فاقتادوه وزوجه.

والآن، لننتظر هذه المفارقة المضحكة المفجعة

بينما هم ماضون بهما، سقطت ثمرة من نخلة، فتلقفها أحد الخوارج بفمه، وقبل أن يمضغها صاح به زميل له: كيف تستحلها بغير إذن من صاحب النخلة، وقبل أن تدفع ثمنها؟ فألقاها من فمه وراح يندم ويستغفر..!

وبعد خطوات في سيرهما، تقدموا من "عبد الله بن خباب" فذبحوه.

ثم التفتوا بوحشيتهم صوب زوجته، فصاحت من الفزع: إني حُبلى، ألا تتقون الله فيّ"

ولكنهم ذبحوها هي الأخرى، وبقروا بطنها عن جنينها..؟

أولئك من الذين كانوا يقاتلون مع الإمام بالأمس.. قد علم الله ما في قلوبهم، فطهّره من صُحبتهم تطهيراً..!

لم يكد مقتل "عبد الله بن خبّاب" يبلغ مسامع الإمام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو ترك هؤلاء الهمل المتوحشون يعيثون في الأرض الفساد، فلوى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان، حيث لقي الخوارج في معركة فاصلة أباد فيها جمعهم، وشتّت شملهم، وطوّح رؤوس قادتهم وزعمائهم

* * *

أفما آن له أن يستريح..؟

ألا ينفض يديه من ذلك الصراع، ويخرج من تلك المتاعب إلى حيث يعبد الله ربه مسلماً، وينفع المسلمين بعلمه العظيم؟.

(١) راجع "خبّاب بن الأرت" في "رجال حول الرسول"

ربما كان ذلك بعض أهدافه .. ولكنه مسئول عن وسائله .. ؟ منْ يحملها سواه .. إنها فوق كاهله . لن يضعها عنه سوى الموت . فأين هو! ومتى يجيء ؟

إنه يحسّ أن قد آن أوانه ..

فإن أهل الكوفة الذين دعاهم إلى السير معه صوب الشام لملاقاة معاوية قد تقاعسوا وراحوا، يتسللون واحداً بعد الآخر من معسكرهم بالنخيلة .. حتى تفقّد الإمام ذات صباح فلم يجد حوله منهم سوى ألف لا يزيدون !

انتهى دوره إذن .. فعلام البقاء ؟

لقد كانت حياته في دورها الأخير هذا وقفاً على قضية كبرى .. أن يُعيد للإسلام حقيقته ، وللمسلمين وحدتهم ، وللدولة الإسلامية تماسكها ، وشرعيتها ، واستقامتها

أجل .. كانت القضية التي دار بها حياته هي أن تَردَّ الإسلام إلى حقيقته .. وأن ترد المسلمين إلى الإسلام !

ولم يترك سلمًا ، ولا حربًا ، يبلغ بها غايته النبيلة إلا توسّل بهما في عدالة ، وشرف

ولقد كانت قضيته واضحة وضوح المحجّة ، مُشرقة الجبين .. ناصعة الحجة .. طاهرة الضمير

وإن عظمتها لتتجلّى عندما جاء ذلك اليوم الذي وقف فيه "معاوية" يأخذ البيعة بحدّ السيف لابنه "يزيد"

يزيد ..؟؟

نعوذ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق .. ؟؟

إنه لو كان أحدها واحداً من صلحاء بني أمية وفضلائهم ، ما جاز أن يحمل المسلمين عليه بالرهبة والقوة ، فكيف وهي .. "يزيد" .. يزيد .. وكفى ؟!

لقد كشف هذا العمل من معاوية عن أحد وجوه القضية الجسيمة التي كان الإمام يناضل دونها

هذا الوجه المتمثّل في ألا تصير خلافة المسلمين إلى طلقاء بني أمية أبداً .. وأن تظل في الصالحين الأوّلين من المهاجرين والأنصار.

أجل .. يومئذٍ تكشّف هذا الوجه من القضية الكبرى التي نذر الإمام لها حياته ، فألقى ضوءه على وجوه القضية كلها .

ولم يبق من المسلمين أحد ، إلا بحّ صوته ترحّماً على الإمام "عليّ"

ووقف واحد من كبار الصحابة يومها يقول :

"ما أجدني آسي على شيء فاتني في حياتي ، إلا على أني لم أقاتل مع "عليّ" الفئة الباغية ".

أجل .. قال ذلك والدموع تبلل لحيته ، الصحابيّ الجليل ، ابن الخطاب "عبد الله بن عمر" !!

* * *

وأحسّ المسلمون في كل مكان، وفي العراق بخاصة أنهم ضالعون في الإثم، شركاء في الوزر، يوم تخلوا عن "البطل" وتركوه وحده في الفضاء المُوحِش بين الوحوش والذئاب !!

وراحوا يبكون، ويُولوِلُون..

لقد أحسُّوا فجأة بالفراغ الهائل الذي خلّفه لهم غياب أبيهم الحنون والطيب، العادل، الرحيم.

وراحوا يترحّمون عليه من كل أفئدتهم الصادعة الضارعة.

أقول يترحمون.

أجَلْ، فقد سبق أن أقول لكم: إنه مات.. قُتل غيلة.. استشهد البطل والعبقرية والإمام وهو يقترب من باب مسجد الكوفة، وقيل بل وهو يصلّي، أو يتهيأ للصلاة بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها لصلاة الفجر، وينديهم بصوته الحبيب:

[الصلاة، أيها الناس، الصلاة، يرحمكُم الله]

اقترب منه في ظلمة الظلام واحد من الخوارج اسمه "عبد الرحمن بن ملجم" كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من الإمام بالعراق، ومن "معاوية" بالشام، ومن "عمرو بن العاص" بمصر.

كان "الإمام" بلا حَرس.

فكان اغتياله عملاً من أيسر الأعمال.

لم تكن الجريمة تتطلب أيّ جهدٍ، أو قوةٍ، أو بطولة.

كانت تتطلب لا غير ضميراً مَيْتاً، وفكراً ضالاً، وقلباً أعمى، وإرادة ممسوخة !!

فلمّا وجدت هذه جميعاً، في صورة آدمي، وسُلّحت بسيف مسموم، وقتل بها الأشقى هذا الهُدَى وهذا الجلال.. تمّ كل شيء في لحظات !!

وحققت الأقدار للبطل أمنيته الأخيرة.

فقبل استشهاده بأيام، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه، ووقف أحد أصحابه يتلوه عليهم بعد صلاة الجمعة:

[أما والله وددتُ أن الله أخرجني من بين ظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم.

ولوددتُ أني لم أرَكُم ولم أعرفكم

فقد، والله ملأتُم صدري غيظاً، وجرّعتموني الأمرّين أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان.

حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكنْ لا علمَ له بالحرب. لله أبوهم! أهل كان فيهم رجل أشدّ لها مراساً، وأطول مقاساة منّي ؟؟

لقد نهضتُ فيها وما بلغت العشرين

وَمَأَنَذَا ليوم قد عَدَوْتُ الستين ..
ولكن ، لا رَأْيَ لمن لا يُطاع !!].
أَجَلْ: يا أمير المؤمنين ، لا رأي لمن لا يطاع ..
ولقد سارع القدر إلى رجائك ، فأخرجك الله من بين أظهرهم ، ومضيت إلى رحمته تقيًا .. نقيًا .. بارًا ..
ولقد حملت إلى رفيق الأعلى ، زورقك الأمين الوديع الذي طالما هرب به أمواج الفتن حتى اجتزتها جميعاً في سلام ..
زورقك الذي لُذْتَ به طول حياتك ، وكنت تشدّ به السدَّ وأوثق رحماً ، كما ذكرت الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبينك ذات يوم بعيد
يوم سألك ـ يا أمير المؤمنين ـ قائلاً
[يا علي
كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة ، ورغبوا في الدنيا ، وأكلوا التراث أكلاً لمًّا وأحبّوا المال حبًّا جمًّا واتخذوا دين الله دغلاً ومال الله دُولاً]؟
فأجبته ـ يا أمير المؤمنين ـ قائلا
[إذن أتركهم وما اختاروا ، وأذرهم ومن اختاروا وأختارُ الله ، ورسوله ، والدار الآخرة .. وأصبر على ذلك حتى ألحق بكم] !
لقد اخترت ـ يا أبا الحسن ـ فأحسنت الاختيار ،
واصطبرت ـ يا أبا الحسن ـ فأحسنت الاصطبار
ولحقت بمن تحب من المرسلين ، والشهداء ، والأبرار !!

* * *

نعى الإمام ربه ـ أخيراً ـ مصاباً بضربة سيف مسموم ، كما لقيه من قبل عمر الفاروق ، مصاباً بضربة خنجر مسموم!!
وأبى عظمة الإمام إلا أن يكون آخر مشهد في حياته جديراً بها أكثر ما يكون الجدارة ، ودالاً على عظمته أصدق ما تكون الدلالة !
فإنه لم يكد يتلقى ضربة الغدر في رأسه ، حتى حُمل إلى داره
وإذ هو في لحظات الكارثة هذه ، يأمر حامليه والحافين حوله أن يذهبوا إلى المسجد ، ليدركوا صلاة الفجر قبل أن يؤذن بموت ... هذه الصلاة التي كان يتهيأ لها حين حاق الاغتيال ، لأنه بينه وبين يومه أو إمامها ... وحين يرغبون من صلاتهم ... ويعودون إليه ... كما يعود في نفس الوقت ، بعض الرجال ممسكين بالقاتل عبد الرحمن بن ملجم ـ يفتح الإمام عينيه ، فتقعان عليه ، فيهز رأسه في أسى حين يعرفه ويقول
أهو أنت ؟ لطالما أحسنتُ إليك !!

ويلقي البطل العظيم على وجوه بنيه وصحابته نظرة، فيراها تتفجّر غيظاً، وتضطرم نقمة، ويحسّ برد الموت يسري في أوصاله، ويكاد يرى المصير الذي سيلحق بـ "ابن ملجم" يكاد يرى الانتقام المروّع الذي سيثأر له به أولاده، فيتقدم هو في إصرار ليحمي قاتله من أيّ مجاوزة أو تخطٍّ لحدود القصاص المشروع

وهكذا ناداهم إليه، وخرجت الكلمات من فمه مجروحة متقطّعة لترسم في "العظمة الإنسانية" التي أفاءها القرآن على "علي" لوحة باهرة

قال لبنيه ولأهله

[أحسنوا نزله

وأكرموا مثواه

فإن أعِشْ، فأنا أولى بدمه قصاصاً أو عفواً

وإن أمُتْ، فألحقوه بي، أخاصمه عند ربِّ العالمين

ولا تقتلوا بي سواه

إن الله لا يُحبُّ المعتدين] ..

لندعْ هذا المشهد بعد هذا التعليق، فلن نجد كلمات ترتفع إلى مستواه!!

ولننتقل إلى مشهد آخر. أو إلى وجه آخر من مشهد يتجسّم في حياة الإمام!!

* * *

في لحظات نهايته، زاره وفد من أصحابه، وسألوه أن يستخلف عليهم ابنه "الحسن" من بعده، فأبى ذلك وقال:

لا آمرُكم، ولا أنهاكم.

أنتم بأموركم أبصر]

وأرادوا أن يحملوه على ما يريدون، فوضعوا أناملهم على الوتر الذي يعرفون أنه يهزّ "ابن أبي طالب" من أعماقه، وقالوا له:

- وماذا تقول لربك إن لقيته دون أن تستخلف علينا..؟

فأجابهم

[أقول له: تركتهم دون أن أستخلف عليهم، كما ترك رسولك المسلمين دون أن يستخلف عليهم] .!

ثم دعا بنيه، وعلى رأسهم "الحسن" رضي الله عنهم أجمعين وراح يملي عليه وصيته.

[أوصيكم بتقوى الله ربكم، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون

* "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا"، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول

إن صلاحَ ذات البَيْن أفضل من الصلاة والصيام.

* الله، الله في القرآن، لا يسبقكم إلى العمل سابق

* الله، الله في الفقراء والمساكين أشركوهم في مَعاشكم.

* لا تخافُنَّ في الله لومة لائم، يكفكم مَنْ أرادكم وبغى عليكم.
* لا تدعوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقولوا للناس حُسنًا كما أمركم الله تعالى.
* عليكم بالتواصُل وإياكم والتدابر، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان..]

* * *

وقع الاعتداء على حياة الإمام فجر يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة، وفاضت روحه الطاهرة المطهّرة مع غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان.

وهكذا، آب المسافر إلى وطنه، وعاد إلى منزله!

ورحل "ابن أبي طالب" عن الدنيا.. لكنّ حياته والأيام التي عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالي في حياة البشرية وتاريخها، وراحت تحدث إلى مدارك قيم الحق، والبطولة، والإيمان، والخير والشرف.

وهكذا رحل الإمام، وما رَحَل.

وَظَعَن، وما ظَعَن.

فهو الظاعن الحاضر

وهو الراحل المقيم.

لقد فتح لذكره، وستفتح ذكراه أبواب الخلود حيثما تراءى لذوي الألباب دنياهم، والحب لله ورسوله، والدار الآخرة..

ولقد حوصرت بالعواصف، والأعاصير، لكي تربكه في ظلامها عن الطريق أو تفقده بعض رشده أو تشغله عن غاياته ومبادئه فما زاغ عن الطريق ولا فقد الرشد، ولا سئم صحبة مبادئه وحين أدركه الموت وجده عملاقًا يحمل رايته!!

وهذا الطراز النادر، من البشر هو، يمنحه المقدّر الخلود، فلا تمسّه الأسباب ولا العدم، لأنه يُشكّل للإنسانية ضميرها، ونبضها.

وإن سيرة "ابن أبي طالب" ناهضةً في محراب خلودها العظيم، تملي على الحس البشري في كل أزمانه وبلدانه، نبأ الولاء العجيب للحق

ولاء الطفل، وولاء الشاب، وولاء الشيخ.

ولاء المقاتل، وولاء الناسك.

ولاء المواطن، وولاء الحاكم

ولاء لا تجد مثله في مراحل العمر كله، وبين الأوضاع من تفاوت

ذلك أنه ولاءٌ مطبوع، لا ولاء مصنوع

ولاءُ الفطرة، لا ولاء الاحتراف

ولاء اليقين، لا ولاء المنفعة

* * *

وإذا كان الولاء للحق يتمثل أول ما يتمثل في فهم الحدث ، والتفوق على إغرائه وفتونه ، فإن «ابن عم الرسول» ونمنمه العظيم ، قد بلغ في ذلك المدى ، وجاوز المستطاع!!

ها هو ذا ، يخرج إلى سوق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، حاملاً أحد أسيافه الأثيرة لديه ، الحبيبة إليه ، عارضاً إياه للبيع ، وقائلاً

[من يشتري سيفي هذا ؟ فوالله لو كان معي ثمن إزار ما بعته]!!

فهذا هذه الفاقة وبيت المال يستقبل كل يوم من أقطار الإسلام مالاً غدقاً ومن حقه كأمير للمؤمنين أن يأخذ منه كفايته..؟

لماذا يصر علي أن يطحن بنفسه دقيقه؟ ويرقع مدرعته حتى لا تبقى فيها مكان لرقاع جديدة؟!

لماذا لا يأكل الخبز إلا قديداً مخلوطاً بنخالته؟ ويهرب من قصر الإمارة بالكوفة إلى كوخ من طين..!!

تقول لماذا..؟

لأن الولاء للحقّ ، والزهْوَ بالدنيا لا يجتمعان

ولقد تعلّم ذلك من قدوة سلفت ، طالما كان يلهج بها ذاكراً ، ومذكّراً

تلك القدوة التي لم يغب عن خاطره لحظة من نهار ، والتي عبّر عنها فقال:

[في رسول الله ﷺ إذ قبضت عنه أطرافها ، ووطّئت لغيره أكنافها

وفي موسى كليم الله ، إذ يقول: رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ، ووالله ما سأله إلا خبزاً يأكله

وفي المسيح عيسى ابن مريم ، الذي كان يلبس الخشن، ويأكل الجشب ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه] !!

تلك هي الثمرات الغنى التي يحلو عندها الفطن الزاهد الأوّاب ، وهو بهذا لا يعدل شيئاً بجشب الطعام وخشن الثياب!!

لقد كانت هوايته الكبرى ، هذه الدنيا ، ودلال مغرياتها لهاثه بأن يرفع في وجهها يداً لا تهتز ولا تختلج ، تقول لتلك المغريات: لا !!

فلمّا ولي أمر المسلمين ، وصار لهم خليفة وأميراً ، تحولت هوايته إلى واجب !

أجل - آنئذٍ لم يعدْ صد الدنيا ودلال سلطانها وإغرائها مجرّد هواية لبطولته ، أو رياضة لروحه ، بل صار واجباً تفرضه مسؤوليات الحكم ، وتبعات القدوة .

وآنئذٍ سمعناه يقول:

[أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين، ثم لا أشاركهم المؤمنين في مكاره الزمان ؟!

والله لو شئت لكان لي من صفو هذا العسل ، ولباب هذا البر ، وطعم هذه الثياب ، ولكن هيهات أن يغلبني الهوى ، فأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى] !!

* * *

هو إذن مقيم لم يرحل ..

يُعلّم الناس في كل جيل وعصر، أن الولاء للحق أثمن تكاليف الإنسان.

ويعلم الحكام في كل جيل وعصر، أن الولاء للحق يعني رفض إغراء الدنيا ورفض غرور السلطان

وهو مقيم لم يرحل

يجد عصرنا هذا في نهجه وحكمه أستاذاً ومعلماً وهادياً

فاليوم، حيث تعبئ الحضارة كل قواها لمحاربة الفقر، وإزالة الكراهية، وتوزيع العدل، نجد أمير المؤمنين عمر يدرك من قرابة ألف وأربعمائة عام "بؤس الفقر" و"وظيفة المال" إدراك الحاكم المسئول، لا إدراك الواعظ المتمني

نظري ..

هاهو ذا "ناسك" لم يمنعه نسكه وزهده عن أن يعرف ضراوة الفقر وبؤسه وعداءه لتقدم الروح والضمير، فيقول قولته الباهرة:

"لو كان الفقر رجلاً لقتلته"!!!

وها هو ذا يبدأ الشهور الأولى من حكمه وخلافته بوقف تصحيح للثروات التي سببها التمييز في الأنصبة والعطاء بين الذين أسلموا قبل الفتح، والذين أسلموا بعده.. فيرسم منهج التسوية في العطاء

وفي حدود قدرة "بيت المال" يأخذ كلٌّ حاجته ولا يزيد ..

وإنه ليفحم المعارضين لمنهجه بكلمات قصار، لكنها كبار، إذ يقول:

[لو كان المال مالي، لسويت بينهم، فكيف والمال مال الله، وهؤلاء عباده.؟]

إن "وظيفة المال" عنده، تتمثل في سد حاجات الشعب فرداً فرداً

وهو ـ أي المال ـ ليس "مثوبة" على دين، ولا تكريماً لمركز، بل ولا ثمناً للجهد

إنه قوام الضرورات للعيش، وسدّ الحاجات للناس، لا أكثر من هذا، ولا أقل

وهو بهذه المثابة، لا يصلح قط أن يكون "حكراً" ولا أن يكون "دولة" بين أيدي قلة مترفة

إن "تحديد إقامة المال" في بضع أيدٍ، أو بضعة بيوت، هدرٌ لوظيفته، وإلغاء لدوره الصحيح في فقه الإمام، الذي هو فقه الإسلام

من أجل هذا قال كلمات رشيدة صاغ بها واحداً من أعظم مبادئ حكمه وحكومته

[إن الله فرضَ في أموال الأغنياء أقوات الفقراء،

فما جاع فقير، إلا بتخمة غني]

من اليسير أن نجد عمر يتحدث عن وظيفة المال ويجتمع فيها المنطق العلمي، والأفق الإنساني، على أن هذا النسق الفريد والرشيد!

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بتخمة غني]

ألا وإن "الإمام" بهذا المبدأ ، لا ينفي عن المال ثروة الاحتكار فحسب ، بل ينفي عنه كذلك ثروة السَّرف في إنفاقه ، والجموح في طلب التنعم به

فجوع الفقير ناشئ عن تخمة الغني .

والجوع والتخمة ـ كلاهما مظهر للخلل في وظيفة المال وعدالة التوزيع

فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح في تغطية المعايش وسدّ الحاجات بغير سرف أو ترف .. فآنئذٍ لا توجد "التخمة" التي تخلق الجوع ، ولا يوجد "الجوع" الذي يحقد على التخمة

وعبارته الرشيدة هذه

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء]

تعطينا دلالتها الرائعة حكماً فقهياً بارزاً ، هو أن أموال الأغنياء ليست حقاً خالصاً لهم ما دام في مجتمعهم فقراء .. بل هي حقٌ لهم وللفقراء معاً .. هي حقٌ للفقراء الذين خلت منه أيديهم ، بقدر ما هي حقٌ للأغنياء الذين تمتلئ به أيديهم !!

ولقد كان "الإمام" رضي الله عنه يضع مبدأه هذا كما يضع كل مبادئه موضع التنفيذ الشديد ، لا يصرفه عن ذلك تلك الفتن المجنونة حوله ، ولا الحرب المسعورة ضدَّه

تُرى هل كان لسياسته هذه دور في تألُّب الحاقدين عليه وتقاعس الذين كانوا أنصاره بالأمس من حوله ؟!

هل كان لمخاوف المسلمين الذين أثروا ثراءً كبيراً ، والذين كانوا في طريقهم إلى الثراء دور غير منظور في محاربة الخليفة الذي رفع هذا الشعار ، وهذا المبدأ

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء] ؟

* * *

على أيِّ حال ، فقد رحل عن الدنيا ـ الشكل الخارجي للبطل .. أما موضوعه الحيّ ومضمونه التقيّ ، فقد بقيا غذاءً للحقيقة وتراثاً

وسيظل "الإمام" حيّاً في جميع القيم ، وفي كل الحقائق التي عاش يُناضل دونها ، ومات حاملاً رايتها .

سيظل حيّاً ومائلاً في فضائله وعظمته التي صاغ منها حياته امتدت إلى الثلاث والستين ، والتي أجاد وصفها ضرار بن ضمرة الكناني .

قال واصفاً الإمام :

[كان بعيد المدَى ، شديد القُوى ..

يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ..

يتفجَّر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ..

يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته

كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه.

يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب

وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبدؤنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه

وكنا والله مع قربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته.

وكان إذا تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين

لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله

وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله

وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه، قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين.

فكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا، يا دنيا، إليّ تعرضت، أم إليّ تشوقت؟ هيهات هيهات، غرّي غيري.

قد أبنتك ثلاثاً، لا رجعة فيها!!

فعمرك قصير.. وعيشك حقير.. وخطرك كبير..

آه من قلة الزاد..

وبعد السفر..

ووحشة الطريق..]!!

* * *

لقد كان حظ الإمام مع الناس عاثراً..

لكن حظوظه مع نفسه - في طهرها وتقاها - كانت رابية ووفيرة [illegible] مؤيدون وأصدقاء

ويغفر جرح أمام المؤامرات الضارية، تثيرها في وجهه أعداء [illegible] أعداء، وقف "الإمام علي" يبني وحده - [illegible] الفرد، ويتسع عنده الأفق، [illegible] يبقى على مر الزمان "منتراً" لذوي الرشد والنهى

* * *

ولئن كان لم ينصفه الذين علوا في حربه..

ولم ينصفه الذين غلوا في حبه..

فقد أنصفته عظمته الفريدة، إذ فرضت على الأعداء جلالها، وعلى الأصدقاء [illegible]

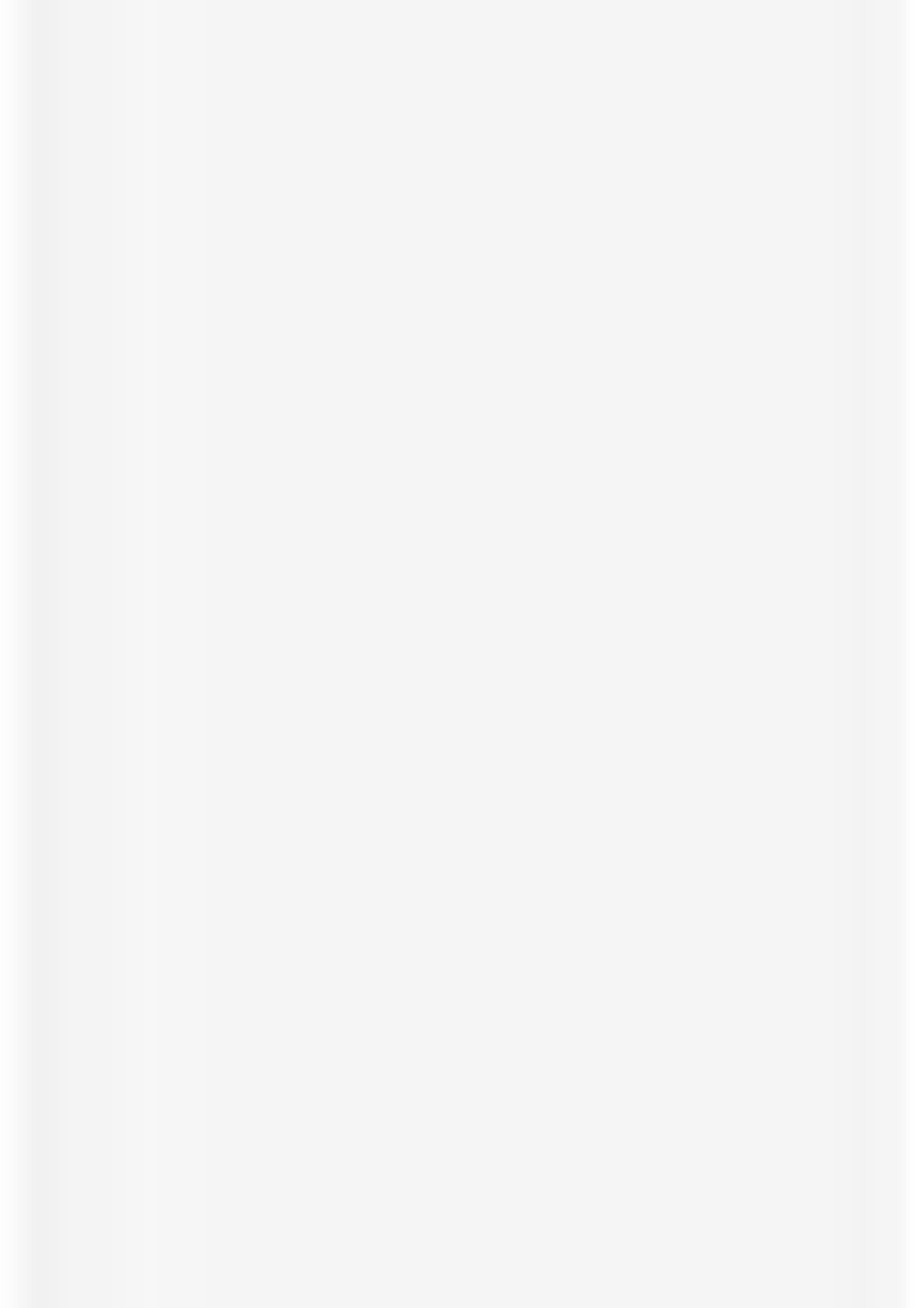
وسارت على وجه الزمن ظاهرة، ناضرة، ظافرة

وتلكم هي العظمة حقاً!!

■ ■ ■

معجزة الإسلام .

عمر بن عبد العزيز





مقدّمة

معذرة إلى أمير المؤمنين من كاتب يُجاوز قدره بالحديث عنه، والتأريخ له - كما جاوز قدره من قبل في محاولات مماثلة..

ومعذرة إلى "أمير المؤمنين" من كاتب لم يستطع أن يكبح جماح رغبته هذه، وهو يعلم علم اليقين قدر مقت أمير المؤمنين للحديث عنه وإطراء شمائله ومزاياه

ولكن شفيعي أن - أمير المؤمنين - لم يكن مِلك نفسه.. إنما هو ابن الإسلام البار، ومِلْكيته الثمينة..!!

ومن ثَمَّ، فالكتابة عنه ليست حقاً له، بل هي للإسلام الذي كان - ابن عبد العزيز - ثمرته ومعجزته..

أفبعد إذن أن أؤدي للإسلام حقاً أضيعه، وإن قصّرتُ من قبل، ومن بعد، في حقوق كِثار..؟؟

* * *

ألا إن نبأه لعجيب وإن تصوّره - مجرّد تصوّره - لأمر مُمعن في الصعوبة يا رجال..!!

ومع ذلك فحتم علينا، لا أن نتصور فحسب، بل نجاوز التصور إلى التصديق، ما دمنا نحترم التاريخ ونثق به.

فالوثائق أسباب النقل والرواية والتأريخ، تحمل إلينا هذه الأنباء المعجزات التي سنراها، والحقائق المتحدّاة التي سنشهدها ونطالعها.

أجل - في صدق تاريخي عظيم، يرفض كل نسوف وشكّ، جاءتنا أنباء هذا الإنسان الباهر.. والحاكم القديس..!!

وإن الصعوبة التي تواجهني الآن، لتتمثل في: ماذا آخذ وماذا أدَع من ذلك الحشد الهائل من الحقائق التي تحكي لنا جلال قداسته.. وروعة بساطته.. وسموّ عدله.. ونبل روحه.. وإعجاز مسلكه..!!

وإذا كانت الحكمة العربية تقول: من أخصب تخيَّر.. فإني أجدها الآن: من أخصب تحيَّر..!!

* * *

ولقد كنت أحسب أن كتاباتي في "السِّيَر الإسلامية" ستقف عند ما أخرجت فيها من مؤلفات عن خلفاء الرسول الأربعة.. ثم عن تلك الثُّلة المباركة من الرجال حول الرسول ﷺ ثم عن الإمام الشهيد "الحسين" وأبناء الرسول في كربلاء

كنت أحسب أنني سأقف عند هذه النماذج العالية لعصر الوحي الذي سهرني دائماً جماله وجلاله

بيد أنني ما لبثت، حتى أبصرت هناك في الذرى الشاهقة مكاناً شاغراً لرجل، هو وإن لم يعش عصر الوحي تاريخياً، وإن تفصله عنه عشرات الأعوام، فإنه بعظمة روحه وجلال نسكه، ينتمي إليه أروع، وأسمع، وأوثق ما يكون الانتماء

ذلكم هو معجز الإسلام.. عمر بن عبد العزيز..!

* * *

إنه لا ينتمي لعصر الوحي فحسب.. بل إنه الرجل الذي حاول نقل عصر الوحي بمثله وفضائله إلى دنيا مائجة هائجة، مفتونة مضطربة، مستمتعة بالظلم والقهر، منعمة بالمحل والترف.. ثم نجح في محاولته نجاحاً يبهر الألباب..!!

فهل ندهش ونذهل لأنه بمفرده حاول تحقيق هذا المستحيل..؟؟!!

أم ندهش ونذهل لأنه بمفرده قد حقق المستحيل فعلاً.. وجعل من الملك العضوض الذي شاده الأمويون عبر سنين عدداً، خلافة أوابة، عادلة، برة، تمثل كل فضائل وشمائل عصر النبوة والوحي..؟!

ومتى..؟!

ليس في عشرين عاماً.. ولا في عشرة أعوام.. بل في عامين، وخمسة أشهر، وبضعة أيام..!

* * *

على أنه ليس في هذا التوفيق العظيم، والقدرة الخارقة، ما يحدث وحده انبهارنا فهناك تلك الثمرة الفريدة التي جعلت من "ابن عبد العزيز" ومن سيرته أكثر الحقائق الإنسانية إثارة للعجب، والبهر، والإجلال، والتي جعلت منه أسطورة أصدق من الحقيقة وحقيقة أعجب من الأساطير..!!

فهو لم يشغل الناس والتاريخ بكثرة عبادته، ووفرة عدله ورحمته، وسموّ حكمه وخلافته فحسب..!!

بل إنه ـ قبل ذلك كله ـ شغل الناس والتاريخ وبهرهما بذلك الانقلاب الروحي المذهل، وبالظروف التي أحدثته وواكبته

فقد يكشف منصب الحكم والخلافة في إنسان ما عن جوهره في التنظيم والإدارة والسياسة

أما أن يكون هذا المنصب بكل عراقته وفتونه وأهواله وسلطانه سبباً مباشراً لتفجير عبقرية الروح والقداسة، فذلك ما يصعب تصوره، فضلاً عن تفسيره..!

وهذا هو الذي حدث بالنسبة لـ "عمر بن عبد العزيز"

فعلى الرغم من أنه كان قبل استخلافه، وطوال سني عمره طاهراً، صالحاً، فاضلاً، فإن ذلك كله لا يبدو شيئاً مذكوراً أمام حبه ونسكه بعد الغمرة المجيدة والمفاجئة التي حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحي شهدته في كل بني الإنسان !!

ويزيد الأمر عجباً، أن هذا الانقلاب الباهر، تم بكامله المطلق في بضع دقائق من الزمان.. وأن هذا الانقلاب الروحي المعجز، لم يجئ ثمرة تجارب تجري بالزهد، وتدفع للعزلة والإخبات.. بل هو على النقيض من ذلك، ثمرة مفاجأة تفجّر في النفس - مهما تكن ورعها ونقاها - كلّ رغبات الحياة المتألقة.. ومباهجها المتألقة !!

أجل.. ففي الدقائق، وإن شئتم ففي اللحظات التي هتف فيها باسمه خليفة وحاكماً لأعظم إمبراطوريات عصره وعالمه، تم هذا الانقلاب الذي يتحدّى كل وصف وكل تصوير .. !!

والرجل الذي كان قبل دقائق استخلافه تضمّخ ثيابه بأغلى العطور، ويسكن أغنى القصور، ويلبس أبهى الحلل، ويأكل أطيب الطعام، ويركب الصافنات الجياد، ويبلغ دخله السنوي أربعين ألف دينار ..

هذا الرجل ذاته، يصير بعد دقائق - لا أيام ولا ساعات - إنساناً آخر، عطره عرقه، وجدده قدماه.. وملبسه من أخشن الثياب.. ومطعمه من أخشن الطعام.. ودخله لا شيء

فقد حمل كل ثروته إلى بيت المال.. وقصوره الفارهة لا قصور.. فقد تحوّل عنها إلى دار متواضعة من الطين ..

وعرشه.. إن تجلّى عرشه - حصير قديم يجلس عليه فوق التراب.. !!

ويزيد الأمر تعقيداً، كما يزيده روعة وجلالاً، أن بطل هذا الانقلاب الروحي المثير لم يكن من وسط الناس.. بل هو ربيب الملك، والقصور، والأمجاد، والنعيم.

كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخاً هرماً، في سن الستين أو السبعين، بل كان في رائعة شبابه ورجولته، في سن الخامسة والثلاثين.. !!

* * *

تحت أيّ تأثير لا يقاوم سحره، ولا يردّ قدره، وقع هذا الانقلاب داخل هذه الظروف .. ؟؟

لا شيء أمامنا سوى "مسئوليته كحاكم" وضعته في لحظات إلى قديس لا نظير له بين جميع القديسين .. !!

ذلك أنه لم يصر "قديس صومعة" بل قديس صولجان وسلطان، ودولة من أعظم دول الأرض والزمان.

وذلك - لعَمْرُ الحقّ - ما يكاد يذهب بالألباب .. !!

فقد صار منذ استُخلف بلوَى تحت وقع مسئوليته ، وتصرخ من أعماقه [من يفدني يوم القيامة من حقّ الفقير الجائع والمريض الضائع والمظلوم المقهور واليتيم .. والأرملة .. والأسير ..] . ؟؟!!

* * *

إيه ، يا بن عبد العزيز !! تقدّم ، ولا تُحجم ..

تقدّم لنرى الدنيا كيف تُحب الإسلام وكيف ربّى "محمد" وعلّم !!

تقدّم يا مجدد الخلافة والملك ، وواضع المناهج والنظم !!

تقدّم يا زيْن الشباب ، ويا ناعم الإهاب ، ويا فوّاح العصور والعبر !!

تقدّم "يا أمير المؤمنين" وأرنا ثوبك المرقّعات ، وأسمالك !!

أرنا القميص الذي كنت تغسله ، ثم تنتظره في ركن دارك حتى يجفّ ، لأنك لا تملك سواه .

أرنا وجهك الشاحب ، وجسدك الناحل من فرط ما تبذل من جهد ، ومن أثر الخبز المتبّل بالملح ، والمبلّل بالزيت . !!

أرنا "الحصير" الذي تتخذ منه عرشاً يا خليفة المسلمين ، ويا أمير المؤمنين !!

أرنا دارك التي شدّت إليها الرحال من بلاد بعيدة ، سيدة جاءت تطلب المعونة من عسرتها ، فلم تلبث حين رأتها أن قالت في مرارة :

"أتراني جئت أعمر بيتي من هذا البيت الخرب ؟!

ألا حيّا الله "فاطمة" زوجتك ، فكم كانت صادقة حين أجابتها

[إنما خرّب هذا البيت ، عمارةُ بيوت أمثالك] . !!

تقدّم .. يا أمير المؤمنين !!

فما نعرف بطلاً أشبه بالأسطورة .. ولا أسطورة أصدق من اليقين ، مثلك أنت ، ومن نبعك العظيم .. !!

* * *

ومعذرة مرة أخرى .. فقد سبق أن نكره الإطراء والثناء ، ولكم كنت وددتُ أن أعدك ألا أعود .

ولكني غير قادر .. واليد المبهورة بعظمتك تقف هي الأخرى عاجزة وغير قادرة

فمن ذا الذي يستطيع الصمت أمام الذي أتيته من مُعجزات .. ؟؟

مَنْ .. يا أمير المؤمنين ؟؟!!

« خالد »

الطفولة المُرهصة

[.. إنك إذن لسعيد] !!

كان ذلك في طفولته الغضَّة الباكرة.

وكان أبوه "عبد العزيز بن مروان" يحكم مصر والياً عليها لأخيه الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان"، حيث لبث "عبد العزيز" في ولايته هذه عشرين عاماً.

وغادرت "أم عاصم" المدينة المنورة حيث كانت تقيم، لاحقةً بزوجها "عبد العزيز" في مصر، مصطحبة معها ولدهما الحبيب "عمر".

وفي "حلوان" التي اكتشف عبد العزيز جمالها من جهة، وجدواها منتجعاً ومستراحاً، راح الطفل المتفتح يجري في مرابعها، ويعبّ من هوائها.

وذات يوم، دخل حظيرة الخيل، فركضه جواد.. فشجّه وأدماه، وحُمل الطفل الجريح إلى داره، وما كادت أمه تبصره حتى أخذها الروع، وفجعها المشهد.

واستُدعي أبوه، فجاء على عجل، ورأى الدم يغطي وجه ولده، والشجَّة تفغر فاها.

وقبل أن يغشاه الأسى، طوّفت بخاطره ذكرى ألقت على محيّاه تهلّلاً، وعلى ثغره ابتساماً.

ولمّا فرغ من تضميد جرح طفله الحبيب، ربّت كتف زوجته وابتسامة تزداد على شفتيه تفاؤلاً وتألقاً، وقال:

« أبشري، يا أم عاصم » !

ثم بسط يمناه يداعب بها رأس ولده، وعيناه تُحدّقان في وجهه الشاحب الوديع، وراح يقول له:

« إن تكن أشجَّ بني أمية، إنك إذن لسعيد »

فماذا كانت الذكرى التي أثارها هذا الحديث؟

وما شأن النبوءة التي أومأت إليها كلمات عبد العزيز .. ؟؟

* * *

لنعد إلى الوراء كي نشهد نبأً من أوله.. فهناك في تلك الليلة الشاتية، حيث المدينة ساكنة ساجية، قد أوى الناس فيها إلى دورهم ومضاجعهم يلتمسون الدفء من ذلك الصقيع الراعد، إلا رجلاً واحداً أورقته مسؤولياته.. وقد كانت دائماً تؤرقه.. فنفض عنه غطاءه، وخرج إلى طرقات المدينة التي خلت من كل حيّ، ولم يبق بها سوى كثيف الظلام، وعُواء الريح.

خرج الرجل وحده يتعسّس، فلعلّ هناك جائعاً، أو مريضاً، أو مقهوراً.. أو ابن سبيل.

لعلّ هناك شأناً من شئون الناس قد غفل عنه، والله سائله عنه ومحاسبه عليه.. فالرجل خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين.

أجل .. إنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه

وطال بعسسه وتطوافه حتى أدركه التعب ووخزه الضعف.. فلاذ بجدار دار صغيرة فقيرة، وجلس يستريح قليلاً ليستأنف خطوه فيما بعد إلى المسجد.. فقد أوشك الفجر أن يجيء..

وإذ هو في مُتَّكئه، سمع حوارًا داخل الدار.

كان الحوار يجري بين أم وابنتها حول ذلك القدْر الضَّحْل من اللبن الذي جاد به ضرع شاتهم في ذلك الهزيع، وكانت الأم تدعو ابنتها كي تخلط اللبن بالماء، حتى يزداد ويفي ثمنه بحاجات يومهم الوافد.

سمع أمير المؤمنين حوارهم:

الأم تقول لابنتها:

«يا بنية، امذُقي اللبن بالماء»[1]. والبنت تجيب أمها:

«كيف أمذق، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذقْ؟؟». وتعود الأم قائلة:

«إن الناس يمذُقون، فامذقي، فما يدري أمير المؤمنين أنا إن مذقْنا، ولا يرانا..»

وتجيبها الفتاة:

«يا أماه، إن كان أمير المؤمنين لا يرانا، فربُّ أمير المؤمنين يرانا!!»

واغرورقت عينا أمير المؤمنين بدموع الغبطة والفرح، وسارع إلى المسجد، فصلى الفجر بأصحابه، ثم عاد مسرعًا إلى داره، ودعا ابنه "عاصمًا" وأمره أن يأتيه بخبر أهل تلك الدار.

وعاد "عاصم" إلى أبيه بمعلومات وافية عن الأم وابنتها.. وقصَّ أمير المؤمنين على ولده ما سمعه من حوار، ثم قال له وقد كان مرهف الروح:

«اذهب يا بني فتزوجها، فما أراها إلا مباركة، ولعلها تلد رجلاً يسود العرب»!!

وتزوج "عاصم" تلك الابنة الفقيرة الشريفة الورعة، وأنجب له منها أنثى أسموها "ليلى"، وكنّوها "أم عاصم".

وشبّت "أم عاصم" هذه في سبيلها نحو التقى، حتى تزوجها "عبد العزيز بن مروان"، فولدت له "عمر بن عبد العزيز".

تلك إذن ذرية بعضها من بعض.. ولقد صدقت نبوءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الفتاة المباركة.

بيد أن هذا الجزء من النبوءة، لم يكن هو الذي دار بخلد "عبد العزيز بن مروان" حين قال لطفله الجريح:

«إن تكن أشجَّ بني أمية، إنك إذن لسعيد»

---

(1) مذق اللبن والشراب بالماء: مزجه وخلطه.

فلنبدأ بقصة أخرى، هي التي ستجاذب الذكرى في وعي عبد العزيز

ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا نهض من نومه على أثرها يتعجب ويقول :

« من هذا الأشجُّ من بني أمية، ومن ولد عمر يسمّى عمر، يسير بسيرة عمر ويملأ الأرض عدلاً » .. ؟؟

رأى "عمر" هذه الرؤيا، ويستتر ذلك الغيب قبل أن يولد حفيده "عمر بن عبد العزيز" بقرابة أربعين عاماً !!

وينتقل ابن الخطاب رضي الله عنه إلى الرفيق الأعلى، وتصبح نبوءته هذه تدوّي بين أهله وذويه الذين راحوا يتوسمون تلك العلامة في وجوه أبنائهم

وحين وُلد لعبد الله بن عمر ابنه "بلال" وأصيب في طفولته بشجّة في وجهه، حسبوه المبَشَّر الموعود، لكن الأقدار مضت حتى جاء اليوم الذي شُجّ فيه وجه ابن عبد العزيز، فتذكر أبوه النبوءة القديمة، وقال قولته المفعمة بالرجاء والأمل

« إن تكن أشجّ بني أمية، إنك إذن لسعيد » !!

* * *

هذه إحدى ظواهر الإرهاص في طفولته ـ مثلا ـ وليست كل الظواهر

فسوف نرى إرهاصات طفولته تعطي بشائرها كل مجال، وتمكن بالقدر الذي سيكون عليه تكفّل الدور العظيم لحياة رجل هو ـ عمر بن عبد العزيز ـ وحياته الحميمة فيه.

وهذا الإرهاص لا يتمثل في تلك العلامة الحسية التي أحدثتها شجّة وجهه فحسب

بل يتمثل في ذلك الانتماء المزدوج للنقيضين الكبيرين

عمر بن الخطاب وسلالته التقية الورعة

والأمويين، وسلالتهم المتجمحة المستهترة.

وهنا يتجاوز الإرهاص شخص "عمر بن عبد العزيز" إلى دائرة أوسع، ومعنًى أبعد

فكأنّ القدر، وقد أمهل بني أمية حين اغتصبوا الخلافة، وأحالوها إلى ملك عضوض، وإلى مزرعة أموية، قد قرر أن يمتحنهم برجل منهم، يبيع على الملأ وثائق إدانتهم، ويرد إلى دين الله حقيقته المغتصبة، ويري دنيا الناس عافيتها الغائبة، وإلى منصب الخلافة كرامته وتقواه.. !

ثم يكون للدنيا بأسرها آية على ما يستطيع الإسلام العظيم أن يصنعه حين تتقمّص روحه العالية المشرقة رجلاً من الناس، فتحيله إلى نور إلهي مُعجز، حتى حين يجيء هذا الرجل من أصلاب أولئك الذين ملأ أكثرهم الأرض فساداً وبغياً !!

* * *

على أن هذا النوع من الإرهاص كان يدور خارج شخصية الطفل الموعود
هو إرهاص بديره القدر بنفسه وبحسابه، دون أن يكون للطفل دخل فيه، أو علم به.
فلننتظر الآن نوعاً آخر من ذلك الإرهاص، كانت شخصية الطفل مادّته وأداته. وكان مظهراً لجهده الذاتي في اكتشاف نفسه، وبناء شخصيته، حيث تشير رغبات الطفل تشير إلى مستقبل الرجل...
وحيث نلمح في اتجاهه النفسي والعقلي - إبان طفولته - من النضج والاستواء والرشد ما يُرهص بغَده، ويبشره بمستقبله.
ولقد تحدّث هو فيما بعد عن طفولته تلك فقال:
« لقد رأيتُني بالمدينة غلاماً مع الغلمان، ثم تاقت نفسي للعلم، فأصبت منه حاجتي » !!
ومن هنا تبدأ إطْلالَتُنا الواسعة على الإرهاص الذاتي لهذه الطفولة المباركة. فقد رغب الطفل إلى أبيه أن يغادر مصر إلى المدينة ليدرس بها ويتفقه
والمدينة يومئذٍ منارة للعلم والصلاح، تمتلئ بالعلماء والفقهاء، والعُبّاد والصالحين
كما أنها مجتمع يموج بالنبوغ الإنساني في فنون الشعر، والظرف والغناء
ويستجيب عبد العزيز بن مروان - الذي كان من خيار بني أمية وبني مروان، وأكثرهم قرباً من الهدى والتقى والصلاح.. يستجيب لرغبة ولده، ويرسله إلى المدينة المنورة. ويعهد به إلى واحد من كبار معلّمي المدينة وفقهائها وصالحيها، وهو "صالح بن كيسان".

* * *

إن طفلاً كصاحبنا، نشأ في قصور الملك والنعيم.. يحمل لقب "سمو الأمير"، وبين يديه، بل ملء يديه من مناعم الحياة ومباهج الأيام أكثر مما يشاء، ما كان يُتوقع منه - وفي طفولته على الأقل - إلا أن نحمله أشواق طفولته ورغباتها إلى دنيا اللهو والمرح والانطلاق.
فما باله ينأى عن ذلك كله، وينزع بكل فؤاده وهواه إلى آفاق الرجال، بل حكماء الرجال.. ؟!
ثم ما بال طفولته لا ترهص ببعض خصائص اكتماله المقبل فحسب، بل ترهص بكل هذه الخصائص على نحو عجيب.. ؟!
أجل.. إن كلّ تألّقات سلوكه الذي سنراه عندما يصير خليفة للمسلمين، تبدو بوادرها في حياة الطفل والغلام مجتمعة متكاملة
فخوفه الشديد من الله.
وإقباله النهم على العبادة والعلم.

وتقديسه المطلق للحق ، ودحضه القوي للباطل ..

وولعه بمعالي الأمور ..

كل تلك الخصائص والسجايا التي ستشكل سلوكه وحياته في أثناء خلافته ، نرى بشائرها كلها في نشأته الباكرة بل وفي تدريبه الذكي في توفيق عظيم .

فهو كما رأينا من قبل يرغب إلى أبيه كي يرسله إلى المدينة ليتزود من فقهها وعلمها قائلاً له :

« دعني أذهب إلى المدينة ، فأجلس إلى فقهائها ، وأتأدب بآدابهم » .

ثم لا يكاد ينزل بها حتى يلوذ بالشيوخ والعلماء والفقهاء ، معجباً برأيه وإليه

ويعكف على حفظ القرآن حتى يتم حفظه في زمن جد قصير ووجيز

ويقبل على العربية ، وآدابها ، وشعرها ، فيستوعب من ذلك كله محصولاً وفيراً

وقد يبدو هذا النوع المبكر أمراً مألوفاً إذا هو قيس بالمستويات المتفوقة للطفولة النابهة الذكية .

ولكن هل يبلغ مثل ذلك النوع من ضمير طفل ما يملؤه خشية لله ، وما يجعله يبكي وينتحب من مخافة الله .. ؟!

لقد كان ـ عمر بن عبد العزيز ـ ذلك الطفل الورع البكاء .

فجاءته أمه ذات يوم ، وهو في حجرته وحده يبكي وينتحب ، فألقت نفسها عليه تسأله ما دهاه ؟ فكان جوابه :

« لا شيء يا أماه ، إنما ذكرت الموت » . !!

وقد تروق الرغبة في تفسير واقعة كهذه ، بأنها حالة عارضة ، ربما أثارها مزاج نفسي طارئ أو لعله كطفل مرهف الحس جزع من صورة الموت الذي سيسلبه مسرات هذه الحياة .

بيد أن للصورة أبعاداً أخرى

فمعلمه "صالح بن كيسان" فقيه المدينة العظيم ، يعطينا الصورة كاملة وهو يتحدث عن طفولة ابن عبد العزيز فيقول :

« ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام » !!

وحين يتحدث عالم في مرتبة "ابن كيسان" أنه لم ير أحداً "الله أعظم في صدره ، من هذا الغلام" ، فإننا نجد أنفسنا أمام نموذج إنساني نادر المثال . !!

ذلك أن هذا القدر من الورع وخشية الله وإجلاله ، إنما يؤتى للأفذاذ من الصالحين بعد أن يكبروا ويتقدم بهم العمر أما وهم غلمان صغار فهيهات ، إلا أن يكونوا واحداً من أولئك الذين يصطفيهم الله لنفسه ، ويصنعهم على عينه .. !!

* * *

وتبهرنا طفولة "ابن عبد العزيز" بحرصها في جسارة للعلوّ والمثل الأعلى

فقد رأينا الغلام يجلس بكل ثقة التوحد والتعقل إلى جانب الشيوخ، بما معهم من دين، وحكمة، وفقه، وخُلق

ثم نذهب في تمييز مثله الأعلى واختياره مذهباً يبهر الألباب

فالغلام الصغير، لا يستمد مثله الأعلى من بيئته التي تعجّ بالأمراء والجنود، ولا من دنيا تحفّه بمباهج وزخرف، ولا من الرؤى والأحلام المتسعة لسنّه وطفولته

بل يرنو ببصيرته الذكية إلى الأفق البعيد، والمجد المعقود له، ليمثله الأعلى، ممثلاً في شخص عظيم، وأعلم، وأورع، وأتقى من فيه، ذلكم هو "عبد الله بن عمر بن الخطاب"!!

و"عبد الله بن عمر" هو عمّ والدة عمر بن عبد العزيز، فهو منه بمثابة الجدّ، وإن رأينا الغلام يحلو له أن يدعوه بخاله

لقد راح منذ نزل المدينة يلوذ به ويلازمه، ويتفقّه عنه، ويتأسّى به

وكان إعجابه به شديداً، فهو دائم الإشادة بعلمه، وورعه، وسخائه، ونبل روحه

ولطالما كان يداعب والدته بهذه الكلمات المصمّمة

«تعرفين يا أمه!؟؟ لأكوننّ مثل خالي، عبد الله بن عمرٍ» !! إنها روح كبيرة

أكبر عشرات المرّات من جسم صاحبها الغضّ ومن سنه الناشئة

إنها روح غلام يستحث رجولته، ليستمد منها فتوته، ويزهو بين أترابه بما فيه من اكتمال لفضائله وازدهار لخصائصه وشمائله

* * *

وفي طفولة ـ ابن عبد العزيز ـ نرى احتراماً للنفس، نادر المثال.

فهو لا يتحسب لهواه الجامح، لا يسلمه وإياه فحسب، بل يأخذ نفسه أخذاً وئيداً بما لا يقدر عليه سوى أولي العزم من الرجال..!

وهو لا يتحسب من الأخطاء ما يحاسب عليه الكبار، ويُغفر للصغار، بل يتجنب منها كل خطأ كبير أو صغير.

فرذيلة ـ كالكذب ـ مثلاً، يواجهها الغلام بمقت شديد، ورفض أكيد

ولسوف نسمعه يتحدث فيما بعد عن نفسه فيقول:

«ما كذبتُ منذ شددتُ عليّ إزاري وعلمتُ أن الكذب يشين أهله» !!

* * *

وفي طفولته الراشدة، نشهد الاستجابة النبيلة التي كان الغلام يتوسل بها لتصحيح ما يتكشف له من خطأ، وتنمية ما يُتاح له من سداد

حدث يوماً أن تأخر بعض الوقت عن صلاة إحدى الفرائض مع جماعة المصلين بمسجد الرسول في المدينة.

وسأله معلمه ومؤدبه "صالح بن كيسان" عن سبب تأخره، فأجاب الغلام في صدق: « كانت مرجّلتي تمشط شعري » وقال له سيده في عتاب: « أو تُقدم تصفيف شعرك على الصلاة » ..؟

وكان عبد العزيز بن مروان قد أوصى "صالح بن كيسان" أن يكتب إليه دوماً بكل أخبار ولده، فكتب إليه عن هذه الواقعة، فجاء أمر عبد العزيز إلى ولده أن يحلق شعر رأسه جميعه.. !!

وهنا تبصر الغلام وهو يرى أصبع مظاهر وسامته وأناقته يفعل ذلك وهو ممتثي النفس عفيفه ورضى، ليس فقط لأنه عرف كيف يمتثل ويضع حيث يجب الامتثال وتلزم الطاعة، بل لأنه وجد في ذلك تكفيراً عن خطئه الذي أخرجه حين ترك رغبته في استكمال أناقته ووجاهته التي أخّرته بعض الوقت - لا كلّ الوقت - عن موعد الصلاة.. !!!

* * *

إن التطلع إلى السّداد يحدو روح الغلام بشكل فذّ إلى - سدادِ الشعور، وسداد الفكر، وسداد السلوك، وسداد الإرادة.

وهو، على الرغم من كونه مجرّد غلام صغير لا ينظر إلى نفسه كأمير، له حق في كثير، وحتى في قليل من التدلّل والامتياز.

بل هو ينظر إلى نفسه كإنسان عادي لروحه وحدها الحقّ في الامتياز بما تكتسبه من معرفة، وفضيلة، وصواب.

وتعود فنقول: إن المعجز في هذا كله، أن صاحبه ليس إلا مجرّد غلام.. غلام في سنّ اليفاع.. !!

وغلام وُلد في أحضان النعيم، ونشأ في دنيا حافلة بالترف والإغراء.. !!

ومن أبهى مظاهر استجابته الرشيدة لتصحيح الخطأ، واستكمال الرشد، هذه الواقعة التي يرويها مؤرخو سيرته.. !!

فلقد كان - في طفولته - متأثراً بموقف الأمويين من الإمام عليّ كرم الله وجهه، ومن الأباطيل التي روّجوها ضده. ولم يكن الغلام قد تبين بعدُ وجه الحقّ في الصراع الذي نشب بين الإمام الراشد الشهيد، وبين العائلة الأموية.

وحدث يوماً أن ذكَر الإمامَ بسوء، وانتقلت كلمته إلى شيخه الصالح "عبيد الله بن عبد الله بن عتبة" الذي كان عمر يكنّ له أعظم الحب والتوقير.

وذات يوم ذهب الغلام لزيارة الشيخ، فأعرض عنه، ثم تعمّد بعد عودته من ود

وأدرك الغلام أن في نفس شيخه شيئاً منه، فحاول بسؤال جانبي أن يتبين الأمر، فانفجر فيه شيخه قائلاً:

«متى علمت أن الله سخط على أهل بدر، بعد أن رضي عنهم» ؟!

وفهمها الفتى الذكي الرشيد من فوره!

فهم أن أدنى مراد «الإمام علي» وأقل قصدانه، وحصانته، أنه من أهل بدر الذين أخبر الرسول ﷺ أن الله نظر إليهم فقال لهم:

«اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»

وصحح على هذه اللغة من شيخه صحوة ذكية رضية، وألقى عليه معذرته في خضوع وندم:

«معذرة إلى الله.. ثم إليك».

«ووالله لا أعود لمثلها أبداً».!!

ثم عكف على درسه لنفسه من جديد بعيداً عن لغو الأمويين وأباطيلهم، حتى اهتدى إلى الصواب في يسر، وتحول إلى مدافع عن الإمام العظيم حتى لقد جلس يوماً - كما يروي لنا بعض المؤرخين - بين نفر من العُبّاد والصالحين راحوا يستعرضون فيما بينهم أقطاب الزهد والورع في الإسلام، فبدا ابن عبد العزيز يصدع فيهم بهذه الكلمات:

«أزهد الناس في الدنيا، عليّ بن أبي طالب عليه السلام» !!!

* * *

إن الحديث عن الطفولة المرهصة للأعز بن عبد العزيز لا نكاد نؤذن بانتهاء، إذا نحن استطردنا وراء وقائع الحياة المتسامية للطفل والغلام.

ولقد تحققت في تلك السنوات الباكرة بصيرة عريضة ناصعة متقدة، راحت تحرك دوافع الغلام وتقودها على طريق الخير والفضيلة والكمال، حتى استطاعت طفولته أن تكون نموذجاً متكامل الخصائص والسمات لسنوات خلافته التي ستجيء بعد ذلك بقرابة ثلاثين عاماً، والتي ستكون آية من آيات الله الكبرى، ومعجزة فريدة من معجزات الإسلام..

وعلينا الآن أن نتابع مدة الطفولة لعدة.. أو بتعبير أصح، علينا أن نجاوزها ونتخطاها، لنواجه مرحلة أخرى من مراحل تلك الحياة العجيبة المثيرة الجميلة، ريثما نبلغ فيما بعد عصر الخلافة والإعجاز.

■ ■ ■

النَّفْسُ التَّوَّاقة

> «إن لي نفساً توّاقة، لا تنال شيئاً
> إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه» !!

حين جاء الشباب، ومن بعد الشباب الرجولة، كانت فضائله العالية قد وضع أسسها في رسوخ وثبات.

وكانت كفاياته ومواهبه، قد انطلقت تعبّر عن نفسها، وتعطي من طاقاتها.

وفي فترة الشباب، بكل ما للشباب من جموح وطموح، نرى الكفايات كثيراً ما تؤثِرُ أن تنفرد بالعمل بعيدة عن تأثير الفضائل التي تحاول كبح جماحها، وبخاصة إذا كانت تلك الكفايات والمواهب انعكاساً لطاقة جيّاشة تمور مورًا بالحيوية والاتّقاد.

ولقد كانت مواهب ابن عبد العزيز، التي فجّرها شبابه، من ذلك الطراز المتّقد الجيّاش، بيد أنها لم تكن من ذلك الطراز الذي يؤثر العمل بعيداً عن فضائل صاحبه.

ذلك أن شخصيته - عمر - كانت مُتكاملة على نحو فذّ، تكاملاً أتاح أعظم قدر من التعاون والتعاضُد بين المواهب والفضائل في ذات نفسه، وبالتالي في منهجه وسلوكه.

كل الذي سنراه يحدث في شبابه ورجولته، أن فضائله التي كانت إبان الطفولة تعبّر عن نفسها وتعلن عن وجودها تعبيراً محدوداً ستوسّع الآن - من آفاق تعبيرها، وإمكانات وجودها..

ذلك أن الشباب يجيء دائماً - حين يجيء - بمساحات واسعة للأحلام والرؤى، والحركة..

والفضائل التي كانت إبان الطفولة ترسل عبيرها من براعمها الحلوة، تغادر تلك البراعم الآن، وتذهب في نموّها الجديد لتملأ المساحة الواسعة العريضة التي جاء بها الشباب. وهكذا تتعدّد تعبيرات تلك الفضائل، وتتكاثر مظاهرها.

ولنضرب لهذا مثلاً من حياة "عمر".

إنّ "أناقة النفس" فضيلة برعت في طفولته، ورأيناها تعبّر عن نفسها آنذاك بالترفُّع عن اللعب مع الأتراب والأنداد، والإقبال على مجالس الحكمة مع العلماء والفقهاء.

كما رأيناها تعبّر عن نفسها بالترفع عن الذنوب، كالكذب مثلاً، الذي أدرك الطفل - وهو طفل - أنه يُزري بصاحبه ويوقع به الأذى والضُّر..

كما رأيناها تعبّر عن نفسها بتجنُّبه لغو القول، ولغو العمل، والاستعاضة عن الأول بالصمت المتأمّل المفكر، وعن الثاني بالجدّ المثير المثمر.

هذه الفضيلة نفسها التي أسميناها "أناقة النفس" نلتقي بها في شباب "عمر" تنمو وتمتدّ مستصحبة معها تعبيراتها في أثناء الطفولة في نماء جديد لها.. ثم مستحدثة تعبيرات أخرى فجّرها وعْيُ الشباب ومشاعره.

وهكذا نرى "أناقة النفس" تسبغ نفسها على مظهره ، فلا يعتبر هذه الأناقة ترفاً ، ولا تأنقاً ، بل بوصفها امتداداً متصلة لأناقة النفس وسعة دائرتها .

ومن ثمَّ نبصر الشباب والرجل في "عمر بن عبد العزيز" يلبس أبهى الثياب وأغلاها ويُضمِّخ نفسه بأبهج عطور دنياه ، حتى إنه ليعبر طريقاً ما ، فيعلم الناس أنه عبره من ذلك الأريج الفوَّاح الذي يعبق به جو ذلك الطريق زمناً طويلاً .. !!

ثم هو يتأنق في كل شيء : حديثه ، لفتاته ، مشيته التي يتفرد بها ، وشغف الناس بمحاكاتها ، وعرفت بطريقته فيها واحتفلوا بها بـ "المشية العمرية" .. !!

ولكن ، لماذا نقول : إن هذا الإفراط في أناقة المظهر كان امتداداً لفضيلة "أناقة النفس" ، ولا نقول : إنه كان ردَّ فعل لها ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ، هي الإجابة نفسها عن تساؤلات كثيرة ستطرح نفسها علينا كلما رأينا ابن عبد العزيز ــ وهو أكثر الناس ــ نصيباً من نعم الحياة عيشاً ، ويأخذ من أطايبها ومباهجها بغير حساب .

والجواب عن كل هذه التساؤلات ، أننا لم نر في كل مظاهر النعيم هذه ، ردود فعل تعكس ظمأً أو جوعاً ، أو كبتاً ، لأن صاحبها لم يكن يقف من النعيم قط موقف الظمآن المحروم ، ولا الكابت المكظوم .

هذا ، أولاً

وحقيقة أخرى ، هي أن "عمر" ــ في أروع تأنقه وتأنق شبابه ورجولته ، وفي الأيام التي كان يخوض خلالها في النعيم خوضاً ــ لم يعرف عنه قط أنه ارتكب إثماً أو جرح حصانته من تلك التي تشكل رد فعل لهوى مكبوت ، أو رغبة مكظومة .

وعلى أيِّ حال ، فإن تصحيحاً هذا للأ عمر شخصيته الشاب والرجل

وإن نفسه التوَّاقة ــ كما وصفها هو ــ ستقدم خلال هذا النهج العظيم لشخصيته ، نحو كل المطامح الجديدة بخصائصها ومكانها .

والطبيعة البشرية في جوهرها تبغي من أسد الطبائع الأساسية رفضاً للكبت ، حتى حين يكون كبتاً لأهواء آثمة ، فكيف إذن حين يكون ــ كما في موضوعنا هذا ــ كبتاً لرغبات مشروعة ، وطموح حسن وقويم .. ؟!

وهكذا ندرك أن تلك المناهج التي سعى وتمثَّل حياة "عمر" في هذه الفترة الطويلة من حياته ، لم تكن ردَّ فعل لنقص مستور به في النفس ، مُصعِّد به في الاتجاه بل كانت امتداداً للمعنى الأول ذاته ، ولكن في مطلع جديدة وأبعاد جديدة !

وفي هذه الفترة من حياته تتعاون وراثته مع مواهبه تعاوناً وثيقاً ، ونفسه التوَّاقة التي سيراها ، تُحرك مشاعره وتقود خطاه ، نجدها لدى أبيه "عبد العزيز بن مروان" تدفعه هو الآخر إلى معالي الأمور على نحو عجيب !!

حدث أن لحن يوماً في حديثه مع رجل جاء يشكو إليه ختنه ، أي زوج ابنته ، فسأله عبد العزيز : ومَنْ خَتَنَكَ ؟

فأجاب الرجل : ختنني الختان الذي يختن الناس

فقال عبد العزيز : إنما أسألك عن اسم خَتَنِكَ

فأجابه الرجل مُعقباً : إذن كان ينبغي أن تقول : من خَتَنُكَ ، بضم النون لا بفتحها

فأسرّها عبد العزيز لنفسه في نفسه .

وفي اليوم التالي أغلق عليه داره ، وراح يدارس نحو اللغة وفقه قواعدها مع نفر من العلماء النحاة ، حتى أجادها وأتقنها ، وصار مضرب المثل في الفصاحة !!

ليس ذلك فحسب ، بل أذاع بين الناس في مصر ورفحا ، حتى تعلمها حكمه وسلطانه ، أن الذين يتعلمون العربية ويجيدونها سيكون عطاؤهم من بيت المال أوفى من الآخرين

وتاقت نفسه إلى الجود ، فصار أجود أمراء بني أمية جميعاً وأسخاهم ، ولم يكن يعطي عطاءه للشعراء كي يمدحوه ويمجدوه كما يصنع الآخرون ، بل كان يعطي الذين هم بحاجة إلى العطاء .

وكان شعاره في هذا السلوك كلمته المأثورة

« عجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويُخلِف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحُسْن الثواب » ؟.

ولقد وصفه مؤرخو سيرته ، فقالوا :

« كان من أعطى الناس للجزيل » !!

كذلك كانت نفسه تواقة للتقوى ، ومخافة الله ، وإن لم يبلغ فيهما ما بلغه ابنه من بعده ، ولقد عبّر عن هذه الخشية ربه حين أدركه مرض الموت ، فكان يقول :

« وَدِدْتُ أني لم أكن شيئاً مذكوراً ،

ولوددت أني دَقَقة في هذا الماء الجاري

أو نبتة بأرض الحجاز » . !!

هذه النفس التواقة عند الوالد ستنتقل إلى الابن على نحو أعظم وأشمل ، وأعز

ولسوف نلتقي بشخصيته المنظورة تحيا حياتها في مهرجان حافل بالنشاط والإبداع والاستمتاع . لا تمنعها نحرج ، ولا يصدها تأثم ، لأنها في نشاطها وإبداعها واستمتاعها ، لا تعمى بمعرب عن فضائلها ، بل تعمل في صحبة هذه الفضائل جميعاً

* * *

فما إن المدينة يومئذٍ كانت مجتمعاً كبيراً حافلاً بكل صنوف النشاط الإنساني

فالجانب الروحي ينهض في ممثليه من الزهاد ، والعباد ، والصالحين

والجانب العلمي في مُمثليه من العلماء ، والفقهاء ، والمحدّثين

ودنيا الفنون ، ممثلة في الشعراء ، والعارفين ، والمغنّين ..

ولقد أُشبع ـ عمر ـ رغبته الروحية منذ طفولته بصحبة العابدين والزاهدين والتلقي عنهم

كما أشبع طموحه العلمي بجلوسه الطويل بين أيدي العلماء والفقهاء ، وتعلمه منهم ، وتأسِّيه بهم

ولسوف تواصل دوافعه الروحية والعقلية نمُوها ورحلتها

لكنّ الجديد الذي نلتقي به الآن في شبابه ، هو روعته الفنّي العجيب الذي يكشف عن موهبة فنية أصيلة لديه .. !

إن الرجل الذي أدب لكن موهبته أن تنشط وتتألق ، يعاجئنا الآن بصوت شجيٍّ عذب ، لو احترف الغناء لبذَّ بصوته أساطينه كما يفاجئنا بموهبة في التلحين ، لو احترفها لبذَّ بها أقطابه السابقين . وذلك ولعهُ بالشعر العربي وحفظه الكثير منه ، وقدرته على نقده ، وتمييز جوده ، من جيده ، من رديئه .

لقد وضع ، مثّال الموهوب لحناً آسراً لهذه الأبيات

سُليمى أزمعت بيناً	فأين تظنُّها أينا
وقد قالت لأتراب	لها زهر تلاقينا
تعالين فقد طاب	لنا العيش تعالينا

وراح يطرب بها ويتغنى بنغمه وبين أصدقائه ، بيد أن اللحن لم يلبث حتى ذاع ، فراح المغنون يَشْدُون به في كل مكان .. !

وقد كان ابن سريج ، وهو عميد المغنين بالحجاز يومئذٍ ، يغني من لحن "عمر"

عَلِقَ القلبُ سعادا	عادت القلبَ ، فعادا
كلما عوتب فيها	أو نُهي عنها تمادى
وهو مشغوف بسُعدى	قد عصى فيها وزادا

غير أنه برغم استمتاعه بكل صوت جميل ، واستثاثه بكل غناء عذب ، بل على الرغم من صوته الندي الشجيِّ ، لم يكن يُرخي العنان لموهبته واستمتاعه ، فقد كان صوت نُهاه يعلو دوماً داخل نفسه ، حتى إننا نراه يقول ـ أكثر من مرة ـ وهو يستمع لابن سريج يُغني

« لله دَرُّ هذا الصوت ، لو كان بالقرآن » !!

ونجد الشعر يظفر منه باهتمام كبير ، ولا عجب فالشعر يومئذٍ كان ثقافة العصر ولغته

ولئن كان ـ عمر ـ لم يقرض الشعر ولم ينشئ قصائده ، فإن نعمة الموافقة التي جعلته يزاحم في المعرفة والغناء أقطابهم حتى يتفوق عليهم دون أن يشاركهم الاحتراف ، هذه النفس الموافقة تدفعه لكي يُدلي في ثقافة العصر بدلوه العظيم ، فإلى جانب ما حصّل من علوم الدين والفقه ، راح يقبل على الشعر حافظاً وناقداً

ولقد كان الولع بالشعر من أوضح سمات المجتمع العربي والإسلامي في تلك العهود

وفي العصر الأموي ، كان له دويّ كدويّ النحل ، وكان فحوله الثلاثة ـ جرير ، والفرزدق ،

ولا خص ـ الذين نعتوا بـ "المثث الأموي" ممثون الدنيا وشغلون الناس

* * *

ولسوف يمرأ على حياته تشت ظروف جديدة تشد رند نفسه "التوقه" إلى أقصاه في مضمار التفوق في مجال تعلم وديب الشعر .

ذلك أن أباه ـ عبد العزيز بن مروان يموت بمصر حيث كان والياً ، ويدفي تحت ثراها طيب ، فيضم الخليفة "عبد الملك بن مروان" ابن أخيه إليه ، ويزوجه ابنته "فاطمة"

وعبد الملك هذا ، كان طويل الباع في الفقه ، والعلم ، والشعر ، كان في الفقه يضاهي بعروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيّب .

قال عنه الشعبي :

« ما ذاكرت عبد الملك حديثاً إلا زادني فيه ، ولا شعراً إلا زادني فيه »

وقال هو عن نفسه :

« شيّبني ارتقاء المنبر ، وخوف اللّحن » .

ولعلّ حواره هذا مع جرير يعطيك صورة لخبرته الواسعة بالشعر والشعراء فقد سأل جريرا يوماً .

من أشعر الناس ؟

قال جرير ابن العشرين يعني طرفة بن العبد ، لأنه قتل في سن العشرين

قال عبد الملك فما رأيك في ابني سُلمى ؟ يعني زهيرا ، وابنه كعب

قال جرير كان شعرهما نيّراً ، يا أمير المؤمنين

قال عبد الملك فما تقول في امرئ القيس ؟

قال : اتخذ الخبيث الشعر نعلين .

قال الخليفة . فما تقول في ذي الرّمّة ؟

قال جرير قدر على ظريف الشّعر وغريبه ، كما لم يقدر على ذلك أحد

قال عبد الملك : فما تقول في الأخطل .. ؟

.. ثم ما تقول في الفرزدق .. ؟

. ثم ما رأيك في نفسك وشعرك .. ؟

ويمضي الحوار بينهما طويلاً ـ كما يرويه صاحب الأغاني ـ لتتجلى من خلاله الخبرة العميقة بهذا الفن لعبد الملك بن مروان والآن ، وعمر بن عبد العزيز يعيش مع هذا العلامة تحت سقف واحد فوق نفسه التواقة تدفعه دفعاً قوياً ليصارع هذا العم المتفوق في فقهه ، وفي العلم ، وفي الشعر .. !

بيد أن الرمام يبقى دائماً في قبضة فضائله وتُبان ذهب مواهبه وتحلق ، فإن فضائله وبديه الكلمة الأخيرة ، مهما تنوعت نفسه سواقه ، ومهما يأخذها الطموح ، فمع وعه

بالشِّعر وإقباله عليه ، بل لقد عرف عزوفاً نبيلاً عن كل ما قيل من قصائد الهجو والتشبيب حتى سوف نراه حين يصبح والياً للمدينة ، يخرج منها "عمر بن أبي ربيعة" لما كان يزجر به شعره من مجانة ، واستخفاف بالحُرمات !!

* * *

خلاصة القول أن عمر بن عبد العزيز أسلم مواهبه لعذوبتها لتعيده كما أسلم شبابه لطيبات الحياة ونعيمها في نطاق ما أحل الله لعباده . ولقد ساعد طبيعته الجياشة في الظفر بكل ما تريد ، أنها وجدت في الخلافة أقصى ما تريد . وأن الشباب الذي لم يكن ينقصه الفقه وسعة الأفق لم يتحول كبح جماحها قطّ !!

لكأنما استهوتها شرفها وسنامها ورفعها ، فكانت على ذلك وأذنها تركها تنال من المطاعم ، وتظفر من الطيبات بأقصى ما تشتهي وتريد .

وكأنما أراد القدر الحكيم أن يجيء شباب عمر بن عبد العزيز على هذه الصورة المتدفقة ، حتى إذا تسلّم الخلافة فيما بعد ، ووقع في حياته ذلك الانقلاب الروحي الذي سيحوّله إلى واحد من أعظم القديسين ، تبين للناس يومئذٍ أن زهده وورعه لم يكونا مظهر طبيعة مطوية ، هادئة هامدة .. بل كانا ثمرة تفوّق روحي خارق ، على طبيعة هادرة بالطاقة .. جيّاشة بالطموح !!

أجل .. لسوف يُرينا القدرُ من أمر هذا الرجل عجباً !!

فبينما هو اليوم يجاء له بثوب من أغلى وأثمن وأنعم حرير العراق فيتحسّسُه بأنامله ثم يقول متأفّفاً :

«ما أخشنه من ثوب .. !!»

إذا به غداً عندما يستقبل به خلافة المسلمين ، يُجاء له بثوب خَشِن يعافُه أكثر الناس فقراً ، فيتحسّسه نفس الأنامل ، ثم تفوت الدموع منهمرة من عينيه

«ما ألينَه .. وأنعمه

إيتوني بثوب أخشنَ منه .. !!»

* * *

فلنترك الأمير الأموي ما ساغت له نفسه لتوفيه نزواته ، فإن لتلك النزوة هذه سكون الموجة التي تعكس الانعطاف الخارق الذي ستحدث به سنوات خلافته !

ليترك الآن ما شاء ..

ليلبس من الثياب أرقها وأنعمها .. وليأكل من المطاعم أشهاها وأطيبها .. وليركب من الجياد أعلاها وأطهمها .. وليفرش من الفرش أسخاها وأوثرها .. !

وليَنهل من العلم بغير حساب

وليذهب من الفضائل بكل مكرُمة وثواب

ولْيحقق لديه بطولها وعَرضها ، كما يحتوي الغلاف الكتاب !!

* * *

ها هو ذا ، يتقلب في نعيم يتعاظم كل وصف ، ويتحدّى كل خاطر .. دخيلة السوي من رأسه وأخمص قدمه ، ويسيح في الأرض التي ورثها من أبيه نحو أربعين ألف دينار !

وإنه ليحرك مسافراً من الشام إلى المدينة ، فينتظم موكبه خمسين جملاً ، تحمل متاعه !!

وإنه ليشتري الثوب من أغلى الأثواب وأبهاها ، فيرتديه مرة أو مرتين .. وربّ ثوب صنع مرتين .. ثم يبدو في عينه قديماً بالياً !!

وإنه ليُسْبلُ إزاره ، حتى يكاد يتعثر بذيله الهفهاف .. !!

ويمشي مشية متأنقة ، يكاد يحسده عليها الطاووس .. !!

ويَعصف ريحه ، ويتضوّع عبيره حيثما سار .. !!

إنه يبدو ، وكأنه في سباق ضارٍ .. لا مع أصحاب النعمة .. بل مع النعيم ذاته ! فوا عجباً .. !!

كيف يستطيع هذا الرجل أن ينسلخ من هذا كله ، وفي لحظة من الزمان ، حين تولّيه الخلافة ، حتى يذهب إلى أقصى أبعاد النقيض وآماده .. ؟!

الآن نشوقنا رؤية ذلك التحول المذهل ، لنكاد نتحرّق ونتعجّل

لكنْ علينا أن نصابر ونتأنى ، حتى لا يفوتنا من مشاهد حياة ذلك الإنسان المعجز ما نحن في حاجة إليه ، لكي نرى كل ملامح الصورة وزوايا الإطار !!

■ ■ ■

التّجْربـة

«أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً !!»

في سنّ الخامسة والعشرين اختاره الخليفة الأموي - الوليد بن عبد الملك - ليكون والي المدينة وحاكمها.

وتهللت المدينة بهذا الاختيار، فسيرة ابن عبد العزيز كانت تسبقه إلى كل مكان كالعبير ثم إنه بما عُرف عنه من فضل، يبني إمارة المدينة مكان أميرها المخلوع - هشام بن إسماعيل - الذي كان ظلمه وشراسته موضع النقمة والاستهجان.

وبدأ الأمير الجديد سياسة حكمه بداية تؤذن من فورها بالفارق العظيم بين طرازه، وطراز الولاة الآخرين.

فبينما كان سلفه يحيط نفسه بحاشيته من أشباه العلماء الفاسدين، فيلقي في رُوع الناس - بمسلكه هذا - أن العملة الرائجة في أرجاء هذا الأمر المبارك فأعلن بمنهجه الجديد والمجيد أنه لا يصحّ إلا الصحيح!! وأن الخير، لا الشر، والصدق، لا الملق، والاستقامة، لا الزيغ.. هي دستور إمارته ومنهج عصره!!

ومن ثمّ بدأ - أول ما بدأ - باختيار عشرة من أئمة العلم والورع والفضل في المدينة، فجعلهم مجلس شوراه.

وهؤلاء العشرة هم «عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، وأبو بكر بن حيثمة، والقاسم بن محمد بن حزم، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن عامر بن ربيعة»

وفي أول اجتماع له بهم قال لهم:

«إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً لي على الحق

أناشدكم الله إن رأيتم عدواناً أو باطلاً إلا أعلمتموني أمره، وأرشدتموني إلى الحقّ»

ولقد كان في استهلاله هذا بتقدير أهل الصلاح والتقى والعلم، إنما يرفع للناس جميعاً لواء الحياة الجديدة التي سيحيونها في إمارته، ويملأ نفوسهم بالسكينة والأمن.

* * *

وراح يجعل من ولايته مثلاً عالياً واتسعت رقعة سلطانه، فصار والياً على الحجاز كله - مكة، والمدينة، والطائف، وما حولها.

وكأنما أراد القدر أن يجعل من إمارته هذه تجربة تمهد للجليلة والعظمة التي يدّخرها له في غد، يوم يتولى خلافة المسلمين، ويحكم الدولة المسلمة من أقصاها إلى أقصاها.

وسنرى كيف تبلغ التجربة مداها البعيد من النجاح والتوفيق. فابن عبد العزيز يضع كلتا عينيه على أخلاقيات الحكم، فيتخير من مزاياه واحدة ينبتها خضراء وسط الجحيم الذي كان يؤرث ناره أكثر الولاة الأمويين .. !

وإنه ليلتمس مجده، لا في صلف المنصب وجبروته، بل في التواضع الشديد للناس، وفي العدل يتحراه ويقيم موازينه بالقسط، وبالرحمة ينشر ظلها على كل مُصطلٍ وحَرُور، ويمنح فيئها كل مروَّع مقرور !!

وهكذا صار ـ وفي سرعة فائقة ـ مهوى أفئدة الناس وموضع حبهم الوثيق .. !!

والعلماء الذين كانوا بصلاحهم وترفعهم يتجنبون الولاة والأمراء، ولا يحملون لأكثرهم مودة ولا احترامًا ـ راحوا يهبون ولاءهم الصادق لابن عبد العزيز، حتى إن "سعيد بن المسيب" وهو يومئذ من أعظم علماء المسلمين كافة، والذي كان يرفض طوال عمره أن يسعى لزيارة أمير أو خليفة، بل كان يرفض استقبال الأمراء ومجالستهم.. هذا العالم الورع الكبير تراه اليوم يخف في جلال مشبوب إلى دار الإمارة مرات ومرات يلقى عمر بن عبد العزيز، ويجالسه، ويحادثه .. !!

* * *

راح الأمير الشاب ينشر بين الناس العدل والأمن، وراح يذيقهم حلاوة الرحمة وسكينة النفس، مخترقًا ذلك السياج الرهيب الذي أحاط الأمويون به أنفسهم وملكهم، صارخًا بكلمة الحق والمعدلة، نائيًا بنفسه عن مظالم العهد وآثامه، متحديًا جبابرته وطغاته. وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي.

حدث يومًا أن أناب الخليفة عنه في موسم الحج، طاغية العراق الحجاج.

وكان "عمر بن عبد العزيز" يمقته أشد المقت بسبب طغيانه وعسفه، فأرسل إلى الوليد بن عبد الملك ـ الخليفة يومئذ ـ يسأله أن يأمر الحجاج ألا يذهب إلى المدينة، ولا يمر بها، برغم أنه يعرف ما للحجاج من مكانة في نفوس الخلفاء الأمويين، وفي نفس "الوليد" بصفة خاصة، بل برغم إدراكه لما سيسببه موقفه هذا من إثارة غيظ الحجاج، الذي كان ذا مقدرة رهيبة على الانتقام لنفسه.

ولقد أجاب الخليفة طلب عمر بن عبد العزيز ـ وكتب إلى الحجاج يقول:

« إن "عمر بن عبد العزيز" كتب إليّ يستعفيني من ممرك عليه بالمدينة، فلا عليك ألا تمرَّ بمن يكرهك، فنحِّ نفسك عن المدينة »

* * *

إن مقت "عمر" لرجل كالحجاج، وهو لم يتبوأ منصب الخلافة بعد، ولم يقع له ذلك الانقلاب الروحي الهائل الذي سنشهده حين يستخلف، ليكشف عن نقاء جوهره، وأصالة نفسه.

فالأمويون مدينون للحجاج إلى مدى بعيد ببقاء ملكهم واستمراره، واتساع رقعته، وهو لهذا كان موضع إعجابهم، وولائهم.

ولكن، ماذا يعني رجلاً كعمر بن عبد العزيز من هذا الملك العريض، إذا كان قد قام واتسع على أكتاف طغاة كالحجاج ؟؟

إن موقفه هذا من الحجاج ومن نظرائه، يزكّي حسبانه أن يقدر أن الإمرة لأمراء هذه أن تكون تجربة بعده العظيم فعمر يعلم كما نعلم أن تحدّي الحجاج ليس أمراً سهلاً، إذ كان الحجاج يومئذٍ قوي القبضة على نفسه قدراً من مقدرة الدولة ومصائرها.

وهو يعلم أن خلفاء بني مروان مستعدون أن يضحّوا بكل عزيز وغالٍ في سبيل الحجاج، وما داموا لا يزالون بحاجة إلى بطشه ودهائه.

لكنّ ذلك لا يعني الرجل الأمين على مسئولياته لدى نفسه وسحتم عليه، هو أن يأخذ جانب الحقّ مهما تكن العقبات والعواقب.

إنه الآن يرى الأمور رؤية ذكية، وإن تجربة الولاية وتحكم الشيء عليه بصيراً سديداً بما يجري حوله في الدولة الواسعة العريضة التي يسوسها الأمويون.

وهو، وإن يكن أميراً أموياً، لا ينخدع بمظاهر تصرفه عن الواقع وحقيقته، ولا يبيع دينه بدنيا حاكمه وقومه.. !!

* * *

إن الدنيا تموج من حوله بالأطماع والضلالات

إنها كما أرته تجربته، وكما وصفها هو: "دنيا يأكل بعضها بعضاً" !

ولو كان أمر هذه الدنيا بيده لقوّم عوجاجها، لكن ليس بيده الآن سوى إمارته

على أن سلطته ـ بل بعض سلطته ـ إنما ينحصر في بلاد الحجاز وحدها، حيث هو أميرها وواليها وإذن فليؤدّ واجبه نحوها، ولتطبعها بطابع شخصيته المستقيمة الصادقة العادلة، فما ينبغي أن يظل وجه الحياة بعد مجيئه كما كان قبل مجيئه.. !!

لابدّ من أن يتغير كل شيء الناس نفوسهم وسلوكهم والأرض بما فوقها من عمارة، وفيما يشقها من طرقات وقنوات..

وهكذا راح يعمر ويعمّر، بادئاً بالمسجد النبوي، فأعاد بناءه وأرسل بعثات التعمير في كل أرض الحجاز، يحفرون الآبار، ويشقّون الطرق.

وفي حدود ولايته وسلطته، ردّ للأموال العامة كرامتها وحرمتها، فلم تعد نهبة المستغل يكن نهب وحرس، كما لم تعد ألعوبة في يد كل مسرف ومترف، بل وجد كلّ درهم مكانه الحقّ والصحيح، لا يتجاوزه ولا يتعداه.. !!

وفتح أبواب المدينة لمن يلتمس من ظلم الولاة في كل قطر الدولة وحماهم من المطاردة، ووفّر لهم الطمأنينة والأمن.

* * *

وفي العام الثاني من إمارته حدثت ظاهرة يكتفي المؤرخون بمجرد تسجيلها على حين نرى فيها سبباً وتبياناً من أسباب التطور، بل الانقلاب الروحي الذي سيغمر شخصيته بعد حين. ففي ذلك العام، ولاه الخليفة إمارة الحج. ولم يكد موكبه يبلغ مكة حتى ألفى أهلها في قحط وعسر ومشقة، فما كان منه إلا أن دعا صفوة العلماء والصالحين، ومن شاء من عامة الناس أن يتبعهم، ثم خرج بهم إلى فضاء مكة، ثم وقف "ابن عبد العزيز" يدعو الله ويضرع إليه بعد أن صلى بهم صلاة الاستسقاء... فإذا شيء ينبئه المعجزات، إذ لم يغادر مكانه حتى هطل المطر على غير موعد، وفي غير مظانه، ولم يصدق الناس أبصارهم التي راحت تحدق في سماء زرقاء ناصعة صافية، ليس فيها مزعة سحاب!!

وشهدت مكة في عامها ذاك خصوبة نادرة!!

في تقديري، أن هذه الظاهرة لابدّ من أن تكون قد استقرت واستكنت في أعماق نفس "عمر"، متحولة مع الأيام إلى خبرة روحية سيكون لها أثرها المباشر في انقلابه الروحي المقبل.

إذ لابدّ من أن يكون "شعوره"، أو "لا شعوره"، أو هما معاً ـ قد أدركا أمام هذه الكرامة الواضحة ما أودعه الله في روحه من سر، وقداسة*

* * *

على أية حال، فقد استغرقت الأمر مسئولياته، فانصرف عن الكثير من هواياته ـ عن الشعر والشعراء، والسمر والغناء... وإن بقي له شغفه بالأناقة وطيبات الحياة

رآه يوماً أحد الزهاد يشتري ثوباً رائعاً بثمن غالٍ ومرتفع، فقال له:

أوما كان الخير لك أن تضع ثمنه في جيوب الفقراء؟ فلم يغضب ولم يستنكف، بل أجابه قائلاً:

«وهل رأيتني أهملتُ الفقراء...؟»!

وهو جواب حقّ لا مراء فيه، فقد كانت أيام إمارته على المدينة والحجاز أيام رخاء وبركة، قلّما شهد الناس مثلها.

ولم تشغله الإمارة عن تجويد عباداته وتنمية تقواه، فعكف على العبادة عكوفاً مثابراً، وكثيراً ما كان يحلو له أن يمضي الليل فوق سطح مسجد الرسول ﷺ يتهجد لله ويدعوه

صلى وراءه "أنس بن مالك" صاحب رسول الله ﷺ، ثم قال:

«ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الرجل»!!

كذلك لم تشغله الإمارة عن مواصلة التزوّد من العلم والفقه، فراح يثري عقله، ويملأ بالعلم فكره، حتى صار في هذا المضمار حجّة وإماماً..

ووقف أبو النضر المديني يخاطب علماء المدينة يوماً، فقال وهو يشير صوب "عمر بن عبد العزيز":

«إنه والله أعلمكم» ..!!

بل إن العالم الجليل "محمد بن جبر" الذي عرض القرآن على "ابن عباس" ثلاثين مرة.. والذي كان من الأئمة المعدودين، يقول عن "عمر بن عبد العزيز":

«أتينا عمر نعلمه، فما رجعنا حتى تعلمنا منه» !

والإمام "الليث" يقول أيضاً:

«ما التمسنا علم شيء، إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه، وما كان العلماء عنده إلا تلامذة» !!

إن هذه الشهادة من أولئك الأقطاب الكبار، لترسم صورة باهرة للطريقة التي كان عمر ينمي بها شخصيته العقلية والروحية .. ترى إلى أي مدى يستطيع النظام العام للدولة الأموية أن يتحمل رجلاً من طراز عمر .. تكشف استقامته ونزاهته كل عوار ذلك النظام وتفضح سوءاته ؟!

إنه لن يصبر عليه إلا قليلاً .. وعلى الرغم من أنه أمير بارز في أسرة بني مروان الحاكمة، وعلى الرغم من أنهم جميعاً، بلا استثناء، يهابونه ويحترمونه، فإنهم لن يطيقوا على منهجه الجديد المجيد صبراً .

* * *

لقد كان دائم التنديد بسوء الحكم وطغيان الولاة .. ولقد قلنا من قبل إن الحجاج طاغية بني مروان، لن ينسى مقته له، ولا تشهيره به ..

وها نحن أولاء، نراه ينتهز فرصة يرى فيها بعض المعارضين لمظالم العهد والمنددين بها، فيسيء مؤامراته ووشاياته موغراً صدر الخليفة على ابن عمه وزوج أخته، ووالية على الحجاز "عمر بن عبد العزيز".

لقد أرسل الحجاج إلى الخليفة "الوليد بن عبد الملك" يشكو إليه استقبال "عمر" وإيواءه كل الذين يطلبهم الحجاج ليحاكمهم على مؤامراتهم ضد الأمويين ..

ولقد كان السبيل ممهداً لوشايات الحجاج، وربما لأي وشاية تريد النيل من "عمر" ذلك أن منهجه العام كان من السمو بحيث لا يطيق الآخرون من بني مروان محاكاته، بل لا يطيقون معايشته ..

علم الخليفة يوماً أن بعض الناس في المدينة يمعنون في تجريح الخلفاء الأمويين وسبهم، فاستدعاه إليه وسأله:

ما تقول فيمن يسب الخلفاء ؟ أيقتل .. ؟

فصمت "عمر"، ولم يعقب ..

وازداد الخليفة تجهماً وعبوساً، وأعاد سؤاله

ما تقول فيمن يَسُبُّ الخلفاء ؟ . أيُقتل . ؟

وفي سماحة وسمو بديه وعظمة نبله ، أجاب وهو غير مُلْقٍ بعواقب بالاً

« هل قتل نفساً بغير حقّ ، يا أمير المؤمنين » . ؟؟

قال الوليد . لا ، ولكنه سبَّ الخلفاء ، وانتهك حُرمتهم

وفي هدوء راسخ ، أجاب "عمر" .

« إذن يُعاقَب بما انتهك للخلفاء من حُرمة ، ولكن لا يُقتل .. »

وأنهى الخليفة المقابلة بإشارة غاضبة رَعْناء ، وانصرف "ابن عبد العزيز" عنه وهو يتوقع منه نقمة عاجلة ، صوّرتها كلمته هذه

« خرجتُ من عنده ، وما تهبُّ ريح إلا وأظنها رسولاً منه يدعوني إليه » !!

* * *

في هذا الجو المتوتر ، قرر الحجاج أن يصطاد غريمه ، فألقى وشايته الماكرة

والحقّ ، أن "عمر" كان يفسح صدره ، كما يفتح أبواب المدينة ، للهاربين من طغيان الحجاج ، وغير الحجاج

والحقّ أيضاً ، أنه كان يحترم حقهم في نقد أخطاء الحكم وكشف زيغه وفساده ،

بيد أنه لم يكن بين هؤلاء الذين يُؤويهم ويحميهم من يُدبِّر انقلاباً مسلحاً ضد الدولة ، كما حاول الحجاج أن يُوهِم الخليفة الوليد ..

ولعل وشاية الحجاج كانت ستبوء بالخذلان لو أن "عمر" استطاع قبولاً من المسايرة واللين في دفعها

لكنّ فطرته الطاهرة النقية الحية ، لم تكن تعرف في مثل هذا المجال مسايرة ، أو ليناً

وهكذا ، لم يكد الخليفة يرسل إليه متسائلاً عن دعوى الحجاج ، حتى كتب له رداً يفيض بأساً وصرامة

فقد راح يحدثه عن العدل المغتصب والظلم المتحكم ويندد عليه بالمظالم البشعة التي يقترفها الحجاج وأشباهه تحت ستار سلطة السلطان لبني مروان .. وراح يصارحه ، بأنه ليس ثمة دولة تحترم نفسها ، تقبل أن يكون طاغية كالحجاج بين ولاتها

ثم قال قولته الصادعة الرائعة :

« لو جاءت كلُّ أمّة بخطاياها يوم القيامة وجئنا نحن بالحجاج وحده لرجحناها جميعاً » . !

ورأى "الوليد" نفسه أمام كلمة خليفة قادرة على تحديه بل إهانته ، فأصدر أمره بعزل "عمر" عن ولاية المدينة والحجاز .

وغادر البطل المدينة التي لم يُحبَّ في الدنيا بلداً ، قدر حبه لها

غادرها إلى الشام، بعد أن بقي في ولايتها ستة أعوام، ملأ البلاد خلالها عُمراناً وأمْناً، وملأ الناس رخاءً وبهجة!!

* * *

وفي الشام لم يسأل نفسه: ماذا يصنع؟ ولا كيف يمضي أوقات فراغه، فلم يكن في حياته فراغ.. إن كل دقيقة فيها مشغولة بالعمل، مملوءة بالطاقة.. وإن الجهد المبذول سيواكب التكامل الموفق ليدفع كل ساعات حياته ودقائقها في طريق هذه الرحلة المقدسة، والسفر المبارك الميمون..!!

وفور رجوعه إلى الشام، وَجد جيش الدولة يتحرك للقاء جيش الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي كانت دائبة التحرش بالدولة المسلمة والشغب على حدودها. فامتشق "عمر" سلاحه وحمل نيته الصالحة، وأخذ مكانه بين المقاتلين - جندياً عادياً، يرجو ظفر المؤمنين، أو عقبى الشهداء الصالحين..!!

ويعود من الحرب، فيعكف على نفسه في محراب المعرفة والتقى.

وكما وجدناه في المدينة يؤثر صحبة الأبرار من أمثال "عبيد الله بن عتبة" نجده في الشام يؤثر صحبة الأخيار، أمثال "رجاء بن حيوة" كما راح يراسل إمام عصره "الحسن البصري" ويتعلم منه، ويحاول أن يسير على دربه.

وراح يدير حوله طرفه على أحداث الدولة ومشكلات الجماعة.

وكثيراً ما كان يأخذه الأسى والحرج.. ولكن ماذا يصنع وليس له من الأمر شيء؟!

إن كل ما يستطيعه، أن يرفع صوته عالياً ضد الفساد والظلم، ولقد فعل.

وكان الناس يتناقلون عنه في الأمصار، فيما يتناقلون عباراته اللاذعة التي يقذف بها في وجه البيت الأموي الحاكم.

من تلك العبارات قوله:

«الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقُرّة بن شريك بمصر، ويزيد بن أبي مسلم بالمغرب.

امتلأت الأرض والله جوراً» !!

* * *

ويموت "الوليد بن عبد الملك"...

ويخلفه أخوه "سليمان بن عبد الملك"

وعلى الرغم مما يكنّه "سليمان" لعمر بن عبد العزيز من إجلال ومحبة، فقد جعله "وزيراً" ومن ثم آثر أن يكون له الأخ والصديق.. والوزير، فنصح!!

كانت روح "عمر" تسمو صاعدة نحو مطالعها

وكانت العبادة تصقل روحه، كما يصقل العلم فكره، وراح يثابر على أداء دوره فيشير بالمعدلة، والحق، والخير.. مدبراً ضد السوء، والضلال، والشر

وإنه ليقيس بمقاييس الدين القويم كل تصرفات الدولة في حروبها وسياستها في مجتمعها واقتصادياتها، وأخلاقياتها.. فيجدها في كل ذلك خاضعة لهوى الخلفاء والأمراء والولاة، بمقدار ما هي بعيدة عن روح الدين ومنهجه.

ما كان أحد على طاقة الجهر دوما بهذه الحقيقة وإعلانها.

* اصطحبه الخليفة "سليمان" يوما لزيارة بعض معسكرات الجيش.

وأمام معسكر يعجُّ بالعتاد وبالرجال، سأله "سليمان" في زَهْوٍ:

ما تقول في هذا الذي ترى يا عمر..؟

وسرعان ما جاء جواب عمر، كقاصمة الظهر، فقد قال:

«أرى دنيا، يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسؤول عنها، والمأخوذ بها» !!

وبهت الخليفة بهذه الإجابة التي لم يكن يتوقعها، فعقب عليها قائلا له: ما أعجبك !؟

وإذا "عمر" يجيب قائلا:

« بل ما أعجب من عرف الله فعصاه، وعرف الشيطان فاتّبعه، وعرف الدنيا فركن إليها » ؟!!

* كذلك صحبه الخليفة في رحلة للحج، وفي الطريق حصبتهم السماء بأنوائها بماء منهمر، ففزع سليمان وأرعبه السيل الكاسح، ونظر فإذا ابن عبد العزيز يضحك، فسأله سليمان:

أمثل هذا يضحك الناس..!

فأجابه عمر:

« يا أمير المؤمنين، هذا في حين رحمته، فكيف به في حين غَضبه » ؟!!

أجل.. إذا كان المطر الذي هو من آثار رحمة الله وعونه، يمكن أن يبعث الخوف ويوقع الضرّ.. فكيف بغضب الله وعقابه ؟! كيف بنقمة الله التي أعدها لتكون نقمةً ووبالاً ؟!

* * *

على هذه الوتيرة، راح "عمر" يُعلي نُذُره، محاولاً أن يفتح الأعين العمْي، والآذان الصُّمّ..

وعمّا قليل ستتقدم الأقدار بمشيئتها نحوه، هاتفة به كي يتقدم لحمل المسؤولية الكبرى: خليفة للمسلمين، وأميراً للمؤمنين..

فعسى أن نلتقي -إن شاء الله تعالى- في أروع أيام حياته تلك، بل أروع أيام البشرية المسلمة كلها.. وعسانا الآن أن نلقي نظرة سريعة على نوع ذلك الميراث المثقل الفادح، الذي سيكتب على ابن عبد العزيز أن يحمله ويُقوّم اعوجاجه..

هذا الميراث الذي ينتظم العهد الأموي.. الذي بدأ باستخلاف معاوية، ووقف الآن عند سليمان بن عبد الملك بن مروان..

■ ■ ■

التَّركة القاتلة

« نَحِّ سعدٌ .. فقد هَلَكَ سَعيد » !!

استقر الأمر لمعاوية بالشام حاكماً للمسلمين ، بعد خدعة التحكيم في "صفّين" ، وبعد استشهاد الإمام عليّ ، على يد أحد الخوارج الذين عزب عنهم صوابهم .. ثم بعد الصلح الذي عقده معه "الحسن بن علي" ليحقن به دماء المسلمين .

استقر له الأمر ، فراح يضع في دهاء وصبر ، أساس دولة أموية طويلة العمر ، ممتدة على الزمان .

ولسنا هنا بصدد تصويب أو إدانة موقف "معاوية" في نزاعه مع "الإمام" ، فقد فصلت ذلك في مؤلفات .. "في رحاب علي" ، و "وداعاً عثمان" ، و "أبناء الرسول في كربلاء" .

لكننا نكتفي هنا ، كمدخل للموضوع ، برفض ودحض الموقف الذي وقفه "معاوية" باستخلاف ولده يزيد وأخذه البيعة له .

هذا "اليزيد" الذي هدم بالانحلال والقسوة ما بناه أبوه بالدهاء والحلم ، والذي سنّ للدولة الأموية على طول عهدها شريعة الغاب التي سارت عليها وقامت بها .

ومن عجب أن هذا الذي توسّل به "معاوية" لاستبقاء الملك في بيت أبي سفيان توسّل به القدَرُ في الوقت نفسه لحرمان هذا البيت من الخلافة والملك إلى الأبد ، بعد أربع سنوات لا غير من استخلاف يزيد .. !!

فقد مات "يزيد" بعد أعوام أربعة قضاها في الملك عاتياً جبّاراً .

وفي مرض موته خلع الملك على ولده "معاوية الثاني" حرصاً منه على أن تظل راية الخلافة خفّاقة فوق بيت أبي سفيان !!

لكنّ القدر العظيم كان يعدّ مفاجأة أذهلت الناس ولا ريب .

ذلك أن "معاوية الثاني" ـ ذلك الشاب التقي الورع ـ جمع الناس في يوم مشهود ، ونهض فيهم خطيباً ، فقال :

« إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق منه لقرابته من رسول الله ، وسابقته في الإسلام ، وهو عليّ بن أبي طالب .. !

ثم تقلّد أبي ـ يزيد ـ الأمر من بعده ، فكان غير أهلٍ له ..

ركب هواه ، وأخلفه الأمل .. !!

وإن من أعظم الأمور علينا ، علمنا بسوء مصرعه وقد قتل عترة رسول الله ﷺ ، وأباح الحرم ، وخرّب الكعبة .. !!

وما أنا بمتقلد أمركم ، ولا المتحمل تبعاتكم فاختاروا لأنفسكم » .. !!

وعكف الشاب الصالح في داره رافضاً الخلافة حتى لقي ربه راضياً مرضياً

وهكذا، لم يُحرم بيت أبي سفيان أمانه في سدة الملك فحسب

بل تلقّى وثيقة إدانة رهيبة من أحد بَنيه الأبرار !!

ولقد أفضى موقف "معاوية الثاني" إلى زلزال رهيب أصاب حكم الأمويين بدوار جميع أفئدة حاشيته، من أمثال عبد الله بن زياد، قاتل الشهيد ابن محمد "الحسين بن عليّ" رضي الله عنه... فرأينا ذلك الطاغية يهرب متنكراً في ثياب امرأة حتى يُصرع فيما بعد قتيلاً !!

وبدت الدولة تمزقاً وضعفها على شفا الهاوية، وكان الأمر ينتهي بـ "عبد الله بن الزبير" ليستقيم به على الجادة، لولا ظروف كثيرة لا مجال لسردها هنا، هيأت لمروان بن الحكم أن يعتلي منصة الحكم وسط فتن مظلمة، ومؤامرات ماكرة..

وهكذا، انتقل الحكم من بيت أبي سفيان، إلى بيت أمويّ آخر، هو بيت مروان

ومروان هذا، صاحب تاريخ مريب، منذ كان رئيساً لديوان الخلافة في عهد "عثمان" رضي الله عنه

وإن له لمواقف كثيرة تدمغه وتدينه..

وقد بدأ تجربته الشريرة هذه في مصر، إذ كان واليها يومئذ "عبد الرحمن بن جحدم" مناصراً لعبد الله بن الزبير.

وكانت مصر هدفاً لأطماع مروان، فجاء إليها على رأس جيش هزم به عبد الرحمن ابن جحدم، ثم دعا الناس إلى بيعته طوعاً وكرهاً.

وحين احتفظ الكثير منهم ببيعتهم السابقة لابن الزبير، ضرب أعناق ثمانين منهم ليرهب بهم الباقين.. !!

وفي الوقت نفسه، أرسل عبد الله بن زياد إلى العراق، وأمره أن يستبيح الكوفة بعد فتحها.. !!

وغدر بخالد بن يزيد الذي كان قد اتفق وإياه معاهدة، كما غدر بعمرو بن سعيد ابن الأشدق، الذي لولا بلاؤه العسكري لما استقر الأمر لمروان

وهكذا بدأت الدولة الأموية المروانية منهجها في الحكم بالقهر وبالغدر !!

وما إن يموت مروان الذي لبث في الحكم عشرة شهور، حتى أخذ البيعة لولده "عبد الملك"، ومن بعده "عبد العزيز" أي أنه سار على نهج معاوية، فجعلها هرقلية؛ كلما مات هرقل، قام هرقل !!

وينهض عبد الملك بن مروان بالأمر، ومن بعده ولده "الوليد" ومن بعد الوليد "سليمان"

خلال هذا العهد تقوم - ولا سيّما في عصر عبد الملك - انحرافات هائلة، لا يُحمد لها قدرٌ

ولكنْ إلى جانب تلك الانحرافات يصيب الدولة من الفساد، ويصيب الناس من الرعب، ويصيب الحياة من التزييف، ما شكّل "الحركة الهائلة" التي سيبدأ بها "عمر"

بن عبد العزيز" حين يضع المقادير على كاهله مسئولية الخلافة

فماذا كانت هذه التركة الرهيبة ؟؟

لقد تمثلت في القسوة الباطشة التي توسّل بها بنو مروان لتمكين سلطانهم

وتمثلت في الفساد الذي غطّى حياة الدولة وحياة الأمة معاً

وتمثلت في تزييف القيم والحقائق، مما جعل الناس يومئذٍ يعيشون ـ لا فراغاً ـ بل خراباً فكرياً روحياً مدمّراً.

* * *

* فأمّا منهج المروانيين في القسوة والبطش، فيبدو واضحاً في اصطناعهم الحجّاج ونُظراء الحجاج.

لقد اختاره "عبد الملك" لقتال "عبد الله بن الزبير" بمجرد أنه ندب نفسه لهذه المهمة الآثمة قائلاً لعبد الملك: لقد رأيتني في المنام أسلخ عبد الله بن الزبير، ثم أقوم بسلخه، فابعثني إليه وولّني أمر قتاله..!

وعلى الفور بعثه عبد الملك، ليحقق رؤياه، وليقوم بسلخ ابن حواريّ رسول الله وابن "أسماء" ذاتِ النِّطاقين.. والعابد القانت الأوّاب..!

ومضى الحجاج يمشي إلى غايته، فما أبقى على حُرمة

نصب المنجنيق فوق جبل قبيس ورمى به المسجد الحرام في الشهر الحرام، والمسلمون يؤدون شعائر الحج ومناسكه..!!

ويتلقى مكافأته من عبد الملك الذي ولاه على مكة والمدينة واليمن واليمامة ثم نقله إلى العراق ليصبّ عليه بطشه.

ولا يكاد يضع قدمه فوق أرضه حتى يخطب في أهله خطبته المشهورة

«إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قِطافها، وإني لصاحبها

وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. قد شمّرت عن ساقها تشميراً.

وقسماً بالله، لآخذن الوليّ بذنب مولاه، والمقيم بذنب الظاعن، والمطيع بذنب العاصي، حتى يلقى الرجل أخاه، فيقول له: انجُ سعد فقد هلك سعيد» !!

انج سعد، فقد هلك سعيد.. !!

ذلك هو الوصف الصحيح للتركة الثقيلة التي سيخلفها بنو مروان للرجل الصالح "عمر بن عبد العزيز"

البطش، والقتل، والقمع، حتى تمتلئ الأرض أشلاء ودماء.. "

وقد يقال: إن هذه القسوة، بل هذا السعار الدموي، إنما فرضته ظروف التمرد والمقاومة المسلحة التي جُوبهت بها الدولة الأموية طوال عهدها ذاك

بيد أنه أصحّ من هذا وأصدق، القول بأن هذا السعار المتوحش هو الذي أجّج نار ذلك التمرد ونشر لهبه في كل مكان

ولقد شهد شاهد من أهلها بوحشية الطغيان الذي ميّز ذلك الميراث الرهيب

ذلكم هو عبد الملك بن مروان نفسه، الذي راح يردّد في مرض موته كلمات الندم هذه

«ماذا سأقول يوم المسألة عن أمر الحجاج» ؟؟

بل لقد همَّ ذات يوم أن يعزله، وكتب إليه كتاباً مملوءاً بقوارع القول، ومحشواً بهذه العبارة

«فاعتزل عمل أمير المؤمنين، واظعن عنه بلعنة مستحقة، وعقوبة منهكة» !!

لكنه عاد فاستبقاه خوفاً على ملكه وسلطانه .. !!

ولم يكن سفك الدماء المظهر الوحيد لتلك القسوة بل كان هناك إذلال الناس بغير حق فالموالي ـ وهم المسلمون من غير العرب، والذين يعطيهم الإسلام كل ما أعطى المسلمين من حق ـ راح بنو مروان يحرمونهم حقهم في بيت المال ويفرضون عليهم وظائف دونية، ويفرضون عليهم الجزية بحجة أنهم دخلوا الإسلام هرباً من دفعها !!

مع أنهم قد نبغ من صفوفهم الكثرة الكاثرة من علماء الإسلام وأئمته وعُبّاده ونُسّاكه

كما كان هناك إغراء الناس بعضهم ببعض، وذلك أيضاً بتقسيمهم الأمة إلى عرب، وموالي. وإحيائهم العصبية القبلية التي بدأها معاوية مع المُضريين، والقيسيين، واليمانيين .!

* * *

هذا عن القسوة

* فأما الفساد فقد طمّ كل شيء في الدولة، وفي الأمة.. خربت الذمم، وراح كل قادر على النهب ينهب ما تصل إليه يداه

وغابت الأخلاق، فشاع الترف والانحلال

ووراء الفساد سار الخراب، فأخذت الأزمات المالية بخناق الدولة، ومُحق نتاجها، حتى إن العراق ـ وهو أغنى أقاليمها يومئذٍ ـ لم يكن يغلّ في عهد الحجاج أكثر من خمسة وعشرين ألف درهم، وهو الذي كانت غلّته من قبل، وحتى عهد معاوية، تبلغ مائة وعشرين مليوناً من الدراهم .. هذا، مع أن الحجاج لم نعرف عنه خيانة ولا إثراء غير مشروع، لكنها حروبه التي كانت تولّدها قسوته، وكذلك إسرافه في صنائع العملاء والإغداق عليهم بغير حساب، والقتل الذي أجهز على المجموع العاملة، في الزراعة، والتجارة، والحرف الأخرى .. !!

* ولقد كانت هذه القسوة وهذا الفساد تزييفاً كاملاً لتعاليم الدين وقيم الحياة

وحسب هذا التزييف المهين مثلاً، أن نرى منابر المساجد في كل الأقطار الإسلامية الرازحة تحت حكم الأمويين، تُلعن من فوقها بطل الإسلام العظيم وابنه البار، وإمامه

لأوَّاب "عليّ بن أبي طالب"!!

أجل .. نُفرض على الخطباء أن يسبّوه .. ومتى ..؟ في خطبة الجمعة التي يستهلّونها قائلين : "اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد" .. وآل محمد الذين يأخذ "عليّ" فيهم مكان الدُّرَّة الفريدة في العقد المنظوم ... !!

أهناك ترييف للقيم ، بل إلغاء للمنطق وكرامة العقل أكثر من هذا ..؟؟!

على أن هذا التزييف للحق وللحقيقة ، قام على أكتاف الشعر ، والشعراء الذين نوّلوا كثيرًا ، واحتملوا وزره .. ولعل هذا يفسر لنا الموقف الذي سيتخذه منهم "عمر ابن عبد العزيز" حين يحمل مسئولية الخلافة ، فلسوف نراه يطردهم عن بابه ، ويحرمهم العطاء المغدق الذي كانوا يتقاضونه من أموال المسلمين ثمنًا لكذبهم ونفاقهم

لقد كان لكل بلاط شعراؤه .. ولكل والٍ وأمير مادحوه .

ولقد أوضحنا في صفحات سابقة ، كيف كان الشعر ثقافة العصر ولغته ، وإلى أيّ حد كان شغف الناس به وإقبالهم عليه عظيمًا .

ومن ثمّ ، فإن الخليفة الذي كان يريد أن يُجرِّع الأمة أكذوبة أو يُنسيها حقًّا ، لم يكن يجد وسيلة لذلك أفضل من الشِّعر .

وإن رجلاً كمعاوية في دهائه العظيم ، لا يجد في ذلك الدهاء غناء عن الشِّعر حين همَّ بأخذ البيعة ليزيد ، فأوحى لشاعره الخاص أن يُعدَّ قصيدة لهذا الغرض ، ينشدها في جموع الناس الذين سيحشدهم معاوية في ميقات معلوم .

وفي ذلك الميقات يجتمع وجهاء الشام في قصر الخليفة ، وهم لا يعرفون لماذا دُعوا .. ؟ ولا لماذا اجتمعوا .. ؟ ويقف شاعر معاوية ليقول :

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروانُ ، أم ماذا يقول سعيد
بَني خلفاءِ الله مهلاً ، فإنما ... يُبوّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربُّه ... فإن أمير المؤمنين "يزيد"

ولا يكاد يفرغ من إلقاء قصيدته ، حتى يتظاهر معاوية الداهية بأنه فوجئ بما سمع ، فيحرك كفَّيه ، ويقول في مكر شديد وهو يوجه الحديث إلى شاعره :

« سننظر فيما قلت ، ونستخير الله !! » .

* * *

وحين يحاول "عبد الملك بن مروان" تبرير مذابح وُلاته وقواده ضد الشِّيعة والخوارج ، وأنصار عبد الله بن الزبير ، يستنجد بشاعره "جرير" :

وهكذا تصبح الأوضاع – كما يريد شيطان جرير – فعبد الملك بن مروان إمام الهدى، وعبد الله بن الزبير ذئبه بدع "!!

* * *

وحين يرث الوليد أباه في الملك يهتف بالشعر يسند أزره، وليجرّع الناس سلطانه، فيتقدم جرير أيضاً:

إن الوليد هو الإمام المصطفى ... بالنصر هُزّ لواؤه والمُقسِم
ذو العرش قدّر أن تكون خليفة ... مَلكت فاعْلُ على المنابر واسلمِ

وهكذا صار الوليد إماماً مصطفى، وصارت خلافته قدراً من الله ونعمة ورحمة !!

* * *

وكما اعتمد الخلفاء على الشعر في ترويج باطلهم والتمكين لأنفسهم، راح ولاتهم وقادتهم يحاكونهم ويقلدونهم.

فزياد ابن أبيه يتوجه شعراؤه بالقصائد الكثيرة، حيث يقول في بعضها:

تقسّمت الرجال به هواها ... فما تخفي ضغائنها الصدور
فلمّا قام سيف الله فيهم ... زياد، قام أبلج مستنير

والحجاج، هل ينسى نصيبه الأوفى في هذه الولائم المادحة الكاذبة ؟؟

إنه يدرك أن جرائمه تتعاظم كل [illegible] هناك يلجأ إلى بعض الثالوث الأموي: جرير، والفرزدق

فهذا جرير يُجرّع الناس قوله:

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقّنوا ... ماضي البصيرة واضح المنهاج

وينافسه الفرزدق الذي يكتشف للحجاج من المناقب ما لا يعرفه الحجاج عن نفسه، ولا يُصدّقه .. !!

ولم أرَ كالحجاج عوناً على التقى ... ولا طالباً يوماً طريدة تابل
بسيف به لله يضرب من عصى ... على قصر الأعناق فوق الكواهل

وتمتدّ شهية الحجاج، فلا [illegible] الفرزدق وجرير، فيهتف بأعشى همدان الذي يتقدّم بدوره ليحمل منه قديماً ومُعداً !!

أبى الله إلا أن يتمم نوره ... ويطفئ نار الفاسقين فتخمدا
[illegible]
[illegible]

هكذا استُخدم الشِّعر أسوأ استخدام لتزييف الصدق والحق، ولطمس الحقيقة في وجدان الناس ووعيهم، ولإثارة البلبلة في خواطرهم، وتوهين علاقاتهم بالقيم والأخلاق.

فماذا يربط الناس بالقيم بعد، حين يرون قُوّاد الوليد بن عبد الملك يملئون الأرض دماً وعدواناً، ثم يرددون في المحافل قصيدة شاعره "عدي بن الرقاع"

صلى الذي الصلوات الطيبات له ... والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمَعا
إن الوليد أمير المؤمنين له ... مُلْكٌ عليه أعان الله فارتفعا

وهكذا ربط الناس بالقسم حين يرون خليفتهم عبد الملك بن مروان.. يصطفي لنفسه الأخطل، وهو يذكر هجاءه المقذع السافل للأنصار الذين بوّأهم القرآن والرسول مكاناً عليا.. ؟؟

لقد فقد الناس إيمانهم بأشياء كثيرة، ووقعوا في تيه مظلم بين ما يبصرون وما يسمعون، وتحطمت أعصابهم تحت وطأة الكذب، والزيف، والنهب.

لقد رأوا الأبرار يُذَبَّحون ويُمَثَّل بهم، والسفلة يرتفعون !!

وذهبت في الزحام أصوات نبيلة لمؤمنة وَرِعة.. مثل الحسن البصري وإخوانه.. همدت لغلبة سلطانها، وعاد الإسلام غريباً، أو كالغريب.. !

وكما كان "الحنفاء" في جاهليتهم يمشون ووجوههم في السماء، ويهيمون بين الجبال بحثاً عن النبي المنتظر، يخرجهم من الظلمات إلى النور.. راح الحنفاء، والمظلومون، والمقهورون في ذلك العهد الأموي يتطلعون إلى السماء في انتظار الحكم الذي يُجدد لله به دينه، والذي يردُّ للخلافة كرامتها وقدرها، ويضع عن الناس إصْرَهم، والأغلال التي كانت عليهم..

صحيح أن التركة ثقيلة، والميراث رهيب، لكنّ عونَ الله واصطفاءه كافيان لجعل العُسْر يُسراً.

* * *

لقد كان الأمر يحتاج إلى معجزة

ويمينُ الله ملأى بالمعجزات

أفما آن للمُتْعَبِينَ أن يظفروا منها بواحدة ؟؟

بلى.. آن..

وإن رحمة الله لواسعة

وإن عطاءه لجزيل.

■ ■ ■

البُشرى

«والله لأعتقدنّ عمداً ، لا يكون للشيطان فيه نصيب » .

ونعود من جديد لصحبة الرجل الصالح ـ عمر بن عبد العزيز ـ لنصاحب الجهد الخارق الذي سيكون على البطل أن يبذله حتى يجعل من الظلمات نوراً .

ها هي ذي الخلافة تقترب منه .

أتراه يطمع فيها ، أو يريدها ؟

كلا ، إنه ليس له فيها مطمع ، فسليمان بن عبد الملك كان له أولاده ومن عادة خلفاء بني أمية إيثار أولادهم بالاستخلاف .

فعل ذلك معاوية حين جعل الحكم ليزيد ، وفعله يزيد حين استخلف معاوية الثاني ، ثم فعله مروان حين استخلف ولده "عبد الملك" ، وفعله عبد الملك حين نحّى أخاه "عبد العزيز" ، وأخذ البيعة لولده الوليد .

كذلك لم يكن يريد الخلافة ، إذ كانت بعد أن رغب فيه ، قد صارت عبئاً مهيظاً على كل ذي تُقى وضمير . وكانت قد نسأ روحه النوّاقة إلى مرضاة ربها قد أحدث تنأى به بعيداً عن كل مغنم الحياة وزخرفها .

وكان ثمّة حدث وقع في أثناء ولايته على الحجاز ، ترك في نفسه فزعاً شديداً من السلطة والسلطان ، وعاش عمره كله يعضّ بمرارته ، ويعجب كيف غلبه فيه على أمره وتقواه !!

أما الحدث ، فخلاصته أنه تلقى كتاباً من الخليفة الوليد يتهم فيه "خبيب بن عبد الله بن الزبير" بالتحريض على الأمويين والتشهير بهم ، ويأمره بضربه .

وقام "عمر" بضرب خبيب ضرباً أفضى به إلى موته ، وحين أبلغوا "عمر" نبأ موته ، ترك الحزن عليه كالصاعقة ، بل كأن السماء انفطرت ، والكواكب انتثرت ، والقيامة قامت !!

وعشاه الحدث بحزن قاتل ، فعقد على نفسه نذراً ، لا يلبس مسوحاً سُوداً ، ضارعاً إلى الله أن يغفر له ويعفو عنه ..

وكشف له هذا الحدث كما قلنا ـ عن خطر السلطة والإمارة ، وتذكّر قول الرسول ﷺ عنها :

« إنها نِعْمَت المرضعة »

« وبئست الفاطمة » !!

وقوله عليه السلام :

« إنها في الدنيا إمارة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدّى الذي عليه فيها » .. !!

رأى كيف وهو يتحرى العدل والرحمة عظم التحري، قد ورطته السلطة في بعض آثامها

ولسوف يمضي العمر كله يرزح تحت وقع الندم، لا ترى من حاله صورة صحيفته، حتى حين نصير خليفة للمسلمين، ويأتي من معجزات العدل والورع والتُّقى ما يبدو أبعد من الأساطير.. حتى حين ذاك، لا ينسى ذلك الحدث الوحيد الذي وقع ضد إرادته وضد طبيعته

أجل.. سنراه وهو خليفة يطيل البكاء، فيقول له حواريُّوه المقربون: فيم بكاؤك، وقد وفقك الله لعمل أهل الجنة..؟

فتزداد دموعه انهماراً ويقول:

« وكيف بخُبَيب؟؟ وكيف بخُبيب؟؟ »

ثم يصيح كالثكلى

« إن نجوتُ من خُبيب، فأنا بخير » ..!

لم يكن إذن يطمع في الخلافة ولا يريدها

ولقد آثر أن يحيا مع نفسه يروِّضها بزاد التقوى، ويهيئها للقاء الله يوم يلقاه على خير حال، وأهدى سبيل..

وفي هذه الفترة من حياته، تجد نفسه الموافقة تعبِّر عن مسارها، فتأخذ في العزوف شيئاً فشيئاً عن الإغراق في الشئون، وتتخفف من المطاعم والطيبات، وتشغف بالعزلة والتأمل العميق.. ثم تراه يحصر علاقاته المحدودة في نفر كريم من العُبّاد والعلماء والزهاد

وخلال ذلك تتوثق صلته بـ "رجاء بن حيوة"، وكان من علماء التابعين وفضلائهم، وكان موضع ثقة الخلفاء الأمويين، عاش معهم دون أن يفقد فضائل نفسه

و"رجاء بن حيوة" شخصية جليلة، لا نملك ونحن نتحدث عن أمير المؤمنين "عمر بن عبد العزيز" إلا أن نحيي له حبه وتقديره، فقد اختارته المقادير - كما سنرى فيما بعد - ليكون السبب الأول والأوثق في إفضاء الخلافة لابن عبد العزيز.. حيث سترى لديه معجزة الحكم الورع العادل الطهور..!

فسلام الله ورحمته عليك يا رجاء..

* * *

إن العزلة التي أحبت نفس "عمر" تحتج لها، لم تحجبه عن عالمه، ولم تنسه إحساسه بمشاكل دولته وأمته، ولم تحمله على نفض يديه من مسئوليته الحذر

ففي هذه الفترة نراه ومعه شيخه وصديقه "رجاء بن حيوة" لا يكُفّان عن قرع أجراس الخطر، وإسداء النصح للخليفة سليمان

لقد كان غياب العدل والرحمة عن دولة الأمويين، أكثر ما يمض نفس "عمر"

من أجل ذلك صارت كلمتا "العدل والرحمة" تسبيحة عذبة على لسانه، يلهج بها دوماً، ويصبّها في أسماع الخليفة صبّاً.

* * *

وذات يوم، طرق باب الخليفة "سليمان" طائف المرض.. وكان في مرضه قد عقد ولاية عهده لولده "أيوب"، لكن "أيوب" كما يحدثنا ابن عبد الحكم مات، فصارت ولاية العهد شاغرة.

فلما مرض "سليمان" وشعر أنه مرض الموت، شغله أمر الخلافة.

وتفرّس وجوه بنيه، فألفاهم صغاراً.. فأمر أن يلبسوهم أقمصة الخلافة وأرديتها، ويقلدوهم السيوف ليرى على الطبيعة.. كيف يكونون..؟؟

وجيء بهم إليه مُزركشين بثياب الخلافة، متوشّحين سيوفهم، فوجدهم لا يملأون حاجب العين.. فقال آسفاً:

«إن بنيّ صبية صغار، أفلح من كان له كبار».

وخلا بمشيره الأمين "رجاء بن حيْوة"، وراح يقلب معه وجوه النظر، فقال له رجاء:

«إن مما يحفظك في قبرك، ويشفع لك في آخرتك، أن تستخلف على المسلمين رجلاً صالحاً»..

قال سليمان: ومن عساه يكون..؟

وأجاب رجاء: "عمر بن عبد العزيز"..!!

وتلقى "سليمان" مشورة رجاء كالبشرى، فقد صادفت هوًى في نفسه، بل صادفت عزماً كان يضمره وينتويه.

وهتف سليمان بعبارته المأثورة الباهرة:

«والله، لأعقدنّ لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب»..!!!

ولكنْ كيف السبيل إلى ذلك وإخوة سليمان قابعون كالنمور، يرقبون المنصب بالمرصاد..؟

هنالك هدى "سليمان" إلى الحل.. وهو أن يوصي لإخوته بولاية العهد بعد "عمر بن عبد العزيز".. وسارع "رجاء" لإنجاز الخطة.. وكتب مع الخليفة وصيته:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

«هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين، لعمر بن عبد العزيز.

«إني قد وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك.

فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله..

«ولا تختلفوا فيُطمع فيكم..»

هكذا تمت الخطوة الأولى نحو استخلاف "عمر" ، وبقيَ بعدُ الذي لن يكون لمشيئته فيه نصيب !

* * *

وسارع "رجاء" إلى الخطوة التالية ، فدعا الأمراء الأمويين جميعاً للخليفة ، وكان كتاب الخليفة قد طُوي وخُتم ، وأوصى الخليفة رجاء ألا يعلم بمضمونه أحد ما دام الخليفة حيّاً .

واحتشد الأمراء حوله ، وأمرهم "سليمان" أن يبايعوا من استخلفه واستودع وثيقته اسمه .. وحاول بعضهم أن يعرف قبل أن يبايع ، من أوصى بخلافته ، فزجره سليمان ، فبايعوا جميعاً ، ثم انصرفوا يتبادلون الحدس والظنون

* * *

أين كان "ابن عبد العزيز" والأمر يُقضى ويُبرم ؟؟

لقد كان يعود "سليمان" يوماً ، فاستقبله قائلا :

ـ يا "عمر" :

« ما أهمني أمر قط ، إلا خطرت فيه ببالي »

ومن ذلك اليوم ، وهو يحسّ شعوراً مبهماً في نفسه ، شعور المتوجس من أن يصفعه سليمان من وراء ظهره ، ويرزأه بمسئوليات الخلافة ..

هنالك ، سارع إلى حيث يلتقي برجاء بن حيوة ، ويقول له متوسلاً :

« يا رجاء ..

إني أرى أمير المؤمنين في الموت ، ولا أحسبه إلا سيعهد

وإني أناشدك الله إذا ذكرني بشيء من ذلك أن تصرفه عني

وإن لم يذكرني ألا تذكرني له في هذا الأمر أبداً » .

وكان على "رجاء" أن يستخدم ذكاءه في انتزاع هذا الإحساس من نفس "عمر" ، فهو يعلم أنه إذا تحوّل شعوره هذا إلى مجرد ظن قوي بأن الخلافة عهد إليه ، فسيسعى إلى الخليفة معتذراً ومتنصلاً .. بل ربما غادر البلاد كلها إلى حيث لا يُعرف له مقر أو مقام

من أجل ذلك أدّى "رجاء" دوره بدهاء عظيم حين أجاب "عمر" قائلاً :

« لقد ذهبت ظنك مذهباً بعيداً .. ما كنت أحسبك تذهب إليه

أتظن بني عبد الملك يُدخلونك في أمورهم » ؟!

وتهلّل وجه عمر .. وانصرف عن رجاء الذي تهلّل وجهه هو الآخر ، وراح يفرك كفّيه مغتبطاً مسروراً ، فقد ربح الجولة الأولى مع الهارب من الملك .. والمجد .. والخلافة !!!

* * *

وذهب إليه "هشام بن عبد الملك" أخو الخليفة سليمان، وكان يتطلع إلى المنصب في رغبة ضارية.

قال لرجاء: «يا رجاء.. إن لي عندك حرمة ومودة، فأخبرني بهذا الأمر.. إن كان صائراً إليّ علمت.. وإن كان لغيري تكلمت.. ولك عليّ العهد ألا أذكر من ذلك شيئاً أبداً».

وكان جواب الشيخ الحصيف له: إن الخليفة قد ائتمنه وأخذ عليه العهد ألا يتكلم.

وانصرف عنه "هشام" حيران أسفاً، يسائل نفسه:

«إذا كنت قد نُحّيتُ عنها.. فإلى من يا ترى؟ وهل ستخرج الخلافة من بني عبد الملك..؟؟»

وذهب "رجاء" ذات يوم يعود الخليفة، فوجده في النَّزع الأخير من حياته، فجلس إلى جواره حتى فاضت روحه فغمّضه.

ويكتم النبأ في ثبات ووعي.. مُهيِّئاً الظروف لإعلان الخليفة الجديد، رافعاً مع إعلانه هذا أعظم البشريات لدين الله، ولدنيا الناس..!!

ولْنُصْغِ إليه يكمل النبأ ويصف المشهد:

«.. وخرجتُ، فأرسلتُ إلى كعب بن حامد العبسي ـ رئيس الشرطة ـ ليجمع أهل بيت أمير المؤمنين...»

فاجتمعوا في مسجد "دابق"، فقلت لهم: بايعوا.

قالوا: قد بايعنا مرة؛ أنبايع أخرى..؟؟

قلت لهم: هذه رغبة أمير المؤمنين، فبايعوا على من عهد إليه في هذا الكتاب المختوم.

فبايعوه رجلاً رجلاً.

فلمّا بايعوا رأيت أني قد أحكمتُ الأمر، فقلت لهم: إن الخليفة قد مات.

ومضيت أقرأ عليهم الكتاب»..!

* * *

إنه ما دام النظام المعمول به في منهج الأمويين هو الاستخلاف،

فإن العمل الذي أنجزه "رجاء بن حيوة" لعمل جد عظيم..

فالرجل الذي اختير للخلافة هذه المرة، ليس ثمة من نظير له سوى..

إنه رجل، لو أن أروع ما عرف التاريخ الإنساني كله من ديمقراطية وشورى أراد أن يختار له نظيراً، لأعياه وجود النظير..!!

ومع ذلك، فسوف نراه عما قريب، ينتهز أول فرصة مواتية ليحاول خلع الخلافة من عنقه، وليردّ الأمر إلى المسلمين يختارون من يشاءون..!!

* * *

ورأينا كيف بايعه الأمراء الأمويون بعد أن فاجأهم كتاب الخليفة الذي قرأه عليهم رجاء

وكان هشام ممن بايع على مضض إذ تقدم من "عمر" وهو يقول

«إنا لله وإنا إليه راجعون، إذْ نُحِّيتْ عني !!»

فأجابه "عمر":

«بل، إنا لله وإنا إليه راجعون، إذ صارت إليَّ، وأنا لها كاره» !

ولم يكد يفيق من غمرة المفاجأة، حتى راح يرتجف كعصفور غطته الثلوج، واستقبل "رجاء بن حيوة" يقول له في عتاب:

«ألم أناشدك الله، يا رجاء» .؟!

ثم سار إلى الخليفة المسجّى فصلّى عليه، وشيّعوه إلى مثواه، وعاد يُعزّي أهل بيته فيه، ويتلقى فيه العزاء.

وفي الغداة - وكان الناس قد طاروا في كثير من بلاد الشام، حيث سارع خلق كثيرون إلى "دابق" - دخل أمير المؤمنين المسجد فإذا هو غاصٌّ بحشود هائلة من الوافدين، ورأى الخليفة فيها فرصته للخلاص من المنصب الكبير قبل أن يثبت بكاهله

وفجأة صعد المنبر، وخطب الناس:

«أما بعد، فقد ابتُليتُ بهذا الأمر على غير رأيٍ مني فيه، وعلى غير مشورة من المسلمين..

وإني أخلع بيعةَ من بايعني، فاختاروا لأنفسكم» .!!

ولعله فكّر أن المفاجأة ستذهل الناس، فتعقد ألسنتهم عن الكلام ولو لحظات يستطيع هو خلالها أن ينجو بنفسه، فيفسر صمتهم بقبول قوله

بيد أنه لم يكد يفرغ من نطق هذه العبارة «فاختاروا لأنفسكم» حتى كان المسجد يهتز بدمدمة رهيبة، أطلقتها الحناجر الصائحة الصادحة:

«.. بل إيّاك نختار، يا أمير المؤمنين» .!!

واندفعت الجموع التي بداخل المسجد، والجموع التي كانت خارجه، صوب المنبر الذي كادت تصهره أنفاسهم الحارّة..

وهبط دَرَجَ المنبر، محاولاً أن يجد له وسط الجموع طريقاً

كانت أصواتهم الصادحة تتابعه، قد حولت المناسبة إلى مهرجان

وراحت أذرعتهم المشرعة تلوّح وتخفق، كأنها الرايات الخافقة، وعيونهم المتقدة تبرق بفرحة الظفر وبهجة الحياة

وراح - هو - يُجهش بالبكاء.

■ ■ ■

المعجـزة

« بن جَزَى الله الإسلام عني خيراً» !!

نحن الآن أمام رجل جديد، مُغاير تماماً لهذا الذي كان معه عبرَ الصفحات السالفة من الكتاب.

فكيف ظهر هذا الرجل فجأة ؟!

كيف بَزَغ على نحوٍ مُباغتٍ.. ومن أين جاء.. ؟؟

* أكان القدر يضعه على عتبته، ليقدم به مُحيَّا باهرا لفضيلة والخير، في دنيا كادت تُجدب من الفضيلة والخير.. ؟

* أكان روح الإسلام يعمل في مثابرة غير منظورة، ليثبت أنه لا يزال يُنجب من أبنائه البررة رجاله الشاهقين المعجزين، مهما حسب الناس أن زمانهم ولّى ودرس ؟

* أكان الضمير الإنساني قد أقلقه غياب قدوته الصالحة، وإجداب الوجدان البشري منها، فراح يبحث عن أقوى الناس ليحقق به وفيه ظهورها وتجليها، ويذكِّر الطموح البشري بطريق القداسة.. ؟

* أكانت الخليفة قد سئمت عبقرية التنظيم والمعرفة والإدارة، تعمل وحدها، فراحت تهب بعبقرية الروح كي يملأ الفراغ الموحش، ويروي برهبانيته الناشطة وينبلها السبيل عملَ الحياة.. ؟

* أكانت فضائله الكامنة تنمو داخل نفسه نمواً غير منظور، وتحتشد في تركيز هائل، لتتفجرُ في ميقات معلوم طاقتها الجبارة.. ؟؟

ألا إن ذلك كلَّه قد كان..

وبهذا كله، ومن أجل هذا كله، جاء بين نحنه هذا الرجل الجديد، وراق الخليفة عمر الخليفة في رحلة سريعة لن تلبث إلا عامين، وخمسة شهور، وبضعة أيام !!

* * *

ولو أن هذا الخليفة كان قبل الخلافة واحداً من عامة الناس

ولو أن البيئة التي قضى فيها طفولته وشبابه ورجولته كانت مألوفة بين البيئات

ولو أن الزمن الذي استغرقه انقلابه الروحي المذهل، امتدَّ على طريق تطورٍ طويل أو حتى قصير

ولو أن بسبب المباشرة لهذا الانقلاب كان شيئاً آخر غير المنصب الذي نُشعل الطموح ويفتح الشهيَّات.

لو أن ذلك كان كذلك، لتيسَّر لنا تصوُّر الإعجاز الذي حدث

أما والأمر مختلف عن هذا كله، فإن ذلك الإعجاز يبقى - وسيبقى إلى الأبد - سراً جليلاً يتحدى كل إدراك..!

* فبطل الانقلاب الروحي الذي نستطيع الآن أن نصفه بالخارقة، لم يكن من أوساط الناس في معيشته وترفه، فنقول: إن زهده وورعه كانا امتداداً لمعاناة سابقة.. بل هو منذ مولده إلى استخلافه ربيب الملك، وحفيد المجد، وابن الأمير المغمور بالنعمة، والمنعم بها طيلة..!

* وهو لم يكن حين تسلم الخلافة شيخاً تقدمت به السن، فنقول: إن استغناءه عن متعها ووجهها ونعيمها، إنما هو مظهر لجسد شبع من النعيم ولحد حتى تشبع، وأعراض شيخوخة ولّى عنها ربيع الشباب وطموحه.. بل إن الفطن والفاتن (?) كان يوم استخلافه في رائعة الرجولة والاقتدار والطموح.. لقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره!!

* وهو لم يستغرق في انقلابه الروحي الهائل سنين ولا شهوراً، بل جاء كما سرى ابن لحظته التي اختير فيها أميراً للمؤمنين..!

* ولم يكن وراء هذا الانقلاب الروحي يأس من غاية أرهقت طموحه، ولا هزيمة في الحب أو جرح يلتمس عوضاً عنها، وبديلاً بها، ولا رد فعل لإفراط قديم في شهوات النفس، وملذات الجسد، ولا نوبة صلاح وتقى دفعت به إلى صومعة العابدين، ولا نزعة متشائم يرى العدم وراء الأشياء، فيلوذ بفلاة [illegible] كل بعض..

بل كان وراء انقلابه الروحي شيء هو أبعد ما يكون عن المناهج التي [illegible].. أجل، كان هناك منصب الخلافة، وصولجان الملك الأعظم، والأقوى، والأوسع إمبراطوريات عصره وزمانه..!

وفي هذا - قبل أي اعتبار آخر - تتراءى فداحة هذا الانقلاب المفاجئ، وتتمثل المعجزة كلها..!!

* * *

ونحن نصف هذا الانقلاب بالمفاجئ، لأنه كذلك كان فعلاً.. فمع أن جده "عمر" كانت منذ طفولته ظاهرة فضله، ونزعته إلى المزيد من الصلاح والتقى..

ومع أنه بعد عزله عن ولايته، في أيام الوليد بن عبد الملك عكف على نفسه يحاسبها ويزكيها، وشرع يخفف من غلواء أناقته ونعمته.. فإنه لا هذا ولا ذاك ولا أضعافهما معهما، لا شيء من هذا كله يصدق عليه أنه كان مقدمة لذلك الانقلاب العظيم الذي تفوق حتى على ذاته، والذي تقمص شخصيته الجسيمة في اللحظة التي جرت فيها بيعته بصدق يرهب لا يرغب - مسؤولية الحكم والخلافة!!

* * *

لا ريب في أن اصطفاء الله وتوفيقه، يقفان قبل كل سبب وواقع وراء المعجزة.

فإنه سبحانه على كل شيء قدير.. وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم حيث يضع سره وبركته.

لكنْ إذ ذهبنا نلتمس لمعجزته سبباً ودافعاً مما يدخل في حوزتنا ويشكّل حياتنا ، كبشر محدودين ، وملموسين نفكّر ، ونقدّر ، ونسعى ، ونختار ، ونريد ، فأين نجد هذا الدافع يا تُرى ؟ إنه في رأينا مستقر في معنى واحد ، ذلكم هو طريقة ابن عبد العزيز في فهم "مسئولية الحكم" ، وتحمسه بها ، وتقديسه لها

فكل شيء داخل شخصيته ، وخارج شخصيته ، يتغير في إطار جديد تحت ضغط هذه المسئولية وحدها !!

و "هو" الآن .. ليس "هو" الذي كان .. !!

والدولة ، والأمّة ، والحياة كلها ، تتجاوز أوضاعها السابقة في مثل لمح البصر ، إلى أوضاع أخرى تعكسها عظمة الخليفة وقداسته

ثم إن ارتباط هذه المسئولية في ضميره بالله ، ارتباطاً وثيقاً ومباشراً يدعوه أن يهيئ لزمن مشيئته التغيير .

فهو لا يضيع يوماً ، ولا ساعة على خطأ قديم ، لأن الله سائله بماذا ترك هذا الخطأ ساعةً من نهار ؟ ولأنه لا يضمن نفسه لحظة إلى الساعة التالية .. ومن ثمّ فلا وقت للإرجاء .. !

والآن ، فلنبصر !

* * *

ها هو ذا يعود من دفن سلفه "سليمان بن عبد الملك" فلا يكاد يستقر به المقام في مجلس الإمارة حتى يطلب إلى مولاه "مزاحم" أن يسرع إليه بقرطاس ، وقلم ، ودواة

ويقترب منه "رجاء بن حيوة" وقد رأى جسده ينتفض ، كأنّ به رعدة مرض ثقيل ، وينصحه بإرجاء ما يريد إنجازه الآن إلى غد ، حتى يستريح .

لكنه يجيبه ، ودموعه تنثال من مآقيه

« لقد فتنتها يا رجاء ،

فدعني أستنقذُ نفسي من عذاب يوم عظيم » !!

إنها المسئولية الموصولة بالله ، وبما لله في نفس عمر من عظمة ، ورهبة ، وجلال

أجل .. إنها "هي" ، لن تدعه ينعم ، ولن تتركه ينام !!

ويجيء "مزاحم" بالقرطاس ، وبالقلم ، وبالدواة .. ويحتضنها الخليفة منه في لهفة من يحتضن حياته ومصيره من قبضة الإعصار .. ويروح يكتب على عجل

* إلى مسلمة بن عبد الملك ، ليعود بجيشه من القسطنطينية

* وإلى يزيد بن أبي مسلم ، يخبره بعزله عن إفريقية ، ويدعوه ليقدّم حسابه

* وإلى أسامة التنوخي ، يخبره بعزله عن خراج مصر ويدعوه ليقدّم حسابه

وأمر أن تُحمل الكتب فوراً إلى أصحابها ..

ويُبهت الأمراء الأمويون لما رأوا .. ويهمس بعضهم معلّقاً على هذا المشهد الذي أثار عجبهم وحنقهم معاً ، فقال :

«إنه الولع بالسلطان، لا يدعُه يصبر حتى الصباح» !!

مساكين !! فقد كانوا أعجز من أن يتصوروا نَوح هذه النفس التي بدأت تعمل داخل ضمير الرجل الذي لم يجد في منصب الخلافة الذي يتسابقون عليه سوى رزءٍ رهيب. !

وإن عجلته الحازمة في النداء بهذا التثويب، لتكشف لنا طرفاً من ولائه الوثيق لمسئولية الحكم، ومنهجه في تحمّل هذه المسئولية.

* فأما "مسلمة بن عبد الملك" فقد كان على رأس جيش كبير يحاصر القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وكاد الحصار يؤتي أُكُله ويفتح أبواب العاصمة، لولا خدعة ورَّطه فيها القائد الروماني "ليون" فرتّب نتوءة عجزٍ، وانتصر هزيمة، وعلى الرغم من ضياع فرصته، وانقطاع خطوط التموين وتفشّي المرض والمجاعة في الجيش، فإن الخليفة السابق "سليمان بن عبد الملك" رفض أن يصدر أمره للجيش بالعودة، ربما تحت وطأة كبريائه الشخصي والقومي، وربما أملاً في تحسّن ظروفه وإمداده بقوات جديدة.

وهكذا تُرك الجيش المتداعي فريسة للضياع..

ولقد كان "عمر بن عبد العزيز" قبل استخلافه يتميّز غيظاً من هذا الموقف، ونصح الخليفة باستدعائه. ولكن لا رأي لمن لا يُطاع!

والآن، وقد صار الأمر إليه، فإنه لا يطيق صبراً، ولا يرجئ أمر الانسحاب إلى الصباح، بل يبدأ بإصداره وبإرسال الرُّسُل به في أولى ساعات خلافته ومسئوليته ـ هذه الأولى.

* فأما الثانية، فهي عزل أسامة التنوخي عن خراج مصر، فقد كان أسامة هذا ـ كما يصفه ابن عبد الحكم ـ "غاشماً، ظلوماً، مسرفاً في العقوبات بغير ما أنزل الله، يقطع الأيدي، ويملأ أجواف الدواب بأشلاء ضحاياه، ثم يطرحها للتماسيح» !!!

أفهذا طراز يسكت عنه ابن عبد العزيز طرفة عين.. ؟؟

لطالما نصح الخليفة السابق بوجوب عزله

والآن وقد صار الأمر إليه، فإنه لا يَدَعُه في منصبه لحظة، فقد يبتُر في هذه اللحظة يداً تجيء يوم القيامة مُعلقة في عنق "عمر" تقول: يا رب ـ لقد قُطعت بغياً وعُدواناً في عهد هذا الخليفة..!!

* وأما الثالثة، فهي عزل "يزيد بن أبي مسلم" عن إفريقية، فقد كان هو الآخر طاغية متجبراً، يمثل بالناس بوحشية مسعورة، ويشوي رؤوسهم وهم يعذبون ويذوقون نكاله

* * *

هكذا بدأ الخليفة عهده بالتغيير السريع الحاسم للظلم الذي يجب أن يتم على مستوى الدولة والأمة بنفس السرعة والشمول اللذين تم بهما الانقلاب الروحي داخل وجدانه وضميره.

لا مجال للتلكؤ ولا للإرجاء أمام عزيمة الرجل الذي صارت عيناه لا تكفّان عن البكاء، والذي لم يعد لسانه يلهج بغير هذه الآية يردده
﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ !!

وعصيان ربه ـ في تقديره ـ يتمثل في إرجاء التغيير، بالقدر نفسه الذي يتمثل به في إهمال التغيير.

وكأنه كان يدرك بحاسته السادسة، وببصيرته المضيئة، أن حياته على جناح طائر، وأنه لن يلبث بين الناس إلا قليلاً ثم يلقى بارئه، فراح يملأ اللحظة العابرة بجهاد أعوام ثقال .. !!

* * *

والآن، لننظر مرة أخرى ..!

ها هو ذا في اليوم التالي، يأخذ طريقه إلى السُّرادق الذي جرت العادة بإقامته حيث يجري فيه أول لقاء بين الخليفة الجديد وصفوة قومه ..

ولا يكاد يضع قدميه على الطريق، حتى يرى موكباً فخماً من الجياد المطهَّمة، يتوسطها فرس زُيِّنت كالعروس، ليمتطي الخليفة ظهرها الشامخ.

وفجأة تأخذه الرجفة، ويسأل مستنكراً:

ـ ما هذه ؟؟

فيجيبونه:

ـ هذه جياد لم تُركب قط، تُعَدُّ لموكب خليفة جديد. فينادي عمر:

ـ يا مُزاحم .. ضُمَّ هذه إلى بيت المال !!

ويمضي على قدميه حتى يبلغ السُّرادق، فإذا هو فخم ولا كإيوان كسرى، فتعوده الرُّجفة، ويسأل:

ـ ما هذا .. ؟؟

فيجيبونه:

ـ إنه السُّرادق الذي يُعَدُّ لاستقبال الخليفة الجديد. فينادي:

ـ يا مُزاحم. ضُمَّ هذا إلى بيت المال !!

ويدعو بحصير فيفرشه على الأرض، ثم يجلس فوقه في غبطة وأُنس !

ثم يُجيئونه بالأردية المزركشة، والطيلسانات الفاخرة، فيسأل:

ـ ما هذه ؟؟

فيقولون:

إنها ثياب الخلافة، يتحلّى بها كل خليفة جديد. فينادي:

ـ يا مُزاحم. وهذه أيضاً ضُمّها إلى بيت المال !

ثم تُعرض عليه الجواري، ليختار منهن وصيفات قصره .. وهنا ينهض فزعاً، ويُقبل عليهن واحدة واحدة

ـ من أنت ؟ ولمن كنت ، وما بلدك ؟

حتى إذا فرغ من سؤالهن جميعاً ، نادى :

* يا مزاحم ، حوّل أمرهنّ جميعاً ، وأرجعْ كل واحدة منهن إلى أرضها ووطنها !!

ألا فلندّخر الكثير من عجبنا ودهشتنا ، وانبهارنا ، فإننا مقبلون على عالم زاهر وحافل بمثل تلك المعجزات . !!

* * *

بعد قليل ينتقل أمير المؤمنين إلى "دمشق" ، عاصمة الخلافة الأموية

ومن "دمشق" حيناً ، ومن "خناصرة" أحياناً سيباشر مسئوليات الدولة الطويلة العريضة التي أصبح مسئولاً عنها ، والمعجزات التي سنشهدها الآن ستكون ثمرة لأمرين لزمهما في إخبات شديد

أولهما : الولاء المطلق للدين

ثانيهما : الولاء المطلق للأمة ..

يدثّرهما الولاء وذاك الخوف البالغ من الله ، يكاد تتصدع من مثله الجبال !!

* فأما ولاؤه للدين ، فقد كان إيمانه بالإسلام عظيماً ، كان يرى فيه نعماء نعمته وفردوس حياته .

يقول له بعض إخوانه ، وقد بهرهم عهده العظيم

ـ جزاك الله عن الإسلام خيراً ..

فإذا هو يجيب

« بل جزى الله الإسلام عني خيراً » !!

ولقد أدرك بقلبه عظمة دينه ، بعد التطبيقات الباهرة التي كشفت مقدرته في بناء الدولة العادلة ، والأمة الفاضلة ، يوم كان يحمل رايته ذلك الرعيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق .. والفاروق عمر

ولقد قضى عمره منذ طفولته مشرفاً أوامر الدين وحدوده ، لكنه اليوم وقد صار خليفة المسلمين ، فإن علاقته بالدين لم تعد علاقة المؤمن المطيع فحسب ، بل جاوزت ذلك إلى موقف الحارس والمنفذ ، والمسئول عن ترجمة حقائق الإسلام ومبادئه إلى طريق عمل تسير فيه الدولة والمجتمع

* وأما ولاؤه للأمة ، فهو في حقيقته امتداد لولائه للدين .. فالدين بوصفه كلمة الله ، استوصى أول ما استوصى بالإنسان .

والإسلام خاصة يعطي أكثر اهتماماته لقضية الإنسان !!

على أن الظروف التي ولي فيها "ابن عبد العزيز" الخلافة ، كانت تعطي ولاءه لحقوق الناس وقوداً هائلاً من المظالم والمشكلات والأزمات التي خلفتها العهود الأموية السابقة

لقد حدد ولاؤه هذا طبيعة مسئولياته وتبعاته، وراح يحملها في مزيج عجيب من الإرهاق والإشفاق.

الإرهاق لنفسه، حتى لا يكاد يعطيها فرصة للتنفس..

والإشفاق عليها أن يأتيها الموت قبل أن تفرغ من واجبها !!

ولقد كانت الشهور السبعة والعشرون التي عاشها خليفة تعتبر بنسبتها لتاريخ الإنسانية كله بمثابة لحظة، ولكن هذه اللحظة قد صارت من أعظم الأزمان التي أتيح تركها للإنسان وتأثيرًا في تحقيقه، ولقد أعطت البشرية في مختلف عصورها وأديانها وأجناسها، المثل على ما تستطيع الإرادة الإنسانية أن تحقق من قداسة، وتصنع من إعجاز، إذا جعلت الله وجهتها، والحق كتابها !!

* * *

لقد حرص "أمير المؤمنين" على أن يدرك الناس أنه لا يأتيهم بجديد من المبادئ والنظم، فكل شيء في قرآنهم ودينهم، وفي تراث الرعيل الأول الصالح من خلفاء رسولهم وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان.

إنما هو يأتيهم بروح جديدة، هي روح المسئولية الورعة الصادقة، يزكيها فهمٌ سديد لجوهر الإسلام وأهداف شريعته.

وإذن فلنحاول أن نرصد مسيرة علاقته بمسئوليته في ثلاثة مطالع

المطلع الأول - وضوح المسئولية في وعيه.

المطلع الثاني - استغراقه فيها..

المطلع الثالث - إخلاصه لها

* أما عن الأول، فنحن نعلم أنه لكي تستغرق قضية ما إنسانًا ما استغراقًا يمكن لا استغراق بحث، فإنها لابدّ من أن تكون قد بلغت من الوضوح والإسفار في تفكير صاحبها وشعوره المدى الذي يبهر كل غموض، ويتخطى كل تساؤل

والقضية التي استغرقت عمر بن عبد العزيز كانت من هذا الطراز - فهي لا تستغرقه استغراق باحث يحاول التأكد من صحتها وصدقها، بل استغراق مؤمن مفعم باليقين !!

فلننظر الآن مظاهر وضوحها لديه، ولقد كانت كلماته وخطبه إنما تعبر تعبيرًا مطلقًا عن حقيقة اتجاهاته ومقاصده، فإنها إذن كفيلة بإعطائنا صورة هذا الوضوح

ولنبدأ معه بهذه الخطبة :

« لقد سنّ رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده سننًا، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة لدين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها

من اهتدى بها، فهو المهتدي

ومن استنصر بها، فهو المنصور.

ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا »

« أيها الناس

إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أُنزل عليه كتاب

فما أحلّ الله على لسان نبيّه ، فهو حلال إلى يوم القيامة

وما حرّم الله على لسان نبيّه ، فهو حرام إلى يوم القيامة

ألا وإني لستُ بقاض ، وإنما أنا مُنفِّذ ..

ولست بمبتدع إنما أنا متّبع .

ولست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم ، غير أني أثقلكم حملاً » !!

* * *

هكذا تتضح المسئولية في روعة غاية الوضوح ..

فموضوعها ـ هذا الدين الذي أتمّ الله به النعمة وارتضاه للناس ديناً

وحاملها ـ ليس مشرّعاً ، ولا قاضياً .. إنما هو منفّذ لمشيئة هذا الدين ومبادئه

وهذا الوضع لا يمنحه أيّ مبرر ليكون خيركم .. وإنما أنا رجل منكم

والفارق الوحيد بينه وبين أفراد أمته هو أنه « أثقلهم حملاً » ـ وهو كما نرى ، محسوبٌ عليه .. وليس محسوباً له

ثم إنه حين يدعو الناس إلى العبادة ومكارم الأخلاق لا يقف منهم موقف المعلم ولا الواعظ .. بل نراه يتهم نفسه بالتقصير ويضرع إلى الناس كي يُصدّقوه .. هو الذي بلغ أرفع مستويات السمو والعظمة والهدى والكمال .

ها هو ذا يستقبل الناس خطيباً ، فيقول بكلمات يخنقها النحيب والبكاء :

« وايْمُ الله ، إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلمه عندي .. فأستغفر الله وأتوب إليه .. » !!

ووضوح مسئوليته كأمير على دين الله ، هو نفس وضوحها كأمير على عباد الله

تروي زوجته « فاطمة بنت عبد الملك » هذه الواقعة :

دخلت عليه يوماً ، وهو جالس في مصلاه ، واضعاً خده على يده ، ودموعه تسيل فقلت له : ما بالك ، وفيمَ بكاؤك .. ؟؟

« فقال : ويحك يا فاطمة .. إني قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، ففكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذي العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم يومئذ محمد ﷺ ، فخشيت ألا تثبت لي حجة ، فلذلك أبكي »

هذا وضوح مسئوليته عن الأمة كلها والناس جميعاً ، وكما قال

« في أقطار الأرض وأطراف البلاد » .

إن قلبه الورع الذكي الكبير ، مع كل فرد من أمته .

مع كل يتيم ، وكل شيخ ، وكل أرملة ..
مع كل فقير ، وكل مريض ، وكل مجهود ..
مع كل مظلوم ، وكل أسير ، وكل مقهور ..

كل هؤلاء وأولئك قابعون في ضميره ، يُحلحلون بحاجاتهم ، ويجأرون بشكاواهم ، وينتظرونه ـ كما يتصوّر ـ ليختصموه يوم القيامة أمام الله رب العالمين ، حيث لا ينجيه منهم غداً ، إلا ما يبذله لهم اليوم من حقّ ، وعدل ، وخير ، وبرّ !!

من هذه الصورة السريعة لوضوح مسئوليته في عقله وقلبه ، ننتقل إلى صورة سريعة أخرى ترينا استغراقه في هذه المسئولية ، وفناءه فيها ..

لقد احتوته المسئولية في حضنها .. فنسي نفسه ، وأهله ، ودنياه ، وعالمه .. نسي كل شيء سواها !!

بل نسي حقّه في الاستمتاع بالرضا والأمن جزاء ما يقدم لدين الله ودنيا الناس من ولاء وبر .. حتى حقّه هذا ، نسيه في غمرة خوفه المشبوب من الله !!

لم يعد يذكر سوى مسئوليته الفادحة ، ويذكر معه أعماله الشامخات كأنها ليست شيئاً مذكوراً .. وسيطرت على شعوره وفكره صورة واحدة .. تلك هي صورة موقفه بين يدي الله سبحانه ، يسأله عن كل شعيرة من دينه ، وعن كل فرد من عباده !!

تقول "فاطمة" زوجه :

« لقد كان يذكُر الله في فراشه ، فينتفض انتفاضة العصفور من شدة الخوف ، حتى أقول : ليُصبحنّ الناس ولا خليفة لهم » !!

ويقول "عليّ بن زيد" :

« كان يبدو ، وكأنّ النار لم تُخلق إلا له » !!

ويقول "ميمون بن مهران" :

« رأيتُه مرة يبكي ، فإذا هو يبكي دماً » !!

إن المضمون الإلهي للمسئولية دفع استغراقه إلى أقصى غايات المسئولية وأبعدها ..

ولقد أصبح يستحي من ربه أن يرى في فمه لقمة شهيّة .. أو أن يرى على جسده ثوباً ناعماً .. بل أن يرى على شفتيه ضحكة ـ مجرّد ضحكة !

فمنذ وليَ الخلافة إلى أن لقي ربه ، لم يُرَ ضاحكاً ..

والرجل الذي كان قبل الخلافة يدفئ مآنقاً ، فوّاح العبير ، قد جعلته المسئولية في لمح البصر إنساناً آخر ، أشعث ، أغبر ..

تماماً مثل جدّه العظيم "عمر بن الخطاب" .. لو رآه من لا يعرفه من الناس لسأله أين أجد أمير المؤمنين .. ؟؟!

لقد رفض رفضاً مطلقاً كل أطايب الحياة ومباهجها ، ولاذ بتقشّف بعيد ، وشظف شديد ..

إن الرحمة الكبرى التي تمخضت عن وضوح مسئوليته بكل رهبتها وجلالها ، قد

أخرجت حياته كلها عن مدارها الأول، إلى مدار جديد، محوره مسؤولية الله به عن كل حق للدين، وللدولة، وللأمة.

إنه يعبد الله كثيراً، ولكنّ "المعبود" لا "العبادة" هو مناط مخاوفه واهتماماته..

والآن وقد صار خليفة للمسلمين، فإن علاقته بالله لم يعد يكفي فيها أن تكون علاقة "عابد بـ معبوده"، بل فوق ذلك يجب أن تكون علاقة "مسئول بـ مُسْتخلفه"!!

تقول زوجته فاطمة وقد سئلت عن عبادته:

« والله ما كان بأكثر الناس صلاةً ولا أكثرهم صياماً

ولكني والله، ما رأيت أحداً أخوفَ لله منه» .!!

أجل.. ولو كانت مخاوفه هذه مخاوف "عبد" يخشى التقصير في عبادته، لوجدت تلك المخاوف مرفأها سريعاً، لكنها مخاوف "مسئول" يرى الله قد ائتمنه على الدين والدنيا.. على الناس، والزرع، والأنعام.

وهكذا كان استغراقه في مسئوليته، واستغراقه فيها، حقيقة تتحدى كل وصف، وتفوق كل مُبالغة.

* * *

وإن لنشهد صور هذا الاستغراق تتوالى على جميع مسئوليات حياته - خليفة، وزوجاً، وأباً، وأخاً، وقريباً، وصديقاً..!

فجميع علاقاته بنفسه، وبعشيرته، وبالناس أجمعين، تنصهر معه في أعماق استغراقه البعيد.. بل إن الناس أنفسهم ليذوبون معه بدرجة قربهم منه.. مما جعل قرابته وصداقته تتحوّل إلى غرم فادح للأقرباء والأصدقاء..

ولقد عبّر عن هذه الحقيقة خير تعبير، خادم له رآه أمير المؤمنين يسحب برذونه، فسأله:

« كيف حال الناس..؟؟ »

فأجابه:

« كل الناس في راحة، إلا أنت، وأنا، وهذا البرذون..!! »

ولقد انعكس استغراقه في مسئولياته على نفسه، وعلى أهله، وعلى كل الذين حوله انعكاساً مجيداً.

فأمّا هو، فكما رأينا، حلّ في بدنه بسبب ذلك أمر عجيب.

هذا "محمد بن كعب القرظي" يتحدث، فلنُصغِ إليه:

« دخلتُ على عمر بن عبد العزيز بعد استخلافه، وقد نحل جسمه، وعفا شعره، وتغيّر لونه.. وكنت عهدته بالمدينة وهو أمير عليها، حسن الجسم ممتلئ البضعة.

فجعلت أنظر إليه، لا أصرف بصري عنه.

فقال لي: يا بن كعب، ما بالك تنظر إليَّ نظراً ما كنت تنظره إليَّ من قبل؟

قلت: لعجبي، يا أمير المؤمنين..!

قال: وممَّ عجبُك؟

قلت : مما نَحل من جسمك ونفر من شعرك وتغيَّر من لونك .

أين ذاك اللون النضير والشعر المحسن . والبدن الريّان .. ؟!!

فقال لي : إنك إذن لأشد عجباً من أمري ، وتنكراً لي ، لو رأيتني بعد ثلاث في قبري ، وقد وقعت عيناي على وجنتي ، وسكن الدود منخري وفمي » !!!

ثم راح يبكي .. ويبكي !!

لقد تغيرت الصورة والإطار .. وذوي الحسد المارد الذي غذاه النعيم تحت مدرق الإحساس الرهيب بالمسئولية .. !!

وإنه ليدعو إليه في الأيام الأولى لخلافته زوجته فاطمة ، ويواجهها بحقيقته الجديدة ويخبرها في رفق أنه كزوج لم يعد له وجود ؛ فقد ثقلت أحماله حتى لم يعد هناك لحظة في وقته يهبها لغير تبعات الأعباء الثقال . ثم يعطيها حقها الكامل في اختيار مستقبلها ومصيرها !!

و "فاطمة" هذه ستظل متألقة في وعي وعبر هذه الصفحات التي نسطرها عن زوجها الخليفة ، وستظل تُزجي لها من التحية والإجلال ما هي له أهل وأيّ أهل . !!

فقد ظلت بجوار زوجها "القدّيس" تشاركه تقشّفه القاسي الذي فرضه على نفسه ولم تكن تزيد حين تعْرِفُ معدتها من الجوع ، وتزعق أوصالها من الصقيع ، على أن تقول :

« يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بُعْدُ المشرقين
فوالله ، ما رأينا سروراً مُذْ دخلَتْ علينا » !!

لقد أخذت معه إلى قمة الشظف والتقشف ، وأصبحت السيدة التي كانت زوجة الخليفة وبنت خليفة وأخت خليفة ، والمتقلبة في أبهى ما كانت الدنيا تعرف يومئذٍ من حرير ولؤلؤ وذهب ونعيم ، أصبحت لا تملك إلا ثوبين خشنين ، فقد حمل الخليفة كل حليه وحليها وحتى أثاثه وبيانه وأمر ببيعها ، ووضع أثمانها في بيت مال المسلمين ، وأصبحت لا تأكل ـ أكثر ما تأكل ـ إلا الخبز الجاف مبللاً بالزيت ، أو مثروداً بالعدس ، وأصبحت صاحبة الوجه الشاحب ، والجسد الضامر النحيل .. !!

دخل عليها ـ أمير المؤمنين ـ يوماً ، وهي تخيط ثوبها بيديها ، فربّت كتفها في عطف وقال :

« يا فاطمة ..

لتخْرُليلي ذا بنو أنعم منا اليوم » !!

مشيراً بهذا إلى حياتهم المتنعّمة قبل الخلافة في "مَرْج دابق" .

فأجابته قائلة :

« والله ما كنت على ذلك يومئذٍ أقدر مني اليوم » !!

يعني أنه الآن وهو خليفة وحاكم لدولة عظمى ، أقدر على التزوّد من النعيم ، مما قبل ذلك وفجأة ، يمتقع لونه ، وتنثال دموعه ، ويدرك أنه تجاوز بهذه الدعابة حده ، فيقول :

« يا فاطمة ..

إني أخاف إنْ عصيتُ ربي عذابَ يوم عظيم » !!

ولم تلبث "فاطمة" إلا قليلاً حتى ألِفتْ شظف الحياة التي اختارها "عمر" لنفسه ولذويه.. وحتى راحت تحياها بروح مُحِبَّة متفانية.

لقد مسَّتْها بركات زوجها القديس، فراحت تكتشف النعيم الكامن في الشظف الماثل.. وتستشرف من وراء الدنيا، لعينيها فردوس الله الأعلى، ورضوانه العظيم..!

* * *

وبهذا الوضوح الكامل لمسئوليته.. وبهذا الاستغراق العظيم فيها، ينعكس الولاء روايه بالإخلاص المطلق الذي يربطه بهذه المسئولية أوثق رباط.

والإخلاص للمسئولية - أيَّ مسئولية - يُشكّل السياج المنيع الذي يحفظها داخل موضوعيتها، ويصونها من تقحُّم الأنانية والهوى عليها.

وهذا هو جوهر الإخلاص لدى أمير المؤمنين "عمر بن عبد العزيز".

فهو لا يستغرق فيها استغراق من يريد أن يبلغ بها مجداً شخصياً، أو مغنماً ذاتياً.. بل استغراق الفاني فيها، المُتبتِّل لها.. ليس بين يديه، ولا من خلفه، ولا عن يمينه، ولا عن شماله شيء يلهيه عنها أو يغريه بها.

إنه إخلاص يعكسه إخلاصه لله رب العالمين.

ورجل كعمر حين يخلص لله، فلا تستطيع ألف دنيا كالدنيا أن تدخل في هذه الصفقة نِدًّا، أو شريكاً..!!

لقد كان - رضي الله عنه وأرضاه - دائم الترديد لهذه الآية الكريمة:

﴿ وما يُؤْمِنُ أكثرُهُمْ بالله إلاَّ وهُمْ مُشْرِكُون ﴾

واتخذ منها نذيراً يلهب به نفسه لتبلغ بإخلاصها لربه ولدينه ولمسئوليته أقصى ما يستطيع أولو العزم الراشدون.. وكان يدرك بنور بصيرته أن أدنى مجاملة على حساب إخلاصه لمسئوليته إنما هو شركٌ مسك وخفي، من نوع الشرك الذي حذّر الرسول ﷺ أصحابه منه، مخبراً أن له دبيباً كدبيب النمل.

لقد نجح "القديس" نجاحاً باهراً في صون إخلاصه من دبيب النمل هذا.. وأضحى الناس يقول بعضهم لبعض:

« هذا أول خليفة أموي لا نجد حاجة في قَرْع أبوابه

وإن ما يكون لنا من حقّ يأتينا ونحن في دورنا..

وما ليس لنا بحقّ، فدُونَ بلوغه قطعُ الرقاب..!! »

أجلْ.. لم يكن لإخلاص ابن عبد العزيز مُزاحم ولا منافس.. لا من قرابته، ولا من صداقاته..

يقع خلاف بينه وبين بعض أمراء بني أمية حول حقوق يرونها لأنفسهم

ويقول أحدهم للخليفة: سآتيك بصكّ الوليد..

وفي كلمات حازمة، يقول عمر:

« أبالمصحف ستجيء » ؟؟!!

لقد صار الحقّ وحده هو الفيصل والحكم .. فلا صُكوك ولا مواثيق إلا صكوك الحقّ ومواثيقه .. ولا رَحِمَ ولا قربة إلا رَحِم الحقّ وقرابته

ولا يحول بينه وبين الحقّ شفاعة ، ولا رغبة ، ولا رهبة

* * *

كانت عمته "أم عمرو" بنت مروان ، صاحبة دالّة على خلفاء بني مروان وأمرائهم

وكانت أثيرة لدى ـ عمر بن عبد العزيز ـ وموضع حبه العميق ، واحترامه الوثيق

وحين ألغى كل مخصصات بني مروان ، ألغى مخصصاتها أيضاً ، فسارعت إليه ، وفوجئت به جالساً يتناول طعام عشائه

وشخصت "العمّة" ثم جلست ، وراحت تحملق بعينيها لا تكاد تصدق ما تراه .

لقد كان كل ما بين يديه من طعام ، خبزاً جافاً ، وصحن عدسٍ ، وملحاً !!

ودارت بها الأرض .. !

أهذا هو "عمر" الذي كان يخوض في النعيم خوضاً ؟؟

الآن ـ وهو الخليفة المطاع ـ يصير هذا طعامه .. ؟!

ولم تتمالك نفسها ، فأجهشت بالبكاء ، ثم قالت :

«لقد جئتك في حاجة لي ، ولكني لم أكد أراك حتى رأيت أن أبدأ بك قبل نفسي» !!

قال الخليفة :

«وما ذاك ، يا عمّة» .. ؟؟

قالت : «لو اتخذت لك طعاماً ألين من هذا» .. ؟؟

قال : «لا أملك غيره يا عمّة ، ولو كان عندي لفعلت»

قالت : «إن عمك عبد الملك كان يجري عليّ ما تعلم ، ثم كان أخوك الوليد فأجرى علي ، ثم كان سليمان فأجرى علي ، ثم وليت أنت فقطعته عني ..

فأجابها : «يا عمّة إن عمي عبد الملك ـ وأخي ـ الوليد ـ وأخي ـ سليمان ـ كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لي فأعطيكه ، ولكني أعطيك مالي إن شئت»

قالت : «وما مالك ، يا أمير المؤمنين» .. ؟

قال : «عطائي .. مائتا دينار في العام .

قالت : «وما يبلغ مني عطاؤك» .. ؟؟!

ثم انصرفت عنه يائسة بائسة ، وهي التي كان الخلفاء يخطبون رغبتها ، ويسارعون إلى هواها !

أبقيتْ هناك شفاعة لشفيع .. أو مطمعٌ لطامع .. ؟!

لا .. فهي وقدة إخلاصه .. حرقتْ كل الأطماع .. وإن مد الإخلاص ليحيطه بسياج ترتدّ عنه كل المحاولات عاجزة مُبلسة

كما يحيطه بغلاف من الأمن النفسي لا يخترقه وعيد ، أو تهديد ، أو خوف

فى به بعض أصحابه ، حين جرد الأمراء الأمويين من كل ثروتهم ومتلكاتهم ودفع بها إلى بيت المال

« يا أمير المؤمنين ، ألا تخاف غوائل قومك » ؟؟

فرد الحليم الأوّاب ، الهادئ الصّمْت ، الزاكي النفس ، ينتفض كالأسد ، وتخرج الكلمات من فمه كالزئير .

« أبيوم سوى يوم القيامة تخوّفوني .. ؟؟

فكل خوف أتّقيه دون يوم القيامة لا وُقيتُه » !!

حقاً .. إن العصمة مثوبة نفسها .. وحين نحتضن مرءاً للحق مثل هذا الإخلاص الذي أبرزه ، فإن إخلاصه يهيء عنه ما لا يهيء معه ذكاء ، أو جهد ، أو حظوظ !!

إن العقبات التي كانت ستفتح أمام « عمر » القصد عن السبيل كانت تتحدى كل طاقة وقدرة ..

فالأمراء الذين تمثلت والطبقة العريضة التي تحتها الحكم الأموي ، وأصبحت أسيرة مصالحها ونفوذها .. والفساد الذي كان باشر سلطانه .. والاقتصاد المتردي .. والأزمات الطاحنة .. ثم علاقاته بأهله وبأصدقائه .

كل ذلك وأشباه معه ذاب تحت تماس إخلاصه الحرّ المتألق !

* * *

ولقد كان إخلاصه هذا يهيئ نفسه بالقدرة على كسر السدود ، فهو لم يهدأ قبل أن يأخذ بمفهومه الذي كان له في وعي عمر وضميره

فهو يكل من همه ومن كده بأنه لا يرى نفسه محقاً في أن يحمل مسئولية يد كانه .. بل عليه أن يحمها ويتحرها بالإخلاص وحده .

إنه يبرأ إلى الله من حوله ومن قوته .. وإنه في صفاء إخلاصه العظيم ليهرب من قدرته إلى قدرة الله ، ومن اختياره إلى اختيار الله ، ومن رأيه إلى توفيق الله !

هذا كان دعوته الدائم

« اللهم رضّني بقضائك .. وبارك لي في قدرك ؛ حتى لا أحبّ تعجيلَ ما أخرت ، ولا تأخير ما عجّلت » !!

إنه نعلم أن الإخلاص حين يحتوي قوى الذكاء الإنساني وبصيرته في بوتقته ، فإنه يضاعف من فاعلية هذا الذكاء أضعافاً كثيرة .. وبدلاً من أن تشتته الهوى والغرض تؤلفه وحدة تعمل ولا تحيد .. هدفاً واحداً ، التي يقتنيها الإخلاص ويرجّحها

* * *

وكما تولّد الكهرباء الحركة وتحرّكها ، فإن الإخلاص المسئولية تحكم قد فجّر وولد حركة جبارة في عهد العزيز .. هذه الحركة التي لم تكن سوى نفسه ..

ولقد مدّه بها في تخصص الذي قصد بروح مجتمعه ومناعته في ذروة تحتيه وظهوره .. حيث تكون العدالة ، وتكون القداسة

وبهذا فاءت المسئولية على «عمر» ـ أسوة بالذي سما بفضائل روحه ـ من ورع وزهد، وطهر ونسك ـ إلى أعلى مستوياتها، ومن ثم كانت مسئوليته سناً مشرقاً تظفره بالقداسة، وهذا جوهر إعجازه الفريد.

فلو أنه كان قديساً من قبل، ثم جاءته الخلافة وهو متمكن من فضائله وقداسته، لبقي وفياً لها، مثابراً عليها..؟؟

لكنّ الذي حدث أن منصب الخلافة الذي يُغري بكل شيء إلا بالقداسة، هو الذي كان، وكانت مسئولياته الجسام، مرقاة روحه الطاهرة العظيمة وثّبته (1) في لمح البصر إلى فردوس القداسة، وملكوت التقديس..!

* * *

وهناك عبارة يكتبها مؤرخو سيرته سنقف طويلاً، ونسهر كثيراً أمام عبارته هي ذي:

«.. ثم بويع "عمر بن عبد العزيز"

فقعد الناس على الأرض» ..!!

إن هذه العبارة الموجزة تفصح بصدق عن قوة "القداسة" التي أنعم الله بها على عبده الصالح "عمر بن عبد العزيز".

إنها قوة تكتسح كل الأوضاع الرتيبة والعلاقات المألوفة، لتنشئ أوضاعها الخاصة، وعلاقاتها المستخلصة.

فما من بأس في أن يجلس الخليفة مجلساً فيه من روعة المظهر أو بهائه ما يحفظ وقار المنصب.

أجَلْ، ليس هناك بأس.

و"عمر" يعلم هذا بفقهه وسعة أفقه.

بيد أنه من اللحظة التي طوّقته فيها المسئولية، لم يكن تحركه روح الخليفة، بل روح القديس..!!

والقداسة ـ دائماً ـ تضع الوسيلة في مستوى الغاية، فلا تعنيها نوع الغاية إلا بالقدر الذي يعنيها فيه نوع الوسيلة..

ثم إن لها وسائلها ومنطقها..

إنها تتعامل مع جوهر الأشياء، لا مع الأشياء نفسها.. ولقد كان جوهر السلطة في نظر القداسة، الخضوع المطلق لحقوق الناس الذين ولي الخليفة أمرهم، وتحمل مسئولية مصائرهم، فإن مكانه إذن أن يكون بين أيديهم، وليسوا هم الذين بين يديه.

والشكل الذي رآه "عمر" ملائماً للتعبير عن هذه الحقيقة، هو جلوسه بين الناس على الأرض..!!

أجل.. ليس مجرّد الجلوس على الأرض الأمر الذي كان يعنيه، إنما هي الحقيقة المجيدة التي يمثلها هذا الجلوس.. حقيقة أن السلطة خضوع كامل لحقوق الناس جميعهم..!

وإذن فلنأخذ من ناحية الشكل أقصى مظاهر الخضوع، كما سنأخذ من ناحية

(1) وثّبته: صعدت به.

المضمون أقصى مظاهر الاحترام .. !!

ومن أجل هذا قعد بجسمه على الأرض ، لا يفصله عن ترابها سوى حصير متواضع

قعد على الأرض ؛ ليهدم كل ما ابتدعه من مدح و ستعلاء ، وليبرلها عن عرشها

نصائف وكبرياتها ، ولترتقي بالأرض بسطه ، والتواضع ، والمرحمة !!

* * *

والبعد منه التي يتمتع بها ابن عبد العزيز ، قدسه رجل أراد الله مشيئته فهو يرى بنور من ربه ، ويُظل من حميع النور قد دأب أن يحتبسه صومعه ، أو يعطل رؤيته برقت و نطواء

إنها قداسة تبهر بما تنطوي عليه من فطنة وحدس ومضاء فهي يتصور أحد أن قديساً كهذا القديس لا يكفّ عن العبادة و النسك ، يقصد إليه ذات يوم أمواهه على صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة ، فيكون جوابه :

« إني أرى أن أجعل هذا المال في أكباد جائعة ؛ فإنها أولى به من الكعبه » !!

هل يتصور حدوث ذلك من عابد ، ناسك ، قدّيس ؟؟

لكنها القداسة الذكيّة التي تُحدّق دائماً في الجوهر ، وتضع على همسه العميق سمعها ، وتتبّع مواقع الحقّ ، كما يتتبع الطير مواقع النّدى .. !

إنّ هذا الناسك الأوّاب ، ليُذكر له يوماً أن واعظ يدعو الناس إلى طاعات لا يأتيها ، فإذا القديس يُعلّق على هذا بقوله

« لو أن كل امرئ لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يلزم بذلك نفسه ، لما كان هناك آمر بالمعروف ولا ناهٍ عن المنكر ولقلّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة » .

إنها قداسة ذكية نفاذة .

قداسةُ رجل كان يدعو ربه دائماً فيقول :

« اللهم متعني بعقلي » !!!

* * *

وهي قداسة أتيح لها أن تُحدث تغييراً من أعدل وأنبل ما شهدت دنيا الناس من تغيير !!

قداسة حققت بحضورها ، ومعها من الزهد ، والورع ، والطهر ، والتقى ، والعدل ، والرحمة ، ما كان الناس يحسبون أن الدنيا ودّعت منه إلى الأبد

قداسة لم تكد تجلس على الأرض حتى تملأ الأرض عدلاً ورحمة وتمطر السماء عدلاً ورحمة .. ورعى الذئب مع الشاة ، في تآخ وسلام .. !!!

ولقد أنجز القديس كل هذا التغيير الهائل الذي بدا وكأنه تغيير في كيمياء الزمن ، وكيمياء الحياة أنجزه بمنهج لا ندري أنقول إنه بالغ اليسر أم نقول إنه بالغ الصعوبة أم أن اليسر والصعوبة يتراجعان معاً ليفسحا المكان لوصف آخر أحق منهما وأولى ؟؟

أجل إن ذلك لكذلك

فلنقل إذن إنه منهج بالغ الإعجاز !

■ ■ ■

المَنهج

« .. بل يُصلحهم العدل والحقّ فابْسُط ذلك فيهم .. » !!

كتب إليه واليه على خراسان يستأذنه في أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها، قائلاً في رسالته للخليفة: "إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط".

فكان رده التقيُّ الحازم:

« كذبتَ..

بل يُصلحهم العدل والحقّ، فابْسُطْ ذلك فيهم، واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين » .. !!!

* * *

العدل، والحق..

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين.. وعلى طريقهما اللاحب المستقيم ستمضي خُطاه.. آخذاً معه على ذات الطريق جميع الناس.. أمراءهم، وعامتهم.. أغنياءهم، وفقراءهم.. أقوياءهم، وضعفاءهم..

والخليفة، الذي نراه دائم البكاء، بل النحيب، كلما ذُكر الله واليوم الآخر والذي ينتفض تحت غطاء انتفاضة العصفور، حتى لنحسَبُه لا يصلح لغير الصومعة يتحنّث فيها ويتعبد .. !!

هذا الخليفة، سيبهرنا الآن ونحن نتابع منهجه وسيرته في الحكم، حيث تُطلّ علينا من وراء دموعه المنسكبة روح عالية تناضل في جهد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدل والحقّ.. وحيث يطلّ علينا كذلك بصيرة نافذة لا يُفلت من بصائرها شيء، وإرادة حازمة لا يُهوّنها صعب، ولا يُخيفُها خطَر.

وفجأة نرى العينين الشاخصتين في دموعهما دوماً، تحدّقان كعيني الصقر.. وتُرسلان بريقاً أخّاذاً يقنع كل من يتلقاه أنه أمام عينين ثاقبتين إلى حد يجعلهم يسيل .. !!

* * *

إن المصاعب المطوية، والأخطار المحدقة، والمؤامرات المسبوقة، لن تزيد الإرادة الرافعة لواء العدل والحقّ إلا تقدُّماً ومضاء.

فلتمضِ العواقب لشأنها.. أما هو فلن يبالي بما كان ولا بما سيكون منها.. لن يستطيع نفسه في يمين الحقّ.. ويمضي معه إلى حيث يتقدمان معاً على مظالم وعقبات الأعوام السنين التي سبقته في الحكم الأموي.. وإلى حيث يجعلان ظلماتها نورا

وهجيرها فردوساً.. وترفها قناعة.. وانحلالها ورعاً.. واستعلاءها تواضعاً.. وقهرها رحمة.. ورُعْبَها أمْناً..

وبين يديْ عزمه الرّباني القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الطرسة ، والتحدي

« والله ، لو لم تنهض نحو ويدحض الباطل ، لا استطيع وصبري وعصبتي . لأمضيت ذلك وأنا معتمد » !!

« وو الله ، لو لبثتُ فيكم خمسين عاماً ، ما أقمتُ إلا ما أريد من العدل » !!

فتتبع منهجه نرى

وكل عسيا لا تدع تفصيل الكبيرة ستعلن مهرها عن الأسس والقواعد

وعلينا أن نقصد في ذكر الوقائع والمشاهد التي تحكي خصائص المنهج وسماته .

حتى يغو وعينا هذا التركيز في الرؤية تركيزاً مماثلاً في شمول العمل وعمقه وروح

أي إن سنكتفي من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التي تدور حولها بقية التفاصيل والتفاصيل

وتتلخص هذه المحاور في

* نظرته إلى دور الدولة ووظيفتها ..
* نظرته إلى دور الشورى ووظيفتها
* نظرته إلى دور المال ووظيفته
* موقفه من وحدة الأمة وسلامتها .
* أسلوبه في العمل .

* * *

"فأولاً" : الدولة قدوة .

إن الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون أمراً مذكوراً ،

فتلك سنّة مألوفة معتادة : أن تحمي القوة القانون .

أما الحكام الذين يحمون القانون ويفدونه بالقدوة . فأولئك الذين يتجاوزون

المألوف المعتاد إلى الخوارق والمعجزات

ولقد كان ابن عبد العزيز واحداً من هؤلاء

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ، إذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى

والدولة عنده تتمثل في كل الأجهزة العاملة ، لكن يأتي في المقدمة دائماً

[١] الخليفة بوصفه رئيس الدولة .

[٢] الولاة بوصفهم حكام الأقاليم

[٣] القضاة

[٤] أمناء بيوت المال

والخليفة ـ أيُّ خليفة ـ وإن وصفه وظيفته ومسئولياته على رأس الدولة ، فإنه يظل عاجزاً عن أداء دوره ما لم تقف معه في مستواه أو قريب من مستواه ـ ولاته وقضاته

وأمناؤه على الأموال العامة

ها هو ذا "عمر" يقول

إن للسلطان أركانًا لا تثبت إلا بها

فالوالي ركن

والقاضي ركن.

وصاحب بيت المال ركن.

"والركن الرابع، أنا".. !!

وإذن، فلكي تكون الدولة قدوة في حمل دين الله وحقوق الناس، لابدّ من أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الأربعة مجتمعين:

الخليفة، وولاته، وقضاته، وخزنته.

ولكي تكون الدولة قدوة، لابدّ من أن تكون بمسئوليها جميعًا، وعلى رأسهم أمير المؤمنين، طليعة العمل ورائده..

وهكذا راح "عمر" يضع الدولة كلها ـ وهو على رأسها ـ في مكان القدوة، حاملة وحاملاً معها كل ما تفرضه القدوة من مسئوليات، وباذلاً كل ما تتطلبه من تضحيات

وقبل أن يأمر ولاته وقضاته، وخزنته، بدأ بنفسه

* * *

لقد تلونا من قبل، كلمته العظيمة:

« لست إلا كأحدكم، غير أني أثقلكم حملاً » !!

وها نحن نرى طريقته في وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم، الحازم، الفريد.

لقد كان دخله السنوي حين استخلف في اليوم الذي ولي فيه الخلافة أربعين ألف دينار، هي حصيلته من مخصصاته كأمير أموي، ومن الأرض التي كان يملكها، ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبد العزيز بن مروان

والآن، يفتح بصيرته على حقيقته الغامضة، فيرى أن هذا الثراء الفاحش الذي يملكه أمراء بني مروان، وهو معهم، لم يبعثه بعث الحلال، وما هذه الثروة الضخمة في أيدي حفنة من الأمراء وأشياعه، إلا حقوق للملايين وأقواتهم سُلبت منها بغير حق، وبغير سلطان.. !!

ومن فوره، يتخذ قراره الحاسم بإلغاء مخصصات الأمراء كلها، ومخصصات حرسهم وخدمهم، وقرر نزع الإقطاعات عنهم جميعًا، وردّها إلى بيت المال

وبدأ بنفسه، فتخلى عن جميع أملاكه وأمواله، حتى أرض "فدك" في "خيبر" وكانت حقًا مملوكًا له ولأسرته، ولم يكن أحد أقطعه إياها، بل ورثها عن أبيه

ولكنه سأل نفسه: ومن أين جاء بها أبوه.. ؟!

لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم "خيبر"، فخصصها لأبناء السبيل

وظلت كذلك حتى ملك الأمر معاوية، فوهبها لمروان .. ومن مروان وصلت إلى ابنه "عبد العزيز" والد "عمر".

تقول: حتى هذه الأرض، تخلّى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمّها لممتلكات الدولة، وأن يصرف ريعها وناتجها، حيث كان يُصرف على عهد الرسول ﷺ وخلفائه

ليس ذلك فحسب .. بل لقد تنازل عن كل درهم في راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين !

لقد اكتفى من دنياه كلها .. ولدنياه كلها .. بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بحرّ ماله، ولم تكن تغلّ أكثر من مائتي دينار في العام، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة

مائتا دينار في العام، لرجل كان دخله منذ أيام لا غير .. أربعين ألف دينار !

مائتا دينار، لحاكم أعظم، وأكبر، وأغنى إمبراطوريات عصره وعالمه، يعيش بها طول العام وعرضه، ويعيش معه أسرته التي كانت هي الأخرى ـ منذ أيام ـ لا غير، تخبّ في النعيم خبًّا .. وتغتّ منه غتًّا !!!

ولكنْ، أيُّ بأس ؟!

أليس قد رفع الحقَّ شريعة والعَدْل منهجاً ؟!

فليكن حَسْبُه ألاّ يسقط الراية من يمينه .. وليكن حسبُه أن يحلّق بها في مستوى تتقطع دون بلوغه الأنفاس .. !!

كل أرضه تركها للدولة

كل ثروته النقدية، دفعها إلى خزانة الدولة ..

بل لقد جمع ثيابه وحلله الزاهية، وحُلي زوجته وأولاده ...

ثم جمع مراكبه وعطوره ومتاعه، ثم دفع ثمنها الذي بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار إلى بيت المال .. !

ثم حرم نفسه حتى حقها المشروع في راتب الخلافة الذي كان يستطيع أن يتبرع عن نصفه أو عن ثلثه، لكنه رفضه جميعاً إلى آخر درهم منه .. وراح يعيش بغلة أرضه الصغيرة .. مائتي دينار في العام .. بواقع ثلاثة أرباع دينار في اليوم، لأمير المؤمنين وزوجة أمير المؤمنين، وأولاد أمير المؤمنين !

أَوَما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة، تاركاً أهله وأولاده يحيون ولو في مستوى حياة أوساط الناس .. ؟؟

إنه يعتبر هذا ـ لو حدث ـ احتيالاً على المسئولية، وهروباً من تبعات القدوة، ويرى النار تمدُّ إليه ألسنتها اللاهبة، لتطوّقه حساباً له وعقاباً

ومن ظن أننا نبالغ في التصوير، ونسرف في صبغ الألوان فليطالع هذه الواقعة

لقد عاد يوماً إلى داره بعد صلاة العشاء، ولمح بناته الصغار، فسلّم عليهن كعادته، وبدلاً من أن يتسارعن نحوه بالتحية كعادتهن، رحن يغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن الباب.

فسأل : ما شأنهن .. ؟؟

فأجيب بأنه لم يكن لديهن ما يتعشّين به سوى عدس وبصل ، فكرهن أن يشمّ من أفواههن ريح البصل ، فتحاشينه لهذا .

فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يا بناتي

ما ينفعكن أن تتعشّين الألوان والأطايب ، ثم يذهب بأبيكنّ إلى النار ؟؟ » !!

ويرى إحدى بناته الصغار صديقة لها ترتدي قرطين لؤلؤيين جميلين ، فترسل إحداهما إلى أبيها ضارعة أن يشتري لها مثلها .

ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجيء بجمرتين ملتهبتين ، ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك ، جئتك بلؤلؤتين كهاتين » !!

إن مسئولية القدوة ـ إذن ـ لا تنحصر فيه ، هو الخليفة والحاكم ، بل ـ وبحسب منهجه وتقديره ـ تنال أهله جميعاً ، حتى بنيّاته الصغار .. !

وهكذا راح يحملهم على نصحه في سبل المسئولية والقدوة .

اقترب يوماً من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« إنك لتعلمين من أين أتاك أبوك ـ عبد الملك بن مروان ـ بهذه الجواهر ، فهل لك أن أجعلها في تابوت ، أضعه في أقصى بيت المال ، وأنفق ما دونه ، فإن خلصت إليه أنفقته في حاجات المسلمين » ؟؟

ولم يكن قد بقي لفاطمة سوى هذه الحلي وهذه الجواهر ، وهي عزيزة عليها ، لأنها هدية أبيها لها في عرسها وزفافها .

ولكنها لا تجادل زوجها " القديس " حتى في هذه وتجرّد منها نحرها ، ومعصميها ، في غبطة ورضا .. !!

* * *

ويغادر أمير المؤمنين قصور الخلافة ، ويأوي إلى دار متواضعة ، ثم لا تشهد هذه الدار إيقاد النار إلا لماماً .

ويأخذ على نفسه العهد ألا يستحدث لنفسه شيئاً من أشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه

يحدّث ابن عياش ، فيقول :

كان لعمر مرقاتان يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته ..

فتهدّمت إحدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من أهله ..

فلما جاء " عمر " ووجدها ، سأل : مَن صنع هذا .. ؟

قالوا : فلان . قال : إليّ به ..

فلمّا جاء قال له عمر « وجدت نفسك على "عمر" أن يخرج من بيته ولم يضع شيئاً على لبنة .. ؟!

والله ، لولا أن تكون هدمي لها فساداً بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه .. » !

* * *

وتأخر عنه في ذروة أحد خاصته المقربين ، فجاءه بركن منه تغطيه الشمس وقد دثّر جسمه كله في إزار .. وخيّبه الزائر مريضاً ، فسأله عن حاله ؟

فأجاب أمير المؤمنين

« لا شيء ، غير أني أنتظر ثيابي حتى تجفّ »

قال الزائر : وما ثيابك يا أمير المؤمنين ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وإزار ..

قال صاحبه : ألا تتخذ قميصاً آخر ورداء ، وإزاراً ؟

قال الخليفة : كان لي ، ثم بَلِيَتْ .. !!

قال الزائر : ألا تتخذ سواها .. ؟؟

وهنا شرقتْ كلماته بدموعه ، وراح يُجهش بالبكاء ، مسنداً جبهته على راحته ، مردداً آية القرآن الكريم

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ !!

ولمّا كان يريد للدولة في عهده أن تكون رحمة وحناناً ، فقد راح يمزق عنها كل أقنعة الصّلف والكبر والتمايز ..

وبدأ ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس أن يسيروا بين يديه ، بل منعهم كما منع الناس جميعاً أن يقوموا له حين يطلع عليهم ، وقال لهم

« إنما يقوم الناس لرب العالمين » !

ونداه يوماً رجل من المسلمين قائلاً "يا خليفة الله في الأرض" .. فأخذته الرعدة لصالحه ، وصاح في الرجل

« مه

إني لمّا ولدتُ أسماني أهلي "عمر" ، فلو ناديتني يا "عمر"

ـ أجبتك

ولمّا كبرت اخترت لنفسي كُنية ، فكُنيت "بأبي حفص" ، فلو ناديتني ـ "يا أبا حفص"

ـ أجبتك .

ولمّا وليتموني أموركم سميتموني "أمير المؤمنين" ، فلو ناديتني ـ "يا أمير المؤمنين"

ـ أجبتك .

وأما خليفة الله في الأرض ، فلست كذلك

بما خلفه الله في الأرض رسله وأنبياؤه»

ومع الدعاء له فوق المنابر في خطبة الجمعة، وأرسل بذلك كتابًا حرره إلى ولاته في جميع الأقاليم، قائلا فيه:

«مُروهم فليصلّوا على النبي عليه السلام، وليكن فيه وصلوات دعائهم وصلاتهم

ثم ليُصلّوا على المؤمنين والمؤمنات.

وليستنصروا الله..

وليكن دعاؤهم للعامّة المسلمين..

وليدعوا ما سوى ذلك» !

* * *

وإذا كان قد حمل وأهل بيته معه مسئولية القدوة على هذا النحو المجيد، وهم الذين كانوا قد حملوها طائعين، غير أن هذا لا يكفيه، بل لابدّ من أن يحملها أيضا أمراء بني مروان جميعاً طائعين إن شاءوا.. وإن أبوا فكارهين..!!

لن يدعهم يستذخون باسمه، ويتخذون من قرابته ملجأ ومعتصماً.

وإذا كان ولابد، فلتكن هذه القرابة منجاة لهم من أطماعهم وشهواتهم، ومعتصماً بالتزامهم منهج أمير المؤمنين..!!

أما دون ذلك، فلن تكون دنياهم في عهده كدنياهم قبل عهده.

لن يظلّوا طبقة فوق الأمة.. ولن يتدفق إلى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة، كما كان أمرهم من قبل أن يهلّ على الدنيا أيام لأعزّ بن عبد العزيز..!

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الإبقاء على بعض امتيازاتهم، فلمّا أخفقوا راحوا يثورون، ولمّا أخفقوا، راحوا يهددون.

لكنّ الخليفة وقف لهم كالطود، وأحكم وضع الشكائم على عروقهم وأهوائهم، ثم دفع بهم جميعاً أمامه على طريق العدل والحق، فمضى بهم لمصيرهم..!

حدث يوماً أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بقدر من المال يديرون به أمورهم، ويستقلون به حياتهم الجديدة الخشنة، فتبدّوا واجتمعوا، وقرروا أن يوفدوا إليه صديقاً له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطاء.

فكان جوابه لهذا الصديق:

«والله لقد ندمت على هذا الذي أعطيتهم، وإني لأعلم أن في المسلمين من هو أحقُّ به، وأحوج إليه منهم»..!

وعاد مبعوثهم، ليهم يقرع أسماعهم بكلماته المدوّية، وهو يقول لهم:

«يا بني أميّة

لا تلوموا إلا أنفسكم، فقد عمدتم إلى صاحبكم "عبد العزيز بن مروان" فزوجتموه حفيدة "عمر بن الخطاب"، فجاءكم بعمر بن الخطاب، ملفوفاً في ثياب "عمر بن عبد العزيز"، فلا تلوموا إلا أنفسكم» !!

* * *

ويعود الخليفة ليضع كاهله على الولاة والقضاة، والأمناء على الأموال العامة.
أولئك الذين سمعناه من قبل يحثهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون أركان الدولة والسلطان
فقد كان يرى أن الولاة، بحكم كونهم نوابه في حكم الأقاليم
والقضاة، بوصفهم أهل الفصل في مصائر الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون
والأمناء بيوت المال، بما لهم من سيطرة مباشرة على الأموال العامة وأرزاق الناس
وأموال كان يرى في هذه المناصب أخطر مناصب الدولة وأكثرها ثقلاً وحساسية كما
كان يرى في سلامة أمرها العامل الأول والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسئولياته في
قسطاس وسداد

وهكذا راح القديس يستكمل سمات القدوة للدولة باختيار ولاته، وقضاته،
وأمنائه في حرص من يختار عاقبته ومصيره!!

ولقد كان من المفروغ منه، أنه لن يجد من هؤلاء من هو في مستوى ورعه، وشموخ نسكه
وفضائله، فراح يجتهد في العثور على من يكونون في مستوى رجاحته وثقته.

وسارع، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا في خدمة المظالم السابقة، ثم ولّى مكانهم من
صفوة يملكون للمهمة الجليلة، أمثال "أبي بكر بن حزم"، و "عبد الرحمن القشيري"، و "عدي بن أرطاة
الفزاري"، وآخرين من طرازهم وإخوانهم

وكان أول ما أوصاهم به، هذه الوصية الجامعة الرائعة

« كونوا في العدل والإصلاح والإحسان بقدر من كانوا قبلكم في الظلم والفجور
والعدوان » ..!!

كذلك، كان أول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الأمينة

« إني قد وليت عليكم رجالاً ..

لا أقول إنهم خياركم، ولكني أقول إنهم خير ممن هم شر منهم » !!

إنه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان ... ويزن كل حركاته وكلماته وقراراته، ومشاعره
لتتحرك بقدر معلوم !!

ويمضي ولاته إلى أقطارهم، ويسهرون على مسئولياتهم في ولاء صادق ... تقودهم على
طريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس ... هذه السيرة التي كان
أريجها ينشر عطره الصباح، وعبيرها يفوح ويهب هبوب الرياح والبشريات !!

لقد راحوا يتحرجون من كل تقصير يبدو من أحدهم ... وإذا سولت لأحدهم نفسه،
شيئاً من وساوسها بمجرد تذكر خليفته القديس في حياته الشفيفة، وورعه الجليل !!!

وراح الخليفة يواليهم برسائله ووصاياه ... وصية من بعد وصية، وكتاباً وراء كتاب
لنقرأ واحداً من هذه الكتب:

« أما بعد

فإن من ابتلي من أمر السلطان بشيء، فقد ابتلي ببلية عظيمة !!

فنسأل الله عونه وعونه ..

وإني أدعوك أن تقف نفسك في سرك وعلانيتك ، عند الذي ترجو به النجاة من ربك

تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه ، قبل أن يتولى صلاحه غيرك

ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..

ولكن لمن ولاك الله أمرهم بالصدق في دينهم وأعراضهم ..

واستر كل عوراتهم ..

وملك زمام نفسك تجاههم إذا هويت ، وإذا غضبت » !!!

* * *

وكم أحسن خبير ولايته أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت المال

وأمر هؤلاء وأوصاهم أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمناء على دين الله ، ودين الناس

وراحت أضواء فراسته وقدوته تتجلى وتتعاظم حتى كانت منارات هداية ، ومنحت الدولة كلها والأمة جميعها بأنوارها الغامرة وهداها الوثيق .

* * *

و "ثانياً" الشورى ضرورة ..

ونتقل الآن إلى المحور الثاني من محاور منهج الحاكم القديس وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفاً فذاً يمتاز بالعمق وبالشمول .

لقد أدرك أن كل ما يشيده من دنيا صالحة ، وعالم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره ونمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه .. ويمثل له هذا السياج في توسيع دائرة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة .. وبحث رأى عالم ناصح ، وصادق ، وشجاع ، ينقد الأخطاء ويسهم في إصلاحها

لم يكن عصره قد عرف ، نظم البرلمانية بعد .. لكن ديمقراطية الحاكم مع ذلك كانت تبين وتسفر كالشمس من خلال أسلوبه في الحكم ، وطريقته في اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق ، ونظرته إلى الأمة التي يحكمها ، ومدى ولائه لحقوقها وحريتها .

وبهذا المعيار والمنار .. نقف "عمر بن عبد العزيز" في هذا المجال وكأنه نسيج وحده !!!

لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، والذين لا يزيفون مواقفهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل ، وإن قطعت منهم الرقاب .

يجمعهم حوله، يفكرون معه.. بل لقد كان يوصي بعضهم أن يجلس قبالته وهو في مجلس الحكم، ويضع عينيه مفتوحتين على حديثه، وحركاته، فإن سمع قولاً، أو رأى حركة فيها شبهة من خطأ، نبهوه على الأمور بإشارة، تعرّف وإياهم عليها

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة، وليست ترفاً.. وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها، استقام الحكم، وشاع الحق، واستوثق العدل، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم، وكما ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

ومن أجل ذلك، راح في سرعة الضوء يخلق رأياً عاماً صادقاً آمناً، في طول الدولة وعرضها..

وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجهاً لوجه أمام مسئولياتهم المشتركة، بل الواحدة في دحض الخطأ والتزام الصواب..

فيكتب للولاة قائلاً:

« إنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً

ألا إن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم» !!!

ثم يكتب للناس في مختلف الأقاليم قائلاً:

« أيّ عامل من عمالي رغب عن الحقّ ولم يعمل بالكتاب والسنّة فلا طاعة له عليكم وقد صيّرتُ أمره إليكم، حتى يُراجع الحقّ وهو ذميم ...!! »

ويرسل إلى أحد وُلاته قائلاً

« قد كثُرَ شاكوكَ، وقلَّ شاكروك، فإمّا عدلتَ، وإمّا اعتزلتَ» !!

هكذا رفع سلطة الشعب في وجه سلطة الحاكم، وألزم جميع ولاته وعماله بالرأي العام يقودهم على طريق الحقّ طائعين أو كارهين

ولكي يدعم هذه السلطة، فتح أبوابه على مصاريعها لكل شاكٍ أو متظلم من حاكمه وواليه.. وأرسل منشوراً موجزاً إلى جميع الأقطار

« مَن ظلمه إمامه مَظلمة، فلا إذن له عليّ»

أي ليقتحم عليَّ داري، غير منتظر إذناً، وغير واقف بباب !!

* * *

وإنه ليبهرنا أسلوبه الفريد في بعث الرأي العام الشجاع، وتركه حراً طليقاً، وشدّ زنادها إلى أقصاه.

ففي سبيل ذلك، راح يرصد من بيت المال جوائز مغرية لكل من يكشف عن خطأ، ويهدي إلى صواب..!!!

ويطوف في إجلال، بالمنشور الذي كتبه، ثم أمر أن يقرأ على الناس في المواسم والمحافل والمجامع

"أما بعد..

فأيما رجل قدم علينا في مظلمة يردها، أو أمر يحيي الله به حقاً، أو يميت باطلاً، أو يحيي خيراً، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار بقدر ما تكأّده(1) في ذلك من طول السفر وبعد الشقة». !!

أليس عجباً هذا الذي نقرأ ونرى..؟؟

كلا، وإن أعجب من ذلك، أن نعلم هذا كله عن رجل لم تكن بيئته ولا عصره يساعدان على تشكيل بنائه.

لكنها صِبْغةُ الله.. ومعجزة الإسلام..!!

ولكم كان صادقاً حينَ قال:

« لو وكّلني الله إلى نفسي لكنتُ كغيري» .

لقد راح يضرب المثل الأسمى والقدوة الباهرة في تمثُّل الصدق.. هو الذي لم يعرف الناس له خلال خلافته كلها خطأً واحداً يستأهل النقد والتفنيد.

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له

إلى أين؟ ولماذا؟!

هنالك يُربّتُ كَتِفَهُ، ويُدنيه منه، ويقول له:

« زِدني يا أخي، جزاك الله خيراً» !!

إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء ألسنة الصادقين حتى حين يكون أحدهم طفلاً.

قدِمَ عليه وفد من المدينة يوماً، وتقدَّم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعرض قضيتهم، فتملاه أمير المؤمنين، وقال له

« يا بنيّ، دع القول لمن هو أسنّ منك»

ويبدو أن الغلام العربي الأصيل كان يحمل نبوغاً مبكراً، فقد أجاب الخليفة من فوره

« يا أمير المؤمنين:

المرء بأصغريه: قلبه ولسانه..

ولو كان الأمر بالسن، لكان في المسلمين من هو أحق بهذا الأمر منك» !!

وفجأة، تنثال دموع الغبطة والفرح من عيني القديس، ويتهلل وجهه، ويهتف بالغلام

« صدقت.. صدقت..

عِظني يا بُني..!!»

وراح أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوماً شاهراً سيفه، يسبّ ويشتم أمير المؤمنين على ملأ من الناس، وعلى مسمع من أهل المدينة وحكامها، فيعتقله الوالي ويرسل لأمير المؤمنين بأمره، ويقول في كتابه «.. قد هممت أن أقتله»

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يكتب عليها فوراً.

« أمَا والله، لو أنك قتلته لقتلتُك به» .!!

(1) أي يصعب عليه

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجل من عامة الناس، رافعاً عقيرته في وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحليم

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل:

« لعلك أردتَ أن يستفزني الشيطان بعزّة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً عند الله.

ولكن، لا

قم، عفا الله عنك» !!!

* * *

ومن أذكى وأبرع ما أدّاه "ابن عبد العزيز" في سبيل إنهاض رأي عام أمين على مسئولياته وقادر عليها، حَسْرُهُ ذلك المدَّ الطاغي لدولة الشعر والشعراء التي كانت قائمة يوم ذاك

وقد رأينا فيما سلف من حديث، كيف اصطنع الأمويون الشعراء لزيف الحقّ، ولتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والأخلاقيات، حتى لقد كانوا عقبة كئوداً في سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها... والآن، يتقدم العقل والعدل، فيقصف رياح الحقيقة وراء هذا الصوت فيكتمه ويبدّده، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مشرقة بنور الحقّ وحده!

لقد وقف يخطب الناس فقال:

« من أراد أن يصحبنا، فليصحبنا بخمس، أو فليفارقنا:

* يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها
* ويعيننا على الخير بجهده
* ويدلنا على ما لا نهتدي إليه من الخير
* ولا يغتابنّ عندنا أحداً
* ولا يعرضنّ لما لا يعنيه »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة، أن جميع كتب التاريخ التي تسرد هذا الحدث، تتبعه بقولها:

« فانفضّ عنه الشعراء والخطباء

وثبت معه الزهاد والفقهاء!!»

أجل... فمعظم شعراء عصره... وعلى رأسهم الأخطل، والفرزدق، وجرير... لم يكن لهم مع هذه الخمس، ولا مع واحدة منها رحمٌ ولا قرابة...!

فهم إمّا مادحون بغير حقّ... وإما هاجون بغير حقّ أيضاً

وهم في كلتا الحالتين يحرمون الرأي العام رؤية الصدق بما يسرّبون من أباطيل وبهتان

والآن، يحكمهم رجل عظيم، لا حاجة به إليهم

فليست له عداوات، يحتاج للشعر في تأجيجها

وليس له طموح، يحتاج للشعر في قرع طبوله

وليست له شهوات يحتاج للشعر في تزيينها، ولا أخطاء يحتاج لتبريرها

وسن له بالسلطة وبع ، فصاح للشعر في حماسه واستهدائه

ثم إنه لا وقف لديه ، ولا وقف لدى أمة لهذا الهذر العريض الذي ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموي كله .. !!

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمة ، مكافأة على مدح أو اتقاء لهجاء .. !!

وراح - أمير المؤمنين - يشرف بنفسه على إعداد الرأي العام بكل الصدق ، ويكل الحقيقة عن طريق منشوراته التي كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها إلى مختلف الأقطار كافة

ولقد بدأ بدحر تلك الخطيئة الفاحشة التي كان الحكم الأموي يمارسها في سفاهة ، وهي لعن "الإمام علي" كرم الله وجهه على المنابر !!

وأمر أن يقرأ الخطباء مكان تلك الكلمات الآثمة - بين الآيات الكريمة ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ..

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق ..

ودحر الباطل ، وآزر الحق ..

وكان ذلك إسهاماً فعلاً في إنهاض رأي عام حصيف وأمين

وأمير المؤمنين - عمر - لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها إدراك حاكم عادل صالح فحسب .. بل إنه ليدرك كذلك جوهرها إدراك فيلسوف .. !!

فهو لا يرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالأمة ، وتبادل المسئولية تجاه الدولة والمجتمع .. بل يمضي في تجاه تحليل منهجي لجوهرها ووظيفتها ، فيرى ذلك متمثلاً في ظفر كل فرد من الناس بحقه في الخبرة والمعرفة .. وحق هذا الإنسان في التعبير عن نفسه ، في غير زيف أو غموض .

ذلك أن الناس حين يرغمون على كتمان آرائهم بسبب رغبة ، أو رهبة ، فإنه يستحيل في الوقت نفسه ، وللسبب نفسه معرفة آرائهم

وما دامت الآراء الصادقة هي مادة الشورى وأداتها ، فإن إخفاء هذه الآراء إذن ، يعتبر وأداً للشورى وإلغاءً لمهمتها .

وهنا تطل علينا عظمة القديس "عمر" وهو يضع إقناع الناس - حتى حين يخالفونه ويخالفونه - موضع القبول والتقدير .

والوقائع التي تحكي ولاءه الوثيق لحرية الاقتناع يزدحم بها الشهور التسعة والعشرون التي قضاها خليفة وإماماً .. لكنا نختار منها هذه الواقعة التي تكاد تعطي التعبير النهائي لهذا الولاء

ولعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين شقوا عصا "الإمام علي" كرم الله وجهه، حتى اغتاله واحد منهم.. هؤلاء الذين تحولوا بعد ذلك، وخلال العصر الأموي إلى فرق كثيرة، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كثيرة دفعت منهم خلالها ألوف الضحايا.

وبالإضافة إلى نشاطها المسلح هذا، فقد كان لبعضها آراء وعقائد لا يزكيها فقه ولا سُنة.. ومع ذلك كله، نرى الخليفة العتيد الأوّاب لا ينسى حتى في فسقهم هذا، حقهم في أن يكون لهم اقتناعهم، ثم لا ينسى واجبه في احترام هذا الحق لهم، وواجبه في إعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع، ما دام نشاطهم لا يتحول إلى عمل إرهابي يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يخالفونهم في اعتقادهم واقتناعهم.

بل إن سيرته ترى بحصافته الباهرة، أن سبيل الأمن لصرفهم عن التآمر والإرهاب، هو رفع الغطاء عن الأفكار المحبوسة، وتمكين الرأي المحبوس المكبوت من الانطلاق، قبل أن يتحول داخل نفس صاحبه المقهورة إلى حقد موتور، وقنبلة رعناء..!!

وهكذا، لا تكاد تلك الفرق تتحرك في الأيام الأولى من خلافته، مستأنفة تمردها المسلح، حتى يُرسل إلى زعيمها هذا الكتاب:

« أما بعد...

فقد بلغني أنك خرجت غضبًا لله ولرسوله.. ولست أولى بذلك مني

فهلُمَّ أناظرك

فإن يكن الحق معنا، دخلت فيه، وإن يكن الحق معك، نراجع أنفسنا وننظر في أمرنا..!!»

وتبهر الزعيم الثائر كلمات الأمير، فيخجل من نفسه، ويلقي سلاحه، ويرسل مبعوثين إلى عاصمة الخلافة، يُجرون مع الخليفة حوارًا حول ما بينهم من قضايا وخلاف.. ويجري الحوار بينهما رائعًا، صادقًا، تتجلى خلاله مواهب ابن عبد العزيز في رؤية الحقيقة، وتوجيه المنطق، وامتلاك الأفئدة والعقول..!!

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم، أن تُلقي تلك الفرقة المتمردة سلاحها.. بعد ما تبينت أنها في عصر رجل جديد ينتمي لعصر النبوة والوحي.. رجل يخجل الشيطان نفسه أن يَشْغَبَ عليه، أو يتحداه..!!

على أن لهذه الواقعة -برغم دلالتها العميقة- مثلاً آخر يكمل الصورة التي نرسمها لولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأي وحُرمة الاقتناع.

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخوارج وحججهم، لم يتخذ القوة قط سبيلاً لدحض هذا المنطق وإسكاته.. بل يرى أن قيام منطق أهدى، وحجة أوضح وأصدق، هو السبيل لإظهار الحق وإخماد الباطل.

وهكذا نلتقي به، وقد قامت فرقة أخرى من الخوارج -هم "الحرورية بالموصل"- يتجولون في البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم.. ويكتب إليه حاكم الموصل، يستأذنه في قمعهم وإسكاتهم.

أقول.. نلتقي بأمير المؤمنين يجيب واليه فيقول:

« إذا رأوا أن يسيحوا في البلاد في غير أذى لأهل الذمة وفي غير أذى للأمة فليذهبوا حيث شاءوا .

وإن نال أحد من المسلمين ، أو من أهل الذمة بسوء ، فحاكمهم إلى الله » ..

بالله ، ما أعدله وما أروعه .. !!

إنه لا يرى لنفسه حقاً أي حق في الحجر على آراء الآخرين ولا في الوصاية عليهم

وهو ـ كحاكم ـ لا يرى لنفسه أي حق في التدخل إلا حين يواجهه خطر مسلح يهدد سلامة الدولة والأمة .

أما دون ذلك . فلكل رأي حرمته ، ولكل إنسان حقه وحريته

وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذي مكّن الشورى في عهده أن تمكث تكاد تقطع دون بلوغه أنفاس كل الديمقراطيات .. !!

ولطالما قالوا له يومئذ : إن هؤلاء الخوارج يشترون بين الناس أفكاراً زائفة ، ويلبسون الحق بالباطل ، وإن تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عمل يُنذر بسوء مآب

فلا يزيد القديس العادل على أن يذكّر مُحدثيه ومُحرضيه بآيات القرآن العظيم التي نهى الله فيها رسوله عن أن يسوس ضمائر الناس بالقهر والبطش

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ؟

﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ !!

﴿ إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ﴾ !!

ولقد وقفت العواقب بجانبه ، وأثبتت صدق رأيه وذكاء تقديره فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوماً واحداً منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم إلا إمعاناً في التحدي وضراوة في القتال نراهم في عصر هذا القديس الحبيب يغمدون سيوفهم ، وينسون طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الأمويين من ترات ، وثارات ... !!

* * *

وثالثاً : المال وديعة .

وأما المشكلات الاقتصادية ، ومشكلات الدخل والتوزيع التي تُحيّر الدول في كل العصور والأزمان ، لم تأخذ "عمر" حيرة ، ولم تُعضله أزمة .

ذلك أنه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تسيير أمورهما أعظم وأهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد

والدولة المسلمة ـ يومئذ ـ لم يكن ينقصها المال إنما كان ينقصها اتباع الحق في اقتصاصه .. واتباع العدل في توزيعه .

وقبل هذين ، بعث حرمة الأموال العامة وقداستها في ضمير الدولة ، بل مسئوليها وفي ضمير الأمة ، بل أفرادها . إن موقفه من الثروة العمومية ، يبدأ من إيمانه بقول الله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾

فمصادر الإنتاج ، والإنتاج ، والثروة . كل ذلك إذن وديعة الله عند الناس . دُوَلاً ، وأُمماً ، وجماعات ، وأفراداً

ولقد تنعم الله هذه حُرمتها التي تنأى بها عن النهب ، والسرف ، والبغي ، والاحتكار

فإذا اكتسبت هذه الوديعة صفة أخرى ووصفاً آخر ، فصارت أموالاً عامة ، فإنّ حُرمتها وقداستها تربو وتزداد ..

ذلك أن معنى كونها [أموالاً عامة] أنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمة ... لكل أرملة فيها ، ولكل يتيم ... لكل مسن ، وطفل ، ورضيع ... لكل فقير ، وعاجز ، ومريض

وهي بهذه المثابة ، مثابة أنها ـ أولاً ـ وديعة الله ... وثانياً حقّ الناس ، جميع الناس تتمتع بحرمة بالغة ، وقداسة وتُقى .

و ... بن عبد العزيز يرى نفسه مسئولاً عن إعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحقّ

وإنه ليُعبّر عن ذلك في كلماته الفاصلة :

" إنما أنا حَجيجُ المسلمين في مالهم " !

كما نُعبّر بسلوكه تجاهها تعبيراً يبهر الألباب .

إنه يرسل خادمه يوماً ليسخّن له الماء كي يتوضأ به في يوم شاتٍ زمهرير

ويعود الخادم مسرعاً بالماء الدافئ ، فيسأله الخليفة ... أين دفأْته بهذه السرعة ؟

فيجيب الخادم : في مطابخ المسلمين

وكان ـ عمر ـ قد توسع في إنشاء مطابخ عامة للناس يُنفق عليها من بيت المال

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يمسّ الماء جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جداً من الماء .. !!!

وإنّا لنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة ليلاً على مصباح يُوخذ زيته من بيت المال ، فإذا عرض له في أثناء ذلك طارئ شخصي ـ ولو كان لا يستغرق سوى لحظات ـ فإنه يطفئ مصباح بيت المال ، ويُوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهي من ذلك الطارئ .. !!

ولقد يرى بعضهم في هذا المسلك نوعاً من التزمّت المغرق .

ولقد يرون في إعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التي كان يحكمها ـ ابن عبد العزيز ـ أمراً غير مألوف ... وربما غير مستساغ

غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتهم أن الذي كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها ، إنما هو المعنى الكبير الذي يملأ ضميره ، ويُشكل سلوكه تجاه الأموال العامة وحُرمتها وقداستها .

وبعد ذلك يستوي أن يكون هذا المال ... مثل درهم من زيت مصباح ... أو ملء حجره فضة وذهباً .. !

إنه يذكُر ، ويذكّر الناس دائماً بالآية الكريمة ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ !!

و لطول عهده في أحمر الأشياء ، مثله في أكبرها وأخطرها . وفيما يستأثر به لنفسه ، مثله فيما يجود به على غيره !

بل حتى الهدايا ، رآها غلولاً ، أو شيئاً يشبه الغلول ..

جاءته يوماً هدية ، فعاتبه عمر عنه ـ فقيل له : إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية ..

فأجاب قائلاً

"لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة" !!

* * *

إن موقفه من أموال الأمة عجيب ، ثم عجيب ..!!

وإن لها في فؤاده لذكي التقى وحرمة تضاهي حرمة الإيمان ذاته ، وحرمة التوحيد !!

يطلب منه أحد ولاته الإذن بمزيد من الشموع التي كانت دار الإمارة تضاء بها ، وتضاء بها للأمير وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عهدتك يا ابن أم حزم ، قبل أن تكون والياً ، تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح .

ولعمري ، لأنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك » !!

ويكتب إليه وال آخر ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة أيضاً :

« إذا جاءك كتابي هذا ، فأرق القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة في الصفحة الواحدة ..

فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت مالهم » !!

هل رأيت القصيد .. [أضر ببيت مالهم] !.

فالمشكلة ليست مشكلة قليل أو كثير من الشموع والأقلام والأوراق ، فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعاً وأقلاماً وورقاً

إنما المسألة في وعي "الحاكم القديس" هي حرمة هذه الأموال وقدسيتها .. هي حب التفريط فيها .. هي درجة الولاء للمسئولية وعظمتها وخطرها .. وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها مرفوضاً مهما تكن ضآلة مقداره .

ذلك أن الإسراف الذي يتمثل اليوم في شمعة أو قلم .. سيتمثل غداً ـ إذا استهين بأمره ـ فيما هو أوخم عاقبة وأسوأ مصيراً .. !

* * *

هكذا أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس

ونعود إلى موقفه من "مشكلة الدخل والتوزيع"

فما إن الدولة يومئذ لم تكن تنقصها الثروة .. إنما كان ينقصها تقصي الحق في جمعه .. والعدل في توزيعه ..

فيما يتعلق بالدخل .. يرى الخلفاء قبله ، وقد أرهق الترف والسرف ميزانية الدولة ، راحوا يعوضون ذلك بجمع الضرائب على غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة

فأهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام ، يضع عنهم الذين ضريبة الجزية فورا .. لكن الدولة الأموية تأبى في ذلك حكم الإسلام ، وتبقي الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مسوغة ذلك بأنهم إنما يسلمون فرارا من الضريبة .. !!

ويجيء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويغ الرائف ، ويعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل في دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الأرض مالاً وذهباً

وينطلق أمير المؤمنين كلماته لمصيبة هذه :

« إن الله بعث ـ محمداً ـ هادياً ولم يبعثه جابياً » .!!

ولقد أرسل إليه واليه على العراق "عدي بن أرطأة" يقول: "إن الناس قد دخلوا في الإسلام أفواجاً ، حتى خشيت أن يقل الخراج"

فيجيبه الخليفة المقسط العظيم :

" والله ، لوددت أن الناس كلهم يسلمون ، حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا .!!"

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التي كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على أساس ظالم فألغاها جميعها

بل حتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض للبوار

ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن "عروة بن محمد" :

"أما بعد ..

فقد كتبت إلي تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الحرج ثابتة في أعناقهم ، كالجزية يؤدونها على كل حال ، إن أخصبوا ، أو أجدبوا .. إن حيوا ، أو ماتوا

فسبحان الله رب العالمين !! ثم سبحان الله رب العالمين !!

إذا أتاك كتابي هذا ، فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق

واعلم أنك إن لم ترفع إلي من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[1] ، فقد علم الله أني سأكون بها مسرورا ، ما دام في ذلك إبقاء على الحق والعدل » .!!!

ولعل بعضنا يأخذه العجب .. فيما كان بموقع من ونحن نتحدث عن "الدخل" أن نسير إلى اكتشاف مصادر جديدة ترفده ، وموارد تزيد ضياعه وتنميه .. إذ بنا نطوي سلسلة الحقيقة تجاه الدخل العام ، لأنه ألغى الكثير من تلك المصادر والموارد .. ؟!

(١) الكتم نبات يختضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة

ولكن، ما حيلتنا، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون ـ ابن عبد العزيز؟!
إن المسألة عنده ليست مسألة كثرة.. بل مسألة وفرة..
والوفرة، تكون في بركة الحلال المشروع، لا في كثرة الحرام المغتصب.
ولعل من واجبنا قبل أن نغادر هذه النقطة من حديثنا، أن نقول لبعض المؤرخين الذين يردّون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين ـ عمر ـ إلى سياسته الضرائبية هذه.

نعم من واجبنا أن نقول لهم: أغلب الظن أنكم مخطئون.
فلقد سارت الأمور في عهده كله على أتم نسق، ولم تكن ثمة بادرة عجز أو اضطراب، بل كانت على العكس من ذلك، تزدهر وتنمو بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار.
إنما اضطربت فيما بعد، حين غاب ـ البطل ـ عن مسرح العدالة والحقّ، وعاد السرف والترَف والفساد، وسياسة السطو مرة أخرى تعيث وتمرح، بعد أن رحل الحارس اليقظ، والحاكم القدّيس..!!

* * *

على أن ـ الحكمة ـ حين ألغى الضرائب الظالمة، أتاح في نفس الوقت مورداً ثرّاً للدولة، حين ردّ إليها جميع الأرض والثروة التي كانت تحت أيدي الأمراء.
ومورد آخر، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل وأثراها. ذلكم هو وضع كل درهم في مكانه وضرورته.. وتحريم كل تبذير، وتحريم كل سرف.
أجل.. لقد كان ـ ولا يزال ـ وضع المال في مكانه الصحيح وفي حدود ضرورته، سياسة وحدها، خير مورد وأبقى مصدر..
ولقد التزم ـ عمر ـ هذا النهج التزاماً يكاد يكون مطلقاً مع نفسه، ومع أهله، ومع ولاته، ومع ذوي قرباه، وأصدقائه، والناس أجمعين.
ها هو ذا أحد المقربين إليه، الأثيرين لديه ـ عنبسة بن سعيد ـ يذهب إليه يوماً، يسأله حاجة لنفسه.

فيطالع جواب الخليفة له:
« يا عنبسة..
إن يكن مالك الذي عندك حلالاً، فهو كافيك.
وإن يكن حراماً، فلا تُضفْ إليه حراماً جديداً..
أخبرني يا عنبسة..
أمحتاج أنت..؟ لا..
أفعليك دَين..؟ لا..
إذن، فكيف تطمع في أن أعمد إلى مال الله فأعطيكه في غير حاجة، وأدع فقراء المسلمين؟!

لو كنتَ غارماً، لأديتُ عنك غُرمك أو مصلحاً لأمرتُ لك بما يصلح شأنك
فليكن لك في مالك غَناء
وتقوى الله، وانظر من أين جمعته، واحسب نفسك بين يدي أن يحاسبك أسرع الحاسبين».!!
إن هذا الذي قاله لصديقه الحميم "عنبسة" كان يقوله لكل من يسأله ما ليس له بحق. على أن هذا الذي هو حق في تقديره، لم يكن يمثل عنده إلا في ضرورات العيش والحياة.
وهكذا أتيح له أن يحول شهوات البائسين إلى بسمات متهللة، وفرح غامر، دون أن يحوّل السَّراة إلى طبقة بديلة للبائسين.
إن كل ما صنعه بهم أنه أخذ منهم ترفهم وتخمتهم، ثم تركهم يحيون كرماءً متواضعين..!!

* * *

وهنا ينتقل الحديث من المدخل إلى الموضوع. فكيف راح الحاكم العظيم يوزع أموال الأمة، وأين كان يضعها..؟؟
لقد ردّ المال إلى وظيفته الحقيقية، وإلى دَوْره الأصيل ومسئوليته الأولى في خدمة الأمة وتلبية احتياجاتها.
لقد بدأ فرسم حدود الكفالة الشاملة التي ستنهض بها الدولة تجاه مواطنيها جميعاً، فرداً فرداً. وحدد بالتالي مسئولية بيت المال تجاه تغطية هذه الكفالة كلها.
نرى ذلك في كتابه إلى ولاته
« لابدّ لكل مسلم من:
* مسكن يأوي إليه..
* وخادم يكفيه مهنته.
* وفرس يُجاهد عليه عدوه.
* وأثاث في بيته.
* فوفروا ذلك كله.
ومن كان غارمًا، فاقضوا عنه دينه» !!!
والتعبير بكلمة "مسلم" هنا لا يعني قَصْر هذه المزايا ـ بل الحقوق ـ على المسلمين وحدهم، إنما استعمل هذا الوصف لغَلَبته لا أكثر. ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حقّ المواطنين جميعاً ـ مسلمين وأهل كتاب..
وأمر الخليفة ولاته أن يبدءوا بتغطية حاجات فقرائهم، وما فضل بعد ذلك يُرسَل إلى الخزانة العامة. ومن قصر دخل إقليمه عن تغطية حاجات أهله، أمدّه الخليفة بما يغطي عجزه:
« استوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم

فإن بلغ كفاءة الناس ، فحسنٌ . وإلا فاكتبْ إليّ حتى أبعث إليك من المال ما توفر به للناس أُعطياتهم » .. !!

* * *

وراح « المبارك الميمون » يشق في طول البلاد وعرضها دُور الضيافة ، تأوي إليها المسافرون وأبناء السبيل ..

ومضى ، يرفع مستوى الأجور الصحيحة ..

وكفى كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم وفقههم دون أن ينظروا من أيدي الناس أجراً .

ووسع على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام .. !!

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضي له أموره على حساب الدولة ..

ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة ..

وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم .

وافتدى أسرى المسلمين جميعاً ، وأغدق عليهم العطاء .

وكفى اليتامى الذين لا عائل لهم في جميع أقطار دولته العريضة المترامية

وكما فعل جدّه العظيم ـ عمر بن الخطاب ـ من قبل ، فعل هو أيضاً ، فأمر أن تفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرّد ولادته ، وليس بعد فطامه ، حتى لا تستعجل الأمهات فطام الرضَّع ، فتنتشر نموهم ، وتضمحل قُواهم .. !!

ومن أجل ألا يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع أحد بين عطاءين ..

وحرم على جميع العاملين والموظفين الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب !!

* * *

وهكذا بسط الناس جميعاً في عهده العظيم ما أفاء الله عليهم من خير ورزق

وإنّ لنكاد نذهل أمام ذلك الإجماع التاريخي الذي يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء في عهد القديس الورع ، عمر بن عبد العزيز ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيراً يأخذها ـ ويبسط يده إليها !!

ذلك أن عدل ـ ابن عبد العزيز ـ لم يكفِ الناس حاجتهم فحسب . بل ملأهم شعوراً بالكرامة والقناعة . فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحقّ ، وبالعدل ، وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » !!!

* * *

و « رابعاً » : **وحدة الأمة وسلامها** .

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعاً ممزقاً ، يتربص بعضُه ببعضٍ الدوائر .. ويتربص كله بالدولة الدوائر . !!

فخلفاء بني أمية، كانوا يتوسلون لدعم وجودهم وسلطانهم بشحذ العصبية القبلية والإقليمية.. فيختص أحدهم بعطفه القيسية، ويختص آخر اليمنية.. ويميز أحدهم أهل الشام.. ويميز آخر أهل العراق..

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة إلى القبائل وزعمائها، فظهر من ينادي بسيادة أهل الحضر.. وفي مواجهتهم، ظهر من ينادي بسيادة أهل البادية..

كذلك كان الخلفاء الأمويون قد جنحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب وتلك الذين عرفوا باسم "الموالي".. ففرضوا عليهم الجزية ظلماً.. وحرموهم الحقوق التي يكفلها لهم الإسلام، على الرغم من بلائهم العظيم، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الإسلام عالياً في كل مجال..!

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة، من شيعة وخوارج ومعتزلة.. منهم من يحمل السلاح في وجه الدولة، وفي وجه خصومه في الرأي.. ومنهم من لا يحمل السلاح، ولكنه يحمل الكلمة المسمومة.. ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحجاج.

* * *

وورث "القديس" المجتمع على هذا التمزق، والتشتت، فنفخ فيه من روحه الطاهرة القادرة نفحة مباركة نفت عنه في لحظة كل هذه الخبائث والشوائب.. لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب.. بل ضميره وروحه أيضاً، فشهد مجتمع الإسلام في أيامه الحب ونبل التراحم.. وأخذ كلٌّ حقه.. وقنع كلٌّ بحقه..!!

فأما عن الخوارج، فقد رأيت كيف أسكتهم بالحجة والبرهان..

وأما الموالي، فقد وضع عنهم ظلمهم، وصحح وضعهم..

وأما النزعة القبلية والإقليمية، فقد طواها بيمينه..

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون.. ولا عراقيون وشاميون.. ولا عرب وموالٍ..

لقد عادت رحم الإسلام تنظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم.. وسطرت من جديد روعة عظمته المتمثلة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

* * *

ولم يقف نضال "ابن عبد العزيز" لوحدة الأمة عند هذه الحدود وحدها.. بل مد إيمانه بالوحدة وولهه لها إلى وضع الأقليات، فأدمجها في جسم المجتمع المسلم، وصان لها كل حقوقها..

ولقد رأيت في سالف صفحات مرت، نهيه لأحد ولاته بأن يتعرض للخوارج، قائلاً له: «إن ساروا في الأرض دون مساءة لأهل الذمة، ولا الأمة، فدعهم»..

وفي كتب كثيرة لولاته، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة، أولئك الذين أسماهم الإسلام- أهل الذمة- توكيداً لما في ذمة المسلمين لهم من عهد وميثاق..!!

لقد كانوا إلى يوم استخلافه، يلاقون الكثير من العنت.. ويعانون تحت وطأة

صرائب ظالمة . فما كاد يتولى أمر الأمة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التي شرعها الإسلام لقاء حمايتهم وتوفير الأمن لهم

وإن موقفه من قضية "كنيسة يوحنا" بدمشق لمثل رائع وباهر على عظمة العظيم والنبيل الدعم وحدة الأمة كلها ، بصرف النظر عن اختلاف الدين واختلاف الملل فيها !

كان "الوليد بن عبد الملك" قد هدم جزءاً كبيراً من كنيسة "يوحنا" ، ليقيم عليه مبادئ المسجد الأموي المشيد .

وحين ولي "عمر بن عبد العزيز" الخلافة ، شكا إليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم

ترى ، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟

إن الجزء الذي تهدم من الكنيسة قد صار مسجداً ..

وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل في مثل هذا الموقف أن يعطي تعويضاً سخياً ، أو أرضاً بديلة

لكنّ "ابن عبد العزيز" يعالج مع العدل والحقّ بأسلوب مختلف عن أساليب ... إنه أسلوب قديس جليل !!

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، وإعادة الأرض التي أقيم عليها إلى الكنيسة .. !

وذاب الأرض بعلماء دمشق وفقهائه ، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره .

لكنّ أمير المؤمنين ، أصدر أمراً جديداً حدّد فيه اليوم ، بل الساعة التي يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم !!

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء الكنيسة في دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقاً يرضونه ، ويتنازلون بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق ، فيحمد الله عليه ، ثم يقرّه ويرضاه .

* * *

ثم إذن نفسّر ذلك الموقف الذي نجده من بعض أهل الكتاب من النصارى ، حين أمر أن يُعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، وإحراج لهم .. ؟؟

إننا في ضوء موقفه العام الذي رأيناه ، لا نرى لموقفه تجاه هذا تفسيراً إلا أن يكون قد دعاه إليه سلوك بعض أولئك الذين عملوا كطابور خامس للإمبراطورية الرومانية التي كانت تشن باسم الصليب ـ حروباً عدوانية على دولة الإسلام

ويزكّي ذلك ـ في رأينا ـ تلك الرسالة التي حملت أوامره بشأن أولئك النصارى فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد في دورهم من سلاح مما يومئ إلى وجود مؤامرة كانوا يهمّون بها ، على أنه في موقفه من هؤلاء ، لم يأمر باتخاذ أيّ إجراء عنيف

كل الذي أمر به أن يُميّزوا بلباسهم الخاص وحتى هذا الإجراء نشير إلى أن رسالته

التي دخلت نفسه تجاههم، فأراد أن يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلاً لكشفهم

فإذا تجاوزت هذه الفئة التي فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع، وجدنا موقفه من المسيحيين عامة موقف الحارس الأمين لحقوقهم ولعهودهم ولكرامتهم

لقد أثار موقفه من الأديان ومن حقوق الأقليات في دولته الراشدة انبهار وإعجاب العالم الخارجي من حوله؛ حتى إن إمبراطور الروم ليون الثالث - وقد كان خصماً عنيداً لدولة الإسلام - لا يكاد ينعيه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى بكى بكاءً مُرّاً، فذهل حاشيته وبطانته، فسألوه في ذلك، فأجابهم بكلمات تعبق من صدق وأجمع ما قيل في تأبين أمير المؤمنين:

«مات والله ملك عادل، ليس لعدله مثيل!!

وليس ينبغي أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله في صومعته

إنما العجب لهذا الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها..!

ولقد كان حرياً أن يعجب به، فأهل الخير لا يعيشون مع أهل الشر إلا قليلاً»!!

فهل كان هذا الإمبراطور ليشهد هذه الشهادة لو عرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب في عهده؟؟

بل هل كان كبير أساقفة الروم سيحث مسرعاً حين علم بمرض الخليفة، ليقيم إلى جواره يطببه ويعالجه..؟؟

* * *

ونعود للعمل الذي عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمة، لنرى كيف كان في الوقت نفسه عملاً في سبيل سلامها الداخلي:

فالسلام الداخلي، إنما توفر بالقدر الذي يجمع فيه شمل الأمة وتتآخى روح بنيها

ولقد أنعم الله عليه وعلى أمته بما تمنى من وحدة الإسلام..

فماذا عن السلام الخارجي ووضع أوزار الحروب التي كانت مشبوبة الأوار خارج الحدود؟

لقد رأيناه يبدأ في الساعات الأولى من خلافته بإصدار أمره للجيش الذي أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة

ثم رأيناه يفتدي جميع الأسرى على كثرتهم ويردهم إلى ديارهم ووطنهم

ثم نراه يضع حداً لكل الأعمال العسكرية التي كانت تقوم بها الدولة.. ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزاً منيعاً بما تم له من فتوح، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم إلا للدفاع عن حدود الدولة إذا هوجمت، وعن سلامة الأمة إذا تعرضت للأخطار..

واستعاض عن زحف الجيوش، بكتبه التي بعث بها إلى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها، يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم أكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى إليهم من أنباء ورعه وزهده، وعظمته ونقائه

كذلك كتب إلى البربر، في إفريقية يدعوهم إلى الإسلام، فدخلوا فيه أفواجاً

وكتب إلى ملوك ما وراء النهر، فأسلم أكثرهم ورفعوا راية الإسلام .
أليس رجلاً مباركاً ذلك القديس .. ؟؟

* * *

و"خامساً" : أسلوبه في التنفيذ ..

ماذا كانت الأمة ستفيد من ورعه وزهده وتقواه وعدله، لو لم تكن كفاءته في التنفيذ موازية لكفاءته في حمل المسئولية والإخلاص لها .. ؟؟

هنا نلتقي بجانب من أبهى وأعلى وأقوى جوانب شخصية ذلك القديس العظيم الخارق لا ريب . نلتقي به هنا حياً يقظان .

إن كل ساعات اليوم الأربع والعشرين منذورة لمسئولياته

ليس فيها سوى الوقت الذي تستغرقه صلاته وعبادته .. والساعتين أو الثلاث التي يمنحها لنومه وراحته ..

أما بعد ذلك، فلا وقت لديه إلا لمسئولياته المقدسة

وله أسلوب فريد في إنجاز هذه المسئوليات وسمات منهجه

اللين، والحزم، والأناة، والحسم .. والإشراف العظيم، واللامركزية .. والمتابعة، واليقظة .. كل هذه تعمل مجتمعة لا متخلفة .. في نسق فذ، ويكم من عجب ..!

بلغ به التعب يوماً أشده، فسأله بعض خاصته أن يريح نفسه .. فيقول :

« ومن يجزي عني عمل اليوم » .. ؟

فيقولون له : تنجزه في الغد ..

فيجيب : « لقد فدحني عمل يوم واحد حتى سألتموني أن أريح نفسي، فكيف إذا جمع عليّ عمل يومين » .. ؟؟

إنه لا يجري حسابه الختامي كل شهر ولا كل أسبوع .. بل لكل يوم مسئولياته وحسابه الختامي، ولا يحيل يوماً على آخر، لأن لكل يوم مزدحمه وأحماله ..!!

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التي تنظمها دولته الواسعة، بناء الشخذة .. لا تهتف به حاجة فرد ولا ظلامة مظلوم في أدنى الأرض وأقصاها إلا ألفته وكأنه في انتظارها وحدها !!

وصغار الأمور عنده مثل كبارها .. في الاهتمام نفسه والمسارعة نفسها .. حمل إليه بريده يوماً رسالة من الحيرة بمصر .

أما صاحبة الرسالة فاسمها "فرتونة السوداء"، تشكو لأمير المؤمنين أن لها حائطاً قصيراً متهدماً لدارها يتسوّره اللصوص ويسرقون دجاجها، وليس معها من نفقة في هذا الشأن

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو في عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب إلى واليه على مصر "أيوب بن شرحبيل" هذا الخطاب :

"من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى أيوب بن شرحبيل

سلام الله عليكم ..

أما بعد .. فإن فرتونة السوداء كتبت إليّ تشكو قصر حائطها ، وأن دجاجها يسرق منه ، وتسأل تحصينه لها .

فإذا جاءك كتابي هذا ، فاركب بنفسك وحصّنه لها » .. !!

والبريد نفسه الذي حمل هذا الكتاب لوالي مصر ، حمل كتاباً آخر من الخليفة إلى فرتونة السوداء :

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء

سلام الله عليك

أما بعد .. فقد بلغني كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يقتحم عليك ويُسرق دجاجك

وقد كتبت إلى "أيوب بن شرحبيل" آمره أن يبني لك الحائط حتى يحصّنه مما تخافين إن شاء الله » .. !

يقول ابن عبد الحكم الذي روى لنا هذه الواقعة الباهرة

« فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن "فرتونة" حتى وجدها ، فإذا هي سوداء مسكينة ، فأعلى لها حائطها » !!

هذا خليفة قديس لن تفلت من رحمته وعدله وأبوّته شاردة ولا واردة !!

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء .

انظروا .. !

إنه يكتب لواليه على مصر أيضاً :

« أما بعد

فقد بلغني أن الحمّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تطيق

فإذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .. !! »

وإنه ليبصر في جولاته الناس يحملون مقارع ، في أسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر في مجلسه حتى يوقع قراراً يحرّم استخدام هذه المقارع ؟!

وإنه ليرى سلتين كبيرتين مملوءتين من رُطب الأردن ، فيسأل : ما هذا .. ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين

ويعود يسأل : وعلامَ جيء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد

فيهز رأسه ، ويقول :

« لقد حملتموه فوق طاقتها .. فبيعوا الرطب ، واشتروا بثمنه علفاً لدواب البريد التي حملته .. »

* * *

ويبهرنا لينه ، وأناته ، وسعة صدره التي لم تعرف حدوداً .

وفي تبعاً لهذه العصبية لديه، نجدها تنبع من رحمته العميقة الأصلية .. هذه الرحمة الذكية التي لم تكن تعني مجرّد الشفقة بالناس، بل تعني التقدم بحقهم في بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم، وعلى هواجس النفس، ونقاط الضعف

ولنستمع هذا النص المحبوب لنستشف من خلال دعواته التي كان يضرع بها إلى الله كثيراً :

« اللهم رُدّ محسن أمة محمد على مسيئهم، وارجع مسيئهم إلى التوبة، وحُطّ عنهم أوزارهم برحمتك » !!

إنه لا يتحسس الأخطاء، ليعاقب عليها، بل ليعالجها في رحمة وحنان

ورب أخطاء الناس الشخصية التي لا تتعدى الذي ارتكبها، حيث لا ينظر إليها كجرائم، بل كمآثم، يصلّي من أجل مقترفيها ويتغاضى دونها !!

وهو لا يستبقي أناته وحلمه وسعة صدره وسماحته .. حتى يظل ذلك كخلق شخصي له فحسب، بل يحوّلها إلى فلسفة للحكم ومنهج

ولطالما كان يوصي كل والٍ من ولاته بهذه الوصية

« إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلا تكوينه أبداً !! »

ولقد كان من حق حكام الأقاليم قبل عهده أن ينفذوا أحكام القتل فيمن يشاءون عدلاً، أو ظلماً ..

فلمّا ولي، حرمهم هذا الحق، وأصدر أمره ألا ينفّذ حكم القتل في أحد، حتى يطّلع بنفسه على قضيته، ويرى فيها رأيه ..

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً

« والله لا أصلح الناس بهلاك ديني » !!

* * *

على أن رفقه وأناته اللذين وسعا الأمة جميعاً، لم يكونا مطمعاً تغري باستضعافه أو مخادعته، فقد كان هناك الحزم الذي يكفي من تسوّل له نفسه عبثاً، أو فتنة !!

ولقد كانت قدرته كلها مُهيأةً على الدوام لحماية مواقفه، وأداء دوره

فلا يجيء موقف يتطلب الرحمة، فيجده غائباً، ولا موقف يتطلب الحزم، فيجده كسلانَ !

ولقد نراه مع عامة الناس ينتفض كالعصفور تواضعاً وحناناً ورحمة

ثم نراه مع الجبارين أسداً يزأر .. وجبلاً يُهاب . !!

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد إقطاعاتهم وثرواتهم بالضراعة والحيلة أغروا واحداً منهم وهو عمر بن الوليد بن عبد الملك ـ بالكتابة إليه مهدداً متوعداً . فكتب يقول

« أما بعد ، لقد أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعمدت بغير الحقّ في قرابتك ، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً .

فاتق الله يا ابن عبد العزيز ، فإنك أوشكت ألا تطمئن على منبرك » !!

وفي اللحظة التي يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المسموم بلسعه ونهشه ، يتقدم خلق الحرم الصارم ليؤدي دوره تجاه الطيش الذي يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبهائه !!

ويكتب أمير المؤمنين رده

« من عمر أمير المؤمنين ، إلى ابن الوليد .

سلام على من اتّبع الهدى

أما بعد ، فقد بلغني أنك كتبت حين تمتَّ ، والآن تكتب إلي تنهمني بالظلم ، لأنني حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين ما هو حقّ للضعيف والمسكين وابن السبيل !!

ألا إن شئت أخبرتك بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله .. !!

إنه أبوك الوليد ، الذي حين كان خليفة للمسلمين استعملك عليهم صبياً سفيهاً تحكم في دمائهم وأموالهم .. !!

فويل لك ، وويل لأبيك ، ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة .. !

وأظلم مني وأترك لعهد الله ، من استعمل الحجاج بن يوسف ، يسفك الدم الحرام .

وأظلم مني وأترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب يجبي المال الحرام .. ويسفك الدم الحرام

لا رويداً يا ابن الوليد ، فلو طالت بي حياة لأفرغنّ لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجّة البيضاء .. !!! » .

ونصنع خطابه السابق إلى « قرونه السوداء » تجاه خطابه هذا إلى ذلك الأمير الأموي المنجرف ، نرى في غير تعليق كيف كانت تعمل فضائل هذا الإنسان الباهر الجليل .. !

إن الرجل الذي يجلس للناس على الأرض وهو خليفة ..

الإنسان الوديع ، العذب ، الحلو ، ينقلب عنصراً مدمدماً مدمراً أمام حروب الباطل التي يكون !!

ومثل هذا الموقف من الأمراء المتمردين موقفه من إمبراطور الروم

لقد أخبر أن أحد جنود الحبس الذي كان يحتضر ، عضضناه ، وكان رجلاً شديد البأس ، قد وقع أسيراً في أيدي الروم ، وحمل إلى الإمبراطور الذي حاول إكراهه على الخروج من دينه الإسلام ورفض الأسير فأمر الإمبراطور أن يسمل عينيه

بلغ النبأ أمير المؤمنين ، فهبّ حرمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم

« أما بعد ،

لقد بلغني ما صنعت بأسيرك فلان

وإني أقسم بالله، لئن لم ترسله إليّ من فورك لأبعثن إليك من الجند من يكون أولهم عندك وآخرهم عندي» .!!

ويعود الأسير إلى وطنه وأهله .!!

* * *

وهو ذو يقظة شاملة، لا تتجلّى في الإنجاز وحده بل في رؤيته للمصاعب، وإدراك الكليات والتفاصيل..

وإنا لنتتبع كتبه إلى ولاته لنجد فيها من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته ما يبهر الألباب.

فلنصغ لبعض فقرات من تلك الكتب

* اتّبعوا ما أحلّ الله وحرّموا ما حرّم، واعترفوا بحقه تعالى، واحكموا بما نزل

* افتحوا للمسلمين باب الهجرة..

* دعوا الناس يتّجروا بأموالهم في البر والبحر، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم

* اجعلوا أرض الحمى للمسلمين عامة، وليكن حق الأمير فيها كحقّ واحد منهم

* الخمر باب الخطايا، فحرّموا كل مسكر

* كافحوا التطفيف في المكيال والبَخْس في الميزان.

* لا تتّجروا وأنتم ولاة، فإن الأمير إذا اشتغل بالتجارة استأثر، وأصاب ظلماً، وإن حرص ألا يفعل..

* لا تأخذوا من أموال الناس إلا الحقّ الذي شرعه الله، وما عدا ذلك فضعوه كله.. لا فرق بين مسلم وأهل كتاب.

* ضعوا السُّخرة عن الناس، وليكن لكل عمل أجرة

* رُدّوا المزارع بما حبست به، فإنما حبست لأرزاق المسلمين كافة

* لا تتخذوا على أبوابكم حُجّاباً يمنعون ذوي الحاجات والمظلومين

* اقمعوا صوت العصبية والعنصرية ولا تدعوا الناس يقول أحدهم: أنا مُضَرِيّ، ويقول الآخر: أنا يمني، فالمؤمنون إخوة.

* الخيل عُدّة الجهاد، فلا تدعوها تركض في غير حقّ.

* امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن ناحبات وراء الموتى

* قاتلوا أهواءكم كما تقاتلون أعداءكم.

* تعهّدوا المخالفين، ويسّروهم، وارفقوا بهم، وعلّموهم، فإن اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن أبوا فتحرّوا الحقّ فيما تنزلون بهم من عقاب

* أكثروا من دعاء الله بالعافية لأنفسكم ولمن ولاكم الله أمره، فإن لكم في صلاحهم أكثر مما لهم، وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم

* تعهدوا حُجّابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم والعاملين معكم، وأكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشماً ولا ظلماً..

* لا تأخذنكم الزهو بنظر الناس إليكم، ولا بحديثهم عنكم، وضعوا أعينكم على الذي هو أبرُّ وأتقى، وأخلصوا لله رب العالمين..

* اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة، فإن من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع

* تحرَّوا الحق، ثم اعملوا به بالغاً ما بلغ بي وبكم، حتى ولو ذهبت بحياتنا وبمهج أنفسنا..!!

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن نفسه السامية المكبرة ومشاعره وإرادته التي يعطي الجزئيات الاهتمام نفسه الذي تعطيه الكليات !!

وبهذا المنهج الذي استمده من قداسته، وفطنته، وعزمه، مضى عمر بن عبد العزيز مسرعاً وثباً، متخذاً من الإنجاز وسرعة الحركة طابعاً لمسيرته المباركة

فقد كانت مسئوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس، ومشكلات الدولة والأمة لا تنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها، بل تنتظر من يواجهها بدقة وصدق وحسم، ففيم إذن يكون تريُّث أو انتظار .. ؟!

ومن هنا انطلق يُنجز، وينجز، وينجز، مُعطياً كل مسئولٍ مسئوليته، مريداً إياه أن يمضي بها في شجاعة وحكمة وأمانة

أجل، لقد كان ينهى ولاته عن أن يكونوا إمّعات، أو متواكلين هيّابين

وإنه ليرضى أعظم الرضا عن ولاته حين يراهم ينهضون بمسئولياتهم في شجاعة، متحرين إياها في حزم، ميمّمين وجوههم وأفئدتهم صوب الحق وحده، لا يعدلون به أحداً، حتى الخليفة نفسه:

« إذا أرسلتُ إليكم أمرا يخالف الحقّ

فاضربوا به الأرض،

واستمسكوا بالحقّ وحده» !!

وكان يعينهم على نهوضهم بمسئولياتهم فيمنحهم قدراً كبيراً من اللامركزية، والاستقلال.

أرسل يوماً إلى أحد ولاته أمراً، فأرسل الوالي يستوضحه بعض التفصيلات، فجبهه الخليفة وكتب إليه من فوره:

« أما بعد،

فأراك لو أرسلتُ إليك، أن اذبح شاة وَوَزِّعْ لحمها على الفقراء،

لأرسلتَ تسألني: ضأناً أم ماعزاً ؟

فإن أجبتك، أرسلت إليّ تسألني:

كبيرة، أم صغيرة؟

فإن أجبتك، أرسلت تسأل: بيضاء أم سوداء؟!

إذا أرسلت إليك بأمر، فتبيّن وجه الحقّ فيه، ثم امضه» !!

إنه لا يريد أن تتلكأ حقوق الناس وتتعثر في شكليات عقيمة .

إنه يجد نفسه مسئولاً عن كل خطأ ، أو مظلمة تمر دقيقة من الزمن .. ومن ثم فهو يقطع الأيام والليالي وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه ..!

ويمثل هذا الحسم والإنجاز ، كان يختبر كل وال ، أو قاض ، أو أمين ، أو رئيس شرطة ، أو مسئول ، لا تنتظر التجربة السريعة الصادقة به في مكانه .. وإذا خدع في أحد ظنه للمنصب أهلاً .. ثم تبين له أنه غير أهل ، لم يُنظره لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة

ولقد ملأت يقظته وإنجازه بلاد الدولة إعماراً وحياة ، وفجرت طاقات الناس تفجيراً

وعلى الرغم من أنه كان يرى القدوة التي يقدمها للناس جميعاً تفعل فيهم فعل السحر ، وتجري من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم في العروق ، فإنه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه .. فتراه ينتقل في مواطن كثيرة متخفياً ومتنكراً يسأل ، ويفحص

ولم تكن في الحياة بأسرها متعة تشيع في روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع أن ظلماً قد دحض .. وأن عدلاً قد نهض .. وأن حقاً قد ردَّ لصاحبه في غير جهد منه ، أو إلحاف !!

ركب يوماً في إحدى جولاته هذه ، مصطحباً معه مولاه "مُزاحم" ، حيث خرجا إلى مفترق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين ..

وهناك راح ـ وهو متنكر في ثيابه ـ يسأل الغادين منهم والرائحين .

ومن بين هؤلاء رجل في إحدى القوافل ، اقترب منه عمر ـ وسأله : كيف تركت الناس في بلدك .. ؟

فقال الرجل : إن شئت جمعت لك خبري ، وإن شئت بعَّضته تبعيضاً ..!!

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه .. أي : أوجزه

قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور .. والمظلوم منصور .. والغنيّ موفور .. والفقير مجبور »

وسارع ـ عمر ـ بالانصراف بعيداً عن مُحدثه حتى لا تشي به تهللاته ودموع الشكر التي راحت تتحدر من مآقيه .

وولّى مسرعاً ، مسرعاً ، وقلبه الشكور ولسانه الذكور يضرعان إلى الله بآيات الحمد والثناء .. والتفت إلى "مُزاحم" وقال له

« والله ، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ، لأحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس » .. !!

■ ■ ■

الرّحيـــل

« وإن قُلتُ : ما أنا على صُحبتكم بحريص .. »

ثقُلت الأعباء على الفتى .. كما ثقُل هو عليها .. فانهار تحت ضغط ورعه الصارم ، وعدله الحازم ..

لقد عقد عزمه على أن يحمل مسئولية الحكم بضمير "عمر بن الخطاب" في زمن مختلف جداً .. بل مُناقضٍ جداً لزمن "عمر بن الخطاب" .. !!

كان "ابن الخطاب" يحيا في امتداد عصر الوحي والنبوة ، ومعه أعوان كثيرون على الحق والعدل ..

أما "ابن عبد العزيز" ، فيحيا في مرحلة مُثقلة بالغصوص ، وسنوات الترف والانحلال والضياع .. وليس معه على الحق أعوان إلا قلة نادرة تاهت في الزحام .. !!

* * *

ولقد نجح فيما عقد عليه عزمه نجاحاً لا يُعرف له نظير .. بيد أن هذا النجاح الخارق تمّ على حساب كل ذرّة ، بل كان جُزيئه من ذرة في عافيته وحياته ..

وحين نستعرض "برنامج" يوم من أيام حياته .. لا يأخذنا العجب لقصر مدة خلافته وعمره ، بل يأخذنا العجب لأنه بكل هذا الجهد المميت ، استطاع جسمه أن يتحمل ويقاوم ويستمر في الحياة .. على هذه الصورة .. عامين وخمسة أشهر .. !!

إن الجهد الذي كان .. قبل الخلافة .. يحيا ، ويترعرع خلاله على أهنأ ما في الدنيا من غذاء ونعيم ، حُرِمَ فجأة .. لحظة استخلاف صاحبه .. لا من ذلك النعيم فحسب .. بل من المقومات الأساسية واللازمة لحفظ الحياة ، مجرّد الحياة ..

ثم هو مع هذا ، لا يبذل جهد "منكفئ" مع فقه صحته ، وضمور جسده .. بل يبذل جهد رجل يرى نفسه مسئولاً مسئولية مباشرة وكاملة عن كل فرد من مواطني دولته العريضة المترامية ..

ثم هو لا يعيش بمشكلات صاحبه للأمة والدولة فحسب ، بل يعيش في استغراق رهيب مشكلته مع نفسه .. ومع الموت .. ومع المصير غداً بين يدي العليّ الكبير .. !!

فهو .. كما قال واصفوه .. يرتجف ويبكي ، وكأن النار لم تخلق إلا له .. !!

يرحمك الله أبا حفص .. !!

من أيّ شيء تخاف .. ؟

ولمن جنات الله ، وخلده .. ؟

ولمن رضوانه ومجده .. إذا لم تذهب أنت منه بالنصيب الأوفى .. ؟

لكنها ـ يا بن عبد العزيز ـ خشية الذين يقدرون الله حق قدره
أجل . فما كان لمذنب ذنب يخافه ، ولا تفريط يحاذره
إنما هو جلال الله ، تجلى له في روعه وقلبه ، فجعلته ذكراه وخر منه صعقا !

* * *

لقد عاش فترة خلافته ـ تسعة وعشرين شهراً .. وكأنها تسعة وعشرون قرناً .. !!
وفي كل لحظة ، كانت روحه وأعصابه وعافيته تعطي جهد عظيم
إن التغيير الهائل الذي أراده للدولة وللأمة ، كان يتطلب لو صارت ريحه رخاءً جيلاً
أو جيلين ، فلم يلق إلا لمامة في الأيام الباقية له على الأرض ، وبين الناس
وأي تغيير كان ؟ ..
إنه تغيير لا يتطلب خليفة واحداً ، بل عشرات من الخلفاء ، يحمل كل منهم روح رسول !
إنه يريد أن ينقل ، إلى دنيا الترف والفساد والردة ، عصر الوحي والنبوة .. ثم هو لا
يريد أن ينقله إلى نظام الدولة والمجتمع فحسب .. بل إلى أفئدة الناس ، وضمائرهم ،
وسلوكهم .. !!

* * *

من هذه الصورة السريعة ، نلمح الأعباء الجسيمة المهلكة التي حملتها روحه وجسده
في تفان رهباني ، واستبسال عظيم .
إن بعضاً منها يكفي لتصديع الجبال .
فكيف بها مجتمعة ؟
ثم كيف بها إذا اخترقت طريقها الأرزاء .. ؟
أجل ، فقد فجع العملاق العظيم مرة في قريبه ، إذ فقد أحب الناس إليه ،
وأخلصهم عليه ، وأوفاهم له ، وأبرهم به
* أخوه سهل
* وابنه عبد الملك
* ومولاه مزاحم .
رحلوا عنه تباعاً وتركوا مكانهم خواءً شاغراً .. لا من الذكرى التي تثير الألم والشجى !!
إنه لم يفقد فيهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ الأخ ، والابن ، والرفيق .. بل فقد فيهم أعوانه
على الحق ، والنماذج الصحيحة لفضائل عصر الوحي الذي يعشقه حباً وإجلالاً
ولقد راح يحس أن ذهابهم إنذار يقرب ذهابه .. وأن رحيلهم أذان يقرب رحيله
أفلا يهدأ إذن ويستريح ؟؟
لا ، بل راح يضاعف الجهد ، ليبحر العمل قبل أن يرفع مرساته ويبحر .. !!
راح يقول على ما عهد البشر من طاقة وقدرة ، وقد تملكته رغبة في استشهاد نبيل ..

ثم بعد، يؤرّقه ولا يهمه سوى أن يجيء حتفه، ويده المعوّقة الأمينة ممسكة براية الله عزيزة طاهرة، يقول لربه حين يلقاه:

«ربِّ، هذه رايتك لم أسلمها..

ووديعتك، لم أخنها!!..»

* * *

وبينما هو في عبادته، وعظمة جهاده وبلائه، كانت هناك مؤامرة تُحاك، وجريمة تدبَّر

فمنذ قرابة الشهور التسعة والعشرين على مجيئه كأنها حلم سعيد

كانت كل دقيقة منها كابوساً جاثماً مرهقاً للأمراء والسادة، وذوي الامتيازات القديمة

التي داسها القادم في موكب الحق، ذي قادة أبو الشعب، وأمير المؤمنين!!

هنالك ائتمروا به

وكما تحدثت بعض كتب التاريخ، دسّوا له السم في الطعام.

على أن قوة روحه لم تخذله قط، وراح يدير أنفاسه في الحزم ما يستطيع إنجازه، ويقول

إن لله شرائع وسنناً، إن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها

وإن أمت، فما أنا على صحبتكم بحريص».!

أجل، إنه لا يربطه بالحياة الدنيا إلا رسالته التي حملها في عنفوان ونُبل وأعطاها حياته في إخلاص وتبتُّل..!!

لكن الآخرة سرعان ما ترسل إرهاصها وبشائرها في صورة شوق عارم يأخذ إلى الله قلبه وروحه

لقد تأججت أشواقه إلى لقاء الله، وبرزت في قرب هذا اللقاء كل أمنياته وضراعاته، وصار دعاؤه المفضل:

«اللهم اقبضني إليك غير مضيّع ولا مفرّط».

بل إنه ليرسل في طلب "عبد الله بن أبي زكريا"، وكان شيخاً عابداً صالحاً، معروفاً بأنه مستجاب الدعاء.

وحين يأتيه يسأله في إلحاح أن يدعو الله له كي يعجّل بلقائه..!!

إلى هذا المدى راحت أشواقه تدفع زورق حياته إلى المرفأ السعيد

وما أن اشترى له قطعة أرض بدير سمعان، لتكون لجسده مثوى وقبراً

وإذ كان يأمر بشرائها، قال له بعض أصفيائه:

«لو ذهبت إلى المدينة، فإن أدركك الموت بها دفنت مع رسول الله وصاحبيه»

فإذا هو ينتفض كالطلمة المصوفة، ويقول

«والله لأن يعذبني الله بكل عذاب دون النار، فإني لا صبر لي عليها، لأحبُّ إليّ من أن أرى نفسي لهذا المقام أهلاً»!!

* * *

واشتد به المرض ..

وتحولت الملايين من أبناء أمته إلى أطباء، يوشك اليتم أن يحيق بهم حين يفقدون أباهم

الجياع الذين شبعوا ..

والعراة الذين اكتسوا

والخائفون الذين أمنوا ..

والمستضعفون الذين سادوا ..

واليتامى الذين وجدوا فيه أباهم ..

والأيامى اللاتي وجدن فيه عائلهن وأخاهن

والضائعون الذين وجدوا فيه ملاذهم .

والتائهون الذين وجدوا فيه دليلهم

كل هؤلاء وأولئك .. كل الناس في شعبه وأمته سحقهم أنباء مرضه الداهم .

بل خرج نبؤه إلى الدنيا التي حوله، والتي كانت سيرته تموج فيها كالعبير، بولاء الحرج والدموع ..

حتى إمبراطور الروم، العدو اللدود لدولة العرب والإسلام، يرسل كبراء أساقفته، وكل بالطب خبير، ويرجوه أن يصنع المستحيل لإنقاذ حياة الرجل الطيب، والخليفة العادل، والقديس الجليل

لكن القديس الجليل رفض كل علاج وكل طب وكل دواء، وراح مع أشواقه، ينتظران لحظة اللقاء ..!!

* * *

ها هو ذا، راقد في داره المتواضعة، فوق حصيره المعهود .. ويدخل عليه ابن عمه "مسلمة بن عبد الملك" فيقول له

« يا أمير المؤمنين ألا توصي لأولادك فإنهم كثيرون وقد أفقرتهم، ولم تترك لهم شيئاً » ؟!

ويجيبه عمر: وهل أملك شيئاً أوصي لهم به ؟ أم تأمرني أن أعطيهم من مال المسلمين ؟ والله لا أعطيهم حق أحد

وهم بين حالين: إما أن يكونوا صالحين، فالله يتولاهم

وإما غير صالحين، فلا أدع لهم ما يستعينون به على معصية الله ؟ »

وأمره أن يدعو أولاده، فجاءوا مسرعين .. اثني عشر ولداً وبنتاً، شعثاً غبراً، قد رانت جسومَهم الشاحبة نضرةُ النعيم!

وجلسوا يحيطون به ، وراح يعانقهم بنظراته الحانية الآسية وتحسس بيمينه ثيابهم البالية ويغالب دموعه ، فعلته ، فواريها وراء كلمات النبي راح يودع بها أبناءه وأحباءه :

« بني .

« إن أباكم خُيِّرَ بين أمرين :

* أن تستغنوا ، ويدخل النار ..

* أو تفتقروا ، ويدخل الجنة ..

* فاختار الجنة

* وآثر أن يترككم لله الذي نزّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » !!

* * *

ثم برق بصره وسمع همسًا ، وصوت خفقته تحث الخطى في جسمه المحمومِ ، كأنما أبصر ضيوفًا أعزاء

ثم ابتسم لأبنائه ، ولأمهم العظيمة وروحه توفيه ، وأذن لهم بالانصراف

وبينما هم منصرفون عنه ، كان يحرك كفيه ويشير بهما ، شطره من تحيي صوت قادم !!

أجل .. لقد كانت بعثة شرف من الملائكة المقربين ، جاءت تصحب القديس إلى حفل تتويجه ، المعد له هناك .. في جنات الخلد وفردوس الله !!

وسمعه الذين وقفوا خارج حجرته يردد الآية الكريمة : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

وجاء مستشاره العظيم وصديقه الحميم رجاء بن حيوة يسعى ، وألقى بنفسه إلى جواره ، وهمس في سمعه

- كيف تجدك ، يا أمير المؤمنين .. ؟؟

لكن أمير المؤمنين يسترسل في تلاوة الآية الجليلة الكريمة

* * *

﴿ ... لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

* * *

وفجأة ... مال رأسه الذي طالما أتعبته همومه الأمة إلى الوراء

قليلًا ، ليستقر فوق وسادة ، حشوها ليف .. !!

وأغمضت عيناه ، اللتان لم تغمضا قط عن حق الله ولا عن حق الناس !!

وعاد المسافر إلى وطنه .. وآب إلى داره

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .. وحسن أولئك رفيقًا !!

■ ■ ■

كتب المؤلف

مراجع الكتب

وجاء أبو بكر

الكامل : للعلامة ابن الأثير .
الطبقات الكبرى : للعلامة ابن سعد
البداية والنهاية : ابن كثير
الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر .
السيرة النبوية : ابن هشام
تاريخ الخلفاء : السيوطي .
الأخبار الطوال : لأبي حنيفة الدينوري .
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : محمود شكري الألوسي

بين يدَيْ عمر

الكامل : للعلامة ابن الأثير .
الطبقات الكبرى : للعلامة ابن سعد
أخبار عمر : للأستاذين علي الطنطاوي، ناجي الطنطاوي .

وداعاً عثمان

البداية والنهاية : ابن كثير
الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر .
السيرة النبوية : ابن هشام
أسد الغابة : ابن الأثير
الطبقات الكبرى : ابن سعد
الرياض النضرة : المحب الطبري
حلية الأولياء : أبو نعيم الأصبهاني
تاريخ الخلفاء : السيوطي .
الأخبار الطوال : الدينوري

في رحاب علي

البداية والنهاية : ابن كثير .
الإصابة ، في تمييز الصحابة : ابن حجر
السيرة النبوية : ابن هشام
أسد الغابة [الجزء الرابع] : ابن الأثير .
الطبقات الكبرى : ابن سعد
الرياض النضرة : لأبي جعفر الطبري
الأخبار الطوال : لأبي حنيفة الدينوري .
شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني [الجزء الأول] : الزرقاني والقسطلاني
وقعة صفين : نصر بن مزاحم
فضائل الإمام علي : محمد جواد مغنية

معجزة الإسلام
عمر بن عبد العزيز

سيرة "عمر بن عبد العزيز" : ابن عبد الحكم
حلية الأولياء : أبو نعيم الأصفهاني
تاريخ الطبري [الجزء السادس] : ابن جرير الطبري
البداية والنهاية [الجزء التاسع] : ابن كثير
الأخبار الطوال : أبو حنيفة الدينوري
الأيام الأخيرة للدولة الأموية : عمر أبو النصر .
الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني
عيون الأخبار : ابن قتيبة
ديوان جرير

فهرس المحتويات



الفهرس

في رحاب عليٌّ

معجزة الإسلام

عمر بن عبد العزيز

رقم الإيداع ٩٤/٨٣٧٩